

# ديوجين

## مَصْبَاحُ الْفِكْرِ



مجلة دولية لعلوم الإنسان

يصدرها المجلس الدولي للفلسفة والعلوم الإنسانية

بمعاونة منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة

وتصدر النسخة العربية

بإشراف وزارة التعليم العالي - الشعبة القومية لليونسكو

مركز تبادل القيم الثقافية بالقاهرة

## المجلس الدولي للفلسفة والعلوم الانسانية

الهيئات العلمية للنضمة إليه :

- \* الاتحاد الدولي للجامع العلمية .
- \* » » للجمعيات الفلسفية .
- \* اللجنة الدولية للعلوم التاريخية .
- \* » » الدائرة لعلماء اللغة .
- \* الاتحاد الدولي لجمعيات الدراسات الكلاميكية .
- \* » » لعلوم النوع الإنساني والسلالات البشرية .
- \* اللجنة الدولية لتاريخ الفن .
- \* الجمعية الدولية لدراسة تاريخ الأديان .
- \* الاتحاد الدولي للأدب واللغات الحديثة .
- \* » » للمستشرقين .
- \* الجمعية الدولية لعلم الموسيقى .
- \* الاتحاد الدولي لعلوم ما قبل التاريخ والتاريخ القديم .
- \* المؤتمر الدولي للشغلين بالدراسات الأفريقية .

## لجنة تحرير ديوجين

\* د . د . و . ديوجين ( المملكة المتحدة )

\* ا . كازو ( الكيك )

\* داي ( الهند )

\* ج . فرى ( البرازيل )

\* ف . جريلى ( إيطاليا )

\* م . هوركيمر ( ألمانيا )

\* ر . ب . مكيون ( الولايات المتحدة )

\* رئيس التحرير : روجيه كايوا

\* سكرتير التحرير : جان دورمسون

## النسخة العربية

مدير عام العلاقات الثقافية  
بوزارة التعليم العالي

\* رئيس التحرير : مصطفى حبيب

تصدر مجلة ديوجين في أربعة أعداد في السنة بخمس لغات  
ثمان المئدة من النسخة العربية ١٠ قروش

الناشر

سجل العرب

## محتويات العدد

### الاستاتيكا والديناميكا

#### كمقولات اجتماعية

صفحة

١

بقلم : ثيودور و. أدورنو — ترجمة : الدكتور السيد محمد بدوى

### اللعب والفن في القرن العشرين

٢٧

بقلم : أندريه شاستيل — ترجمة : الدكتور عبد الرحمن بدوى

### بوريس كوزنتسوف

#### اينشتاين ودستور فيسكى

٤١

ترجمة : الدكتور فؤاد زكريا

### من أجل تاريخ آسيوى لآسيا الحديثة

٦١

بقلم : جان شزنو — ترجمة : عبد العزيز عبد الحق

### اتجاه التغير الاجتماعى — افتراض

٨٧

بقلم : إندرا ديتا — ترجمة : دكتور أحمد حمدى محمود

### هنريش ن. فولكوف

#### المجتمع في العصر التقنى

١١١

ترجمة : لويس اسكندر

### أندريه بوفر

#### تعول الاستراتيجية

١٢٧

ترجمة : محمد على أبو ددة

### برنار لاسودرى — دوشين

#### النمو الاقتصادى وثمنه

١٤٣

ترجمة : أنور الحناوي



# الاستاتيكا والديناميكا

## كمقولات اجتماعية

يقلم ثيودور و. أدورنو (١)

ترجمة

الدكتور السيد محمد بدوي

في حلقة علم الاجتماع المتقدمة بامستردام عام ١٩٥٥ ثار النقاش من جديد حول العلاقات بين الاستاتيكا والديناميكا الاجتماعية ، وسنحت الفرصة لهذا النقاش بسبب ملاحظة لا يمكن تفهها . فمن ناحية تظهر ظواهر ديناميكية على درجة كبيرة من العنف كالتغيرات في البناء الاجتماعي على نحو ما حدث في المنطقة السوفيتية ، والاتجاه نحو الأسلوب الحديث في الحضارة الذي أخذ به الشرق ، وأخذت به جميع المناطق التي أطلق عليها بحق اسم المجتمعات النامية ، وأخيراً عدم الاستقرار البنائي للمفاهيم الاجتماعية الأساسية ك مفهوم الفرد ، والأسرة ، والطبقة ، والتنظيم ، والإدارة — في البلاد ذات النظام الليبرالي ، وذلك بالرغم من احتفاظها بنظمها بصورة عامة .

---

(١) كاتب هذا المقال Theodor W. Adorno . ولد في فرانكفورت في عام ١٩٠٣ . ودرس الفلسفة ، وعلم الموسيقى وعلم النفس ، وعلم الاجتماع . وحصل على دكتوراه الفولة في عام ١٩٣١ برسالة عن « كيركجارد » ثم أصبح من المتخصصين في الكتابة عن نظريات الموسيقى الحديثة . ثم كان له بعد ذلك اهتمام وثيق الصلة بنشاط « معهد البحوث الاجتماعية » بفرانكفورت .

وهاجر إلى الولايات المتحدة من عام ١٩٣٤ إلى عام ١٩٤٩ حيث استمر مع زميله ماكس هوركهايمر في الاهتمام بنشاط معهد البحوث الاجتماعية الذي اتخذ نيويورك مقراً له أثناء حكم النازي في ألمانيا .

وهو الآن يشغل منصب أستاذ الفلسفة وعلم الاجتماع في جامعة «جوت» ومدير معهد البحوث الاجتماعية في فرانكفورت . ومن أهم مؤلفاته « كيركجارد — تكوين علم الجمال ١٩٣٣ — فلسفة الموسيقى الحديثة ١٩٤٩ — مظهر الفلسفة الهيكلية ١٩٥٧ — ملاحظات على الأدب ١٩٥٨ . ( المترجم ) .

ومن ناحية أخرى ، يبدو في أما كن كثيرة من العالم أن المجتمع يتجه نحو ما سماه « فبلن Veblen » ، منذ أكثر من خمسين سنة ، « بالإقطاع الجديد » ، أو حالة الثبات والركود . وغدا تصنع البلاد الخارجة عن منطقة النفوذ الرأسمالي يضع حدوداً لا تعداها عملية استثمار رؤوس الأموال ، وبالتالي يضع حدوداً للتوسع في ذلك النظام الاقتصادي وفق ما تقتضيه طبيعته ذاتها . ومعنى ذلك أن يعود النظام الرأسمالي إلى مجرد تكرار للنماذج القديمة .

وينمكس هذا الأمر بطبيعة الحال على الثقافة ، مما جعل المؤلف للموسيقى « اليغيه بيسان » يصرح منذ وقت قريب سواء عن خطأ أو صواب ، بأن النمو التاريخي للموسيقى قد وصل إلى حده الأقصى ، وبلغ القمة التي لا يمكن أن تتصور إمكان حدوث نمو آخر بعدها .

ويبدو لنا أن أهمية الاختيار بين الاستاتيكا والديناميكا يجب أن تنتهي إلى سؤال عن معرفة ما الذي سيحدث في النهاية : هل سيستمر تيار التطور الذي ساد العالم منذ نهاية العصر الوسيط ، أو يتجمد هذا التيار ، على نحو ما تنبأ به « همار »<sup>(١)</sup> من استمرار « الرابع الثالث »<sup>(٢)</sup> . لفترة عشرة آلاف أو عشرين ألف سنة ، تكون بعدها « نهاية العصر الحديث » .

ولكن هذا الاختيار يتطلب التفكير حول المفاهيم التي يقوم عليها ، وإلا إنقلب إلى نوع من التأرجح العاطل ، أو الاعتماد على لعبة الحظ في تقرير مصير التاريخ العالمي .

---

(١) رئيس الجستايو ( أو إدارة الجاستوسية ) في عهد الحكم النازي ( المترجم ) .  
(٢) وهو الاسم الذي أطلق على ألمانيا وماضته إليها من أقاليم مجاورة أثناء حكم هتلر ( المترجم ) .

وقد كان أول برنامج لـلم الاجتماع ، بوصفه علماً مستقلاً تدعم كيانه النظم الاجتماعية ويهتم بالتنظيم ، والتصنيف ، هو ذلك الذى أعلنه « كونت » . وقرر هذا البرنامج كما نعرف وجوب التفرقة التامة بالنسبة لكل موضوع اجتماعى بين الدراسة الأساسية لشروط الوجود فى المجتمع ، وبين دراسة قوانين حركته للمسترة» (١) .

وعن هذه التفرقة يتفرع مبدأ تقسيم « الطبيعة الاجتماعية ... إلى علمين أساسيين يمكن أن نسميهما مثلاً الاستاتيكا الاجتماعية والديناميكا الاجتماعية » (٢) وبالنسبة للمجتمع « تمبر هذه الثنائية الطلية عن فكرة مزدوجة هى فكرة النظام « والتقدم » (٣) إذ إنه من الواضح أن الدراسة الاستاتيكية للسكان الاجتماعى يجب أن تتلازم فى أساسها مع النظرية الوضعية عن « النظام » وهذا النظام لا يمكن فى الواقع أن يتكون بالضرورة إلا من الانسجام التام والدائم بين مختلف شروط الوجود للمجتمعات الإنسانية ، وكذلك فإننا نرى بطريقة أكثر حية ، أن الدراسة الديناميكية للحياة الجمية للإنسانية تؤلف بالضرورة النظرية الوضعية عن التقدم الاجتماعى . وهذه النظرية حين تستبعد كل فكرة عقيمة عن إمكان الكمال المطلق والذى لا حد له يجب أن تقتصر بطبيعة الحال على مجرد معرفة عملية النمو الأساسية (٤) .

ولاشك فى أن للملاحظة غير النقدية للمجتمع قد زودتنا حتى فى هذا القرن العشرين بنماذج استاتيكية « كالفلاحة » — وهى أحد نماذجها للفضة — وبناذج

---

(١) أوجست كونت : دروس فى الفلسفة الوضعية المجلد الرابع . الطبعة الخامسة باريس

١٨٩٣ . س ٢٥٤ .

(٢) المرجع نفسه س ٢٥٤ .

(٣) شعار الفلسفة الوضعية التى كتب على قبر كونت « الحب مبدؤنا ، والنظام غايدتنا ،

( المترجم ) .

بالتقدم غايتنا »

(٤) المرجع نفسه س ٢٥٥ — ٢٥٦ .

ديناميكية كالاقتصاد الرأسمالي الذي تفرض طبيعته ذاتها الانتشار والحركة . ويمكن أن نذكر كيواعث كاملة وراء هذا التميز التقليد السائد في الفلسفة الغربية دون أن تغفل السقراطية التي كانت تميز بين ما تمنحه « الطبيعة » وبين ما يمكن .

أن يمنحه « الإنسان » ، وعلى هذا الأساس فإن الظواهر الاجتماعية المنبعثة عن الحاجات الإنسانية الأساسية — وبحسب الاصطلاح الخاص المعاصر عن وجود الإنسان — يمكن وضعها في اللقولات الاستاتيكية ، كما أنها تخضع لقوانين استاتيكية . ومن جهة أخرى فإن أنواع التميز التي تطرأ عليها ، وجميع الأشكال الاجتماعية التي تعبر عن نماذج خاصة من التجمع يمكن وضعها في عداد الظواهر الديناميكية .

وتتضمن هذا التقسيم بالضرورة مبدأ معينا مؤداه : أن المبدأ كل الكبرى الرئيسية ذات الطابع العالي باقية على الزمن على حين أن التنوعات أو التغيرات الخاصة — وهي منطقياً أقل شأنًا — تخضع للتطور ، وتؤول العوامل الديناميكية تبعاً لهذا وبطريقة قبلية Apriori ، إلى مرتبة الموارض ، أو إلى مجرد تنوعات لللقولات الأساسية ، وذلك بدون أن تتساءل عما إذا كانت هذه اللقولات الأساسية ناتجة عن اختيار خاص قد يكون السبب في أبعاد كل مقاومة للنظرية الاجتماعية الخاصة بالأوضاع الثابتة .

على أن التحليل العلمي الواقعي لم يأبه بهذا الاعتراض ؛ إذ يكفي لديه أن نستملك بمعايير مثل الاستاتيكا والديناميكا لكي يكون لدينا بالفعل منهج لتصنيف أولى راسخ البنين للظواهر الاجتماعية . وبالنسبة للمجتمع الواقعي يعبر التميز بين الاستاتيكا والديناميكا إما عن حاجة للتصنيف ، وإما عن اتجاه فلسفي كامن . ولكن الظواهر في ذاتها لا تخضع مطلقاً لثل هذا التقسيم ، ولا تزال في العلم الحديث بعد أن خلاصه للمنهج التقليدي من الشوائب ، بعض بقايا الطريقة التقليدية أو الإسكولائية

التي استبعدتها من زمن بعيد نظرية العرفة . وهذه الطريقة كانت تضيف إلى الكائن الحقيقي تصورات عامة كتصور «الجوهر» و «العرض» و «الوجود» ، ومبدأ «التفرد» . وعلى هذا النحو كانت الوقائع الاجتماعية تتألف من عناصر استاتيكية ، وعناصر ديناميكية ، بغض النظر عما تتطلبه فكرة النظام التي تسمح بتكوين أجزائه للتكاملة . وهذه الأجزاء لا تسمح بفكرة الوجود في ذاته إذا لم تقترض حسب للذهب الوضعي ، وبطريقة قبلية ، مجتمعاً تام التكوين من حيث « النظام » و « التقدم » .

ونموذج مثالي « لقانون الاستاتيكي » وبدون اهتمام بمعرفة صلته بالواقع يمكن أن نصوغ هذه الصيغة « كل سيطرة اجتماعية تتألف من الاستحواذ على عمل الغير » ، وكقانون ديناميكي « هذه الصيغة » في النظام الاقطاعي تحقق السلطة عن طريق شروط المزارعة Fermage . فلنطبق هذين القانونين على الوقائع التجريبية فنلاحظ أن المزارع لا يجد نفسه بالتأكيده خاصاً لقانون عام هو « السيطرة الاجتماعية في عمومها » ولقانون خاص هو « سيطرة نظام المزارعة » الذي يضاف إلى القانون الأول كاختلاف نوعي ، فالمزارع لا يعرف أولاً السيطرة غير المحددة ، ثم لا يعرف بعد ذلك تنوعها التاريخي ، بل يعرف فقط سيطرة آراء الإقطاع حتى ولو كانت السيطرة عن طريق المزارعة تندمج — بحسب التصنيف السيولوجي — في فكرة أعم منها .

وليس ما تقوم به من تحليل مجرد حيلة فكرية من خيل نظرية العرفة ، فالسؤال في جوهرها هي معرفة ما إذا كنا نستطيع أن نميز القوانين الثابتة من القوانين المتغيرة ، وذلك لنستخرج من هذا التمييز نتائج عن طبيعة المجتمعات . وهذا التحليل قد يصبح غير مشروع إذا كان ما نزع أنه ثابت لا يظهر إلا في شكل متغير ، ولا يتحقق في ذاته كوحدة منفصلة؛ إذ أننا في هذه الحالة قد نشيد هيكل النظام محل النظام نفسه .

وهذا الاتجاه بكل ما يترتب عليه من نتائج يمتد إلى علم الاجتماع العلمى الحديث ،  
وإلى فكرة اللبائى الوسيطة : Principia media التى ابتدعها « مانهام »  
وظهرت حديثاً فى أمريكا . فهذه اللبائى تستخدم كوسائط بين القانون المفروض أنه  
عام وبين ما يتعارض معه مما يمكن أن يدخل تحت بند الظواهر الحام ، على حين أن  
تفاعل القوى فى المجتمع الحقيقى لا صلة له بتاتاً بهذه اللبائى الوسيطة .

ولا شك أن رأى الشائع الذى يفصل فى استخفاف الاستاتيكا عن الديناميكا  
فى المجتمع يدين بقوة إلى السذاجة التى ينقل بها تعريفاته الخاصة إلى الموضوع ذاته .  
فالتمييز بين الحاجات الطبيعية والثابتة ، وبين الحاجات التى أنشأها الإنسان — ومن  
ثم فهى تاريخياً متغيرة — هذا التمييز ليس إلا نوعاً من التجريد أو هو مجرد تاج  
للرغبة فى التصنيف . فهذه الحاجات لا يمكن أن تقسم بشكل قاطع ، لأن المجتمع ذاته  
لا يمكن أن يؤول إلى مجموعة محددة من الحاجات . وبما لا شك فيه أن هذه الحاجات  
تتخلل العملية الاجتماعية فى المحافظة على الذات عند الفرد ، وكذلك فى الشكل الاجتماعى  
للنظم ، ولكنها لا تفعل أكثر من عبور الكل . وما يحتاج إليه الإنسان أو مالا يحتاج  
إليه لكى يعيش لا يستمد من الطبيعة فقط ، بل يعتمد على شروط وقوى الإنتاج .  
وكل محاولة لإرجاع هذه الحاجات إلى الطبيعة وحدها تؤدي إلى الخطأ . وفى  
المجتمعات الحديثة بوجه خاص وكذلك بكل تأكيد فى كثير من المجتمعات القديمة  
لم تكن حاجة الناس بتاتاً هى التى تتحكم فى تنظيم حياتهم . فهذه الحاجة توضع خطوطها  
المرضية سلفاً ، أو تخلق بجميع تفاصيلها كما هو الحال فى عصرنا الذى يتميز بفائض  
الإنتاج . وإذا حاولنا أن نرجع قوانين المجتمع الرأسمالى إلى حاجات الإنسان ، ثم  
نقسمها حسب معيارها إلى قوانين استاتيكية وقوانين ديناميكية فعنى ذلك أننا  
نضع فى اللقاع الأول مسألة يحمرها الصالح الاقتصادى فى أذنيه ، وهى مسألة إشباع  
الحاجات . ويكون ذلك كما لو كنا نضع فى درجة واحدة من الأهمية اقتناء أسرة  
من شخصين لثلاث سيارات واهتمام حشد من البدائيين بجمع الثمار .

ولا يقتصر الأمر على أن ما يبدو للعقل البدائي استاتيكية قد يتحول غالباً إلى ديناميكية، بل إن الحاجات الأساسية كالتغذاء، والملبس، والسكن تتغير إلى درجة تجعلنا نتحول عن اللغرض منها، بعد أن كنا نعتبره خطأ شيئاً لا يتغير.

فالعملية الاجتماعية لا تقوم على المجتمع وحده ولا على الطبيعة وحدها، بل تقوم على علاقة الإنسان بالمجتمع وبالطبيعة، وعلى التبادل المستمر بين هذه الأطراف الثلاثة. والطبيعى بجميع مستوياته لا يمكن أن يفصل عن شكله الاجتماعى بدون أن يعدم واقع الحياة. وقد دفع النمو التكنولوجى الذى تم فى العشرات الأخيرة عدداً من المجتمعات إلى حركة ديناميكية، مع أن البعض ممن ينسبون تاريخهم الخاص، كانوا يعتبرون هذه المجتمعات حتى القرن التاسع عشر من مجتمعات ما قبل التاريخ وخاصة فيما يتعلق بآثار المجتمعات الزراعية وكذب هذا التطور التكنولوجى عقائد راسخة كنتلك التى كانت تزعم أن «ميكنة» الزراعة لا بد أن تقف عند حد بسبب تعارضها مع طبيعة الفلاح الأزلية التى خلقها الله على هذا النحو.

وهكذا نرى أنه كلما ازداد تعظيم فكرة « الطبيعة » بتقديم البحث العلمى ازداد انكماش تأكيد فكرة « الثبات » بحيث أصبحت آلات تأتية فى بعض الآراء التى تحاول أن تخرج بين الفلسفة والاثروبولوجيا، وتختصر نفسها فى الحقيقة الاجتماعية. وفى النهاية نجد أن مبدأ الظواهر الثابتة يبحث عما يبرره فى نوع من الانطولوجيا التى يعزو إليها بعض العلماء من ذوى التخصص المفرط أو الثقة العمياء حقيقة لا يمكن الدفاع عنها فى شكلها الفلسفى، وهى تتعارض تماماً مع ما يبدو بوضوح فى المجتمع. فتأثر الناس وخضوعهم لظواهر المجتمع المتغيرة أكثر وضوحاً من أن يكون المجتمع ناجماً من طبيعتهم ومصيرهم للقرر.

ولكى تفهم هذا الإصرار على تلك التركيبات التى نسميها بالقوانين الاستاتيكية يجب أن نصل إلى مصدرها الأسمى عند كوت؛ فهو يشتق هذه القسمة الثنائية بين

الاستاتيكا والديناميكا أولاً في « الحالات الثلاث »<sup>(١)</sup> ثم في قوانين المجتمع — من الحاجة العلمية ، فهو يقول « لتحقيق الغرض العلمى يجب قبل كل شيء أن يتد بطرقة مناسبة إلى مجموعة الظواهر الاجتماعية ، ذلك التمييز العلمى الذى اعتبره أساسياً والذى وضعت أساسه واستخدمته في جميع أجزاء هذا البحث ، وبصفة رئيسية في الفلسفة البيولوجية ، فهذا التمييز يمكن تطبيقه بحسب طبيعته على أى مجموعة من الظواهر ، وعلى الأخص على تلك التى تمثل أجساماً حية ؛ فنستطيع أن نختبر على حدة دون أن نفعل ما بينهما من ترابط كلا من الحالة الاستاتيكية ، والحالة الديناميكية لأى موضوع في الدراسات الوضعية »<sup>(٢)</sup> هذه الضرورة المطلقة التى يعبر عنها كونت بكلمة « يجب » قد نبتت عن مفهومه عن الشكل المرمى للعلوم الذى ينتهى بلم الاجتماع : فكل علم أعلى في المرتبة يجب أن يضع في اعتباره المبادئ التى حققها العلوم السابقة عليه . ومنذ عهد أوجست كونت أخذ المذهب الوضعى في محاولته لاحتلال مكان المذهب المثالى يفصل تلك الفكرة التى يمكن ردها إلى « لينتز » ونفى بها فكرة « العلم الموحد » الذى يمكن تحقيقها — على الرغم من اختلاف موضوعات العلوم — عن طريق وحدة المنهج . وقد أدى مبدأ كونت الوضعى إلى تقسيم العالم إلى ذرات من الظواهر لا تتبع عن تصورات ، بل تتحد كلها وفي تصور واحد بطريق الاختصار . ويجب أن نواجهه بسبب هذا التقسيم : وهو العلم نفسه ؛ فهو يريد أن يحل تنظيمه الموحد محل المجموع محل الكون Cosmos الذى يضم كل شيء معنوياً ، والذى أدى انحلاله الحتم إلى وجود الأشياء التى نسميها « الظواهر » وهذا يفسر لنا الإغراء الذى راوده فى أن يضيف على المادة الحام — كما لو كانت جزءاً من هيكله الخاص — أشكالاً تنظيمية ذات صلة بمادة

(١) أوجست كونت ، المرجع السابق ص ٢٥٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٥٣ — ٢٥٤ .



لم تتخذ بعد هيكلاً محدداً ، وأصبح ما كنا نفيه على تصنيف « لينيه » Linné لا يمكن مهاجمته في علم الاجتماع ؛ إذ بدأ التنظيم كما لو كان من طبيعة الأشياء ذاتها . ومع ما كان يفخر به كونه من ادعاء التخلص من الأحكام السابقة ، نجد أنه قد أبدى كل ما يكون طبيعة هذه الأشياء وكل ما يقاوم محاولة التأويل إلى ظواهر .

وفي وثيقة من الوثائق الأولى لرواد الفلسفة الوضعية مثل « دروس في الفلسفة الوضعية » لكونت ، نستطيع أن نلاحظ انتقال عدوى النظام العلمى والهيكل الموضوعى إلى النتائج للناظرة عن العلاقات مع المجتمع ، والتعديد التشريعى والفسيولوجى للكائن العضوى<sup>(١)</sup> . ونستطيع أن نحول للبيولوجيا الحق في التمييز بين عناصر بنائية تصل نوعياً « بالحياة » — ونقصد بالذات العناصر الفسيولوجية — وبين عناصر تشريعية لا تمثل نفس الحالة . ولكن علم الاجتماع حتى ولو فهمناه بطريقة اسمية صرفة لا يهتم إلا بالعلاقات الحية بين الناس وما يشتق عنها ، أى الأشكال الاجتماعية الثابتة . وهذه الأشكال يجب أن تلبث عن العلاقات الإنسانية ، دون أن نصل بها درجة التفصيل فى أشكال تشريعية » وعلى ذلك فإن الطبقة الاستاتيكية التى يطالب بها كونت ليس لها سند من الاستقلال الذاتى .

ولم يكن كونت من السذاجة بحيث يخفى أن « العلاقة بين « النظام » ، و « التقدم » أو « اللزج بينهما مزجاً داخلياً لا يمكن فصله ، هو الذى يشكل الصعوبة الأساسية فى كل نظام سياسى حقيقى »<sup>(٢)</sup> . ولكن فكره كان مقيداً بزعماته السياسية وبمنهجه الذى أراد له أن يكون منهج العلوم الطبيعية . فإدام نمو المجتمع البورجوازى كان يتجه حسب رأيه نحو الانحلال الفوضى ، فقد كان يميل إلى وضع « النظام » فوق « التقدم » ، والقوانين الاستاتيكية فوق

---

(١) المرجع السابق ص ٢٥٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٨ .

القوانين الديناميكية ، واكتفى بإعلان هذا التأكيد الموجبات « أن هذا الاعتبار »  
الهام ( أى العلاقة الكامنة بين النظام والتقدم ) يجب ألا يؤثر بأى حال فى الوضع  
الصحيح ، ولا فى الضرورة للبشارة التى اقتضت فصلنا فصلاً أساسياً بين الدراسة  
الإستاتيكية ، والدراسة الديناميكية للظواهر الاجتماعية »<sup>(١)</sup> . ويدوأن ا اكتفى  
بالإشارة إلى الاعتراض الذى قد يثيره تصنيفه هذا من حيث إنه يصبح مصدراً  
لتقسيم الدراسة الاجتماعية تقسيماً معيياً ، أو متخذة إلى علمين منفصلين »<sup>(٢)</sup> ، ثم  
أطرح هذا الاعتراض بطريقة لا جدال فيها .

ويمكن القول بأن التوحيد الذى أصبح مشهوراً بين مقولتى الإستاتيكا  
والديناميكا وفكرتى النظام والتقدم ليس من الوضوح بالقدر الكافى الذى  
يتناسب مع للقياس الكامن وراءه ، وهو السير وراء مفاهيم العلوم الطبيعية . وقد  
استتج كونت بمهارة من فكرته هذه أن ماهو جوهرى للمجتمع يجب قبلأ أن يكون  
بالمثل نافماً لبقائه . واستبعد من أول الأمر نماذج اجتماعية مثل الانحياز نحو الفقر  
أو مثل عدم مقدرة مجتمع زراعى كبير على مقاومة الزايد الضخم فى عدد السكان ؛  
لأن مثل هذه النماذج تتضمن انحلال وتخريب النظام الذى تمثله . ومن الواجب  
أن تكون أى فكرة متكيفة مع علوم الطبيعة قادرة على التعبير عن هذه الاختلالات ،  
وقادرة كذلك على التعبير عن عكسها ، وإلا فإنها تقتصر إلى أحد مبادئها الأساسية  
وهو مبدأ الكمال والاستيما .

ونستطيع أن نوافق كونت على ما أدخله من عنصر الحياة فى أشكال التجمع ،  
وما جعل له من صفة الصدارة بالنسبة لجميع العناصر الأخرى الاجتماعية بما فى ذلك  
الزروع نحو التحلل . ولكن لا ينبغي أن يترتب على هذا أن اتجاه التاريخ يتفق

---

(١) المرجع السابق ص ٢٥٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٥٤ .

بالضرورة وبطريقة مباشرة مع حفظ النوع ؛ فالمجتمع إذا نظر إليه ككل فإنه يولد قوى تهدد بقاءه بشكل واضح . وقد كان كونت نفسه أحد المفكرين الاجتماعيين الأوائل الذين أكدوا هذه الاتجاهات «التخريبية» ولكنه مع ذلك قد أغفلها عن قصد بالرغم من أنها كانت موضع اهتمامه من الناحية النظرية . ومن هنا كان هذا الصراع مع الواقع التي يمزو إليها كؤوس للفلسفة الوضعية التفوق على التصورات الذهنية .

وسلنا التفكير البسيط المنصب على المادة الاجتماعية : أن الحالات والتنظيمات الاستاتيكية تؤدي بحسب طبيعتها ذاتها إلى تلك الظواهر التي تتميز بالصلب ، وتهدد إلى إفساد النظام الثابت وخاصة في سياق مجموعة متحركة ، وذلك مثلما حدث قديماً في الإمبراطورية البيزنطية ثم في السيطرة التركية ، ولذلك كان من الواجب — على عكس ما فعل كونت حين حدد فعالية القانون الديناميكي بطريقة وضعية وتعسفية — أن نضع قانون الأزمات بين قوانين المجتمع ذي السوق الحرة ، والذي يكفي نفسه بنفسه ، أى بين القوانين الديناميكية ، وفي هذه الحالة يكون من الصعب أن نضع بطريق مباشر فكرة الأزمة تحت فكرة «التقدم» ، ومن هذا يتضح أن ولع كونت بالمذهب الأميريقي وعلوم التاريخ الطبيعي الذي حال بينه وبين التفكير في مثل هذه التناقضات لم يكن من الأمور المستحبة ؛ فهو يستخدم مصطلحات يعتقد أنها سليمة من الوجهة العلمية بدون أن يحتسب مدى انطباقها على محتواها النوعي في علم الاجتماع ، وبذلك أصبحت مؤلفاته نذيراً بالانقسام الحتمي بين منهج علوم التاريخ الطبيعي الذي طبق بنجاح ، وبين الامتداد اللاواعي لهذا المنهج إلى مجال الفلسفة ، وهو ما تميزت به الفترات اللاحقة طي الوضعية . وانغذت فكرة كونت شكلاً مجسماً ، وذلك حين ادعت أن تجعل من أشكال الفكر مقولات عليا تشبه تلك التي تستخدمها العلوم النوعية بالنسبة للموضوعات التي لا ترى فيها أى مشكلة.

لا من ناحية التكوين ولا من ناحية علاقتها بالذات المفكرة : ومعنى ذلك الخلط بين وسائل العلم الميسرة وبين الفلسفة ، وهذا هو السبب الخفى الذى جعل كونت يجمع الاستاتيكا على الديناميكا ليؤلف منها المجتمع كما لو كانت طبيعة المجتمع تتوقف عليهما مباشرة ، وذلك بدلا من أن يختبر وحدتهما مع اختلافهما فى المجتمع الحقيقى .

وإذا كان هذا التعصب للطريقة العلمية وهو كونت قد غفل عن التناقضات المنهجية فى نظريته ، وعدم إمكان تطبيقها على الوقائع ، فإن ذلك لا يمكن تفسيره بكل بساطة بالتعامى عن العلم بسبب التعصب . فالحقيقة أن أخطاءه فى التفكير تحددها الغاية التى يريد أن ينتهى إليها ، فكل الوسائل التى تستند لأغراض العناية إلى « وقار التحليل الفلسفى الذى لا ينتقض »<sup>(١)</sup> وتدعى التأسيس على « أسس عقلية لا تزعزع »<sup>(٢)</sup> ليست فى الحقيقة إلا وسائل لخدمة كونت . فلاجل أن يبعد نفسه عن شبهة التفتين العقل خارج الحقيقة ، ولأجل أن يتوأسى بنفسه أمام السلطات المعنية كرجل يهتم بالأمر العملية أكد هذا الاتجاه نفسه . وكان يهدف إلى حل المشكلة الاجتماعية التى نجمت عن الثورة الصناعية بفضل علم يسمو على أنواع النزاع الطبقي لأنه علم « وصى » ، أو كان يهدف على الأقل إلى إثبات تخصصه فى حل تلك المشكلة .

ويمكن تشبيه وظيفة هذا العلم للتسامى عند كونت بوظيفة الدولة عند « هيجل »<sup>(٣)</sup> وأعتقد فى النهاية أنه قد يكون من تحصيل الحاصل أنؤكد هنا بسبب وضوحها الشديد ، تلك الخاصية التلقائية التى يبرزها مباشرة ذلك المبدأ الفلسفى الأول عن علم الاجتماع الوصى ، وهى الخاصية التى تسمح له بأن يربط من الآن فصاعدا برباط لا ينقسم — كما أوضحت فى بداية هذا المجلد الفكرتين الأساسيتين بدرجة

(١) المرجع السابق ص ٢٥٤

(٢) المرجع نفسه ص ٢٥٦ .

(٣) C. F. Hegel : Grundlinien der Philosophie des Rechts ( ٢ )  
Lasson, Leipzig 1921, P. 189 ( §§245-246 )

متساوية ، وأعني بهما فكرة « النظام » وفكرة « التقدم » اللتين اقتضتا في  
الدرس السادس والأربعين بأن التعارض للؤسف بينهما يشكل في الحقيقة العلاقة  
الأساسية التي تدل على الاضطراب العميق في المجتمعات الحديثة<sup>(١)</sup> . فكما أن هيجل  
ينتظر من الدولة أن تسوى الصراعات الاجتماعية ، وأن تسيطر على القوى التي  
تعدى حسب نظريته نطاق المجتمع البورجوازي<sup>(٢)</sup> ، فكذلك نجد أن كونت  
الذي لم يبلغ شأوه هيجل في نزعة المثالية المطلقة ، ولا في عقلانيته النقدية ينتظر من  
علم الاجتماع حل كل شيء ، على أن يكون هذا العلم كما تصوره علماً يحل الصراعات  
الاجتماعية إلى تصورات لا تعارض في ذاتها ولا فيما بينها ، وتكون فيه قوانين  
الاستاتيكا والديناميكا نموذجاً مثالياً لهذه التصورات . ويجب أن يهدم الفصل الثام  
بينهما إلى تساويهما في العلم ثم في العالم . ولم يتصور هيجل ولا كونت وجود  
مجتمع منقسم تقوده ديناميته ذاتها إلى شكل أعلى ، وبالتالي أحسن من الناحية  
الإنسانية . ويرغب كل منهما في أن يظل المجتمع حبيس نظمه الراهنة ؛ ولذا يحاول  
كونت إيجاد نوع من التوازن بين اللبداً الديناميكي واللبداً الاستاتيكي . وبذلك أظهر  
حرج موقف البورجوازية التي كانت قبل ذلك الوقت بشرين سنة مازالت ثورية  
وتقدمية بالقدر الذي يسمح بالتوسع الرأسمالي، وأصبح يتعين عليها أن تحسب حساب  
الكتل التي مسها الفقر ، وتدافع عن نفسها إزاءها ، وذلك بأن تظهر حسب الحاجة  
طوراً تقديمية وطوراً محافظة .

وهكذا نجد أن الاتجاهات النقدية في المذهب الوضعي تجتمع في آن واحد مع  
الاتجاه التأكيدي ، كما يكن خلف التنظيم النهجي الذي يتخذ السمة العلمية

(١) أوجست كونت المرجع السابق ص ٢٥٧-٢٥٨

(٢) هيجل : المرجع نفسه .

اتجاهاً نحو التبرير والدفاع عن بعض القضايا . ولأجل أن يظل الاحتفاظ بالأشياء المتعارضة في ذاته أمراً معقولاً يجب ألا تبدو التعارضات بهذه الصفة ، ولا أن توضع على حساب المجتمع . ولذلك فإذا كان الاهتمام الموجه نحو « التقدم » يتعارض في نتائجه مع الاهتمام الموجه نحو « النظام » ، فإن كونت بالرغم من ذلك يضع كلا منهما بجانب الآخر وتحول الفكرتان إلى مقولتين مستقلتين تكمل كل منهما الأخرى ، وتتصفاً بالحياد سياسياً . ويدو واضحاً أنه قبل أى تحليل للواقع الاجتماعى كان النظام الذى افترضه كونت للعلاقات الاجتماعية يهتم بقوة التوتر ، فيطمئن مثلاً البورجوازية من ناحية المآزق الذى يوقعها فيه التطور من جهة ، ورغبتها فى الاحتفاظ بوضع دائم من ناحية أخرى . وبذلك يتحول الاستقطاب الموضوعى إلى مشهد من مشاهد تصنيف الظواهر بدعى أنه أفضل من الظواهر .

ونستطيع أن نؤكد أن ما أبداه كونت من الحاجة العملية للفصل بين الاستاتيكا والديناميكا لا يبر إلا عن موقف أيديولوجى فى ذاته ؛ فهذه الأفكار التى لا تستمد وجودها من قيم حقيقية تخفى الاتجاه نحو جعل اللاعقل مبدأً لتصنيف لخدمة أغراض عملية . ونستطيع أن نستشف وراءها محاولات للاختيار تهدف إلى تحقيق الصلة بين الحيايد الاجتماعى الذى يدعى السمو فوق المنازعات التفعية وبين استخدام تلك الأفكار من أجل صالح الفئات المسيطرة . ونستطيع أن نؤكد كذلك أن تقنيات موضوع علم الاجتماع والتقليل من قيمة الكل الاجتماعى والبناء الاجتماعى وتقنيته إلى مجرد ظواهر متجاوزة يعين علينا تفررها ثم ملامتها مع هيكل التصنيف العلمى ثم تلك السطحية الواضحة والتصف بل والإهمال اللذان أدبا إلى تحويل الظواهر إلى تصورات — كل ذلك الغرض منه أن يسمح بتكوين نماذج فكرية تتصل بأهداف كامنة وبالأحرى لاشمورية . والحق دون مواربة أن وضعية العلم الاجتماعى كانت محافضة ، وذلك قبل أن تختار كنموذج دراسة الأسواق . ولذلك فقد كانت

النظرية النقدية للمجتمع على حذر دائم من هذه الوضعية، وعلى الرغم من محاولة إظهار نفسها في ثوب أكثر الحركات استنارة .

ولم يصبح مفهوم الاستاتيكا والديناميكا أيديولوجيا بسبب وظيفتهما ، بل بسبب انعدام المحتوى الحقيقي الذي كان كونه يطلب به لهما ، وكان هو نفسه يخشى من أن يكون مثل هذا التقسيم القاطع للعالم الاجتماعي يحمل في طياته عيباً رئيسياً يلائم جداً الاتجاه التشكيكي للعقول المعاصرة ، وذلك حين يؤدي إلى الإهمال المزدول لفكرة الترابط الضروري الذي يجب أن يظل دائماً بين وجهتي النظر الاستاتيكية والديناميكية<sup>(١)</sup> ، ومع ذلك فقد ظلت محاولات اللاحقة لتصبح هذه القسمة الثنائية والتوفيق بين هذين المفهومين دون جدوي ، وذلك لأنه من المستحيل تحقيق هذا التوفيق بعد إتمام عملية الفصل. فإذا كان علم الاجتماع يقودنا إلى التمييز بين الاستاتيكا والديناميكا فإنه هو نفسه الذي يجب أن يدرس بعمق العلاقات بين هذه العناصر ، وليس هناك ما يدعو إلى البحث عن وسيط لأنها بدافع ذاتي تحاول أن تتفق ؛ إذ يتضمن أحدها الآخر . ويمكن هنا الاستشهاد بمحاولة هيجل الميتافيزيقية التي أدت إلى القول بأن الصيرورة — وهي كل العملية الديالكتيكية — تتطوى في ذاتها كمعامل لها على فكرة الكائن وما سيكون كما كانت تقول بأن الكائن بدون صيرورة والصيرورة بدون كائن لا يمكن إدراكهما بالفكر — كانت هذه المحاولة مشبعة بالتجربة الاجتماعية ؛ فكل كائن اجتماعي كائن « صائر » ، أي له « طبيعة ثانية » ، وكل صيرورة تأتي من نقص ومن طبيعة ما هو كائن . والفرق بين مفهوم هيجل عن العلاقات بين الاستاتيكا والديناميكا ومفهوم كونه يمكن إدراكه عن طريق اللغة ذاتها ؛ فبينما جعل كونهت منهما مجالين منفصلين لعلم الاجتماع

---

(١) أوجست كونهت المرجع السابق ص ٢٥٤ — ٢٥٥ معارضة التحليل بسبب كونه تعسفاً فكرة مضادة لوجهة نظر المثاليين الذين سبق أن وجه إليهم بوتانرت اللوم بسبب نفسه .

وأبطال حركة الديناميكا بالقوة بربطها بشكل واحد من أشكال الارتباط ، نجد أن هيجل قد وسع على العكس مجال الديناميكا حتى جعلها تشمل التراكيب المنطقية والنماذج الثابتة ؛ فنجد أن المنطق الكبير الذى يتخذ كضمون جوهرى قد للنطق التنبئى ، يستخدم بدون توقف صيغاً تنبئية . ونادراً ما نجد فلسفة تعدل فلسفة هيجل فى تلحقها بأدوات الربط؛ ففي كل جملة تقريباً يستخدم فعل الكينونة الذى تكون وظيفته عارية القدرة الحادثة أو الزعم بأن الشيء يكون فى مجموعه فم نطنه عنه . ويعنى الإلحاح وحده على الوصف البسيط أو على الاستاتيكا كحالة واقعة إظهار عدم كفايتها ، وذلك ببيان أن كل كينونة تنطوى على عدم الكينونة ، أو كما فى لغة هيجل - اللاهوية متضمنة فى الهوية . وكما أن أى مادة استاتيكية بحسب تعريف أوصافها كقطرة للاء مثلا ، تنفذ حركة دائبة وعالماً ذاخراً تحت الميكروسكوب ، فكذلك التعريف الثابت — بأن الشيء هو كذا وليس كذا — يصبح ديناميكياً عن طريق الوصف الدقيق لملاقاته الاجتماعية ، وبالتياس على الكينونة التى يستخدمها كل منطق غير تأملى ونظرى فإن حالة ما هو كائن تكشف عن حالة صيرورة ، وذلك حسب اتجاه التعريفات الأولية للمنطق الديالكتيكي .

ويجب ألا يكون علم الاجتماع متخلفاً عن هذا الوضع . فالحالة القائمة فى المجتمع وما حاولته الليتافيزيما التقليدية من تمييز لكيانه « هو على وجه الدقة ما يدفع به إلى الأمام ، إما نحو الأحسن وإما نحو الأسوأ . وطبيعته الخاصة فى أن يكون على هذا النحو وليس على ذلك لا تتعارض مع التصور الخاص للفلسفة بحسب بل وأيضاً مع الصالح الفردية التى تستخلص من تلك الطبيعة . فالسلطة ، والرفض ، والتسليم ، وهى الظواهر التى اصطلح على أنها ثابتة فى المجتمع حسب مقولات كونت ، والنظام فى عدم مطابقته للشخص الحية ، وكل ما استقر الرأى على أنه خالد ولا يتبدل — كل هذا إنما يعبر فى الحقيقة عن طبيعة المجتمع الديناميكية ، وفكرة إعادة التوفيق.



بين مقولات كوفت في إطار حالة اجتماعية حقيقية لا يكتب لها النجاح لأنها تتعارض مع فكرة « النظام » — وهو مجموعة القوانين للقيدة — بقدر ما تتعارض مع « التقدم » وهو حسب تيمير « كافكا » لم يحدث في المجتمع الحقيقي بعد ، بل إنه كامن في النظام الاجتماعي ويعبر في الوقت نفسه عن تقيضه أو عن نكوص دائم لفكرة النظام .

وإذا نحن قبلنا التمييز المقترح من « ماكس فير » ، وعلماء الاجتماع الألمان ذوى النزعة الشابة ، وعلى الأخص « زمبارت » وهو الذى يفرق بين النموذج التقليدى والنموذج العقلى للمجتمع ، فيشذرنف للمقولة بأنها الزوع نحو تغيير الأشكال الاجتماعية التقليدية وحذف ما تسميه للدارس الفلسفية « بالضرورة التاريخية » ، على أنها عامل مضاعف للصراع . وفي مواجهة التاريخ تصبح المقولة نفسها قوة تاريخية ، وهذا ما يبر عنه بقوة مصطلح « التقدم » . ولكن من ناحية أخرى ينتمى إلى العقل Ratio في شكله للوضوعى شئ من طابع ما قبل التاريخ ومن الاستاتيكية ، وهذا هو جانب الحقيقة في تلك النظرية التى كانت تعلن أن حركة التنوير في القرن الثامن عشر كانت ذات طبيعة ما قبل تاريخية ، وهذا العنصر ما قبل التاريخى لا ينتمى فقط إلى تاريخ الفكر الذى استطاع فيما بعد أن يسد هذا النقص للزعموم بالنسبة لعالم التنوير ، وذلك باستعادة المعطيات التاريخية التى لم تكن منذ عهد « فيكو » و « منتسكيو » غريبة على التنوير ، بل إن الأمر أعمق من ذلك ؛ فيحسب صيغة هنرى فورد « التاريخ لوحة مطبوعة » تفقد للمقولة أكثر فأكثر ما كانت تتمتع به من قوة الدأكرة قديماً . وهذه النزعة تسود أيضاً ألمانيا بحماس منذ وقت قليل ، ولكن الصورة للفرعة لإنسانية بدون ذاكرة ليست فقط مجرد نتيجة للتدهور ، ولا رد الفعل الدأق لهؤلاء الذين يقعون فريسة لمؤثرات سحرية — على حد قول البعض — ثم يفقدون السيطرة عليها ، فالطابع ما قبل التاريخى للضمير حين يعلن حالة استاتيكية للحقيقة لابد أن يكون متصلاً بالضرورة

بالفعل ، وبتقدمة للبدا البورجوازي ، وبديناميته الخاصة . ومبدأ التبادل العالمي والمعادلة هو الذى يستبعد من الحساب كل يواقي ، ولكن كل عنصر تاريخي يتحول إلى باقى أو راسب . والتبادل بوصفه استبدال فعل بآخر إنما هو مبدأ لازمي حتى ولو تم في نطاق الزمن . وكذلك فإن العقل في شكله الخالص يلغى زمن العمليات الرياضية ، وبذلك يحذف الزمن الحسي من الإنتاج الصناعي . وفي الواقع نجد أنه يعضى أكثر فأكثر في شكل دورات متشابهة ومتقطعة ومتساوية من حيث القوة . وسوف يؤدي التعارض بين الاتجاه التقليدي للجماعات الإقطاعية والاتجاه العقلي للجماعات البورجوازية أساساً — سوف يؤدي هذا التعارض في النهاية إلى حذف أو تلاشي غلطات لا عقلانية . كما أن من نتائج التقدم المستمر في إخضاع وسائل الإنتاج الصناعي لنماذج مقننة أن أخذت تلاشي مفاهيم كمنهوم التدريب على يد صانع حافى أو ( أسطى ) كما كان الحال في نظام الحرف ، وذلك لأن هذا التدريب يعتمد على تأصيل تجربة كيفية لم نعد بحاجة إليها .

وإذا كانت الإنسانية في مرحلتها الراهنة تتخلص من التذكر لكي تتجهد نفسها في التكيف مع كل جديد ومستحدث ، فإن هذه الحالة تعكس سمة من سمات التطور للوضعى . وعلى ذلك فلاستاتيكا حالة من الحالات الاجتماعية للديناميكا ، والديناميكا بوصفها سيطرة عقلانية ومستمرة على الطبيعة تنتهى من حيث الثابتات البعيدة إلى استاتيكا .

وإن صحت القبور من جانب المذاهب الجماعية إزاء الصيحات الداعية للسلام نلعلنا أن اختلال التوازن بين ضغط الحاكم ورضوخ المحكوم إنما هو دليل على أن العقلانية لم تتحقق جد إلا نمواً جزئياً ، كما أن التسلط بطريقة عيياء على الطبيعة من أجل التهامها بروح الدماء يمثل أيضاً في ذاته تضاداً يتفرع عن التضاد النموذجي بين للسيطر والليسير عليه .

وكون الاستاتيكا في الديناميكا الاجتماعية علامة على استمرار بعض العناصر العقلانية ، فالمقل ذاته Ratio الذى يسيطر على الطبيعة هو جزء من الأيديولوجية التى تنتقد العقل . وذلك لأن العقل موضوعى ومصدر للأخطاء فى آن واحد . وهو لا يعتبر التأمل النظرى عملية رجيية — كما أراد له كونت وجميع أعداء الليتافيزيقا — بل يعتبره أيضاً شرطاً للحرية التى يكف الوضعيون عن اللاداة بها ، مع أنهم يتدون عليها دائماً . وتحت هذا المظهر نجد أن ماركس على حق حين يطالب تجاه الوضعية بالعودة إلى تراث الفلسفة الألمانية التقليدية ، وذلك فى هجومه ذى النزعة الهيكلية على « فورباخ » والميجيلين اليساريين .

وهو يعالج الاستاتيكا والديناميكا من وجهة نظر نقد النزعة الخرافية التى يستخلصها أولاً من الشكل الاقتصادى ثم يتعقبها فى جميع تفرعاتها النظرية . وموضوعه الأساسى يطبق على المجتمع فكرة هيكلية ؛ فكل ما يدولنا أنه « كائن » يجب أن تصوره على أنه « متحول » أو « صائر » ، ومعنى ذلك حسب التعبير الهيكلى أنه « وسيط » . وبذلك نستطيع أن نستخلص من النتيجة الصائرة — أى من كل ما يقع تحت مفهوم الصيغة المجردة للاستاتيكا الاجتماعية — مظهر الشئ فى ذاته ، أى أن الشئ بدلا من أن يقتصر تعريفه بطريقة بديهية على شكله للثبث يستمد مفهومه من عملية التاريخ نفسها . ويريد ماركس بذلك أن يمنع فكرة المطلق بالنسبة للحالات الاجتماعية من أن تحل محل القولات الاستاتيكية ، وهو يرى أن جميع الأشكال الاجتماعية ينطبق عليها ما ينطبق على الأشكال الاقتصادية من حيث كونها « حابرة وتاريخية » (١) .

وأصبحت عبادة « الصيرورة » مسئولة أيضاً عن التركيب الخاطى عند كونت ، ذلك التركيب الذى أراد أن يجمع بطريقة سطحية ما لا يمكن جمعه إلا بطريق التعارض .

(١) كارل ماركس : يؤس الفلسفة . النص الألمانى لبرنشتاين وكوتسكى . برلين ١٩٥٢

ويمكن أن نقول إن هجوم ماركس على « برودون » محقراً آراءه ينطبق أيضاً على علم الاجتماع عند كونت « إن حركة التاريخ التي تغلب العالم الحالي ظهر أعلى عقب ، تقول عنده إلى مشكلة اكتشاف التوازن المادل ، أو طريقة التركيب بين الفكرتين البورجوازيين ، وعلى هذا النحو فإن هذا للاكر قد استطاع عن طريق التهويش وحده أن يكشف فكرة الله المسترة ، وكذلك الوحدة بين فكرتين منفصلتين كان برودون هو نفسه السبب في انفصالهما لأنه فصلهما عن الحياة العملية أى عن الإنتاج القائم في عصره ، وهى ليست إلا تأليفاً بين الحقائق التي تعبر عنها هذه الأفكار ،<sup>(١)</sup> وأن النقد الذي يوجهه ماركس إلى « الثنائية » عند برودون ، أى ثنائية الأفكار الخالصة بوصفها مقولات للعقل الصرف ، و « الناس وحياتهم العملية »<sup>(٢)</sup> — هذا النقد ينطبق تماماً من حيث النهج ومن حيث المحتوى على ثنائية الاستاتيكا والديناميكا . وكما أن ماركس ينقد المجتمع فإنه ينقد أيضاً تلك النظريات والآراء والمقولات التي ليست أكثر خلوداً من الظروف التي تعبر عنها ، فهي محصلات تاريخية لها صفة العدم والزوال . ونحن نعيش وسط حركة دائمة لنمو القوى الإنتاجية وتدمير العلاقات الاجتماعية القائمة ، وتكوين أفكار جديدة . وإذن لما هو ثابت هو النظر إلى الحركة كفرصة مجردة لاغير .

وهذه الصيغة الأخيرة تشير في سخريتها إلى تجريد للفهم العام للاستاتيكا على أنه « حالة موات » من الديناميكا الاجتماعية ، ولكنها تذهب إلى أبعد من هدفها المباشر ، لأن هذا التجريد الذي لا يطبق ماركس تمحيده يسير عن عنصر اجتماعي حقيقي يختفي الخدس به وراء فكرة اللوات . ويرى ماركس أن ما هو خالداً فيما قبل التاريخ هو عدم صمود أشكاله وصوره بالذات ؛ إذ أنها في خضم النمو الأعمى للطبيعة

(١) المرجع نفسه ص ١٦

(٢) » » ص ١٧

تحتفي بطبيعة الحال . ولهذا السبب فإن مذهب الثبات له مكانه في جدل هيجل ماركس (الديالكتيك) باعتبار أنه مذهب سلبى للمجتمع الذى يتقدم عن طريق صراعاته ؛ فنصر المجتمع الديناميكي ، أى للقارعة النشطة التى تتمثل في الصراع هو أيضاً عنصره الاستاتيكي الذى لم يتغير حتى يومنا هذا ، والذى يتكفل بتدمير جميع العلاقات الاجتماعية للإنتاج . وإن ما ظل حتى « استاتيكا » دون تغير إنما هو الحاجة إلى التوسع وإلى دوام امتصاص قطاعات جديدة ، وإلى جعل استثناء هذه القاعدة في تناقص دائم . وهكذا يتكرر القدر ويتسع نطاقه . ولأجل مقاومة الهلاك فإن كل أشكال المجتمع تعمل بطريقة لاشعورية على هلاك نفسها وعلى هلاك المجموع الذى يظل حياً فيها ، وفي هذا سر خلودها . والتطور الذى قد ينهى ما قبل التاريخ يكون نهاية مثل هذه الحالة الديناميكية ، وإذن فإن هذه الحالة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالاستاتيكا حسب ذات مضمونها للتناقض ، والمجتمع الحقيقى يستبعد كلتا الفكرتين : فهو لا يحتفظ بالعنصر الوحيد الذى يقيد الناس باسم النظام ( هو الاستاتيكا ) ، على حين أن ذلك العنصر يتحرر من هذه القيود عندما يريد أن يكون كلا واحداً مع مصالح الإنسانية كما أنه لا يهتم بالحركة العمياء المضادة للسلام الخالد الذى يعتبر حسب تعبير « كانت » هدف التاريخ .

. ولكن مع ذلك فالمعكس صحيح ، ولذلك لا يدهشنا أن نجد بالذات عند ماركس الذى يضع مفهوم العمل في المركز ويفتح المجال أمام الديناميكية الكامنة ضد كل استاتيكا وكل مذهب للثبات — لا يدهشنا أن نجد عند ماركس تردداً لتمييز القديم بين الاستاتيكا والديناميكا ؛ فهو يواجه القوانين الطبيعية الثابتة للمجتمع بالقوانين النوعية لمستوي معين من النمو ، ويقابل « درجة النمو الأعلى أو الأدنى للصراعات

الاجتماعية » « بالقوانين الطبيعية للإنتاج الرأسمالي » ويجوز أنه خطيبين مستويات مختلفة من التجريد وأسباب ذات درجات مختلفة ولكنه كان على وعى بالصفة الطبيعية للمجتمع ، والأشخاص أثناء تطبيقهم الاجتماعي. لا يكونون قد وصلوا بعد إلى التحكم في أنفسهم ولا في المجتمع ، وعلى هذا القياس نجد أنه بالرغم من كل محاولة ذات طابع عقلائي تظل العملية الاجتماعية في دائرة الاعتقلائي . وقد كان الجدل التاريخي عند هيجل يوصل بمعنى معين إلى استمرار فكرة الثلاثي (أو القابل للفناء) وأن ما يسميه ماركس في أمل يشوبه الحنين ما قبل التاريخ « ليس أقل من جوهر التاريخ كله الذي عرف حتى ذلك الحين ، أي عصر الحرية . ولكن بقدر ما تكون « الديناميكا » تكراراً أعمى للديمومة التشابهية كما أعلنتها من قبل حكمة « أناكسيماندر Anaximandre » ، ثم بعد ذلك للبياتيفيزيا الديناميكية لهيرقليطس ، فإن النظرية الديالكتيكية تؤكد وجود مقولات دائمة قد غيرت فقط مظهرها في الشكل الحديث والعقلائي للمجتمع . فإذا كان ماركس إذن يستخدم تعبيرات مثل « رقي الأجور » ليعبر بها عن العمل الحر للأجور فليس هذا من قبيل التشبيه خصب ؛ إذ إنه منذ هيجل كان الديالكتيك « يعتبر أن الديناميكا لا تحل كل ما هو جامد ومتشبه ، أي كل ما ينتمي إلى « التصور » وهذا هو ما يستمد به تقريباً أصحاب للذهب الأسمى : nominalisme في العصر الحاضر ، فكل تغيير يتطلب أيضاً عنصراً ثابتاً يتكرر ويحمل في ذاته التغير ونسبة التغير . وهذا المفهوم للتاريخ تبعد عنه الفلسفة الحيوية كفلسفة المد غير المتقطع والدوام المستمر بقدر ما يتباعد عنه المذهب الأفلاطوني ، وبحسب هذا المفهوم هناك أيضاً مقولات ذات طابع وجودي : existenciales كما تسمى اليوم ، ولكن هذه المقولات هي السيطرة ، واستقاء الحرية ، وآلم ، ووجود المصيبة في كل شيء ، وعندما تعتد الأنطولوجية الوجودية الحديثة أنها قد سدت الثغرة بين الإستاتيكا والديناميكا ،

حين تقدم لنا باسم الثغرة التاريخية مقولات ديناميكية على أنها ثابتة فإنها لا تبرر بطريقة مشوهة إلا عن بعض البؤس الحقيقي لهذا « الكائن » ، الذى تعتقد عن خطأ أنها أعلى منه باعتبارها مذهباً للوجود .

ومجمل القول أننا لانستطيع أن نقسم بطريقة تخطيطية علم الاجتماع إلى جزء استاتيكي وجزء ديناميكي ، كما أننا من ناحية أخرى لانستطيع أن نعمو فيه كل تمييز. وإن الثنائية بين الأشكال الثابتة والأشكال المتغيرة لتجر معها بالرغم من كل إخلاص للمذهب الوضعى المضاد لليتافيريقا ، العقيدة الليتافيريقية بأفضلية الثابت على الزائل ، وبذلك فإنها لاتتفق مع كثير من الحقائق التى لم يعمق تصورهما علم الاجتماع بدرجة كافية منذ عهد كونت . ومن ناحية أخرى فمن خلال الفرق بين الاستاتيكا والديناميكا فى المجتمع نستطيع أن نستشف شيئاً عن طبيعته للتناقضة ؛ فالمجتمع يتحجر فى الوقت الذى قد يتعين عليه أن يتغير ، وذلك لأن تقل علاقات الإنتاج يعارض مع القوى للتجة . ومثل عجلة النار الأسطورية يستمر المجتمع فى الدوران لأنه لا يستطيع أن يوقف عن طريق تنظيم عقلانى تقدم القدر الذى هو عبارة عن تخريب دائم . ومقولات الاستاتيكا والديناميكا مقولات مجردة ليس فقط بالمعنى الذى ذكره هيجل من حيث إن إحداها منفصلة عن الأخرى ، وليست هناك علاقة « وساطة بينهما » ، بل يضاف إلى ذلك أن معناها للقول عن مفاهيم علوم الطبيعة التى كانت سائدة عام ١٨٠٠ ، ظل معنى عاماً أكثر من اللازم . وبصورة أكثر حسية نطلق اسم الديناميكا فى التاريخ حتى يومنا هذا على السيطرة للزيادة للطبيعة الخارجية والداخلية ، وهى فى اتجاهها ذى البعد الواحد تعارض الإمكانيات التى لا يمكن أن تنمو بسبب هذه السيطرة من جانب الطبيعة . والديناميكا فى انسيابها بمنحون وغباء وعن تتبعها لهدف واحد تلتهم كل ماتبقى ، وحيناً تقضى

على التمدد بجملة متوحداً بالقوة مع الفاعل للسيطر ، ومع ما يقابله في الوجود الاجتماعي تحول الديناميكا نفسها إلى استاتيكا ، وهى لا تستطيع أن ترجع إلى مجالها للتسع ، وتصبح ديناميكا قبل كل شيء ، إلا إذا ردت الاعتبار « للآخر » الذى ظل حتى الآن مغموراً ، بل فى بعض الحالات ، يكاد يكون ملفياً .

وبتطبيق التنظيم العقلى على ميكازم العمل يمكن لنا بدلا من أن يكون هدفنا الأول هو الإنتاجية « أن تنبه إلى جل العمل نفسه أكثر تحقيقاً للكرامة ، وإلى الوفاء بالاحتياجات الأصلية والتمييز بينها ، وإلى الاحتفاظ بالطبيعة واختلافها الكيفى ، وذلك بعلامتها لغايات إنسانية . ولكن قبل كل شيء بما أن الفاعل الديناميكي — أى النوع الإنسانى — لم يفعل سوى أن أوقف نفسه وبذلك عاد إلى السقوط فى الطبيعة التى توحد معها ليستطيع السيطرة عليها ، فإن المحرك الحقيقى للتاريخ لم يوجد بعد ، بل وجدت فقط صورته للمسوحة الدامية ، فالنمو الكامن فى القوى للنتيجة التى يجعل العمل الإنسانى إلى حد ما شيئاً زائداً يتم عن قوة التغيير وإحفاص كمية العمل التى أصبح من الممكن اليوم أن يصل إلى حده الأدنى يوقظ صفة اجتماعية جديدة وهذه الصفة ما كانت تقتصر على اتجاه وحيد للتقدم لو أن ما تتطوى عليه من تهديد لعلاقات الإنتاج لم يكن حافزاً للنظام كله للسير فى هذا الاتجاه المحدود . فعلى حين أن العمل يجب ألا يمد مقياساً لكل شيء ، نجد أن العمل التواصل الذى يشغل كل الوقت قد أصبح المثال الأعلى . وعلى العكس من ذلك نجد أن الاستاتيكا إلى جانب هذا الزايد ذى الاتجاه الواحد فى الإنتاج قد اعتبرت حتى الآن عنصراً سلبياً ومعوفاً . وما احتفظ به بطريقة لاعتقالية لأنه بكل بساطة كان دائماً على هذا النحو دون غيره قد ساعد على استمرار عدم الكفاية والأشكال الأكثر بدائية فى الاستغلال . وقد ساهم العنصر الاستاتيكي بطريقة سلبية فى تقدم



السيطرة ، وذلك بقدر ما أصبحت الوسائل اللاشعورية غير كافية لحفظ الإنسانية .  
وفي غالب الأحيان وخاصة في مرحلة تدهور البورجوازية والنمو المفاجيء للبلاد  
المختلفة ، وهى على وجه الدقة الاستاتيكية ، نجد أن من يسندون الأشكال  
الاستاتيكية والقوى المحافظة وأذناها يضمنون في الوقت نفسه إلى مبدأ التقدم  
الصناعى المريح . وطالما استمر الفقر والحاجة فإن الاستاتيكا هى الديناميكا بوصفها  
قوة متحفزة . ونستطيع أن نتصور تحويراً في الاستاتيكا وكذلك الحال في الديناميكا  
وهو يمر عن حاجة أشبهت وتريد أن تترك الأمور على حالها . وعندما اعترف  
« نيتشه » ، وهو للفكر الديناميكي بكل معاني هذه الكلمة ، بأن مبدأ الضف لم  
مكن مبدأ عقلياً كان مبدأ الصالحة قد أخذ يحتل في نفسه . لقد أحسن أيضاً بشيء  
من روح الاستاتيكا : « وذلك لأن كل لغة ترغب في الخلود » وهى تتضمن علاقات  
أخرى بين الإنسان والطبيعة ، تشبه تلك العلاقات التى تنبثق لحظة في الأعمال  
الفنية الكبرى .

وإذا كان علم الاجتماع يسمح بالتنبؤات ، وإذا كانت هذه التنبؤات  
قط لا تقتصر على كونها تمييزاً عن وجهة نظر للمشاهد غير اللهم — وهى  
وجهة نظر كاذبة ولا يقبلها التاريخ — فإنه يصبح على الأقل من غير  
المحتمل أن يتعجز المجتمع في أشكال ثابتة ، فطالما استمر التكوين المتصارع للجموع  
وطالما أن الأفراد ليسوا عبيداً للمجتمع ، بل عناصر فعالة ترغب اليوم في القضاء على  
ما يحيط من كرامتها عن طريق فكرة « المور » ، فإن التاريخ لن يبدأ أبداً .

ومهما بلغ الضغط من قوة وشدة ، واستطاع إلى حين أن يكبت صوت الاضداد  
فإنه لن يستطيع أن يقضى نهائياً على التوتر التراكم . والمسيطرون المحدثون أنفسهم  
لا يسمحون بادئ ذي بدء أن يسود مثل هذا الهدوء ، إنهم لا يستطيعون ذلك

ولا يجب أن يفكروا فيه إذا أرادوا أن يعموا في أمانهم . ولكن هذه الدينامية التي تدور في دائرة وبدون هدف حول نفسها هي في الحقيقة مضادة التاريخ . وقد وضعت ذلك فلسفة شينجلر الدائرية بدون أن يكون لها الفضل في ذلك ؛ إذ لا كانت تتوحد مع لا معقولة التاريخ فإنها تعرف منطقياً جوهره عن طريق التعاقب اليأس للضرورة والفناء ؛ ففي استمرار التدفق الذي لا يقاوم ، لا شيء يصبح شيئاً آخر . والداروينية الاجتماعية — وهي التي تقول ببقاء القوى وبأن يفترس الكائن قبل أن يفترس ، وتقيم التاريخ على تسلسل المنقض والمنقض عليه — تتعد في هذا الاتجاه مع المذهب التاريخي .

خالة التهديم لا تكون في سكون النظام الجماعي ولا في التقدم الذي لا يشبع ، ولكنها يمكن أن تكون في « المعارضة » التي تختفي في المصالحة .

## اللعب والفن في القرن العشرين

بقلم أندريه شاستيل

ترجمة

الدكتور عبد الرحمن بدوي

حينما نتناول الفن المعاصر ، فمن البت أن نحاول أن نحدد إلى أى مدى هو ينطبق أولاً ينطبق على الفكرة التي كونها عن الفن اعتماداً على تجربتنا عن القرون الحالية بل الأخرى بنا أن نحاول أن نعرف أية فكرة يفرضها علينا ، ولربما كانت فكرة جديدة . وبعبارة أخرى ينبغي أن نستخلص المشاكل الأصلية فيه ونحن بإزاء تجربة جديدة ، أعنى أن نضغ للعاني الخليفة بتفسيره . ولو اقتصرنا على السنوات الأولى من القرن العشرين فإننا نستطيع أن نلاحظ في المضمون وفي الأسلوب لمحة خاصة هي المقدار المخصص لعالم الألعاب . والفنانون كثيراً ما اندسوا في ألوان النشاط القرية بالفن مثل الرقص والموسيقى صورة مناظرة لنشاطهم ، وأحياناً أنواعاً من النشاط من أمثال تلك التي لفتت انتباه فرمير : « وازنة اللائى » أو « الزوج لدى السطور » (في قصر بكنجهام) وعليها كتابة صريحة منقوشة على الآلة الموسيقية : الموسيقى رفيقة السرور وعلاج الآلام . وهذه العبارة يبدو أنها شعار يتعلق بنشاط الرسام نفسه . ونفس الانطباع يرسم لدى رؤية بعض لوحات قاتو : « للوسيفار » ، أو « اللامبالى » إذ يشعر المرء بأن الرسام يقصد أن يقول شيئاً يتعلق بنفسه . وخلال هذا السجل من صور الموسيقى أو الرقص يبدو كأن الفنان استشر بلدة خاصة إمكان قيام فنه : وهذه الصور البعيدة بعض الشيء هي أسلاف أسرة من المهرجين والمهايل والمخرفين الذين تكاثروا على نحو غير مألوف في بداية القرن العشرين .

راقصون ، وموسيقون ... عند نهاية القرن التاسع عشر أهاب الشعر بسدد كبير من الشخصيات الرمزية : « القراقوز » عند باثيل ، و « المتأنق » عند بودلير ، و « المهرج » عند لافورج ، والراقصات عند مالريه وفاليري ، وكلها أسرة من الموجودات الحدية تكشف عن إلهام جوهرى للإنسان ، ولا تدل فقط على شيء خائس لطيف خفيف هش ، بل تدل عليه بوصفه أمراً جوهرياً . نعم قد تكون النبرة نبرة حزين أو رقة ، لكن كل هذه الأشكال الشعرية تقترح كضمون جديد للشعر الوصول إلى عالم الشعر . إن الشعر يمهّد ويصحب ما سيجرى فى الفن .

وبعد الراقصات عند ديجا ، والهالوات ولاعي الورق عند سيزان ، وبنات الحلبة ( السيرك ) ورجاله عند لوتريك ، تصبح النبرة أشدّ إلحاحاً ، ويمكن الاستيثاق من ذلك عن طريق العمل الذى أراد فيه يكاسو أن يلخص ذلك الإلهام الجديد . إن حياته كلها تتعدد بسلسلة من التجارب التى اختتمت بعمل عظيم لأن إلحاح العمل الرائع كان عنده دوراً وفضلاً ، ومؤلفه العظيم الوجود فى مجموعة انشترديل فى شيكاغو ، وهو لوحة بعنوان « أسرة القراقوز » يحتم دورة للرحلة الزرقاء وللرحلة الوردية . فنذ سنة ١٩٠٠ / ١٩٠١ استخدم موضوع رجال السيرك فى لوحته بعنوان « المهرج » وهى بمثابة صورة لنفسه حزينة ، وانتقل بسرعة إلى أشكال بارزة : « اللاعب على الجبل » واللون الأساسى فيها هو الأحمر ، ثم لوحة الرقيقين « وفيها نجد الأنف السكاكى لأسرة القراقوز » والفرع أمام الطيعة الحاوية ، واللقاء بين المصارع الضخم الجالس على مكب وبين شحية الراقصة الصغيرة الواقعة باتزان على الكرة . يستفتح الإيماءات الرمزية ، وبعد قليل تدخل الأسرة الإنسانية ضمن الموضوعات بما فى ذلك التناسل الأليف . وفى لوحة مجموعة انشترديل نجد من جديد كل شيء ، وكل شيء له قيمته ، الطيعة الحاوية المستهلكة إلى حد ما ، والملابس ذات اللون الداليل ، والنظرات الباهتة للتعب ، والشبوبة للمخرفين ، والأناقة الراقصة المريضة

للغناء الجالسة في ناحية منزلة . إن الشاعر رلكه بعد أن شاهد هذه اللوحة في منشئ سنة ١٩١٥ عند السيدة هرتافون كونيغ علق عليها تعليقاً حاسماً في الإليجيا الثانية من إليجيات دونيو : موضوع القراقوز ، والرحل الذين يقضون العمر في الأعمال البهلوانية والإيهامية في مناظر تكرر باستمرار ، كل هذا في نظره خلق بتصور كل الحياة الإنسانية . ومن النادر أن نجد قصيدة صادقة في وصف إلهام رسام كهذه القصيدة يقول الشاعر : « من هؤلاء الجوالون ، الهاربون أكثر منا : . . » وهكذا يقتضى الموضوع تعميماً كاملاً .

وسيعود يكاسو إلى نفس الموضوع في رائية من روائحه هي « الموسيقيون » وتوجد في بازل ، لكن هذا الموضوع ينتقل إلى فنانين آخرين . ومنذ سنة ١٩١٥ — ١٩١٥ نلاحظ أنه صار ملكاً مشتركاً في الفن الأوروبي ، بيد أن الثبرة تبدل عند ديران في أسلوب كلاسيكي جديد ربما كان أبداع لحظات فنه ، والكتابة المسنودة والألوان القاسية تزيد في انطباع القلق الذي يثيره في لوحة « اللاعبين » المهرج القلق الوضع والأرلكان ( المتهرق ) الواقف على قدم في وضع غير مريح . ولدينا تعبير رائع مصنوع بالحديد للشغول في القطعة التي أبداعها جرجاو بعنوان « الأرلكان » وفيها استفاد فائدة أصيلة من الاستقطاعات والاختراعات البيانية ، وأعلى الوجه ليس إلتقاعاً ، والجسم يشبه أن يكون محمداً في الخط الأفقي لآلة الموسيقى .

وحين يأتي رسام من فيتسبك ليوجد في باريس الجو الأصيل للعصر ، فإن واحدة من أولى مؤلفاته<sup>(١)</sup> ستكون ذلك الشكل الذي أبداعه شاجال بنفس الروح بعنوان « الموسيقار » ، الذي هو حقاً للموسيقار للتجول على السطوح إشارة الإلهام .

---

(١) سنطلق كلمة : تأليف ، مؤلف ، على ما يشيخ الفنان )

وهكذا يجتاز الموضوع خلال عصرنا . وبعد ذلك بثلاثين سنة نجد تابا بوالكسكي في مستهل حياته الفنية يستخدم هذا الموضوع في لوحته «عازف الناي الوردى»، وهو ضخم يثير الرقة ، وكله متفخ في عملية فنه . وكأنه استنشقه النفس الذى يخرج من رأسه الصغير ، ويتحقق التوازن ، مثلما عند جرجلو بواسطة الخط الأفقى للناي .

لكن توسيع الموضوع يمكن أن يتم على سجل مختلف تماما ، ففي نفس الوقت تماما مثل ليكسو ، تصور رووو الأسرة الحزينة لمهرجه . إنهم هم أيضاً مزودون بقوة رمزية رائمة ، واللوحات المائية ورسوم السوق والسيرك هى من أروع ما أبدعه هذا الفنان ، وبعد ذلك بقليل حين تصير نبذة الرسام أكثر جذاً وأقل استفزازاً ، فإنه يعبر عن شعوره بالوجود من خلال أشكال مهرجين جرحى ومهرجين متألين ، وهذا نوع من الطباق من الهم إمكان تقريره . لكن حوالى سنة ١٩١٠ — سنة ١٩١٥ ، في محيط الكاتب الشاعر ما كس جاكوب ويكسو والشاعر أبولينير ، ذلك المحيط الذى غشيه حيناً من الزمان للوسيقى استرافسكى ، حدث أكثر من تغير للإلهام : لقد تغير التصور . وفي سنة ١٩١٧ نجد أن « ستارة السرح » من رسم ليكسو تظهر هذه الموضوعات من جديد وتلهم صنع ملابس ، و « المدير فى نيويورك » تبين كم كان مغرباً ابتداء من اللحظة التى اختير فيها الرمز الاستفادة منه فى أعمال صورية . وينبئ ألا تفصل بين الصور الكلاسيكية للأرلكانات وبين تجارب للذهب التكمي . ويمكن رد تاريخ المذهب التكمي إلى تاريخ للفتارة أو للماندولين وتحولاتهما ، ولكن اختيار هذه الآلات هو نفسه مدلول تصويرى شائق . وفى أجمل تجارب السنوات ١٩١١ — ١٩١٢ تسلى براك ويكسو بأن يحولوا إلى أشكال مركبة العازفين ومعالجة تحول للوسيقار ابتداء من آله ، وهكذا نجد أن لوحة « العازقة على الماندولين » ليكسو ، أو العازقة على الجيتار

« لبراك » ، وهى متأخرة بعض الشيء ، وكانت للمشكلة هـى الربط بين الأشكال  
للمصورة للشكل الإنسانى بطريقة إجمالية وبين ذكرى الآلة ، واستصاص الآلة  
فى الشكل ( الوجه ) والمكس ، وأحيانا تسود أشكال للساندولين على نحو  
واسع التأليف فى اللوحة وبصورة طافرة .

ويزداد الأمر غنى وراء من خلال أعمال خوان جريس Gris ليس فقط  
حين يستخدم الجيتار ، وهى الآلة ذات الامتياز ، بل وسائر آلات اللعب الأولية ،  
مثل الشطرنج والجأكية والخاب الورق ( الكوتشينة ) . وكل هذه الموضوعات  
تستدعى طبعاً تحول الأشكال ، والآلة الموسيقية تهب إشعاعها لكل التأليف حين  
تشارك الطاولة والدمينو ... الخ . ويكفينا الآن أن نسجل هذه اللقاءات والتسيلات  
المطاة للفن الجدد ، بفضل اختيار هذه الرموز . وبالنسبة إلى نفوس واعية تأملية  
مثل نفسى براك وخوان جريس كان اختيار هذه الموضوعات يلهم نوعاً من التدقيق  
والتشدد ، ويثقل الفرزة العميقة التى تحمل روح الرسام على تركيبات لأشكال  
تزييه ؟ فى الداما توجد حسابات مجردة ، ورأىيات خفية للموسيقى . وهذا  
يمكن أن يندد بسهولة إلى إلهام الرسام يبعيه فى تلك الفترة ، وليس بالصدفة  
أن كانت لوحة « دور لب أوراق فى سنة ١٩١٧ » فرصة لواحدة من أكبر  
التأليفات الرمزية بواسطة أشكال جامية ميكانيكية الطابع ، وبعد ذلك بشر  
سنوات نجد فى أحد تأليفه الأكثر امتاعاً وروعة كل للموضوعات : الطبيعة  
الجامدة ، الشكل ، النظر ، وقد عبر عنها من خلال راموز مؤلف من أوراق  
اللعب ومن الألعاب ، وتأتى ورقة اللعب على نحو طبيعى جداً تتخذ مكانها  
فى المركز .

والأعمال الفنية التى يمكن إدراجها فى هذا السجل تزيد فى قوة الإيجاء ، أو  
— إذا شئنا — فى القوة الموسيقية للرسم خلال تلاعب من الصور المتنازة . وفى

جماعة « التفويين » نجد أن مبدأ الإلهام شيء آخر ، وينبغي البحث عن مماثل آخر غير الموسيقى أو الألعاب القائمة على الحساب ، والتأمل ، والشدّة العقلية ، ولابد من الإجابة بما يتعلق بالأعياد ، وضيح الشوارع ، كما يدل على ذلك موضوع ١٤ يوليو ، والشوارع وهى تلى ، ووفقى فى ذلك ماركيه ودوفى فى لوحاتهما الشهيرة . وهذا السجل نجد أروع عرض له وأكثره إقناعا فى موضوع « الرقص » والسرور بالحياة وقد تناوله ماتيس فى هذه السنوات الأخيرة على نحو متواصل . لقد أبدع هو الآخر ابتداء من اللون ، صورة صغيرة لاستعماله الخاص يمكن أن تنافس ما ألفه فى نفس الوقت رفاته فى المذهب التكعبي : براك ويكاسو ، اللذين لم ينسهما أبداً ، وهنا نجد تحولاً فى الأشكال ، فيه من التقيد ما فى ذلك التحول الذى لاحظناه منذ قليل فى لوحة « المازفات على الجيتار » وقد امتزجن بآلتن ( الجيتار ) ، لكن استطالة الشجيرة على هيئة أقواس ومنحنيات مضادة ، ومرونتها فى الحركة مما يحدد نوعاً من اللعب ( المزف ) الكثير ، بطاقة من نوع خاص . وسيكون ماتيس خلاصاً فى ذلك كل الإخلاص ، وكذلك أصدقاؤه : فيادين السباق وقاعات الرقص ، والأوركسترات ستلهم رجلاً مثل دوفى Duffy حتى آخر حياته .

\* \* \*

وتم سجل ثالث ينبغى تحديده هو ذلك الذى يبدأ من القناع وينتهى بصور الكابوس . وفى الصدارة نجد هنا أنسور . فنذ سنة ١٨٨٩ عمل على تكرار نفس الموضوع ، حتى صار أسيراً له ، وهذا من المميزات الخاصة بالانهمك فى الأشكال الرمزية ، وفى سنة ١٨٩٩ يقدم نفسه فى وسط الأقمعة كي يذكر بأن الأمر يتعلق برمز على الحياة الإنسانية ، وكذلك برمز يتعلق بنشاط الرسام نفسه .

ولن يكون من الصواب أن نرسم هذا المحمل دون أن نذكر الصورة الأصلية التى قدمها الرسم لليتافيزيقي « منذ سنة ١٩١٠ — ١٩١١ — ١٩١٢ : وهى صورة



ساحرة كاية متبكة على السرور بالحياة ، كما دعا إليه الفوقيون وعالم البهلوانات الدقاق عند نيكاسو . إنه رسم أسود ، قاسى للظهر ، قصد إلى القليل من التنوع ، يتم بأمر جوهرى ، أما فى الشعور بالترابة فى المكان ، أو فى الشكل ( الوجه ) حيث نجد بدلا من الشجىة للموسيقىة التحويلة بإلهام الموسيقى — للأنيكان ذات الأثواب الزاهية ، والرأس المحشو بالصوت وكل تلك الأجهزة الزائقة ؛ مما هو سخرية من كل ما لاحظناه عند التكعييين وعند كرا Carra سجد الدمامات وآلات شغل الرسام والشعور باللاواقع يصيرها هنا شعورا بالقلق ، وفى خلال هذه السنوات يقدم ت.س.س. اليوت فى « الإنسان الأجوف » أدق شرح له . وهكذا يتفق الرسم مع الشعر فى الشعور بنوع من « الصعوبة فى الوجود » .

. . . . .

واللاواقعية المتزايدة للصور ينبغى أن تربط باللاواقعية المتزايدة فى الأساليب ( الطرز ) ؛ ذلك أن لا واقعية الصور تساعد الأشخاص أو الآلات للناظرة للعب وهذه أيضا بدورها تساعد اللاواقعية . وهنا نجد أنفسنا فى داخل رمز عام ، ينبغى أن يدعى « عالم اللعب » وابتداء من اللحظة التى فيها هذا النوع من الرموز يشغل خيال الفنانين بمق يمكن قيام فكرة جديدة عن الاختراع ، وكل شىء يتم كما لو كانت الصور الجديدة التى نشاهد كثافتها وانتشارها فى السنوات ١٩١٠ — ١٩٢٠ قد غزت الفن فى اللحظة التى شعر فيها العالم للماصر بنوع من الافتقار فى المجموع . ويعمل الفن على اللطابة بنصيب غامض من الحياة الإنسانية أصابه انتقاص أو اختناق فى تطور العصر الحديث . ونلاحظ فى مجتمعا ما يمكن أن يسمى باسم « نقص » متزايد فى اللعب الأسمى ، وعلى وجه العموم فى النشاط الإنسانى ابتداء من القرن التاسع عشر ، تموز الفرص التى يمكن أن تخلق فى الإنسان شعورا بالرضا والحفاسة فى ألوان زينة من النشاط . فضلا عن ذلك فإن إيقاع العمل والصناعة يستبعدان

الجانب الشخصى ، ويتزعمان فرص الإشباع العيى لمدد متزايد من الأفراد ، وبهذا يختلفان حيناً إلى الاقتراع . ورنوار العجوز لاحظ وتجاسر على القول بأن فى عصره « كثيراً من الناس الذين كانوا سيكونون فى القرن الثامن عشر مزخرفين بارعين للكراسى من طراز لويس الخامس عشر ( أو رسامين على الخزف ) لم يجدوا الآن فرصة لخرقة الكراسى أو الرسم على الخزف قد انتقلوا إلى التصوير دون فائدة كبيرة للتصوير » لقد صار التصوير شيئاً فشيئاً ملاذاً لكل أنواع العناصر الكبوتة فى تنظيم العمل فى عصرنا الحاضر . إتهم ينتظرون منه تحريراً للنفس . وهكذا صار الفن الآن فى وضع البداة والمطالبة .



ونحن نعرف النظرية القديمة القائلة بأن الفن نوع من نتاج الترف أو التمييز ، وتنمية للقوى غير المستخدمة ، حيث الشعور بالمجانة والحرية أمر جوهري . وهذه النظرية لا أهمية لها إلا فى الإشعار بالجو الضرورى . ويمكن أن نذهب إلى أبعد من هذا ؛ فإن فكرة « الإنسان اللاعب » ، إنسان اللعب لا غنى عن إدخالها فى تصور إنسانى واسع بين « الإنسان الصانع » و « الإنسان المفكر » الذى يصنع العلم وبين إنسان العمل وإنسان المعرفة هناك ميدان فسيح ، ووصف الإنسان غير واف ويظل ناقصاً لو أغفلنا الاهتافات التى لا تدخل فى النشاط الجاد ، ولا فى النشاط العقلى الفعال ، وإنما تنسب إلى العمل . إن كل حضارة كما بين روجيه كايوا فى أثره زيجاً تميز بطراز الألعاب فيها . وهذا الجانب من اللعب ، وهو حيوى بالنسبة إلى الفرد وإلى المجتمع مؤلف من عناصر واضحة فى ألوان النشاط التربوية والسرحة والطقوس التى تهتم الفن . والفن إذا حدد بصورة إيجابية غليظة هو صنع أشكال رمزية قادرة على استغلال كل ما فى تجربتنا وعواطفنا . ولا يمكن وجود حياة إنسانية دون نظام رمزى ، وإلى هذا تشرىب الآمال الخارقة التى تمجد على الفن ، وهى فى أحيان كثيرة لا محل لها .

وهذا التناظر ، الذى اكتشف بين سنة ١٩١٠ و ١٩٢٠ ، وهو تناظر كاشف وخطر مما ، بين الفن واللعب ، بين النشاط اللاعب والنشاط الفنى ، سرعان ما أنتج نتائج عظيمة . ولعل ما يسميه المؤرخون باسم أزمة الفن فى منتصف هذا القرن ليست إلا أورا لا شتداد فى اللعب ، ولا شتداد فى الشعور باللعب ، وفى اكتشاف اللعب فى الفن . ولوقوف اللاعب على أمرين : أولا تجردا ، ومسافة بالنسبة إلى نشاط عملى : وتبعاً لذلك ، عنصر خياليا ؛ إذ يقيم للره فى نوع من الحلم الشرطي ، مثل لاعبي الورق أو الأولاد للنهكين فى بناء وغير مكرئين لكل ما يجرى حولهم . وفى المقام الثانى ونتيجة لتوافق تقسافى معين يوجد انهيار بمعنى أنه بفضل هذا التجرد وهذا التخيل يخلق ابتلاء جديد استثنائى . وربما كانت لعبة الشطرنج هى خير ما يحدد ذلك الموقف النموذجى . وهكذا فإن اللاعب يخلق نوعا من عدم التحقق الفعلى ، أو يغفل من الواقع المباشر ، لكنه يبعث واقعا رمزيا مزودا بشدة على نحو من شأنه أن يجعل بعض الملائق تتخذ بزوا ساحرا .

والفن الحديث قد أكثر من الإشارات فى هذا الاتجاه ؛ فإن التصوير ( الرسم ) ينشط ميوله الرمزية ويتخذ لنفسه وسائل جديدة . والتكعييون بتقطيعهم للأشياء وإجراءهم تحولات فى الأشخاص قد نشعوا تسلسلا فى الأشكال بحيث لا يبقى بعد ، جود فى اللوحة ، وعلى المشاهدين أن يقدروا الأشكال البضاوية وأن يتعلموا كيف يقرأون هذه العلامات للوجزة ، القليلة المد ، الموحية بالإشارة ، الفنية ، والى هى علامات الروح وهى تعمل وتؤثر فى العناصر الأبسط : عين ، جانبية ، متصلة .. ولا شىء أبلغ فى الدلالة على طريقة النظر فى هذه الأعمال — من قد الجماعة — وقصائد أبولينير أو بعض القطع الخيالية ذات البهجة المتسارعة حيث يتنصر اللاعب بالألفاظ . إنه النقد الفنى الوحيد المناسب للموقف ، كما يمكن الحكم على ذلك من قصيدة لروجه فلدراك بعنوان : مزاح مهدى إلى يكاسو : —

هذه الشجرة تبدو كالقبر

وهذا النجم يبدو كالرقم

وهذه الشمس كالخزون

إنه يكسو

( في « وثائق » سنة ١٩٣٠ » ) -

وابتداء من هذا تحدد اتجاهان كبيران يمثلهما من ناحية : ديولنيه ومن ناحية أخرى : باول كلي . وفي لوحة رشيقة لسفيريني مثل « شمال / جنوب » ( سنة ١٩١٢ ) نشاهد جيدا ماذا يجري : بحث عن عناصر في وقت واحد تمكن اللوحة بفضل التركيب اللاتمرکز من الانفتاح في كل الاتجاهات ، وبعد ذلك مباشرة في اللوحة الرائعة بعنوان « الرقص في التاباران » نجد التجزئ ، والازدواج وتكثير الأشكال ، والنقوش الجوهري لهذا الطراز من الاختراع تعطى فكرة الصورة الكلية أعنى صورة قادرة على التجاوب مع موقف أو مع وسط يتحدد تماما بمهمة الميد . ونفس العمل نجده في لوحة « المدينة » ( ١٩١٠ ) لديولنيه ، ويلبغني تفسيرها بمحاولة شعر أبولينير أو بليز سندرار ، إننا لم نعد بعد في حضرة منظر ، بل في حضرة شيء لا يمكن إدراكه إلا بالرمز : مدينة بأكلها ، بروح النزعة التوحيدية ، أو بروح قصائد أبولينير التي تربط قطعا من الأقوال وجلا سمعت هنا وهناك لتمثيل الشمول الذي يشملنا . وبين ستائر نافذة سطوح ، شذرات من أبنية ، وفي الوسط يد امرأة تكمل بل وتنظم كل التأليف . وابتداء من هنا في سلسلة من المؤلفات التي تترابط بسرعة جدا يقوم ديولنيه في لوحة « النوافذ في وقت واحد » سنة ( ١٩١٢ ) بتسمية هذا الإلهام في اتجاه أكثر تجريدا حتى يصل إلى إدخال للأشكال بعضها في بعض وإلى تلك الأقراص اللونية ذوات النبضات المنتظمة كما تتجلى في لوحة « السرور بالحياة » والفرح واضح عند ديولنيه ،

لا المزاج الذي بدونه من المستحيل النفوذ في إنتاج پاول كليه . وبالمقارنة بين لوحة « بساط الذكري » التي تعد معارضة للوحات المستقبلية ، وبين هذه ، تبدو هذه غليظة مصطنعة ؛ فالصورة تبدو كأنها جاءت من نفسها كاملة محددة بنفسها تشابه إلى حد ما ما يسميه علماء النفس باسم « الصورة الأيدوسية » صورة الأحلام ، التي تفرض نفسها علينا ، وما علينا إلا أن نسجلها . واللوحة المرسومة باسم « مدينة قر » أبعد جدا من لوحة ديلاوني . وفي الرسم اللطيف بنوان « ماذا يحدث لي ؟ » تقوم المشكلة في معرفة إلى أي مدى نأخذ مأخذ الجد تكثير السرير الحديدى المهزىل الذى يتحول في النهاية إلى حصان طفل ، وفيه يرقد النائم . ولم يكن صدفة أن يرسم كليه Klee الشكل الرمزي للبهائم على هيئة راقص على الجبل ، والصفحة اللوردية العملة صليب أبيض كبير توحى بإحساس عدم الاستقرار والتوازن الرابع الذى ينبغى المحافظة عليه هنا . والتأثيرات المتوافتة عند ديلاوني ، والصور الأيدوسية عند پاول كليه ، هي مراحل في ميدان سيتقبل سذاجات شجال المتضاربة ، وميرو Miro الرابع في إبداعه لحيوانات صغيرة شيطانية ، بل و« قطار مورنو الصغير » لسكاندنسكى الذى يمتاز ببيان كيف أن المنظر تحت تأثير الجرركى روسو ، يصبح خاليا يقترب من الصورة المجردة :

لكن القدرة على أنزاع الواقع الخاصة بالموقف التلماعى كان لا بد أن تضع الفن نفسه موضع التساؤل ، وكان ذلك هو عملية « الهدا » وخصوصا أعمال مارسيل دوشامب . وليس صدفة أن نجد عند نقطة البداية موضوع « لاعبي الشطرنج » ( سنة ١٩١٢ ) وتأمل في اللعب سيؤدى إلى موت التصوير ؛ ففي « انتقال البكر إلى متروجة » نجد أن الدهش اللاعضوى المؤلف من أغشية وصمامات يضيف كل قوته على الازدراء والتهكم إلى الإلحاقات والأشكال الرمزية عند التكميين . ويمكن تفسيرها بحموة قرة وردت في كتاب « عزاء الفلسفة » تأليف يوتبوس

( المقالة الثالثة ) هذا نصها : « لو كان للناس عيون النقموس القادرة على النفوذ في العقبات ، أما كان جسم القيادس ، الجليل من الخارج ، يبدو قبيحا جدا إذا نفذت النظرات إلى أحشائه ؟ فإن كنت تبدو جميلا فلست تدين بهذا لطبيعتك ، بل لنصف عينيك اللتين تنظران إليك » . لقد كان هذا المفكر ذو النزعة الأفلاطونية الحديثة يتكلم بلهجة رجل الأخلاق ، لكن الفنان وقد اتخذ حريا نموذج عيون النقموس قد أبدع هناك القناع ، ومن هنا ولدت حركة الماداد ، ومن ثم تطاير الفن في عيان لعب قصد به إلى الإدهاش والإرباك . وسيع ليكسو مرارا عديدة أن يسلك هذا السيل ، ولدينا عينة واضحة لهذا في « الراهمة المجهولة » وهو عمل من أعظم أعمال الفن الجرافي . والفن اليوم يشبه أن يكون مازما بأن يحسب حسابا لهذا . ولقد كتب دويوفيه Dubuffet نصا بعنوان « الفن والزاح » يمكن قرنه بصور مقنعة مستمدة من إنتاجه « وإذن فسنأخذ أنه لا محل لهذه الزحاح الصغيرة البريئة ، بل نريد تلك الزحاح القوية جدا ، تلك التي نجعلك تتجمد فجأة ، ونحوك إلى حجر » إن على الفن أن يضحك قليلا وأن يخيف قليلا . لقد صار وظيفة للروح اللعبة مفهومة فهما محييا .

ويضيف نفس المؤلف قائلا « إن المواد المادية جدا . . . وأصوات التبار ، وروح الأحجار ، كلها تهني أكثر من الزهرة أو الشجرة أو الترس . إلى دائما أقف عند حدود التخطيطات للشينة والمعجزة الصغيرة ، وهذه الدعوة إلى اللهمل ، وإلى قليل الأهمية هي أيضا ذات دلالة . إنها توجه الانتباه إلى الأعمال التي هي التدرية القصوى للفن للتق مع اللعب » . ومن أوائل من مارسوا هذه العملية برنكوزي في تركيبه قطعاً من الخشب للستعمل ، وذلك بعنوان « فتاة » وعبقريه يكسو قد ساقته كما يعرف الجميع إلى استرداد الفضلات . و « رأس الثور » — وقد صارت مشهورة — وتتألف من سرج عتيق وقوادة دراجة ، مثل كامل على

عملية تدين بوجودها اللعب وللسهولة التامة عند فنان لم تعد له من صفات غير البادئة  
وللزاح . ومن هنا أيضاً قطع الحزف ( السيراميك ) مثل « الديك » وهو أقرب  
إلى اللزاح منه إلى الشيطنة ، أو المحارب الذى تشبه عينه زر خوذة . وينبئ طبعاً أن  
نضع عند نهاية هذا الاستعراض من كان نجاحه بالغ الدلالة ، وننقش به كالدر ، مخترع  
الألعاب الجديدة بأزهاره وطبوره التى ظفر بها على جد الفن .

فإن كنا نتحدث عن أزمة الفن فى القرن العشرين ، فينبغى أن نعد ذلك وجهاً  
من أوجه أزمة العصر التلعائى فى المدينة الحديثة ، والأهمية التى ظفر بها الفن  
ربما تتجاوب مع البحث عن عرج وتنفس أفضل فى عالم خال من الإعياء ، وخاضع  
لنوع من انحطاط اللعب ، يجرى إلى إعادة توزيع صعبة للمخارج النفسانية . والفنان  
ومسلكه يقومان كما رأينا على نحو خاص . لكننا لا نملك إلا أن نسجل أن  
الفن عيّل إلى أن يتعدد بالمقاصد التلعائية ، أى كلعبة ليست لها قواعد . لكن  
هذا التساهل الأخير أفلا يقود الفنان إلى أن ينكر نفسه ، أعنى إلى أن يفقد  
الوسائل للؤدية إلى تحقيق الأمل للعقود عليه ؟ اللهم إلا أن يكون الأمر قد أصبح  
أمر العمل فقط من أجل شخصه . إن التطور فى النصف الثانى من القرن العشرين  
يبدو أنه يجيب عن هذا السؤال .





بوريس كوزنيتسوف  
اينشتاين وديستوفسكى  
ترجمة  
الدكتور فؤاد زكريا

لماذا قال أينشتاين عن ديستوفسكى . . « إنه يعطينى أكثر مما يعطينى أى مفكر آخر ، حتى جاوس<sup>(١)</sup> نفسه » ؟ وما الذى كان ديستوفسكى يستطيع أن يعطيه لواقع نظرية النسبية ؟

من المؤكد أن الأمر لا يتعلق هنا بالأفكار الفلسفية أو الأخلاقية أو الاجتماعية التى حشد بها ديستوفسكى أذهان أبطاله وأقوالهم ؛ ذلك لأن أينشتاين قد استمد من الكتابات الأدبية الفنية القوة الدافعة لأبحاثه ، ولكنه لم يستمد منها عناصر مفهوم علمى للعالم ، فلم يكن تأثير الخلق الفنى فى الخلق العلمى ناجماً عن أية حلول إيجابية يأتى بها الفنى ، وإنما كان نتيجة للأساس الجمالى المشترك الكامن فى مشكلات الفهم القديم للعالم ومتناقضاته ، ولقوة إحساس الفنان بالتناقضات والتعقيدات اللانهائية للربطة بأصل العالم .

هذا الإحساس يحول متناقضات العلم القديم إلى قوة دافعة للعلم الجديد . وترجع قوة هذه الطاقة الدافعة ، وقيمتها التاريخية ، إلى أن مصدرها تصور فنى — لتصور منطقي للعالم ، وإلى أن نتائجها نفسية وليست منطقية .

(١) يوهان كارل فريدريش جاوس ( ١٧٧٧ — ١٨٥٥ ) ، علم رياضى ألماني كبير ، نفساً أبحاثاً هامة فى نظرية الأعداد ، واستحدثت فى علم الفلك طرقاً جديدة لحساب مدارات الكواكب ، كما درس ظاهرة مرور الضوء من خلال مجموعة من العدسات ، وكان لأبحاثه أثر كبير فى تطور العلوم الرياضية والفيزيائية .

ولقد تكشف الجانب النفسى لاهتمامات أينشتين العملية بوضوح تام فى المقال الذى عرض فيه تاريخ حياته فى عام ١٩٤٩ ؛ فهو يتحدث فى هذا المقال عن عالمه الباطن خلال عهد طفولته ومراهقته ، وعن تلك الأمنية التى كانت تزدد قوة فى نفسه — أمنية الكشف عما فى العالم من انسجام طبيعى وفوق الطبيعى ، فمعرفة الانسجام الطبيعى تؤدى بالضرورة إلى علاقات فيزيائية ثابتة مستقلة عن الطرق التى تتبع فى اكتساب هذه المعرفة ، ومستقلة بوجه خاص عن النظم الحسائية ، بل هى تؤدى فى الواقع إلى تصيرات ثابتة ( لانتغير عند الانتقال من نظام إلى آخر ) تحدد القواعد الثابتة التى يحكم بها العالم .

وكما ازدادت عمومية للبإدىء التى تؤدى إلى تفسير الظواهر ، واتسع نطاق تطبيقها ، كان ذلك التفسير أقرب إلى الانسجام للوضوعى الذى يحمل من الكون وحدة محكمة ، ولذلك كان من الضرورى أن يتصف للفهوم الفيزيائى « بالكمال الداخلى » فضلا عن « التبرير الخارجى » ؛ أى أن النظرية والخصائص للملاحظة يبنى أن يتطابقا . ولهذا الميار دور هام فى أبحاث أينشتين ، وفى تفسير أصل المفاهيم الفيزيائية التى وضعها . وينحصر ذلك « الكمال الداخلى » فى عدم وجود أية فروض غير متسقة ، ابتدعت قسراً من أجل تفسير واقعة معينة ، وفى التزام النظرية للطبيعة ، وفى انسجام منطقها ، وفى المجموعة المحكمة من البإدىء الأولى التى تلزم عن تحليل خلق العالم بوصفه ( كلا واحد منسجماً )

ولقد أظهرت تجارب ميكلسون Michelson فى نهاية القرن الماضى أن سرعة الضوء لا تتوقف على الحركة المشتركة لمصدر الضوء والشاشة ، أو ببارة أخرى على حركة النظام System الذى ينتج الضوء فى داخله ، ذلك لأنه يبدو أن الضوء الذى ينتجه نحو نظام متحرك يلبغى أن يمر عبر هذا النظام بسرعة أكبر من ذلك الذى ينتج فى نظام ساكن بالنسبة إلى الأثير المحيط به ، وأى تغير فى سرعة الضوء يلبغى

أن يثبت حركة النظام بالنسبة إلى الأثير المحيط به ، مما يجعل في استطاعة هذا الأثير أن يقوم بدور الجسم الكونى ويحل بهذا النى محل المكان المطلق عند نيوتن . ومع ذلك فإنه لم يسجل أى تغير في سرعة الضوء ؛ فبند انتقال الضوء من نظام ثابت بالنسبة إلى الأثير المحيط ، إلى نظام متحرك بسرعة ثابتة بالنسبة إلى هذا الأثير ، ظلت سرعته — على الرغم من تغير نظام الحساب — هى نفس المقدار الثابت بالقياس إلى هذا التغير .

وقد حاول لورنتس Lorentz أن يحتفظ بفكرة وجود الأثير المحيط والتركيب الفيزيائى للحركة بالنسبة إلى الأثير ، وذلك بوضع نظرية تقول بتغير أبعاد الأجسام المتحركة فى الأثير ، فسرعة الضوء تغير ، ولكن التغير فى سرعته داخل الجسم المتحرك يوضه تغير فى أبعاد الجسم ذاته ، وبالتالى فى طول للمسافة التى يقطعها الضوء عنده مروره به ، وتتفاوت هذا الطول على نحو من شأنه أن يصبح من المستحيل تحديد التفاوت فى سرعة الضوء . ولقد كان فرض لورنتس هذا يتسم « بالتبرير الخارجى » أى أنه لا يناقض النتائج للملاحظة ، ويتشئ مع النتائج التجريبية ، وهى استحالة تسجيل التفاوت فى سرعة الضوء فى نظام متحرك ، واستحالة تسجيل حركة هذا الأخير .

ولكن الأمر هنا لم يكن يتعلق إلا بتعويض متبادل بين نتيجتين للحركة فى الأثير : وهما امتداد للمسافة التى يقطعها الضوء ، وتغير سرعة الضوء الذى يوض هذا الاختلاف كلما تحرك النظام خلال الأثير . ولم تكن هذه الفكرة تنسم « بالكمال الداخلى » ، ولكن كان من الضرورى القول بها لتفسير نتائج تجربة ميكلسون بوجه خاص ، وهكذا كانت الفكرة مرتكزة على فرض مصطنع ، لا على مبادئ عامة .

أما أينشتين فإنه آنى بتفسير مخالف تماماً ، لثبات سرعة الضوء ؛ فهو يرى أن الحركة بالقياس إلى الأثير لاتند عن للملاحظة ، بل هى — ببساطة — غير موجودة.

ولهذا السبب استبعد الأثير الذى كانت وظيفته الوحيدة هى أن يكون جسماً كونياً من تفسيره للكون . وقد استنبط أينشتين فكرة ثبات سرعة الضوء من اعتبارات عامة متعلقة بالمكان والزمان ، وهى اعتبارات طبيعية تماماً ، ومبنية على الهيكل العام للمعرفة الفيزيائية ، كما أثبت ارتباط فكرة التزامن *Simultaneity* بالزمان للطلق . فإذا لم يكن الانتقال الفورى لتأثيرات التبادلة ، كما قال به نيوتن أى وجود ، ضدنذ ضد العملية المكانية الخاصة التى تقع فى لحظة واحدة وفى نقطة محددة من الزمان مجرد خرافة ، وتقع فكرة للكان كل مقابل فيزيائى لها . وإذا لم يكن فى استطاعتنا التحدث عن حركة مطلقة فى الأثير ، فإن الإشارات الضوئية لاتسمح بتحديد زمن واحد للحوادث التى تقع فى أنظمة مختلفة ؛ ففي النظام للمين تبلغ الإشارات الضوئية الصادرة عن نفس المصدر شاشات تبعد عنها بعداً متساوياً فى وقت واحد ، أما فى حالة نظام آخر يتحرك بالنسبة إلى النظام الأول ، فينبغى أن يجتاز الضوء لكى يصل إلى إحدى الشاشات مسافة أكبر من تلك التى يجتازها لكى يصل إلى الأخرى ، ومن ثم فإن وصول الإشارتين إلى الشاشتين لايسود حدثاً متزامناً . وعلى ذلك فإن تصور لحظة واحدة تحدث فى كل مكان وتسرى على العالم بأسره ، وتصور زمان واحد يتبد فى نفس الآن على للكان الكونى بأسره ، يندو تصوراً لاعمى له .

إن الزمان مرتبط بالمكان ، ومن الحال الفصل بينهما ، فالعالم مجموعة من الحوادث تحدها ثلاثة أبعاد فى للكان ، ويسد فى الزمان . وقد وصف منكوفسكى *Minkovsky* الحدود الأربعة التى تحدد موقع أى حادث فى للكان والزمان بأنها « قط عمالية » ومن هذه « النقط العمالية » تتكون « خطوط عمالية » فى أربعة أبعاد تكون تلك الكثرة من الصور ذات الأبعاد الأربعة ، التى هى العالم الحقيقى فى للكان والزمان .

ولقد توصل أينشتين إلى نظرية النسبية ، لأن ميعار « الكال الداخلى » الذى

استخدمه في بحثه في الطبيعة الحقة للنظرية الفيزيائية كان معياراً « فيزيائياً » ، فمن الواجب أن تكون المصادرات العامة التي تركز عليها النظرية الفيزيائية بما يقبل — من حيث المبدأ — التحقيق بالتجربة ، وبواسطة علاقاتها بالوقائع للملاحظة . ولا يمكن أن تصح للمفاهيم الأصلية في المجال الفيزيائي إلا إذا كانت هذه العلاقة ممكنة ، فإذا أدت التجربة إلى نتائج لا تتفق والنظرية القائمة ، فإن النهج الفيزيائي السليم ( أعنى ذلك الذى يبنى على أعم القدمات ويستخلص منها النتائج والارتباطات بمقارنتها بالظواهر للملاحظة ) يختبر من جديد ، بطريقة منظمة ، الأفكار التي تنطوى عليها النظرية القديمة ، ويرفض تلك التي تقتصر إلى المنطق الفيزيائي للطلوب ، وقبل النظرية المنطوية على مفارقة ، والتي يزول في داخلها الطابع المتناقض للنتيجة التجريبية الجديدة . ويصبح فيها طبيعياً سوياً . وقد حدد أينشتاين الفكرة الرئيسية في نظرية النسبية ، في رسالة بعث بها إلى صديقه القديم «موريس سولوفين Maurice Solovine» قال : « على الرغم من تباين المصادر التجريبية لنظرية النسبية ، فمن الممكن تعريف منهجها ومضمونها في كلمات قليلة . فقد كان من المعروف ، حتى في العصور القديمة ، أن الحركة لا يمكن أن تدرك إلا من حيث إنها « نسبية » . ولكن الفيزياء اتخذت لها أساساً مضاداً لهذه الحقيقة ، هو فكرة الحركة المطلقة ؛ ففي مجال علم البصريات يقوم مفهوم الحركة على الفكرة القائلة بأن خصائصها تختلف عن تلك التي تتمثل في المجالات الأخرى . وكانت حركة الضوء في الأثير تمد حركة من هذا النوع ، بحيث تنسب إليها أية حركة للأجسام المادية . وهكذا كان الأثير يمثل فكرة السكون المطلق بالنسبة إلى فراغ . ولو كان هذا الأثير الضوئي الساكن الذى يملأ المكان بأسره موجوداً بحق ، لأمكن أن تعزى إليه الحركة ، ولا اتخذت هذه الحركة عندئذ معنى مطلقاً . وعندئذ يمكن اتخاذ مثل هذا المفهوم أساساً للديناميكا . غير أن التجارب التي تهدف إلى إثبات هذه الحركة الخاصة في الأثير المفترض قد أثبتت إخفاقها التام . ومن ثم قد حدث رجوع إلى مشكلة الحركة في الأثير . . . » والواقع أن نظرية

النسبية مبنية على افتراض عدم وجود مركز خاص للحركة في الطبيعة ، وهي تحلل النتائج التي يمكن أن يؤدي إليها مثل هذا الافتراض ، ومنهجها في ذلك أشبه بمنهج الديناميكا الحرارية ، إذ أن هذا الأخير ليس إلا إجابة منظمة على السؤال : « كيف ينبغي أن تكون قوانين الطبيعة إن كانت الحركة الدائمة مستحيلة ؟ » ، ومن النتائج التي يسفر عنها عدم وجود نظم حامية مميزة ، أو حركات مطلقة مميزة ، النتيجة القائلة بأن سرعة الضوء هي أكبر سرعة للعمليات الفيزيائية ، فالحدث الذي يقع في نقطة معينة قبل أن يصل الضوء إلى هذه الأخيرة من نقطة ثانية وقع فيها حادث آخر ، لا يمكن أن يعد نتيجة لهذا الحادث الثاني . ولا يمكن على الأخص أن تحدث حركة جسم بسرعة تفوق سرعة الضوء . ويتربط على ذلك القانون القائل بأن إضافة السرعات لا يمكن أن يؤدي إلى مجموع للسرعة يفوق سرعة الضوء ، فعندما تقترب سرعة جسم من سرعة الضوء ، فإن اللوثرات الأخرى التي يتلقاها الجسم يكون لها تأثير أقل ، فتكون النتيجة أشبه ماتكون بزيادة كتلة الجسم مع ازدياد سرعته ، بحيث تنجبه إلى اللانهاية عندما تقترب سرعة الجسم من سرعة الضوء . ولقد كان التعميم (الذي نادى به أينشتاين ) القائل بأن كتلة الجسم تتوقف على سرعته ، يمثل فكرته القائلة بأن كتلة الجسم الساكن تتناسب مع طاقته الداخلية . وقد لقيت هذه الفكرة ، وكذلك نظرية النسبية ، تأييداً كاملاً في الفيزياء النووية ، التي تعتمد على إطلاق الطاقة الداخلية للنواتج بطريقة تتناسب مع الاختلاف في كتلتها ، وفي الوقت ذاته فإن علاقة التناسب بين الكتلة والطاقة تتيح لنا تصور تحول الأجسام ذات الكتلة إلى أجسام بلا كتلة وإنما تسير بطاقة مناظرة .

تلك هي الأفكار الرئيسية لنظرية النسبية « الخاصة » التي أسفر عنها القول باطراد العمليات الفيزيائية في النظم التي تسير بدون أن تكون هناك عجلة نسبية بينها ، أي بطريقة ثابتة منتظمة .

وقد عمل أينشتين في الفترة ما بين عامي ١٩١٢ و ١٩١٦ على وضع نظرية النسبية «العامة» وذلك بتعميم مبدأ النسبية في حالة الأجسام ذات المعجلة  $Acceleration$  فهذه الأجسام الأخيرة تبدو ذات طابع مطلق ، إذ أنه عندما يسير نظام ما بمعجلة ، فإن قوى القصور الذاتي تظهر ، مثال ذلك أن السائل للوجود في إناء يدور ، يندفع نحو الأطراف ( وهذا مثل كلاسيكي ضربه نيوتن في كتابه « للبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية » ، وكان يهدف منه إلى إثبات الطابع للطلق للحركات الدائرية أو الحركات المعجلة فحسب ) فلو كان العالم يدور حول الإناء لما اندفع السائل نحو الجدران . وبالمثل فإن المرء عندما يكون في قطار لا يشعر بأية صدمة لو لم يكن القطار هو الذي يجعل فجأة ولو كانت الأرض هي التي بدأت تسجل بالنسبة إلى القطار ( الذي كان إما ساكناً وإما متحركاً بنفس سرعة الأرض ) ، وقد تطلب أينشتين على هذه الصعوبة بأن أشار إلى التكافؤ بين قوى القصور الذاتي في أى نظام توجد فيه حركة منتظمة ، وبين قوى الجذب ، ويمكننا أن نمزو هذه النتائج ذاتها إلى تأثير قوى الجذب في نظام لديه حركة منتظمة ، أو إلى تأثير قوى القصور الذاتي في نظام لديه حركة معجلة ، ولكنه لا يمتنع لتأثير قوى الجذب . وهكذا يمتحن ذلك المعيار للطلق الذي يعرّين الحركة للمعجلة وبين الحالة السكونية ، والذي يتيح تسجيل الحركة المطلقة تبعاً لمسلك العمليات الداخلية في نظام لديه حركة معجلة . ولكي يطبق أينشتين هذه النتيجة على ميادين أوسع ، استحدث فكرة للكان — الزمان المقوس ، فمن السهل أن تصور خطأ أو سطماً مقوساً ، ولكن من الصعب أن تصور قوساً يؤلفه شكل ذو ثلاثة أبعاد ، بل إن الأصعب من ذلك أن تصور قوس للكان — الزمان ذي الأربعة أبعاد ، ومع ذلك فإن الأمر هنا متعلق بحقيقة بسيطة نسبياً : ففي للكان المقوس تعدل النسب الهندسية ، ولا يعود مجموع زوايا المثلث الواقع على سطح الكرة مساوياً لقائمتين ، وعلى وجه الإجمال فإن الهندسة اللا إقليدية تحمل عمل هندسة أفقليدس ، ذلك لأن الجاذبية تجعل «الكان — الزمان» مقوساً ، وتجعله لا إقليدياً ، فيترتب على ذلك ألا تعود الأبعاد الهندسية أبعاداً إقليدية ،

وإنما تصبح لا إقليمية (لا سيما وأن مجال الجاذبية يزداد قوة)، فالجاذبية تدفع الخطوط المتوازية إلى التلاقي، وتدفع مجموع زوايا المثلث إلى أن يصبح مختلفاً عن القائمتين، ولا يعود للربع المقام على الترمساوياً لمجموع الزوايا القائمة على الضلعين الآخرين. وإنه لمن الضروري أن تؤكد الاختلاف في البدأ بين مفارقات نظرية النسبية العامة، ومفارقات هندسة الإقليدية بما هي كذلك، فالأخيرة تدهشنا لكونها لا تتناقض فيما بينها. وإنه لمن الصعب أن تصور كيف أن قضايا بعيدة إلى هذا الحد عن القضايا التقليدية وبعيدة — على ما يبدو — عن التجربة اليومية، لا تنطوي على تناقض داخلي. غير أن الأصعب من ذلك بكثير أن نتخيل أن هذه القضايا لا يتسق بعضها مع البعض فحسب، بل إنها تطابق الواقع أيضاً، « فالحقيقة الفيزيائية للمفارقة الهندسية » تمثل شيئاً جديداً لم يكن له وجود من قبل على الإطلاق، وهذا هو الطابع الأساسي لأفكار أينشتاين.

ويكتفينا ما قلناه من قبل لكي نتبع عدداً من مظاهر التشابه بين طبيعة عقلية أينشتاين « الفيزيائية » وخصائص القدرة الفنية الخلاقة عند دسوتوفسكي.

إن كل رواية أو قصة، وكل اقتباس من أعمال دسوتوفسكي يمثل نظاماً بوليفونياً، أي تتعداً في الأصوات لا يكاد يحيطه صوت المؤلف ذاته<sup>(١)</sup> ألا يجوز أن نشبه هذا التعدد في الأصوات، الذي يمر عن كثرة من الأفكار ومن النظرات إلى العالم، بمجموعة النظم الحسية بأسرها؟ كلا، فمثل هذا التشبيه لن يكون سطحياً فحسب، بل إنه لباطل تماماً؛ فهو يؤدي بنا إلى مفهوم « الفكرة للمستعارة » وهو مفهوم عقيم عند تحليل العلاقة بين الأفكار الفنية والعلمية، وهو قبل هذا كله بعيد عن التصديق حين يكون الأمر متعلقاً بدسوتوفسكي وأينشتاين. والواقع أننا

(١) انظر البحث الصادر بعنوان « مشكلات الشعر عند دسوتوفسكي » بقلم باختين Bakhtin في سلسلة « الكتاب » السوفيت موسكو ١٩٦٣ .



تزداد اقتراباً من الروابط المحتملة بحق بينهما ، إذا ما ركزنا اهتمامنا على «الفكرة  
الفيزيائية» التي يتميز بها أينشتين .

إن النظم الحسائية متساوية في صحتها ما دامت توجد استظامات فيزيائية ونسب  
فيزيائية مناغرة تحفظ لها مساواتها عند تحويلها إلى نظام آخر ، ذلك لأن قوانين  
الديناميكا الكهرية ، شأنها شأن القوانين الميكانيكية ( كما أدرك جاليليو ونيوتن ) ،  
تعمل بطريقة فطردة عندما تنقل من نظام إلى نظام آخر يتحرك في خط مستقيم مستقيم  
بالنسبة إلى الأول . فذلك علاقات ثابتة بالنسبة إلى تحول النظم الحسائية .

وفي أعمال دستوفسكي ضادف أيضاً بعض الثوابت ، غير أن هذه الثوابت ليست  
هي أفكار أبطاله . ولو اتخذنا نقطة بدايتنا من تأمل ثوابت دستوفسكي ، وأجرينا  
مقارنة بينها وبين عمل على ، لكان من الواجب أن نرفض على الفور الفكرة القائلة  
بوجود تشابه بين أفكار دستوفسكي وبين أفكار أبطاله من جهة ، أو بينها وبين  
أفكار أينشتين من جهة أخرى ، فدستوفسكي يتقل من أفكار إيمان كارامازوف إلى  
أفكار أليوشا ، ومن أفكار راسكولنيكوف إلى أفكار سيفيدربايوف ، ومن أفكار  
ستافروجين إلى أفكار ستيفان فيروفلسكي . أما العامل الثابت في هذه التحولات  
فتمثله خصائص نفسية معينة لأبطال دستوفسكي ، لا أفكارهم أو موقفهم من هذه  
الأفكار ، أي أنه ليس هو الأيديولوجية وإنما هو السيكلولوجية .

هذه الثوابت تليح كشف العالم الداخلي لهؤلاء الأبطال ، وهو الدور الذي يقع  
على عاتق المؤلف ، لا على هذه الشخصيات ذاتها .

إن جميع أبطال دستوفسكي يتميزون باستراقهم الكامل في فكرة ، أيأ كانت  
هذه الفكرة ؛ فلتأمل مثلاً للناقشة بين زوسيا المجوز وبين إيمان كارامازوف ،  
فزوسيا يرى أن محدثه ينكر المسيحية وخالود النفس ، والله ، ولكنه مع ذلك

لا ينكرها على نحو قاطع : فهو يشك ويتمذب . وهكذا يقول الرجل العجوز عنه . . . . إن أنبل القلوب هي التي تقدر على أن تتمذب بهذه الطريقة (١) .  
 كذلك يقول ألبوشا : « إن لديه فكرة عظيمة ، ولكنها غير مستقرة : فليس ما يريده هو لللايين ، وإنما هو في حاجة إلى حل مشكلة أفكاره (٢) » .  
 فأبطال دستوفسكي يتوقون جميعاً إلى المعرفة ، وإلى الوصول إلى قرار ، بغض النظر عن مشكلاتهم الدينية أو الأخلاقية أو الفلسفية ، وعن مراكزهم الأصلية ، وعن مستوى معرفتهم أو بيئتهم أو تقاليدهم أو مبادئهم الأخلاقية ، وكل شيء تضائل أهميته إلى جانب هذا الشوق إلى المعرفة وإلى اتخاذ قرار . وشوقهم هذا يدفعهم إلى ارتكاب أخطأ الأعمال أو إلى أداء أرفع الأعمال ، ويحول روايات دستوفسكي إلى روايات مغامرة ، (وعندما يتعلق الأمر بجرائم ترتكب في سبيل هذا النهم إلى المعرفة ، فإن هذا الشوق هو الذي يحول رواياته إلى ما يشبه الروايات البوليسية ) ؛ فثولفات دستوفسكي حافلة بالحركة والنشاط الذي هو في أساسه تجربة محضة ، والذي هو في معظم الحالات تجربة رهيبة قاسية . فلتأمل حالة راسكولنيكوف ، وهو يحكي جريمته لسونيا : « لقد كان علي أن أعرف شيئاً آخر ، وقد دفعتني إلى ذلك شيء ما ، كان علي أن أعرف في هذه اللحظة ، أو في أقرب وقت ممكن ، إن كنت مجرد شخص مثيل الشأن كالآخرين أو أنني رجل بحق . فهل سيكون في استطاعتي أن اتخذ هذه الخطوة أم لا ؟ وهل ستكون لدى الشجاعة لكي أقف واتخطها أم لا ؟ هل أنا مخلوق رعديد أو أن من حق بالفعل (٣) . . . » .

- 
- (١) دستوفسكي ، مجموعة المؤلفات ، في عشرة مجلدات . دار الدولة لنشر الآداب موسكو ١٩٥٦ — ١٩٥٨ ، المجلد التاسع ، ص ٩٢ .  
 (٢) المرجع نفسه ، ص ١٠٥ .  
 (٣) المرجع نفسه ، المجلد الخامس ، ص ٤٣٨ .

والحق أن راسكولنيكوف لم يكن ينتفع من أموال العجوز التي قتلها . ولقد تلقى إجابة سلبية على سؤاله : « هل سيكون في استطاعتي أن أخخذ هذه الخطوة ؟ » وكانت تلك هي النهاية . ومثل هذا يصدق على بقية أبطال دوستويفسكى ، فهم لا يقتلون ، ولكهم يهامون بناد يفوق قدرة البشر ، ولا يكاد يمكن تصديقه ، وتظهر فيهم قدرات معجزة على إنكار القات ، ولكن هذا الإحساس الذي لا يصدق والذي يفوق قدرة البشر أو يتخذ صبغة غير إنسانية ، يظهر دائماً عند حافة الهاوية ، أو الجنون أو الجريمة ، وفي بعض الأحيان بعد الحافة ، ويكون هدفه دائماً هول المعرفة ، والتحقق ، والقرار . وعلى هذا النحو تتشابه الشخصية للشركة بين أبطاله جميعاً الذين يناطرون بكل شيء لكي يعرفوا السمات المميزة لشخصية مؤلفهم العبقري ، وتعبّر عنها ، فالؤلف هو الذي يضع أبطاله في موقف التجربة القاسية ، ويجمع حياتهم كلها في لحظة حاسمة ، ويحررهم من كل ما هو شخصي سوى عادي . وعلى هذا النحو يحرمهم من اللؤثرات المارسة فيما يتعلق بمشكلة المعرفة . وهكذا فإن هؤلاء الناس الذين أصبحوا يحملون على أكتافهم مشكلات أخلاقية وكونية ذات طابع عام تماماً ، يكشفون أنفسهم في حالات فراغ تجريبي كامل ، وفي حالات جهد وسرعة وتوتر ، وفي اللحظات التي تفصل بينهم وبين الانتحار أو القتل أو الجنون ، وفي مواقف شاذة غريبة ، وفي الحلم أو الهذيان - وهم باكتشافهم أنفسهم إنما يكشفون دلالة الحلول التي يلتصقونها .

ولقد كتب دوستويفسكى يقول عن إدجار آلن بو : « إنه يجتاز في كل الأحوال تقريباً وأما شاذاً إلى أبعد حد ، ويضع أبطاله في أغرب موقف خارجي أو نفسي ، ثم يصف حالة بطله بإحكام رائع ودقة تدعو إلى العجب ! » والحق أن دوستويفسكى ذاته كان يتمتع بقسط وفير جداً من تلك الصفة التي كان يقدرها في أعمال « بو » . بل إن أغرب المواقف في أعمال « بو » لتبدو عادية إذا ما قيسَتْ بلحظات كتلك التي يحدث فيها ، داخل كوخ حقيق تماماً بالقرب من ترعة « إيفودنى » أو في

نزل ربنى وسط أصوات كرات البلياردو وطريقة زجاجت البيرة ، أن يعمل رجل على حافة الجنون تفكيره ببناء شديد فى مشكلات تتضمن خلق العالم بأسره ، وتاريخ السكون كله ، ومعزاه العام ، وكل ما فيه من انسجام وتنافر ، ويبدو فيها أن أهم للمشكلات ستحل فى هذا الجو . فى مثل هذه اللحظات يبدأ المرء فى أن يلمح من خلال أشد اللواقف واقعية ، ما فى الكون من صدمات وتناقضات . وفى هذه الصدمات ذاتها ، وفى البحث عن الحقيقة ، نجد للبرر والمعنى الذى يشرح لنا علة التحولات للندفة التى تطرأ على الموضوع ، وتلك الآلام التى لا يتحملها بشر ، والسورات المتعارضة غير التوقعة التى يعانها بطله فى نفسه للريضة . والحق إن مشكلة التجربة والبحث هذه هى ذاتها التى تضمن على روايات دستوفسكى طابعاً لحنياً *Melodious* ؛ فى كل مرة تقرر فيها نقطة التحول ، ويتحقق فيها الفعل ، وتنفذ الاستجابة للباشرة ، فإننا نشعر — سواء كان تحول الأحداث أو الأفعال — أو الاستجابات غير متوقع ، أو عنيفا ، أو ينطوى بطبيعته على مفارقة — بأن هذه ضرورة حتمية لا بد منها لحل المشكلات الأخلاقية والفلسفية والنفسية . هذا الطابع اللحنى ، على الرغم من أصالة أشد التناقضات وحشية ، أو أبعد اللواقف عن اللألوف ، هو الذى يميز رواية من روايات دستوفسكى ، « فهو فنان للفارقة الأصلية » .

ونود الآن أن نؤكد سمة من السمات المميزة « للتجريبية العنيفة » عند دستوفسكى ، فأبطله لا يسعون إلى جمع أدلة تجريبية تتراكم باطراد من أجل إثبات أفكارهم ، بل إن التجربة عند دستوفسكى حامية ، فهى — على حد التعبير الشائع — تجربة فاصلة *Experimentum Cruceis* . فعندما يقتل راسكولنيكوف المرأة

---

\* يهيم مؤلف المقال هنا على سمة تتميز بها الألحان التريية ولا تعرف فى اللحن الشرقى ، وهى سمة لإرجاع التنافر أو النشاز ، الذى يظهر مؤقتاً فى اللحن إلى التوافق مرة أخرى بحيث يبدو هذا التنافر ضرورياً من أجل إظهار التوافق والانسجام التام . ( المترجم )

المجوز ، ويرحل إيفان كارامازوف صوب تشرماشيا ، تاركاً حياة أبيه في يد  
مرد يا كوف ، فإننا نجد أنفسنا في كل حالة إزاء تجربة فريدة ذات طابع حاسم ،  
لا مجرد تجربة عادية خفب . ولهذا السبب كان دستوفسكي يجد غرابة في الرواية  
الكلاسيكية التي تموفها الشخصية وتطور فيها حياة البطل الداخلية . أما هو فيركز  
كل شيء في للنظر الحاسم ، ويبدو أن هذا للنظر هو الذي سيأتي بالإجابة على السؤال  
بالأخلاقي والفلسفي الأزلى .

على أن خصائص العمل الفني التي أوضناها من قبل تبعد عن العلم ابتعاداً  
كبيراً . وهذا الحكم يصدق فعلاً على أساس للشكلات ، والأسئلة والإجابات ، وعلى  
مضمون التجربة بطبيعة الحال ، غير أن هذه الخصائص تقترب من العمل الفني فيما  
يتعلق بالصلة بين الفكر والتجربة ، وبالجراءة التي يتولى بها المؤلف القيام بأشد  
التجارب تطرفاً وقسوة ومفارقة ، وبذلك النهم إلى المعرفة ، والبحث عن التجربة  
الفاصلة ، واستبعاد كل ما هو عرضي متكرر غير مرتبط بحل المشكلة الكونية  
من الوعي . وهذا الوجه من أوجه المشكلة مشترك بين جميع أبطال دستوفسكي  
على الرغم من تباین أسس أفكارهم . وفي هذا الوجه نستطيع أن نكتين صفة عائلية  
في هؤلاء الأبطال ، لا صفة يتفرد بها كل منهم — تلك هي صفة المؤلف نفسه .  
وإذا كانت البوليفونية ( تعدد الأصوات ) تميز الأفكار التي عبر عنها دستوفسكي في  
رواياته ، وإذا كان صوت المؤلف لا يعلو على صوت أبطاله من وجهة نظر  
الأيديولوجية ، فإن أعمال دستوفسكي ليست مع ذلك مجاورة ( دياالوج ) وإنما هي  
حديث شخص واحد ( مونولوج ) وذلك من جهة نظراً إلى موقفه من التجربة والمعرفة ،  
ومن جهة أخرى نظراً إلى تجاوزه للوعي الشخصي والفردية . ومن هنا لم يكن  
من المستغرب أن يتحدث أبطاله جميعاً نفس اللغة ، وأن ينتموا جميعاً ( سواءاً كانوا  
حماليك أم أناساً شرفاء ) إلى نفس النوع من الأشخاص ، الذين تستحوذ عليهم  
فكرة أو مشكلة .

فالبلافة « بالتجربة الفاصلة » هي الحد الذي يظل ثابتاً عند الانتقال من بطل إلى آخر وتظل هذه العلاقة هي الثابتة عند الانتقال الأعم من العمل الفنى إلى العمل العلمى . ومن الواضح بطبيعة الحال أن هناك فروقاً ينبغي ألا تغيب عن أذهاننا : هي أن الباحث الذى يستغرق فى مشكلة من مشكلات العلم الطبيعى ينسب وجوده الخاص ، على حين أن البطل عند دستوفسكى لا يكاد يمكنه أن يفعل ذلك ، إذ إنه — على الأقل — يجرى التجربة على ذاته . غير أننا بعد أن أشرنا إلى هذه الفروق نستطيع أن ندرك حداً مشتركاً وثابتاً . وحسبنا أن نشير إلى هذه الحقيقة : وهي أن تركيز المشكلة فى تجربة فاصلة كان هو الذى يميز أينشتين . وقد روى « تام I. E. Tamm » ملاحظة أدلى بها أينشتين بشأن مشكلة الجزيئات والاتصال : فقد ذكر أينشتين أن كل ما يلزم لحل المشكلة هو كشف الإلكترون ، إذ أن العلاقة بين الإلكترون والمجال الكهربى المضاطيسى تنطوى على المشكلة بأسرها (\*) ومع ذلك فإن المشكلة لم تحل ، ومن المسير أن نحدد فى الوقت الراهن مدى صحة ملاحظة أينشتين . غير أن الاتجاه إلى القيام بتجربة فاصلة واحدة هو اتجاه يميز للعالم الناجمة عند أينشتين . فعندما حاول أينشتين أن يستخلص النتائج المترتبة على تجربة ميكلسون — أى غير تصور المكان والزمان والحركة — لم يبد اهتماماً كبيراً بتكرار التجربة وبتكديس الأدلة التجريبية من أجل تأييد فكرة ثبات سرعة الضوء ، وثبات العلاقات الضوئية والإلكترودينامية بوجه عام فى النظم المتميزة بالقصور الذاتى ، كذلك فإن التجربة التى أجراها راسكولنيكوف على ذاته ، والتى أدت إلى تحطيمه ، لم تكن تحتاج إلى تكرار أو تحسين . وإلى جانب هذا التشابه نرى فارقاً عميقاً بين التجربة الأخلاقية عند دستوفسكى وبين التجربة العلمية ، ففي الحالة الأولى يؤدى

---

Tamm : «Einstein and Contemporary Physics» Successes in (\*)  
the Physical Sciences, vol. 59, 1956, P.8

الإخفاق إلى أزمة طاحنة ، وكثيراً ما يؤدي إلى دمار البطل الذى يمر بالتجربة . أما في الحالة الثانية ، فإن أية نتيجة صحيحة تمد نصراً للباحث ، وتزيده قرباً من الحقيقة الموضوعية ، مخافات الإخفاق في العلم (حتى لو كان إخفاقاً أليماً كإخفاق لورنتس الذى تمنى لو كان قد مات قبل أن تنهار مبادئ الفيزياء الكلاسيكية) لا يمكن أن تصف بتلك المرارة التى تصف بها الكوارث الأخلاقية النفسية في روايات دستوفسكى . غير أنها تكون أحياناً شديدة العنف والإيلام ، بل قد يكون لها طابع المأساة كما في حالة الشك في قدرة المرء على بلوغ مثل أعلى علمي ، وشك الإنسان في قواه أو قدرته على حل مشكلة معينة .

ومن الممكن أن يكون للتل الأعلى للباحث ، والمشكلات التى يأخذها على عاتقه ، والخطوط العامة للحلول التى يسعى إليها ، قرينة من التل الأعلى للفنان بالمعنى الصحيح . وليست العوامل الثابتة الوحيدة في ذلك التحول الذى نرمز إليه « بالتحول من دستوفسكى إلى أينشتاين » هى الموقف الذى يتخذ من التجربة ، وطبيعة القائم بعملها والشغف الشديد بالتجربة ، بل إن علينا أن نتساءل : ما الذى يبحث عنه دستوفسكى في العالم وفي الإنسان ؟ إن عمله بحث ما سواى عن الانسجام ، فهو يرى أن الانسجام في العالم لا يمكن أن يكون بسيطاً ، أو « إقليدياً » كما يقول إيفان كارامازوف ، بل إن الأخير في حديثه مع أليوشا يتحدث عن الانسجام الكونى « للوجود الإقليدى » . وهو يقول : « ..... إننى مقتنع كأي طفل ، بأن الآلام ستخف وتقل ، وأن كل المهزلة الأليمة للمتناقضات البشرية ستخفى كما لو كانت سراباً واهناً ، وكما لو كانت احتراءً شيطانياً لخلق ضعيف حقير ، أو ذرة في العقل البشرى الإقليدى ، بل إننى لأؤمن بأنه سيظهر في نهاية العالم في لحظة الانسجام الأعظم شئ نقيس إلى حد أنه سيكون كافياً لشقاء

كل القلوب ، وإزالة كل سخط ، ولتكفير عن كل جرائم البشر وعن كل ما  
سفكوه هم أنفسهم من دماءهم»<sup>(١)</sup> .

ولا جدال في أننا نستطيع أن نمر سراعاً على المقارنة المباشرة بين « العالم  
اللاإقليدي » عند دستوفسكي وبين عالم نظرية النسبية العامة : ففي استطاعة كل  
شخص أن يفهم أن هذا العالم « اللاإقليدي » إنما هو رمز شديد العمومية للانسجام  
الذي تكمن في باطنه مفارقات الوجود . وربما انتقلت الفيزياء من الهندسة  
اللاإقليدية ، أى من هندسة ريمان ، إلى هندسة أعم وأشد مفارقة حتى من هذه ،  
وربما انتقلت إلى تصورات لا يمكن من حيث اللبدا تعريفها من خلال الهندسة .  
وهي أية حال فإن السعى إلى انسجام في هذا الوجود الذي يتسم بالمفارقة اللانهائية —  
هذا السعى الذي لا يتبدى في كلمات إيفان كارامازوف وحدها ، بل في جميع أعمال  
دستوفسكي — لا بد أن يكون قريباً مما تقطعه الفيزياء .

وعند هذه اللحظة يظهر الفارق ، ذلك لأن إيفان كارامازوف لا يعترف بهذا  
الانسجام اللاإقليدي لو كانت الخطوط للتوازية تتلاقى ، وحتى لو استطعت أن  
أتحقق من ذلك بنفسى ، وأن أراه وأقول إنها قد تقابلت ، فإننى لن أعترف  
بذلك<sup>(٢)</sup>، ويميل دستوفسكي إلى تجنب هذه الشكوك التي هي « غريبة تماماً عن العقل  
الذي خلق بفكرة الأبعاد الثلاثة وحدها » ويتجه ميله إلى الانسجام اللاإقليدي،  
بحيث يؤثر هذا الشوق إلى الانسجام في نفس القارئ على نحو مستقل عن الفيلسوف  
الذي توقف في منتصف الطريق ، والفيلسوف يتوقف ، ولكن الفنان يواصل السير  
ويكتسح معه الجميع في ذلك الطريق اللانهائى الذي يرسم لوحة العالم ، والذي يزداد

(١) مجموعة أعمال دستوفسكي ، المجلد التاسع ص ٢٩٥ .

(٢) المرجع نفسه ص ٢٩٦ .



تعتدّأ على الدوام — ذلك الطريق الذى يبدو فيه كل متعطف جديد مفارقة، ويدو  
لإقليديا بالمعنى العام للكلمة ، إذا ماقيس بالاتجاه السابق .

وهناك صفة أخرى تربط بين دستوفسكي وأينشتين ؛ فقد كان اهتمام الأول  
منصباً على المسائل الأخلاقية ، واهتمام الثانى منصباً على المشكلات الفيزيائية ، وكان  
دستوفسكي مستغرقاً فى التفكير فى مشكلات ما ينبغى أن يكون ، أما أينشتين فقد  
تركز تفكيره فى مشكلات ماهو كائن . غير أن مشكلة ماينبغى أن يكون قد حلت ،  
فى أعمال دستوفسكي ، على أساس مشكلة ماهو كائن . فحل مشكلة الوجود يقوم  
أساساً للاختيار فى سلوك الإنسان ، والأكثر شيوعاً من ذلك أن نجد سلوك الإنسان  
الفعلى وموقفه من القيم الأخلاقية « هل سأخذ هذه الخطوة أم لا ؟ » يمثل  
أداة فى يد المعرفة . أما فى أعمال أينشتين فيمكن أن يقال من وجهة نظر أخرى،  
إن حل المشكلات الفيزيائية يؤدى إلى مشكلات أخلاقية . فكيف ستؤثر كشف  
العلم فى حياة الناس ؟ وما هو الواجب الأخلاقى للباحث ؟ وهل يستطيع التقدم  
العلمى أن يكفر عما ضاع من أرواح بشرية فى هيروشا ؟ وما شروط الانسجام بين  
التقدم العلمى وأمن البشر وسعادتهم ؟ تلك كلها أسئلة تواجه العلماء المعاصرين ،  
وقد تكون فى بعض الأحيان مصدرأ لمأس ، أو لبث أخلاقى وعقلى . ولقد كان  
أينشتين أول من أدرك أهمية هذه الأسئلة ؛ فقد كان معجباً بأعمال دستوفسكي ،  
لأسبب « الأخوة كارامازوف » من وجهة نظر أخلاقية أيضاً . وقد صرح بهذا  
لاهرنبروج فى عام ١٩٤٧<sup>(١)</sup> . وكان يرى فيها الدليل على التعقد اللانهائى للمشكلات  
الأخلاقية . غير أن من الواجب حل هذه المشكلات باستخدام العقل ، فالأخلاق عند  
أينشتين عقلانية Rationalistic .

---

(١) انظر مقال إيليا أهرنبروج بعنوان « صورتان Two Portraits » فى مجلة Youth  
١٩٦٥ ، العدد الأول ص ٦٩ .

أما دستوفسكى الذى كانت تحيط به من كل جانب شبكة كثيفة متينة من اللول اللاعقلية ، ومن مظاهر التصب الاجتماعى والوطنى فقد كان هو ذاته يتوق إلى أخلاق تكون عقلانية فى أساسها . ولم يكن فى استطاعته ، بوصفه فيلسوفاً ، أن يتخلص من القيود اللاعقلية ، بل إنه لم يسع إلى ذلك . كذلك فإنه لم يستطع بوصفه فنانياً أن يتخلص منها حتى فى النهاية ، ومع هذا فقد كان يود ذلك خلاصاً .

إن حلوله الأخلاقية إنما تنشأ عن إجهاد منطقي شديد للذهن ، وهى السلاح الذى يستعين به . فما أقرب نطاق هذه الأفكار إلى العالم وإلى آرائه بشأن واجبه الأخلاقى والمارض بين كل كشف جديد فى ميدان العرفة وبين تطبيقه العقلى ( إن العالم يقترب بوجه خاص من الاتصالات والصور التى تتبلور فى العمل الفنى ) . والواقع أن الاتجاه العقلاقى عند دستوفسكى لا تعبر عنه أفكار المؤلف وشخصياته بقدر ما تعبر عنه الوسائل الفنية والشعر . فلغة دستوفسكى التى لا يظهر فيها أثر للهجة الطبعية ، والتى تعبر عن فكر استعوز على إنسان استعواذاً تاماً ، وجعله يشى كل ما عدها فى العالم ، هذه اللغة التى تقترب فى تقائها العقلاقى ، دون شك ، من لغة السيرنطيقا أو التركيبات اللغوية الرضوية التى تستهدف الاتصال بموجودات من خارج هذا الكوكب -- هذه اللغة هى ذاتها التى تدمر ذلك البناء اللاعقل القائم على النزعة الوطنية المتطرفة ، الذى شيده دستوفسكى . وهكذا فإن الفكر العقلى المشهور ، وريث ديكات واسينوزا ، وصاحب الدعوة إلى البحث فى أصل العالم بطريقة عقلية موضوعية ، كان يستطيع أن يكتسب الكثير من دستوفسكى ، لأن هذا الأخير وإن كان فيلسوفاً ذا نزعة مضادة للعقل ، كان فنانياً عقلاقياً .

إن الانسجام الذى كان دستوفسكى يتوق إليه كان انسجاماً عقلاقياً ، فهو لا يمكن أن يكون تجسداً للإيمان ، وللثراث ، وللعقيدة الجامدة ، ولا يمكن النظر إليه على أنه « عقل خلق بحيث لا يتصور سوى ثلاثة أبعاد » ، بل إن من

للمكن تصوره على أنه عقل لا إقليدى ، فبالنسبة إلى دستوفسكى الفيلسوف كان الانسجام اللا إقليدى للوجود غواية تضل للرء عن طريق الإيمان التقليدى . أما بالنسبة إلى دستوفسكى الفنان فكان هذا الانسجام هو الفكرة للسيطرة ، وهو يندو كذلك فى نظر كل من يكتشفون ، « الأخوة كارامازوف » و « الجرعة والمقاب » و « الأبله » الخ . ولم يكن من الممكن لأيدولوجية الكاتب الواعية الضادة للمقل أن تقضى على سلطة هذه الفكرة ، بل إنها تظل تؤثر على نحو مستغل عن هذا الليل ، ومن هنا كانت قوتها المائلة .

إن هناك نعمة رئيسية تسود أعمال أينشتين ، سواء منها تركيباته الرياضية وبناءاته الفيزيائية واستطاداته الفلسفية وكتابات الصحفية وأقواله للتأثرة عن حياته الشخصية — هذه النعمة هى أن خلق العالم يحكمه « تناسب موضوعى » ، ويسوده الانسجام . ويعبر عن هذا معيار « الكمال الداخلى » فى النظرية الفيزيائية وفى المفاهيم الفيزيائية السببية ، فليس العالم قوضى ، وإنما تحكمه قوانين تسرى بطريقة دائمة ويتجلى فعلها الدائم هذا فى ثبات العلاقة الفيزيائية ، وفى تجانس المكان « السطح » أو « للقوس » . ولو وجدت نظرية واحدة فى المكان كانت هى أرفع تمير عن هذا الانسجام ، وفى هذا الصدد صادف أينشتين صعوبات لم يستطع التغلب عليها . ولما كان قد رأى فى الوقت ذاته أمقت مظاهر التنافر الاجتماعى وأكثرها تخريباً ، فإننا نستطيع أن تصور مقدار الأهمية والضرورة التى كان أينشتين يعلقها على انتشار التبرير القى الراجع لأبحاثه فى الانسجام الكونى والأخلاقي ؛ فقد كان ذلك انتشاراً يتميز بقوة نفاذة جبارة بحق ، تجاوز — على وجه الخصوص — حدود الأجناس البشرية .

ولقد ورد اسم « الأخوة كارامازوف » فى رسالة بث بها أينشتين من برلين فى عام ١٩٢٠ ، وأثار فيها مسألة البحث فى نظرية واحدة — وهى مسألة يبدو

أنها شديدة الصعوبة ، على الرغم من أنها لا تزال في مرحلة مبكرة . ثم تحدث في الرسالة بعد ذلك عن الحركة الرجعية الوطنية في ألمانيا ، وهي حركة كان لا يزال من المستحيل تصور مدى الفوضى للدمرة التي ستؤدي إليها ، ولكن اتجاهها كان واضحاً حتى منذ ذلك الحين . وهكذا يتحدث أينشتاين عن « الأخوة كارامازوف » وسط حديثه عن مفهومين متعلقين باتجاهين خطيرين ، أحدهما عقلي والآخر أخلاقي سياسي ، يتناقضان مع الكل الأعلى للانسجام<sup>(١)</sup> .

وهكذا كان دستوفسكي بالنسبة إلى أينشتاين مصدراً للإلهام يوجه ويقوى ميله إلى البحث في الانسجام العلمي والاجتماعي والأخلاقي . ولم تحكم هذه القوة الدافعة في توجيه اهتمامات أينشتاين أو في تعديلها ، وإنما أدت إلى تقويتها ، فقد كان طريقه قد تحدد قبل أن يعرف مؤلفات دستوفسكي ومع ذلك يبدو أن التأثير الأخلاقي والعقلي لمؤلفات دستوفسكي في الحياة الأيديولوجية للقرن الذي نعيش فيه كان عنصراً قوياً فمالياً في تحديد الاتجاه الذي كان على أينشتاين أن يسير فيه .

---

(١) انظر : Carl Seelig : Albert Einstein, Leben und Werk eines  
Genius Unserer Zeit ، حياة عبقري في عصرنا ومؤلفاته .  
Zurich, 1960, P. 265 .

# من أجل تاريخ آسيوى لآسيا الحديثة

بقلم چان شرنو

ترجمة

عبد العزيز عبد الحق

لقد ظل تاريخ آسيا الحديثة عهداً طويلاً في البلاد الغربية على الأقل لا ينظر إليه إلا باعتباره تابعاً للتاريخ الأوربي ؛ فالسألة الكبرى الشاغلة للأذهان كانت تدور حول « مشكلة الشرق الأقصى » أى البحث في أنسب الظروف وأنجع الوسائل . وأجدى الأهداف التي تعين الدول الكبرى على التدخل في القارة الآسيوية . ويقصد بهذا التدخل الحصول على امتيازات تيسر للأوروبيين ما يقومون به من جهود وأعمال في آسيا كالتبشير والتجارة والحملات العسكرية وللفاوضات الدبلوماسية . وهذه النزعة تراها على سبيل المثال أشد وضوحاً في كتابات نعدها هامة لاعتبارات أخرى صنفها عدد من المؤلفين من أمثال ه . ب . مورس H . B . Morse و ه . كورديه H . Cordier ؛ فقد كان الأول موظفاً طوال سنين عديدة في مصلحة الجمارك البحرية الصينية في العهد الإمبراطوري ، بينما كان الثاني ابناً لوكيل مصرف باريس القومي في مدينة شنغهاي ، ومع ذلك فقد كان كل منهما يجمل اللغة الصينية حيث لم يعدا الاستعانة بها بالنسبة لمن يكتب في تاريخ الصين الحديثة أكثر لزوماً مما هي لرجل الأعمال للقيم في شنغهاي الذي كان ينعم برخص المصر الزاهر للمعاهدات غير التكتائية . وما نشره من المؤلفات<sup>(١)</sup> أفرداه لتاريخ العلاقات بين

---

(١) العلاقات الدولية الخاصة بالإمبراطورية الصينية (بالإنجليزية) طبع في شنغهاي في ثلاثة مجلدات من سنة ١٩١٠ إلى سنة ١٩١٨ وهو بقلم ه . ب . مورس . والتاريخ العام للصين بقلم ه . كورديه — باريس سنة ١٩٢٠ مجلد ٣ و٤ ولنفس المؤلف كتاب : تاريخ علاقات الصين بالدول الغربية في ثلاثة مجلدات طبع في باريس من سنة ١٩٠١ إلى سنة ١٩٠٣ . وانظر كتابنا : مقدمة لدراسة التاريخ المعاصر للصين — باريس سنة ١٩٦٥ ويتناول الموضوع من جهة أكثر شمولاً وقد كتبناه بالاشتراك مع جون لست John Lust :

الصين والدول الكبرى ( كسياسة الباب للفتوح والرخص وامتياز الإعفاء من التتريعات المحلية ، وإتخاذ بنود للماهدات ) ولا تنحى إلا عرضاً ولأماً بالتيارات للتدافعة في المجتمع الصينى والسياسة الصينية مثل فتنة تاي بينج<sup>(١)</sup> Tai — Ping والحركات الإصلاحية والنضال الاجتماعى .

وفى الحق نرى أن هؤلاء اللؤرخين وضعوا مؤلفاتهم منذ أكثر من نصف قرن وغالباً ما اتجهت عنايتهم فيما كتبوه بحقبة القرن التاسع وبداية القرن العشرين . بيد أن هذه النظرة ذاتها كانت هى الغالبة على أولئك الذين تصدوا لدراسة التاريخ للعاصر للصين حتى نشوب الحرب العالمية الثانية . فما يهم من الأبحاث هو « الحقوق وللصالح الأجنبية فى الصين » وهو موضوع يتفق فى اسمه مع عنوان كتاب هام فى الفقه القانونى كان يحتتم على كل وكيل من الوكلاء الأوروبيين الذين يعملون فى الصين أن يضع نسخة منه على مكتبه .

لقد كان معيار الحكم على أهمية حادثة من الحوادث فى تاريخ آسيا الحديث متوقفاً على الدور الذى تنهض به الدول العظمى ؛ فتؤتمر وشنطون الذى عقد فى سنة ١٩٢١ ، و ١٩٢٢ والذى ينظر إليه كماتق أنجلو سكسونى ، كبح من جماح اللطامع اليابانية فى الشرق الأقصى لفترة من الزمن على الأقل ، يعتبر فى نظر هؤلاء الكتاب أجل وأخطر من حركة الرابع من شهر مايو سنة ١٩١٩ فى الصين ، تلك اليقظة القومية فى رأى العام الصينى التى نعدّها اليوم نقطة البداية لجميع النهضةات

---

(١) فتنة تاي بينج أثارها أحد الصينيين من بلدة كوانج س Kwangsi ويدعى هونج سيوتسون Hong Sui—tsuen كان قد عرف بعض الأفكار المسيحية من مبشر أمريكى فى مدينة كيتون فأنتفا فرقة دينية زعم فيها أنه تاي بينج Tai—ping ومنعها امبراطور بمملكة السيام ذات السلام الدائم . وفى سنة ١٨٥٠ انضم إليه عدد من سكان الأقليم وجعل من فرقته جمعية سرية تنهض الأسرة الإمبراطورية الحاكمة . ثم ألتف جيشاً استولى به على بعض المدن الصينية وظلت الحرب سجلاً بينه وبين قوات الحكومة . وأخيراً قضى على فتنة تاي بينج سنة ١٨٦٤ . ( المترجم )

السياسية والفكرية التي أفضت في النهاية إلى الانتصار الشيوعي في سنة ١٩٤٩ ولكنهما مع ذلك مرت دون أن تسترعى انتباهاً<sup>(١)</sup> . كما أغفلت تقريباً حتى سنة ١٩٥٠ تلك السيرة الطويلة التي أقر للراقبون كافة في الوقت الحاضر ، بما كان لها من أهمية وخطر سواء بالنسبة للنازعات الداخلية بين صفوف الحزب الشيوعي أو من ناحية استراتيجيتها العامة ( حيث كان الكفاح القوي أولى بالصدارة والاهتمام من الثورة الاجتماعية ) . ولكن أهمية هذه السيرة لم تنب عن قسوة بعض الأشخاص .

يبدو أن الفكرة العامة الشائعة عن المشكلة الجوهرية في ثلاثينات القرن الحالى كانت تدور حول أزمة منشوريا وما أثارته من المناقشات التي لا تنتهى والتي خصصتها عصبة الأمم لمعالجتها دون جدوى .

فقد كانت الصين إبان مواجهتها للدول العظمى في حالة تبعية غير مباشرة ، بل كانت وجهة النظر للتمركزة أساساً على أوروبا أكثر وضوحاً وذلك فيما يتعلق بالاستعمارات الغربية في آسيا ( في الهند وجنوب شرق آسيا ) فكان تاريخ الهند الصينية وإندونيسيا وبورما لا يفهم إلا في نطاق للدولات للتعلقة بتاريخ التوسع الاستعماري وعمل أجهزة الإدارة الإستعمارية ومختلف أنواع النشاط الاقتصادي في استغلال موارد المستعمرات . واقتصر التاريخ الاجتماعي لشعوب المستعمرات على دراسة النتائج الاجتماعية للباشرة للاستعمار ( كما في المناطق الريفية مثلاً ) وأغفلت إغفالاً تاماً الصفوة للثقل والطبقة للتوسعة الحديثة . أما تاريخ الحركات الفكرية والنزعات السياسية فكان لا يتعدى الآثار الناجمة عن الحكم الاستعماري مع الإشارة إلى عدد قليل من أبناء هذه المستعمرات الذين اكتسبوا حظاً من نباهة للذكر في عهود الأزمات ولكنهم وضعوا في هذه للؤلؤات في مستوى أقل للفض من شأنهم

---

(١) راجع معلقته مجموعة من الصحفيين البريطانيين من أهمية نية لكل من هذين الحادئين في الكتاب السنوي لمعين القى عززوه تعزيزاً جيداً بالوثائق والبيانات .  
واقى نشره في ذلك الوقت في مدينة تيانسن Tientsin

كما عدوا في الغالب من للشاغبين ومثيري القلاقل الذين يعرفهم رجال الشرطة معرفة جيدة . أما بواعثهم للذهية فلم تسترع أى انتباه أو اهتمام . وهذا التاريخ الاستعماري ( الذي خصصت لدراسته كراس في الجامعات الكبرى في هولندة وفرنسا وبريطانيا المعظمى ) كان مقصوراً على دراسة التاريخ الآسيوي المعاصر من وجهة النظر الأجنبية الخالصة . وكان هناك أيضاً اتجاه إلى إخفاء التوافق الزمني في وقوع الأحداث وتفاعلها بين البلاد المختلفة مثلما كان متعلقاً منها بالحركات السياسية والنزعات الفكرية ؛ فتاريخ كل مستعمرة يدرس فقط من حيث علاقته بالبلد الأم الذي يحكمها .

ولدينا اليوم رجح مضاد لهذه النظرة ذات التركيز الأوروبي ، فلنذ الوقت الذي عقد فيه مؤتمر باندونج ومؤتمر القارات الثلاث ( آسيا وأفريقية وأمريكا اللاتينية ) الذي عقد في هافانا اتضح لنا بأن آسيا غدت قوة مستقلة ( أو مجموعة من القوى المستقلة ) حتى صار من المهم أن نستعيد دراسة تاريخها في القرن للماضى وأن نتفهم أحداثه من وجهة النظر الداخلية . وحسبنا هنا أن نسوق في هذا الصدد مثالا واحداً ، ذلكم هو مكانة الأحزاب الوطنية والزعماء القوميين ممن يحكمون بلادهم في الوقت الحاضر ، وهي مكانة تحمل للورخ على دراسة نشأتهم وتطور أفكارهم ونزعاتهم للذهية ووصف يثائهم الاجتماعية التي أثروا فيها أو تلك التي جاءوا منها ، وتتبع سيرهم وأدوارهم التاريخية من خلال الأحداث الصغيرة التي صادقتهم ، فعلى في المحل الأول ( إذا ما تناول التاريخ الحديث للهند ) أن يدرس حزب اللؤنجر وأن يبنى بخاندي ونهرو أكثر مما يبنى بدراسة تاريخ نواب الملك ( أو الملكة ) البريطانيين في الإمبراطورية الهندية ، كما أن الحزب الشيوعي الصيني وماوتسى تونج يخطيان على تاريخ الحكام الصينيين الرمنيين ليسكين أو نانكين على الرغم من أن الأخيرين كانوا الحكام الذين يعرفهم الترييون ويترفون بهم إبان الفترة الواقعة بين الحريين



الماليتين الأولى والثانية . والتسلسل للوثلف للتاريخ في إندونيسيا والهند الصينية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين لا يؤدي بإيراد نسق متال للحكام العامين في باتافيا وهانوى ولكن بإيراد نسق آخر للأحزاب الثورية ( القومية والشيوعية ) وزعمائها مثل سوكارنو وهوتى منه ولذا صار ثاماً قلب للنظور التاريخى رأساً على عقب والانتقال من نطاق التاريخ الاستعماري للشعوب الآسيوية إلى نطاق تاريخها القومى .

يبد أن هذه الوجهة للمستعدة ليست من الأمور السهلة الهينة في جميع الحالات فمهما يبدو من ضرورة بذ التاريخ للمستند أساساً على القرب<sup>(١)</sup> فإن هذا يثير عديداً من المشكلات المسيرة التي تترض منهاج البحث .

ففي المحل الأول نرى أن الرجح المضاد للمركز الأوروبي ( في دراسة تاريخ آسيا الحديث ) لا يعنى تجاهل العلاقات التي كانت قائمة بين آسيا والغرب في الأزمنة الحديثة والمعاصرة أو الانجاء إلى طرحها واستبعادها ، بل علينا على التقيض من هذا أن ندرس أساساً روابط التبعية التي طوعت البلاد الآسيوية للدول الأجنبية منذ أواسط القرن التاسع عشر ، فضلاً عن أن أولئك اللذين بهذه الأوضاع كانوا على بصيرة تامة بهذه العلاقات . وعلينا أن نذكر في هذا الصدد أن كلمة الإمبريالية تنتمى إلى للفردات التي استعمالها الزعماء القوميون مثل صون<sup>(٢)</sup> يات صن وسوكارنو وغاندى وأو أونج سان U.Aung San كما كانت أيضاً من مدلولات الليليين .

---

(١) انظر مثلاً بقلم ليوتانين Linta-nien عنوانه من أجل تاريخ موضوعي لتاريخ آسيا (بالفرنسية) ظهر في السدالماشر من مجلة: معلومات يكين بتاريخ ٧ مارس سنة ١٩٦٦

(٢) خمس صون يات صن فقرات طويلة عن الإمبريالية في دروسه عن مباحث الشعب الثلاثة (San-minzhu-yi) وخاصة في الدرس الرابع عن الإمبريالية البيضاء والإمبريالية الصفراء (طبعة إلها Elia) من ص ٨١ إلى ص ١٠١ .

إن بحثاً كاملاً متعمقاً في علاقات التبعية هذه بين البلاد الآسيوية والغرب لا يمكن أن يتألف خصب من البسط المجرد للتاريخ الدبلوماسي التقليدي كما كان يدرس حتى أواسط القرن العشرين ، فالقواعد الاصطلاحية المتعلقة بدبلوماسية التهديد بالحرب التي سيطرت على ما كان هناك من علاقات بين الدول الأوروبية في الأزمنة الحديثة والمعاصرة ، قلما تعيدت بها تلك الدول في آسيا ؛ فالعمليات العسكرية كانت تبدأ هناك دون الالتجاء إلى الطريقة التقليدية وهي إعلان الحرب ، مثلما حدث في الصين في سنة ١٨٤٢ (١) وسنة ١٨٥٨ أو في تونكين في سنة ١٨٧٣ و ١٨٨٣ ، كما أن تخريب مدينة ييكين واستباحتها في سنة ١٨٦٠ وما أصاب أيضاً مدينة هوي Hue في سنة ١٨٨٥ كان خارجاً على مبادئ القانون الدولي العام ، فالملفوظات التي كانت تجري في ظل التهديد بالقوة لم تكن سوى وسائل دبلوماسية تجري خلالها المناقشات بصورة غير متكافئة ، وكانت المعاهدات التي تسفر عنها تغييراً قانونياً زائهاً عن موقف القوة وكانت دائماً مثاراً للشك والارتياب عند الغربيين (راجع تواريخ المعاهدات التالية التي عقدتها فرنسا مع مملكة فيتنام في الفترة ما بين سنة ١٨٦٢ و ١٨٨٥) .

ومن جهة أخرى نجد أن التاريخ الدبلوماسي التقليدي كان مقصوراً في العادة على العلاقات بين الدول ، فقد كانت الفكرة السائدة أن هذه المستعمرات ليس لها نصيب في الحياة الدولية ما دامت قد تنازلت بصورة رسمية عن استقلالها كدول ذات سيادة . بيد أن الأخصائيين في الوقت الحاضر عليهم أن يبدوا النظر في ذلك الإقصاء (٢) (عن نطاق القانون الدولي العام) وأن يقدموا مفهوماً أوسع وأكثر

---

(١) يشير كاتب المقال هنا إلى الحرب التي وقعت من سنة ١٨٣٩ إلى سنة ١٨٤٢ وهي المعروفة باسم حرب الأفيون التي سبب ذكرها فيه بعد (الترجم)

(٢) راجع مثلاً كتاب ب . رينوفان P. Renouvin وج . ب دوروسل J.B. Duröselle مقدمة لدراسة العلاقات الدولية (باريس سنة ١٩٦٤) .

شمولا لدول العلاقات الدولية . ولكن لا تزال هناك حاجة للدراسة الجدية لجميع ضروب العلاقات فضلا عن العلاقات التي أقامتها البلاد الآسيوية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين مع بلاد آسيوية أخرى بالإضافة إلى ما أقامته من علاقات مع دول الغرب على الرغم من خضوعها للسيطرة الاستعمارية ، ويقضى هذا الإلزام بسدد من اللغات الأجنبية فيما خلا لغة الدولة الحاكمة ودراسة الاتصالات الفكرية ورحلات الشخصيات الهامة وهجرات العمال ، ومعرفة النظم السياسية الأجنبية ومختلف المذاهب ( الأيديولوجيات ) .

وحق ولو لم يكن لآسيا نصيب رسمي في العلاقات الدبلوماسية فقد اشتركت في الحياة الدولية بطريقة مغايرة . وحسبنا أن نذكر في هذا الصدد أمثلة ثلاثة وهي انتشار الأفكار الثورية الفرنسية وأثر حركة التجديد الياباني المعروفة باسم ميجي Meiji وقيام الجماعات الإصلاحية والثورية في الصين . وقد امتد أثر هذه الظواهر على نطاق كبير ليس في أرجاء المستعمرات الفرنسية لحسب ولكنه شمل أيضاً البلاد الخاضعة لسيطرة البريطانيين والمولنديين والألبان .

ومع ذلك فإن روابط التبعية لم تكن ظاهرة أساسية مقصورة على المستعمرات بل عمت بلاداً أخرى احتفظت احتفاظاً اسمياً باستقلالها ( وهي الصين وسيام (١) وإيران وتركيا ) . بيد أنه يتعذر علينا في الواقع إدراك معناها التاريخي دون النظر إليها في نطاق سياقتها الآسيوية . وقد أفردت مؤلفات كثيرة عاجلت المراحل المختلفة للتدخل الفرنسي في الهند الصينية ، وأدوار الفتح البريطاني للهند واتساع مدى التغلغل الحربي والدبلوماسي في الصين ، ولكنها كلها تناولت الموضوع من وجهة نظر أجنبية، مع أن ماهو أكثر أهمية - لكي ننظر بإلزام شامل للعمليات التاريخية - أن ننظر إلى هذه المشكلات من الداخل ، فلا تقصر اهتمامنا على أحداث التدخل

---

(١) سيام هو الاسم القديم لمملكة تايلاند الحالية ( الترجمة )

السكرى ولكن نغنى أيضاً بالقلقة الاجتماعية والاقتصادية التى سببها هذا التدخل فى مختلف أنحاء القارة ( كالتكليف الجبرى للعمال والاستيلاء على المؤن واضطراب الأسعار وقيام طبقة من الوسطاء والتجار المستغلين ) . وسوف يتجه البحث إلى ما أحس به الرأي العام من رجحان مضاد ( سواء بين الصفوة التقليدية فى المجتمع الآسيوى أو بين عامة الشعب ) . وهناك مثال جيد لهذا التغير فى وجهة النظر يتضح لنا فى كتاب الأستاذ أ . والى ، العالم الكبير فى الدراسات الصينية وهو كتاب أفردته لتاريخ حرب الأفيون من وجهة النظر الصينية (١) . كما أن دراسة السياسات الاستعمارية أو شبه الاستعمارية والأساليب الإدارية وهيئة الموظفين المدنيين فى الهند والإدارة المالية لـ Doumer (٢) فى الهند الصينية والامتيازات الأجنبية فى الصين والمحاكم القضائية وغيرها ، يجب ألا تكون مقصورة ، كما هو الحال غالباً على الوصف الخارجى لهذه النظم والأوضاع . فلما يتعمد اعتباره على قدر أكبر من الأهمية هو شخص وظائف هذه الأجهزة وعدم الاكتفاء بوصفها للتشريحى ، ومن ثم فإن هذا يؤدي إلى إدراجها فى المجتمعات الهندية والصينية والفرنسية . علينا إذاً أن نستوضح النشأة الاجتماعية لأعضاء هيئة الموظفين المدنيين فى الهند وأن نتفقد على النتائج الاقتصادية والاجتماعية لاحتكارات للتح والكمول والأفيون فى فيتنام وأن نبعد فى كيفية قيام المحاكم القضائية بأعمالها وأدائها لوظيفتها . أما استثمارات الغرب فى آسيا ( فى للتاجم والزراع وللصانع وللصاف ) فيجب ألا تقتصر فيها على دراسة بياناتها وقوائم حساباتها (٣) مع ما لهذه البيانات والقوائم من فوائد جزيطة كبحوث

(١) أ . والى A.Waley حرب الأفيون كما يراها الصينيون ( لندن سنة ١٩٥٨ )

(٢) بول دومر Paul Doumer (١٨٥٢ - ١٩٣٢) . سياسى فرنسى كان نائباً فى البرلمان الفرنسى ثم وزيراً للمالية ثم حاكماً عاماً للهند الصينية الفرنسية من سنة ١٨٩٧ إلى سنة ١٩٠٢ حيث نظم إدارتها المالية كما يشير إلى ذلك كاتب المقال . ثم صار رئيساً لمجلس النواب ورئيساً للشيوخ وأخيراً رئيساً للجمهورية إلى أن اغتاله أحد الروسين م ١٩٣٢ ( المترجم )

(٣) كما فى كتاب F.C.Romer الاستثمارات الأجنبية فى الصين ( نيويورك سنة

تهدية . فما يهنا قبل كل شيء هو قيمة هذه الاستثمارات أى مشكلة صافي الأرباح المستفادة منها ، مما يد أرضاً بجهولة فى تاريخ النشاط الاقتصادى للدول الغربية فى آسيا الحديثة . وتقتضينا الدراسة فى نفس الوقت أن ندرج جهود التعيين هذه فى إطار الاقتصاد التقليدى للبلاد الآسيوية وأن نلم بكل ما أحدثته فى هذا الاقتصاد من آثار وأرجاع مضادة .

ومع ذلك فإنه يتعذر عزل النتائج الاجتماعية والاقتصادية للتغلغل الغربى والسيطرة الغربية عن الحركة الاقتصادية والاجتماعية العامة فى البلاد الآسيوية قيام طبقة حديثة من ( البروليتاريا ) فى الناجم واللوائى وللزارع وظهور طبقة متوسطة (بورجوازية) رأسمالية تشتغل بالصناعة والتجارة، وصفوة متعلمة من المدرسين ووصغار الموظفين والصحفيين والأطباء والمحامين والعسكريين ليس سوى مظهر واحد من مشكلة أوسع نطاقاً تلك هى مشكلة النماذج الاجتماعية والقوى الحركية فى المجتمع الآسيوى ، فالعلاقة بين الطبقات الاجتماعية فى البلاد الآسيوية لا يتيسر لنا تحديدها إلا كاملة أى إلا إذا نظرنا إليها من الداخل ، إذ تعتم علينا فى الواقع أن ندخل فى حسابنا ما هنالك من روابط بين كل من الطبقات التقليدية القديمة والطبقات الجديدة كالصفوة المدنية والدينية وملوك الأراضى والفلاحين وعمال المدن . فمن خصائص الطبقة للتوسطة الحديثة فى آسيا أنها لا تزال متعلقة بالأرض الزراعية ، كما هو الحال تماماً بالنسبة لطبقة العمال الكادحين فى المصانع الذين يحتفظون بملاقتهم بالقرى التى ينتمون إليها . ورى أيضاً أن الصفوة المتعلمة الحديثة كثيراً ما تخرج من بين ظهرانى الطبقات العالية القديمة . وعلى ذلك فإن انحلال تلك الطبقات الأخيرة لا يعد انحلالاً كاملاً .

وإذا اتبنا هذه الطريقة ذاتها فإننا نجد أن الأرجاع السياسية المضادة للسيطرة الغربية على آسيا تتخذ لها بعداً جديداً عندما نتفحصها من الداخل ونكف عن دراستنا

لها من وجهة النظر الخارجية ؛ فالحركات المناهضة للنفوذ الغربي ليست من الأحداث العرضية المنقطعة البعدة الصلة بغيرها ، وهي ليست صورة ممكنة للحكم الاستعماري الفرنسي والموالدي والبريطاني في الهند وجنوب شرق آسيا ، أو لنظام المهادتات غير التسكافية في الصين ، وحقى إذا كانت حركات المقاومة هذه متباينة فى جذورها الاجتماعية ( فى صدورنا عن الةى التقليدية أو الطبقة المتوسطة أو صفوة المتعلمين أو عامة الشعب ) أو اختلفت فى تنظيمها ( سواء أُنهضت بها الفرق الدينية التيقية أم جماعات المتقنين أم الأحزاب السياسية الحديثة ) أو اتخذ كفافها صوراً متنوعة ( من إثارة للفتن والقتال ، وتنظيم للمظاهرات فى الطرق العامة أو تنسيق الحملات لإبداء مشاعر الرأى العام أو القيام بالإضرابات أو الالتجاء إلى النضال المسلح ) . فإنها كلها مشاهد متصلة الحلقات على ما لهذه الشعوب من قوة عميقة ، وهى تعبير عن إرادة الحياة لديها وإرادتها فى تحقيق التكامل بواسطة عملية فذة متميزة ، إنها الحركة القومية فى أوسع معانها .

ولعل كلمة « أمة » ، خصوصاً التميز الواضح لمناها لم يظهر فى آسيا إلا حديثاً ؛ فقد أحس بها فى البداية المثقفون الذين تلقوا تعليماً غريباً ودرسوا تاريخ الحركات القومية فى أوروبا . ولكننا مع ذلك لا يجوز لنا أن نقصر تاريخ الحركات القومية فى آسيا على هذه المرحلة الأخيرة أو أن نملأها كثمرة للتطور التاريخى الناشئ عن فعل العوامل الخارجية . ووجهة النظر المتمركزة أساساً على أوروبا تقضى بنا طبقاً لهذا الاعتبار إلى تشويه الحقيقة التاريخية مرة أخرى . فالحركة القومية فى الهند ابتداء من تمرد الجيش الهندى<sup>(١)</sup> إلى الحركة الحديثة

---

(١) يطلق عليها فى المؤلفات الإنجليزية عن الهند عبارة *The Mutiny of the Sepoys* وتوهم بأنها تمرد عصيان وليست بثورة ازدرأ لها . وهكذا تسمى الحركات الوطنية فى آسيا وأفريقيا فى مؤلفات الغربيين فهى كلها فورات خارجة على النظام . ( المترجم ) .

للأحرار الذين أنشأوا حزب المؤتمر في سنة ١٨٨٥ ، ومن الثورات الشعبية فيما بين  
سنى ١٩٠٥ و ١٩١٠ إلى حملات غاندى السلمية ، ومن النجاح الذى أحرزه حزب  
المؤتمر في سنة ١٩٣٧ إلى ثورات الجماهير والإضرابات فيما بين سنى ١٩٤٥ و ١٩٤٦  
تسم كلها بنسق داخلى مطرد يسبق كما يتخطى كلا من الحدود الزمنية لأثر القرب  
المباشر والنمط المعروف للحركات القومية فى أوروبا . ويصدق هذا أيضاً على الحركة  
القومية فى فيتنام التى تنتمى إليها ثورة الفقهاء الكونفوشيين فيما بين سنى ١٨٨٥  
و ١٨٩٥ ، كما تنتمى إليها ثورة الفيات منه Viet Minh ، كما يصدق على الحركة القومية  
فى الصين التى كانت الانتفاضات الشعبية التى نشبت قرب مدينة كانتون فيما بين  
سنى ١٨٤٠ و ١٨٥٠ وحركة الملاكين جزءاً لا يتجزأ منها ، كما كانت حركة  
الزعيم صون بات صن أو حرب الصاباط المناهضة لليابانيين التى قام بها الشيوعيون  
فما بين سنى ١٩٣٧ و ١٩٤٥ .

يبد أن الحركات القومية فى آسيا تحاول فى نفس الوقت أن تدعم التماسك القومى  
وأن تقوى من أواصر الوحدة القومية ؛ فبعض الحركات القومية توجه لمناهضة  
الحكم الأجنبى ولكنها تهدف فى نفس الوقت إلى تحقيق التكامل السياسى والاجتماعى  
والثقافى ؛ فالشكلاات الناجمة عن وجود طبقة المنبوذين وتلك الناشئة عن طبقة  
الأمراء (من راجوات ومهرجات) لعبت دوراً هاماً فى تاريخ الحركة القومية فى  
المهند كما كان لها أثر فى السكفاح المباشر لمناهضة الحكم الاستعمارى البريطانى . أما  
المؤتمر الكبير الذى نسق الحركات القومية فى إندونيسيا فى سنة ١٩٣٨ فلم يجرى  
للأندونيسيين فحسب برنامجاً للعمل السياسى لمقاومة سيطرة هولندة الاستعمارية  
ولكنه قرر أيضاً لثة قومية للبلاد ، تلك هى لثة الباهاسا الإندونيسية فضلاً عن  
اتخاذها لها راية وطنية .

كما أن حركة الرابع من شهر مايو سنة ١٩١٩ فى الصين ألقت اللوم على الدول  
الأجنبية بسبب قبول تقودها فى البلاد كما ألقت على دلائل العجز والنقص فى الصين

القديمة ، فضلا عن دعوتها إلى مقاطعة البضائع اليابانية واتهامها في نفس الوقت للتمائم الكوتقوشية بالقصور والجمود . وهذه الوحدة الأساسية التي تؤلف بين حركات التحرير والتكامل وتتنوعها تعد أمراً طبيعياً إذا نظرنا إليها طبقاً للدولارات الشئون الداخلية لآسيا ، بينما قد تفوتنا ملاحظتها لو قصرنا بحثنا في الحركات القومية الآسيوية على أثر النفوذ التربوي وسيطرته .

وإذا ما اتخذنا هذه النظرة الداخلية معياراً لنا فإتيا مستريح لنا الفرصة في نقد كلمة شاع استعمالها في الوقت الحاضر تلك هي نسخ الاستعمار Decolonisation .

ولعل هذه الكلمة هي خاتمة المطاف والملاذ الأخير في تأويل التاريخ الآسيوي الحديث تأويلاً ذا تمركز أوروبي . ولا يعنى هذا إنكاراً للأهمية القصوى التي يتمتعين علينا أن نعلقها على التغير الجذري في العلاقات التي كانت قائمة بين البلاد الغربية « الأم » وبين مستعمراتها القديمة . وقد أغربت الدول الحاكمة باصطناع هذا التغير في فترة ما بين الحربين العالميتين ، ويمكن القول بأن هذه المرحلة قاربت نهايتها حوالي سنة ١٩٥٠ . ولكننا إذا وصفنا عملية التغير هذه بأنها نسخ للاستعمار فإن هذا معناه مسابقة الدولة الأم في وجهة نظرها والبالغة في تقدير أهمية مبادئها وقراراتها والزعيم بوجود نوع من التوافق والتناسق بين الاستعمار ونسخه مما يقتضي مع القوة المارمة في سير التاريخ . فالدافع الأصيل للاستعمار صدر عن أوروبا ، أما دافع نسخه فقد كان مبثوث من خارجها .

ومن اليسير أن تثبت أن المبادئ الحرة التي قامت بها الدول الأم إنما كانت تغييراً عن ضرورة ملحة لم يتسع لها فيها مجال الاختيار ، سواء أكانت الدول الحاكمة تشعر بأن موقفها لا يمكن الاحتفاظ به في إحدى مستعمراتها أم أنها



واجهت سلسلة من الأراجل للضادة فإن الهزائم التي منيت بها في موضع ما حملتها على التنازل عن مستعمرة أخرى في وقت مبكر .

وفي هذه الحالة يبدو لنا أن سياسة المبادأة التي انتهجتها الدول الحاكمة ليست سوى مسألة ظاهرية ، فاستقلال الهند هو الذي أدى إلى منح سيلان مركز للممتلكات المستقلة Dominion في سنة ١٩٤٨ .

ولولا الحرب في فيتنام (١) لما منحت فرنسا في نفس الوقت مثل هذه الامتيازات العظيمة إلى لاوس وكبوديا . فما حدث من تحول في العلاقات بين المستعمرات والدول الحاكمة لها إنما هو ثمرة يمزج الفضل فيها إلى الحركات القومية التي يتحتم علينا تعريفها طبقاً للدول التي تستند على وجهة النظر المتمركزة على آسيا لا على أوروبا .

إن ما نقرحه هنا من عكس لوجهة النظر الأوروبية ترتب عليه نتيجة أخرى فهو يتيح لنا مدلولات جديدة لفهم العلاقة التاريخية بين العهد الاستعماري والعهد السابق له (٢) والعهد التالي له : فالسيطرة الاستعمارية مع ما يبدو من وقوعها كأمر حتمي لا مناص منه تظهر لنا كمحادث قصير الأمد أو فاصل زمني (٣) وأنه استثمار عميق بل اطراد يتخطى

---

(١) يشير كاتب المقال هنا إلى الحرب التي نشبت بين الفرنسيين والفييتاميني غداة نهاية الحرب العالمية الثانية من سنة ١٩٤٥ إلى سنة ١٩٥٤ إلى أن أنهاها رئيس الوزارة الفرنسية منديس فرانس بعد هزيمة الفرنسيين في معركة ديين بين فو وفشلهم في محاولة تدويل مشكلة الهند الصينية . ( المترجم )

(٢) هذه الكلمة pre-colonial تعنيها شائبة التمرکز الأوروبي حتى لو جرى العرف على استعمالها وتعد عبارة آسيا التقليدية « Traditional » خيراً منها .

(٣) اقترح استعمال كلمة interlude بـ . ورسلي P. Worsley في كتابه : العالم الثالث ( لندن سنة ١٩٦٤ ) .

ما يسبقه وما يليه ، ويصل ما بين آسيا التقليدية وآسيا المعاصرة ، ولدينا على سبيل المثال ما يعبر عن هذا التسلسل للطرْد في السِّمات التاريخية ؛ فالتاريخ الفيتنامي في العصر الاستعماري ينظر إليه في إطار هندي صيني من وجهة نظر الاتحاد التضامني<sup>(١)</sup> للهند الصينية على أنه ذلك النظام السياسي والإداري الذي أقصم من الخارج وسلك البلاد الفيتنامية الثلاثة (وهي تونكين وأنام وكوشن صين) مع وحدتين تاريخيتين أخريين هما لاوس وكبوديا . ولكننا على التقيض من هذا نجد أن التاريخ الفيتنامي في نظر المؤرخين الفيتناميين عبارة عن نسق متصل لا يتجزأ ينتظم كلا من المصور القديمة والعهد الاستعماري والأزمة للمعاصرة ، مع إدماج العهد الاستعماري في هذا التطور المتصل الحلقات والنظر إليه طبقاً لمناهج التاريخ الفيتنامي وليس تبعاً لدولوات التاريخ الهندي الصيني<sup>(٢)</sup> . ونيسر لنا تطبيق للملاحظة ذاتها على اندونيسيا فاطراد تاريخها يقتضي أن نستج ضمناً اطراح تسمية الفترة الاستعمارية في تاريخها باسم « جزر الهند الهولندية » . وما يوضح هذه النزعة عند الإندونيسيين عودتهم إلى السِّمات الجغرافية الوطنية بدلا مما استخدمته الإدارة الهولندية والتريون

---

(١) في الأصل « Indo-Chinese Federation » وقد جرى الأساندة القدامى للقانون الدستوري في مصر على ترجمة كلمة Federation بالاتحاد التضامني الذي تحتفظ فيه البلدان المتحدة باستقلالها الداخلي وتتنازل للحكومة الاتحادية عن استقلالها الخارجي كالولايات المتحدة والاتحاد السويسري . كما ترجوا كلمة confederation بالاتحاد الاستقلالي الذي تحتفظ فيه البلدان المتحدة بجانب من استقلالها الخارجي علاوة على احتفاظها باستقلالها الداخلي مثل الاتحاد الاستقلالي الألماني فيما بين سنتي ١٨١٥ و ١٨٦٦ والهولندي فيما بين سنتي ١٥٨٠ و ١٧٩٥ وغيرهما . (المترجم)

(٢) ثم أحد المؤلفين المتشبعين تشبهاً قوياً بالتقاليد الاستعمارية بنشر كتاب في سلسلة « ماذا أعرف » Que Sais-je أسماء تاريخ الهند الصينية — باريس سنة ١٩٥٠ ، ذلكم هو أ. ماسون A. Masson الذي كان موظفاً سابقاً في الهند الصينية . وقد أعاد تحرير كتابه في سنة ١٩٦٠ وحذف جميع الفقرات الخاصة بلاوس وكبوديا كما غير عنوان كتابه إذ جعله : « تاريخ فيتنام » إن مجرد حذف الفقرات السابقة لا يكفي ، لأن ما قترح من تغيير في المنظور التاريخي يقتضي من المؤرخين الغربيين جهداً أولي ومبحثاً أعمق .

من أسماء بصورة أعم ؛ فمدينة باتافيا صار اسمها جاكرتا وجزيرة سلبيز أطلق عليها اسم سولاويسى وغينيا الجديدة غيرت إلى إيريان وكاليمانتان غدا الاسم الجديد لجزيرة بورنيو .

وفما وراء فترة الحواء الاستعماري — وهذا هو مفهوم العهد الاستعماري من وجهة النظر المتعلقة بالنسق للطرده للتاريخ الآسيوي — تربط آسيا المعاصرة طبقاً لهذا الاعتبار بآسيا التقليدية . وقد أبنا في موضع آخر أهمية هذا الفرض اللاتم في دراسة الظواهر الخاصة باطراد التسلسل وإعادة الحياة<sup>(١)</sup> ويقصد بذلك عودة الآسيويين إلى مواطن النمو والتطور في الداخل بعد أن كانت في العهد الاستعماري متركزة على السواحل وعملهم على تجديد النشاط الصناعي وتوجيهه نحو الأسواق الداخلية التي كانت قد أصيبت بالتهور والانحلال في عهد الاقتصاد الاستعماري المبني على التصدير . ومن الأمثلة ذات الدلالة في هذا الصدد إحياء الطب التقليدي بين جمهرة الشعب الصيني ( كالاستعانة في العلاج بوخز الإبر في مواضع الألم Acupuncture . واستخدام أعشاب معينة لإزالة التهاب المفاصل moxibustion ) وهو نوع من الطب أزرى به في العهد السابق الأطباء الذين تعلموا في أوروبا والذين قصروا عنايتهم

---

(١) استخدمنا كلمة re-animation إعادة الحياة ( التي اقترحها في الأصل ج مارسل . Marcel ) في رسالة وجهها إلى مؤتمر الكتاب والفنانين الزنوج الذي عقد في باريس في سنة ١٩٥٨ ) في بحث موجز لنا عنوانه : بحث الماضي التقليدي لدى الأمم النامية في آسيا وأفريقية . وقد ظهر هذا البحث في كتاب حرره كل من ج . بيرك G. Berque و ج . ب شارني J. P. Charnay : من الإمبريالية إلى نسخ الاستعمار ( باريس سنة ١٩٦٥ ) ص ٣٠١ إلى ص ٣١٢ ولكننا اليوم نفضل استعمال كلمة trans-continuity أي اطراد التسلسل بدلا من كلمة re-animation البحث أو إعادة الحياة ( يقول مترجم هذا المقال إن مؤتمر باريس للادباء والفنانين الزنوج لم يعقد في باريس في سنة ١٩٥٨ ولكنه عقد في الفترة ما بين ١٩ و ٢٢ سبتمبر ١٩٥٦ وقد رجعنا إلى أعمال هذا المؤتمر التي نشرته مجلة الوجود الأفريقي فلم نجد فيها رسالة الأستاذ ج . مارسل ولعل أعمال المؤتمر لم تنشر كاملة ) .

على عملهم التأثرين بثقافة الغرب في مدينتي شانغهاى وكانتون . ويرى ج . نيدهام J. Needham التزام هذا التأويل للطرد للتاريخ الآسيوى حين يؤكد الدور الهام الذى لا تزال التقاليد الصينية الماضية تقوم به لدى جمهرة الشعب الصينى فى حياته الاجتماعية والعقلية متخفية بذلك عصر خضوعه للغرب<sup>(١)</sup> . والكتاب القيم الذى خصه هذا المؤلف لموضوع العلوم الصينية التقليدية يعد أيضاً إضافة بالغة الأهمية لبعض مفاهيم أوروبية معينة للتاريخ العالمى مبنياً لنا ما امتازت به علوم الصين من سبق ورجحان على علوم الغرب حتى القرن السادس عشر<sup>(٢)</sup> .

لقد سبق لنا أن أوضحنا أن من نتائج النظرة للتمركزة أساساً على أوروبا هو تشويه التاريخ الآسيوى إلى قطع متناثرة ؛ فالبالغة فى تقدير علاقات آسيا بالغرب تؤدي إلى زيادة الاهتمام بعلاقة كل بلد آسيوى منها على حدة بالدولة المسيطرة عليه . ولذا فإنه يصدر دراسة العمليات التاريخية والتسلسل للؤلف للتطور الذى شمل القارة الآسيوية بأسرها .

وإذا غرضنا النظر عما يتميز به كل بلد آسيوى من سمات خاصة به وجدنا أن آسيا فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين تنظمها وحدة تسترعى النظر تدل عليها سلسلة من الأحداث التاريخية التى تتقارب أزمنة وقوعها فى دقة متزايدة .

لقد اتبع الغرب فى الفترة ما بين سنتى ١٨٣٥ و ١٨٦٠ سياسة الباب المفتوح ( فى الصين واليابان وفيتنام وللايو وسيام ) ، بينما مضى البريطانيون آنذاك فى إتمام

(١) « فى ماضى الصين الثقافى والاجتماعى والفلسفى وعلاقاته بالصين المعاصرة » بقلم ج . نيدهام J. Needham فى مجلة « الفهم Comprendre » ( البندقية ) عدد ٢١ و ٢٢ و ٢٣

(٢) « العلم والمخاضرة فى الصين » بقلم ج . نيدهام ( مطبعة جامعة كمبردج ) بالإنجليزية فى خمسة مجلدات بدأ ظهورها منذ سنة ١٩٥٤ .

فتحهم لبلاد الهند ، وفي خلالها أيضاً تخلى الهولنديون مراكزهم الساحلية في إندونيسيا بمخمين في توغلهم في داخليتها وهكذا عانت البلاد الآسوية من التدافع. المياغت لتوسع القريين الذين اشتد تلهفهم على المانذ ومنتجات المناطق المدارية بعد خلاصهم من حروب نابليون .

وهناك في الفترة الواقعة فيما بين سنتي ١٨٥٠ و ١٨٦٥ يظهر تقارب آخر بين أزمته وقوع الأحداث وإدراكنا للوحدة التي تنتظمها أشد عسراً واستملاقاً . وتلك الأحداث هي تمرد الجيش الهندي وثورة تايينج في الصين والحركات الشعبية الأخرى. للناهضة للأسرة الحاكمة ( السلون ، نيان في الصين الشمالية ) والثورة الاجتاعية والفكرية التي احتدمت في مدن اليابان وريضا والتي أدت إلى استعادة الملكية لنفوذها ( وبداية عهد الحكم المستنير المروف باسم مييجي : Meiji ) .

وفي نهاية القرن التاسع عشر أحرز الاقتصاد التربى تقدماً جديداً فقد غدا هدفه منذ ذلك العهد تصدير رءوس الأموال دون الاقتصاد على تصدير السلع المصنوعة وذلك لتقوية السعائم التي يقوم عليها وجعلها أكثر تمكناً واستقراراً عما كانت عليه في الماضي ، وعدد القرب من قبضته عن طريق المعاهدات غير المتكافئة بعد الانهيار الذي حدث في الصين فيما بين سنتي ١٨٩٦ و ١٨٩٨ ( مناطق النفوذ والقواعد البحرية والسيطرة الأجنبية على مزاياه الحكومة الصينية عن طريق فائض العوائد الجبركية ) كما أن كيرزون Curzon ودومر Doumer وضعا لإمبراطورية الهند وإمبراطورية الهند الصينية أنظمة إدارية أكثر ضبطاً وإحكاماً .

يبد أنه منذ بداية العقد الأول من القرن العشرين هبت آسيا من سباتها وقد حثا على الانتفاض انتصار اليابان على روسيا ( الذي يعد أول هزيمة لأوروبا في آسيا ) والثورة الروسية في سنة ١٩٠٥ ، فاستد ساعد حزب المؤتمر في الهند بفضل جهود تيلاك ، وأمايت الحركات القومية في جنوب شرقي آسيا قوة جديدة ، وحلت

البورجوازية الجديدة والطبقة المتعلمة محل الصفوة التقليدية القديمة، كما أن صونيات صن أنشأ في طوكيو حزبه المسمى تونج من هوى الذى يعد إرهاباً لحزب الكومينتانج، وقد كانت الثورة الصينية التى أقامت الحكم الجمهورى فى الصين سنة ١٩١١ تديداً لثورتى تركيا الفتاة وإيران الفتاة .

وقد كانت الحرب العالمية الأولى التى أسقطت منزلة الغرب وأزرت بها فى نظر الآسيويين (١) والتى نادى بدعوتين متعارضتين وهما البلشفة ومبادئ ويلسون من العوامل التى زودت أيضاً الحركات السياسية الداعية للتجديد والتحرر الاجتماعى والسياسى بدوافع جديدة ، فهى التى أثارت حركة كوريا فى غرة شهر مارس سنة ١٩١٩ وحركة الرابع من شهر مايو سنة ١٩١٩ فى الصين ، وحملة العصيان للذى التى قام بها غاندى فى سنة ١٩٢١ ، وثورة منغوليا وتآليف الأحزاب الشيوعية فى غالبية البلاد الآسيوية .

وبعد ذلك بعشر سنوات حلت الأزمة الاقتصادية العالمية التى هيأت مرة أخرى متفتساً جديداً للمقاومة الشعبية والنضال السياسى فى تلك البلاد التى أصيبت اقتصاديات تصديرها بضربة قاصمة ؛ فشبت نيران القلاقل فى بورما الجنوبية وشكلت المجالس الشعبية ( السوفيت ) فى شمالى أنام وسرت موجة من الاضطرابات فى إندونيسيا وقام غاندى بحملته الثانية من حملات العصيان للذى ، ثم عجبت الأزمة فى نفس الوقت باتجاه التطور اليابانى نحو الروح الحرية العدوانية ؛ فبدأت منذ سنة ١٩٣١ فى غزو منشوريا ولم تحف مشروعاتها الأوسع نطاقاً .

وأخيراً هيأت الحرب العالمية الثانية مجالا لخلق رابطة وثيقة مشتركة لتنظم البلاد الآسيوية المعاصرة ، فقد نشأت فى البلاد التى غزتها اليابان حركات شعبية للمقاومة المسلحة قادها الشيوعيون أو قاموا فيها بأدوار هامة ( كما حدث فى الصين الشمالية

---

(١) هنا هو التعبير الذى استعمله ج . رومين G. Romein فى كتابه : القرن الآسيوى The Asian Century ( لندن سنة ١٩٦٢ ) .

وفيت منه Viet Minh وقيام حركة (١) Hubkalahaps في الفلبين وحزب A.F.P.F.L. (٢) في بورما وغيرها . يتناحرت الهند والصين الحرة أهوالا ماحقة من اقتصاديات الحرب حتى غدا الرأي العام فيها أكثر تطرفاً عندما حدثت الأمم المتحالفة أهدافها من حربها ضد دول المحور .

هذه السلسلة من الأحداث التي اتفق وقوعها في وقت واحد لا يمكن أن نندعها محض توافق لمطابقات عرضية حدثت عفواً واتفاقاً ، ولكنها تدل على نسق متصل من الدولوات المشتركة « والعوامل الفعالة » التي أثرت في آسيا بأسرها . وهذه العوامل تعزى حيناً لسيطرة الغرب على القارة الآسيوية (وهي سيطرة سياسية وعسكرية اقترنت بسياسة الباب المفتوح وسيطرة اقتصادية أدت إلى الانهيار أو إلى الأزمة التي وقعت بين سنتي ١٩٢٩ و ١٩٣٠) وترجع حيناً آخر إلى الحركات الداخلية للقوى السياسية والاجتماعية والفكرية في آسيا ( كما حدث في سنة ١٨٦٠ وفي الفترة ما بين سنتي ١٩٠٥ و ١٩١٠ وما بين سنتي ١٩١٩ و ١٩٢١ ) يتناحرت كان الحرب التي نشبت فيما بين سنتي ١٩٣٧ و ١٩٤٥ كل من هاتين الدولتين في نفس الوقت . وينطبق مثل هذا الربط بين العوامل الخارجية والداخلية على ما حدث من تطور في البلاد الآسيوية كافة إبان القرنين التاسع عشر والعشرين . وحين ندعو للأخذ بوجهة النظر المتمركزة على آسيا كما صنعنا هنا فإننا لا ننفي أن آسيا قطعت مراحل نموها وتطورها وهي بعيدة عن أوروبا مستقلة عنها ولكننا

---

(١) إن كلمة هوكا لاهابس باللغة المحلية في الفلبين معناها جيش الشعب المناهض لليابان وتختصر بكلمة Hukb . أي الهوكين . وكانت هذه الحركة متأثرة بالأفكار الشيوعية ، راجع ص ١٧٠ من كتاب : النمط الخامس بقلم ما بعد الحرب بقلم جوردون كوتل سميث Gordon Connell-Smith — لندن سنة ١٩٥٧ ( الترجمة ) .

(٢) هو اختصار لاسم حزب في بورما هو عصبة حرية الشعب المناهضة للقناحية . راجع الكتاب السابق في صيفتي ١٥٦ و ١٥٧ ومعجم السياسة بقلم فلورنس اليوت وميشيل سمرسكل الطبعة المتبعة لندن ١٩٦١ مادة بورما ص ٥٤ ( الترجمة )

على النقيض من هذا نذهب إلى أن التاريخ الآسيوى مضافا إليه تاريخ العلاقات التى كانت فيها آسيا تابعة للغرب يقتضينا أن ندرسه من وجهة النظر الداخلية أى أن علينا أن نلم بهذا التاريخ فى مجلته ومجموعه واطراد تواصله . وقد سبق لنا أن أوضحنا كيف تصدق هذه للدولات على الأمثلة الكثيرة التى سقناها . ومن الميسور أن نطبق على القارة الآسيوية بأسرها منهج البحث وبرنامج العمل اللذين صاغهما أوين لاتي مور عند إنشائه لقسم الدراسات الصينية فى جامعة ليدز فى سنة ١٩٦٣ . فى محاضراته الافتتاحية التى جعل عنوانها : « من الصين تتطلع إلى الخارج » (١) .

وحق إذا ما حددنا التاريخ الآسيوى فى مجلته واطراد نسقه من وجهة النظر المتمركزة أساساً على آسيا ، أفىكون فى خاتمة المطاف مطابقاً فى صميمه لنظيره فى الغرب أم مغايراً له ؟

لعل من المجازفة أن نلتصق فى التطور الداخلى لآسيا محض صورة معادة لنظيره فى أوروبا ، فإن ما يمكن أن يسمى بالتيار « الغربى » فى آسيا باعتباره حركة من حركات انتشار الأفكار قد باء بالفشل والخذلان سواء على مستوى صنع الأحداث التاريخية أو على مستوى استيعابها فى كتابة التاريخ ، فالفكرون من أمثال فوكوزاوا (٢) اليابانى (٣) ونظير جويخيل الهندى (٤) وفان تشوترنه (٥) الفيتنامى ، ونظيريان فو

(١) نشرت هذه المحاضرة From China, Looking Outward فى مطبعة

جامعة ليدز سنة ١٩٦٤

(٢) راجع س . بلاكر C. Blacker فى كتابه : الاستنارة اليابانية : دراسة

لفوكوزاوا ويوكيشى ( مطبعة جامعة كامبردج سنة ١٩٦٤ ) .

(٣) يوكيشى فوكوزاوا ( ١٨٣٤ - ١٩٠١ ) مهرب يابانى وصحفى ومؤلف ، أنشأ فى طوكيو سنة ١٨٦٧ جامعة كيوجيوكو التى صارت من أعظم جامعات اليابان وأنشأ فى سنة ١٨٨٢ جريدة جييجى شيمبو التى صارت من أشهر صحف اليابان وأوسعها انتشاراً ويلاحظ أن فوكوزاوا قضى السنوات الثلاث وثلاثين الأولى من حياته دون أن يتصل بثقافة الغرب . ( الترجمة )



الصيني (١) « أعيام البحث في الغرب عن حلول مناسبة لمشكلات بلادهم » على حد تعبير ماوتسى تونغ » ولم يكن لهم سوى أثر محدود فضلاً عن أن التاريخ لم يحقق لهم ما كانوا يصبون إليه من الرؤى والأحلام . وصدق هذا أيضاً على تاريخ التيارات السياسية في الصين خلال فترة الحزب المنهجي التي تفصل ما بين السكوتوقوشية والماركسية والتي ليست سوى نسق مطرد من التجارب السلبية . أما الروح البرلمانية والاستورى المستوحى من النظم الأنجلو سكسونية مما كان يحلم به الجمهوريون في نانكينج في سنتي ١٩١١ و ١٩١٢ فقد تدهور وشيكاً وغدا صورة هزلية للأوضاع النيابية في عهد يوان شى كاي وخلفائه العسكريين ؛ فالديمقراطية الثورية قدت اعتبارها نهائياً في الصين ، والفوضوية المستوحاة من كتابات تولستوى وكروبووتكين التي تطلعت في الصين حوالى سنتي ١٩١٠ إلى ١٩٢٠ كانت أيضاً تجربة عقيمة تكاد « لا يرجى لها أية ثمرة مقبلة » طبقاً للمعنى الجيدى (٢) المستفاد من هذه العبارة . أما الحركة الاتحادية التي انغذت لها وجهة غربية فبا بين سنتي ١٩٢٠ و ١٩٢٣ متعثلة بسويسره والولايات المتحدة الأمريكية فقد كانت قصيرة الأجل ، كما أنها استخدمت فقط كوسيلة تجديدية قصد بها القضاء على المطامع الانفصالية المصطنعة بنزعة القرون الوسطى التي كان يسعى لتحقيقها « سادة الحرب » . ولم تكن هزيمة البرلمانية الثورية ونظام تعدد الأحزاب أقل وضوحاً من هذا في اليابان ،

---

== (٤) كان جونغيل ( ١٨٦٦ - ١٩١٥ ) مناهضاً لتيار في حركة الهند القومية وكان يجذب الصفاوس مع برطانيا النظمى والوصول معها إلى حلول متوسطة وكان يرى ضرورة تقرب المجتمع الهندى تدرجاً مطرداً .

(٥) كان Phan Chu Trinh المتوفى سنة ١٩٢٥ مجتاً بالكاتب الفرنسى جان جاك روسو وحث الوطنيين الفيتناميين على دراسة مؤلفاته .

(١) قام Yan Fu بترجمة مؤلفات هكسلى وسينسر وستيوارت ميسل إلى اللغة الصينية وقد توفى في سنة ١٩٢١ — راجع كتاب B. Schwartz : في البحث عن التروة والقوة .. يان فو والغرب ( مطبعة جامعة هارفرد سنة ١٩٢١ ) .

(٢) نسبة إلى الكاتب الفرنسى أندريه جيد ( ١٨٦٩ - ١٩٥١ ) . ( المترجم )

نمذ عصر الاستنارة Meiji إلى قيام الحرب العالمية الثانية ( أى من سنة ١٨٦٨ إلى سنة ١٩٣٩ ) لم تكن الديمقراطية المؤسسة على النظام الحزبي في اليابان سوى واجهة مظهرية (١) أو لعبة تقوم بها جماعات صغيرة في إطار الحكم الاستبدادي ذاته . والتجارب البرلمانية التي أجريت في كبوديا (٢) واندونيسيا والفلبين وبورما منذ حصول هذه البلاد على استقلالها قد خضعت حيناً لنظام « الديمقراطيات الموجهة » التي أقامها كل من سيهانوك ونون وسوكارنو حتى خريف سنة ١٩٦٥ ، وتدهورت حيناً آخر حتى غدت لعباً عقيمة تسيطر عليها المسائس (٣) والرشا . وليست التجارب الديمقراطية في الهند بأكثر سلامة من هذه الشوائب كما يدلنا على ذلك حادث مقاطعة كيرالا .

بل لم تكن النزعة القرية فرضاً ملائماً يتكشف لنا صدقه إذا ما استعنا به في البحث التاريخي وتأويل الوقائع التاريخية . وليس من اليسور استخدام جميع المواد التي حشدها ج . لوسينج بك في دراسته الفاحصة للفلاحين الصينيين (٤) فلشد ما كان المؤلف سجين سفود التحليل الذي استمده من مشكلات الفلاح الأمريكي حيث خص القيمة الاستثمارية للأدوات والصدقات من الأهمية ما ترجع به على ما أولاه منها للملكية الزراعية . وهالك دراسة حديثة للدور الذي قامت به البورجوازية الصينية

---

(١) راجع ر . سكالابينو R. Scalapino في كتابه : الديمقراطية وحركة الأحزاب في اليابان قبل الحرب : مستقبل المحاولة الأولى ( مطبعة جامعة كاليفورنيا سنة ١٩٥٣ ) .

(٢) انظر بحثاً في الديمقراطية في كبوديا بقلم ب . بريشه P. Preschez ( كراسات المؤسسة القومية للعلوم السياسية — المطبوعة على أنرويو — مركز الدراسات الخاصة بالعلاقات الدولية من باريس — أكتوبر ١٩٦١ ) .

(٣) كانت الانتخابات التي جرت في الفلبين في سنة ١٩٤٩ « أوغل ماعرفه هذه البلاد في تاريخها فساداً وأكثرها سفكاً للدماء » — انظر كتاب ج . ويلوكة G. Willoquet : تاريخ الفلبين ( باريس سنة ١٩٦١ ) ص ٧٩ .

(٤) انظر كتاب Lossing Buck : الاقتصاد الزراعي الصيني ( شيكاغو سنة ١٩٣٠ وكتابه الآخر : استخدام الأرض في الصين ( شنتهاى سنة ١٩٣٧ ) .

في ثورة سنة ١٩١١ ، وهى تبين لنا أن هذا الدور مع ماله من أهمية بالغة لا يعد محض صورة معادة « للثورات البورجوازية » في الغرب (١) ، فالطبقة المتوسطة الصيفية كانت من الوهن والضعف على درجة كبيرة . والدور الأصيل في هذه الثورة قامت به طبقات اجتماعية أخرى مثل طبقة الأعيان التقليديين وطبقة العسكريين في الجيش الحديث . وقد حاول بعض المؤرخين الهولنديين أن يشبهوا حركة الإصلاح الإسلامى ( المعروفة باسم الحمديّة ) التى قامت في بداية القرن العشرين بالبروتستانتية على مذهب كالفن ، وذلك دون شرط أو استثناء ، وأن يتخذوا منها دليلا على زيادة للسكان السياسية للطبقة المتوسطة الإندونيسية (٢) ، والفكرتان سواسية في مجازيتهما للصواب وقد لا نعدهما من الفروض الشائقة ما لم تأخذ في الاعتبار ما يتمثل لنا في الحكم الاستعماري من فارق جوهرى . حينما أن نسوق للاستدلال عليه مثلا واحداً وهو مشكلة العلاقة بين المدن والريف ، فهذه العلاقة لا تعرض لنا في آسيا طبقاً لنفس المفاهيم المعروفة في بيئة الغرب الصناعية ، فالدينه الآسيوية ليست مضادة للريف أو صورة مناقضة له ، لا ولا هى للوطن الذى تنبعث منه القوى الاجتماعية الجديدة . إنما بالأحرى تغيير مركز مضخم لمشكلات الريف بل هى تغيير لاذع (٣) عما يعانيه المجتمع بأسره من مشقة وعناء .

إن التركيز على أصالة التطور التاريخي لآسيا من حيث علاقته بأوروبا سيفضى بنا

---

(١) البورجوازية الصيفية وثورة ١٩١١ بقلم م.س. بيرجير M. C. Bergère (باريس - رسالة مقدمة لكلية الآداب في سنة ١٩٦٦ ) وستنشر وشيكاً في طبقات Mouton (مواد لدراسة الفرق الأقصى المعاصر) .

(٢) مشابهاة شرقية وغربية : دراسات اجتماعية لآسيا الحديثة ( بالإنجليزية ) بقلم و . ف . فيرتايم W. F. Wertheim ( لاهاي سنة ١٩٦٤ ) الفصل السادس : الحركات الدينية الإصلاحية في جنوب آسيا وجنوب شرقها .

(٣) نفس المصدر ، الفصل الثامن : خصائص السكنى في الحضر Urbanisation في إندونيسيا .

من وجهات أخرى إلى أن نجد اليابان حالة من الحالات الخاصة ، وأن وضعها في مكان هو أقرب قليلا إلى حافة الصورة ولعل في هذا عكساً كاملاً للمنظور التاريخي بالنسبة لهذه الدولة ؛ فقد بدت اليابان إبان الحربين عالمياً التي تفصل بين بداية عصر الحكومة للاستيمنة Meiji والتوسع الحربي في ثلاثينيات القرن الحالى كأعظم البلاد الآسيوية شأنًا وأحاطها بمستقبل باهر وأكثرها قدما من الوجهة التاريخية وأن تطورها مثال صالح جدير بالاعتناء . مثل هذه النظرة للتمركزة أساساً على أوروبا كانت آنذاك الفكرة السائدة التي لم يقتصر الإيمان بها على عدد كبير من الغربيين ولكن شاركهم فيها كثير من المثقفين والساسة في آسيا يد أن جميع الحجج التي حلت هؤلاء على أن يوثقوا اليابان تلك المكانة القيادية تدفعهم اليوم إلى أن يشذوها وينعوها جانباً على اعتبار أنها خارجة عن الخصائص المشتركة بين بلاد الشرق الأقصى الآسيوية في النسق المألوف لنموها وتطورها في الوقت الحاضر : فهي تتميز بـضآلة التخلف وضعف حدة للشبكة السكانية ومستوى الصنيع الأكثر ارتفاعاً وانعدام أية مشكلة تتعلق بالتمحرر الوطني ما لم يكن ذلك من وجهة نظر البلاد التي غزتها اليابان لفترات قصيرة أو طويلة ( مثل كوريا وجنوب شرق آسيا والصين ) وأهمية الديمقراطية الاجتماعية . وقد اشتركت اليابان في مؤتمر باندونج ولم تقم فيه إلا بدور ثانوى ، بينما احتفظ بمكان الصدارة شوان لاي وسوكلانو ونهرو . وقبل ذلك بنصف قرن كانت اليابان موضع الفخر ومعقد الرجاء لجميع الحركات التي كانت تنادى بمشروع الجامعة الآسيوية .

إن أية دراسة موضوعية عميقة لتاريخ آسيا للماضي يجب أن تكشف عن الخصائص الأصلية لآسيا ومواردها . غير أنه بما يعد سابقاً للأوان أن نصدر هنا حكماً على نتائج هذا البحث ، ولتقتصر على إيراد عدد قليل من الأمثلة ، نذكر منها

دور الصحافة في إظهارها للتيارات السياسية التي ليس لها من وسائط التعبير ما يماثل نظارتها في الديمقراطية الغربية ودور كبار القادة والناخبين من الزعماء الوطنيين الذين يقودون الحركات الوطنية من أمثال غاندى ونهرو ومون بات صن وماوتسى تونج وهوشى منه وسوكرنو واونج سان وحتى لو لم يحظ هؤلاء بما يزعمه بعض علماء الاجتماع الأمريكيين من قوة خارقة Charismatic Power غامضة فإنه مع ذلك يتبلور فيهم أمانى شعوبهم قاطبة وذلك في ظروف تاريخية معينة مثل الأساليب العسكرية التي يلجأ إليها المتنازعون في ميادين الحرب ومجالات السيادة للتعبير عن أنفسهم وطى الأخص في الصين حيث لا يتسنى للتيارات السياسية أن تؤدي أدواراً فعالة نافذة الأثر ما لم يكن تحت تصرف قادتها جيوش عاربة ( كما هو الحال لدى المحافظين من أمثال يوان شاي كاي ، أو حزب الكومنتانج وكما هو الحال أيضاً لدى الشيوعيين ) مما أدى إلى الإضرار بالأحرار والصلحين في الخمسين عاماً الأخيرة .

هذه الأمثلة توضح لنا مستوى الأصالة في تطور آسيا ، وتستند هذه الأصالة أساساً على الحقائق الواقعة المتعلقة بالظروف التاريخية والأوضاع الاجتماعية والسياسية . ولكن من الجائز أن نذهب إلى القول بأن هذه الأصالة ليست مطلقة وأن التاريخ الحديث لآسيا قد يتضمن بعض للدولات التي يشترك فيها مع تاريخ الغرب في نطاق مفاهيم وعمليات تاريخية أشمل وأكثر تنوعاً .

إن تطور القارة الآسيوية يتميز كما يتميز نظيره في الغرب مع اختلاف الظروف ، بتفاعل الوقائع الاقتصادية والحركات العسكرية ، فالطبقات الاجتماعية إحدى حقائقه المعروفة وكذلك الدور الذي يشغله الصراع الاجتماعي في الحياة السياسية ،

ومنها أيضاً مفاهيم كاملة أمة التي لها نفس القيمة للوضوعية ولكن في سياق تاريخي مختلف .

إننا لو أخذنا بالنظور ذي التركز الآسيوي في دراستنا للتاريخ المعاصر لآسيا فلنأخذنا لن نحصر القارة الآسيوية في نوعية مطلقة بل سيهيء لنا هذا سيلا أولى بالاعتماد وأخرى بالثقة عما كنا نعمل عليه في الماضي لتدعيم الطابع العالمي والوحدة الأساسية لتاريخ الجنس البشري .

## اتجاه التغير الاجتماعي - افتراض

بقلم إندرا ديفشا

ترجمة

وكنور أحمد حمدي محمود

حدث خلال السنوات الخمس الأخيرة أو نحوها إحياء موقف للاهتمام بالتغير والتطور الاجتماعيين . وقد أجمعت هذا الاتجاه الملاحظة التي أبداها تالكوت بارموز : « لقد انتقل الاهتمام — في بطن وفي صورة غير واضحة — في الدوائر السبولوجية والأشروبولوجية إلى صورة جديدة من ( النسبية ) تربط بين معانيها الكلية وبين الاعتقاد في المذهب التطوري <sup>(١)</sup> . ولا يعني هذا الاعتراف — بطبيعة الحال — إغفال الاهتمام بالدراسات الإستاتيكية التي ساد ميدان علم الاجتماع وعلم الأشروبولوجيا طوال الأربعين السنة الماضية ، فقد ازدري بكل محاولة جادة لفهم الاتجاه العام للتغير الاجتماعي بتأثير هذا الإصرار على دراسة المجتمعات كما تبدو في حالة نباتها في نقطة ما من نقاط الزمان . ونظر إلى المحاولات التي تتبع هذا السبيل بين الشك وطرح جانباً باعتبارها « لا علمية » أو « ميتافيزيقية » ، أو لا ترمي إلى غير « البناء الفكري » .

كان هذا هو الموقف في نطاق دوائر التخصصين في علم الاجتماع وعلم الأشروبولوجيا على أية حال ، ولقد اعتمدت أغلب الأبحاث التي جرت في هذين العندين على جمع مادة علمية خاصة بالمجتمع أو الحضارة في أية لحظة معينة ، مع شدة الحرص على

---

Evolutionary Universals—Talcoft Parsons in society, (١)

جمع التوافه . وقد يستطاع إثبات قيمة هذه المادة ، ولكن ندر أن كان لها في أغلب الأحيان أى أهمية أو دلالة . ف عالم الاجتماع يجمع عادة مادة من مجتمعات المدن مستخدماً « وسائل » معقدة وتقنيات إحصائية ، ويقوم عالم الأثروبولوجى مع إحدى القبائل فترة من الزمان ويقوم بوضع تقارير وصفية مفصلة . ويتركز الاهتمام حتى في حالة إجراء أى محاولات جادة لتحليل المادة العلمية على العلاقات الداخلية القائمة في « تكوين » معين أكثر من تركزه على القوى التي أحدثت التغير في هذا التكوين ، وعلى الاتجاه الذي سيتبنيه هذا التغير . وكان أى نوع من الاهتمام يوجه إلى التغير — قبل ما طرأ حديثاً من إعادة اهتمام بالتطور الاجتماعي — ينصب بوجه خاص على التغيرات قصيرة المدى التي تتعرض لها مظاهر محدودة للغاية من المجتمع والحضارة . ولا تستطيع مثل هذه الدراسات — في كل وضوح — أن تزودنا بأساس لفهم الأنماط للتسعة من التغير .

و غالباً ما يكون الذي الزمنى الذي يدور حوله البحث قصيراً للغاية بحيث لا يصلح حتى لتحقيق الغايات المحدودة التي وجه إليها . ومن الأمثلة الكثيرة للاهتمام الدالة على ذلك ما حدث في أبحاث دراسة طبيعة الرأي العام . فلقد أجريت أبحاث كبيرة في هذا الميدان ، وبخاصة بعد منتصف الثلاثينات . ولكن من العروف أن التنبؤات التي اعتمدت على الأبحاث الخاصة بالرأى العام كانت سيئة كل البعد عن إمكان الوثوق بها ، وحتى في الولايات المتحدة حيث تم هذا النوع من البحث على نطاق واسع ، كثيراً ما أخفقت في إثبات صحتها التنبؤات التي اعتمدت على هذا الأساس في معرفة من سينجح في انتخابات الرئاسة . و جرت العادة على إرجاع أى إخفاق في هذا الصدد إلى التحول السريع الذي يطرأ على الآراء في الفترة التي تقع بين النبوءة والانتخاب الفعلي ، على أننا إذا قلنا مثل هذا التفسير سيكون رد فعلنا الطبيعي هو المطالبة بنظرية تستطيع تزويدنا بتعميمات ضرورية خاصة بتلك هذا التحول في الرأى ، وإن كان هذا المطلب سيقضى بالضرورة إطاراً لا يبنى بمكونات « القطاعات المرئية »



القائمة في أى فترة معينة لحسب ، ولكنه يعنى أيضاً « بدنيامية الموقف » . وفي هذه الحالة لن يكون التغير التضمن خاصاً بفترة بعيدة المدى ، بل سيكون مماثلاً للتأرجح التجريبية والتحليلية الشائعة في علم الاجتماع والتي كانت لا تنبأ حتى بمثل هذه التغيرات القصيرة المدى .

وجرت العادة في الأنثروبولوجيا الاجتماعية منذ العشرينات الباكورة ، بعد نشر كتاب *The Andaman Islanders* لردكليف براون ، وكتاب *The Argonauts of the Western Pacific* لبرونزلاو مالفينسكى ، على الاعتقاد بأن الدراسات الوصفية للفصل للحياة في مجتمع قبلى منعزل متجانس وصغير نسبياً في فترة معينة من الزمان هي الدراسة الشروعة الوحيدة التي يستطيع المتخصصون القيام بها . وازداد الانهك في جمع دقائق المحاضرات ، بحيث أغفل تحديد الأهمية النسبية للوقائع المختلفة . وذكر مالفينسكى في بحثه الشهير عن الجرعة في المجتمع البدائي أنه عندما انتشر « كياي » (وهي الحادثة التي اعتبرها من دلائل اتباع المجتمعات البدائية للقانون) كان منهمكاً في تسجيل دقائق طقوس اللوت حتى نسي البحث عن كيفية حدوث الوفاة<sup>(١)</sup>؛ فلقد نظر بتأثير نظرية الأنثروبولوجيا الاجتماعية التي تهتم بتركيز البحث عن « التكوين » و « الوظيفة » ، إلى المقارنة بين العناصر للتناظر في المحاضرات المختلفة بين الشك ، ولا يمكن التسليم في مثل هذه الظروف بصحة أى اتجاه من الاتجاهات التي اعتمدت على التعميم في تفسير التغير الاجتماعي الحضارى .

(١) كتب مالفينسكى يقول « لقد أدى اهتمامي بمجانب الوصف المتصل للطقوس إلى نسيان ظروف المسألة ، على الرغم من حدوث حادث أو حادثين في نفس الوقت و القرية ، كان الفروض إثارتها لشكوكي ، ولم أستطع أن أكشف المعنى الحق للحادثين إلا فيما بعد ، وعرفت أن المعنى قد أقدم على الاختصار .

أنظر كتاب برونزلاو مالفينسكى *Crime & Custom in Savage Society* (لندن — راولدج وكيجان بول ١٩٥١) ص ٧٧ .

ولا يتجاهل التغير أولئك الذين يركزون الاهتمام على الدراسات التجريبية وحدهم. فلقد تم إنشاء عدة نظريات تميزت بإغفالها لبعد الزمان. ولذا فبينما حدثت بعض محاولات دقيقة لإنشاء نظريات معقدة للنظم الاجتماعية — اتصفت أحياناً بالعموض — لم تبذل أى جهود مماثلة لوضع نظريات خاصة بالخطوات التى يتبعها التغير الاجتماعى ، والأنماط التى يظهر فيها . ومع هذا فمن البشائر الجذيرة بالترحيب اتجاه بعض أصحاب النظريات البارزين فى « التكوينات » و « النظم » إلى إدراك الحاجة إلى توجيه عناية إلى التغير والتطور .

ولا يمكن إنكار كيف ساهمت الاكتشافات المبالغ فيها التى ادعاها علماء التطور فى القرن التاسع عشر ، والنظريات العلمية الجامدة التى اعتقدت فى اتباع التطور لاتجاه واحد — كيف ساهمت مساهمة جوهرية فى شعور علماء الاجتماع والأشروبولوجيا بالجمود وازدراء دراسة التغير . وكانت الأدلة المتوافرة لهم شحيحة للغاية ، ولا يمكن الوثوق بها ، بحيث تبرر الزاعم للوثوق بها . على أنه رغم ذلك ، سيكون من اللؤسف ، أن يرجع إلى هذا السبب وحده استمرارنا فى الاستخفاف بكل المحاولات الرامية إلى تحديد الاطرادات التى تظهر فى التغيرات الاجتماعية والحضارات المختلفة ( وفى أنواع الحضارات ) . وربما استطاعت هذه المحاولات بعد أمد إحداث تغيير أساسى فى النظريات التطورية الباكرة ، وقد تزودنا بنماذج تساعد على الارتقاء بإدراكنا لدراما التغير الاجتماعى الذى يدور حولنا ، وما فيه من إثارة أخاذة . وبقدر إمكان إثبات هذه النظريات ، فإنها قد تساعدنا على التنبؤ بما يحدث من تغير اجتماعى فى الأنواع المختلفة من المجتمع ، وبذلك فإنها قد تزودنا بخطوط توجيهية معينة فى الناحية العملية . ولقد قننا بوضع هذا الافتراض بعد أن جئنا هذه الغاية نصب أعيننا ، وهو لا يزيد بطبيعة الحال عن مجرد فرض خفى ، وسيتمرض للنجاح أو الإخفاق تبعاً

للأدلة التي تؤيده أو تمارضه . وهو يقبل كذلك أى تحويل على ضوء أية مادة علمية جديدة وأى تحليل نقدي .

### الفرض :

يحاول هذا البحث — اعتماداً على الاهتمام للتجدد بالتطور الاجتماعى — توجيه الانتباه إلى اتجاهات التغير الاجتماعى ، التى لم يقتصر الأمر على إغفالها ، بل وأنكرت ضمناً عند أغلب أصصاب نظريات التطور الاجتماعى .

ولقد أعلن — أو افترض — أغلب أنصار نظريات التطور الاجتماعى الحضارى الكلاسيكيين وجوب مرور أى مجتمع أو حضارة فى مراحل محددة وبترتيب محدد . وقد تنسب بعض هذه النظريات هذه المراحل إلى النظام الاجتماعى الحضارى فى جملته . أو تنسبها فى أحيان أخرى إلى جوانب معينة من هذه الحضارات أو النظم كالدين أو الفن أو الزواج ، ويفترض فى كلا الاتجاهين احتمال ارتقاء المجتمع الذى بلغ مرحلة عالية إلى مرحلة أعلى فى وقت أبكر من جيرانه الأقل تقدماً . ولا يكتفى الفرض المعروض فى هذا البحث بإثبات عدم وجوب صحة ذلك ، بل يرى أن ما يحدث بالضرورة هو عكس ذلك ، على شريطة توسيع مجال نظرنا اتساعاً كافياً . فإن أية حضارة تصل إلى الثبات فى أية مرحلة عالية لا تشعر بأى حاجة — أو إلزام — يدفعها إلى التحرك إلى مرحلة تالية . وقد يتوفر من جهة أخرى لأية حضارة تتبع مرحلة أدنى قوة دافعة أعظم مما يتوفر للحضارة الأعظم تقدماً ، يساعدها على الانتقال إلى مرحلة أرقى . ولا يتوفر للمجتمع للتأخر عادة أحوال مناسبة تساعد على بلوغ المرحلة التى بلنها بالفعل المجتمع المتقدم ، ولكنه ربما اتصف ببعض خصائص تجعله أكثر قدرة على النهوض إلى المرحلة الأعلى التالية ، وتزداد النقلة سهولة عندما يتوفر له رصيد من المعارف والأفكار التى نهضت فى المجتمع المتقدم . وبينما تعتمد الصالح

والمعايير المكتسبة التي استقرت في المجتمعات الثابتة المتقدمة إلى مقاومة أية نقلة إلى مرحلة تالية . يستطيع المجتمع المتخلف الانتقال إليها بغير اضطراب إلى التئلب على مثل هذه الموائق . وإذا سلمنا بصحة الأحكام التي قررتها نظريات «الإيقاع» في التطور الاجتماعي سيمكنا القول بتمتع المجتمعات المتخلفة بموقف أفضل يساعدها على الارتقاء إلى المراحل العليا التالية ، بسبب توافق روحها وقيمها مع الروح والقيم المطلوبة<sup>(١)</sup> وبذلك لا يصح عند الكلام عن اتجاه التطور الاجتماعي الحضاري القول بقدرة استمرار أى حضارة معينة على الاحتفاظ بالصدارة في المراحل المتعاقبة من التقدم بمجرد تقدمها في السباق . والأمر على عكس ذلك . فبمجرد حصول أية حضارة على حالة ثبات في مرحلة عالية من مراحل التقدم الاجتماعي الحضاري ، فإن الفرصة لن تنهيا لها للانتقال إلى مرحلة أعلى ، بل ستكون هذه الفرصة من حظ أية حضارة في مرحلة أدنى ، بحيث تستطيع أن تقدم على الحضارة الأولى .

وعلينا قبل أن نناقش أسباب ذلك ، أو نحلل قيمة هذا الفرض ، ونبين حدوده أن نزيد هذه النقطة إيضاحاً بالرجوع إلى أحد الأمثلة ، فلقد تكهن كارل ماركس يولوج المجتمعات التي تقدمت فيها الرأسمالية إلى مرحلة الاشتراكية ، أو مرحلة الشيوعية ، قبل المجتمعات الأخرى . وتتوافق هذه التنبؤات مع النظرة إلى التقدم الاجتماعي

---

(١) هناك نظريات عديدة خاصة بالإيقاع التي يحدث في التغير الاجتماعي ، ويمكن تصنيفها تصنيفات شتى تبعاً للمعايير المختلفة التي تختارها . ولقد صنفها سوروكين كذلك تبعاً لعدد المراحل ، فهناك إيقاعات ذات مرحلتين ، وإيقاعات ذات ثلاث مراحل ، وإيقاعات ذات أربع مراحل ، وإيقاعات ذات خمس مراحل ، وإيقاعات أخرى أكثر تعقيداً . ( انظر كتاب سوروكين Social & Cultural Dynamics نيويورك Bedminster Press ١٩٦٢ - الجزء الرابع ص ٣٩٨ إلى ص ٤٢١ ) .

ومن وجهة نظر الفرض الذي نعرضه يبد المجتمع الذي يتخلف عن المجتمع الأرقى خطوة واحدة في سلم التقدم أفضل موقفاً من حيث القدرة على الانتقال إلى مرتبة أعلى ويتم في ذلك إيقاعاً ذا مرحلتين . ومن الواضح أنه من المستطاع تطبيق هذا البرهان على نطاق واسع .

الحضارى التى اعتاد المفكرون التطوريون الإيمان بها ، واستندت هذه الفكرة بالطبع على اعتقاد ماركس بتقوض الرأسمالية بمجرد بلوغ هائضها الباطنية النبوة ، وعلى اعتقاده بمصاحبة هذه المتناقضات فى نموها لنمو النظام الرأسمالى .

ومع هذا فما نراه هو نجاح الثورات الشيوعية فى بلدان مثل روسيا القيصرية والصين ، اللتين كان يطلب عليهما أحوال ما قبل النظام الرأسمالى ، وليس فى البلدان التى تقدمت فيها الرأسمالية ، وكما عرف الجميع فإن الأرجح الآن هو إمكان تولد ثورات بتأثير الأيديولوجيات الاشتراكية فى بلدان آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، أى البلدان التى لم تقدم فيها حركات التصنيع والرأسمالية ، فهذا محتمل إلى حد ما أكثر من احتمال حدوث ذلك فى البلدان الرأسمالية المتقدمة .

وسنحاول البحث فى بعض التفاصيل عن تفسير لذلك . إن أى استقصاء للتغير الاجتماعى الذى حدث فى البلدان النامية اليوم من حيث توقيته واتجاهه وخصائصه سيؤيد—فى اعتقادى—تأييداً كبيراً «الفرض» الذى ذكرته، ويدعمه. وعلى الرغم من أن «الفرض» قد قصد به الانطباق على الأحوال بوجه عام، إلا أنه قد أثبت صحته أساساً فى نطاق التغير الاجتماعى المعاصر . ويرجع هذا إلى سببين : فأولاً علينا أن نراعى توفر أقصى قدر من الأدلة التى يمكن الاعتماد عليها لبيان مرحلة النقطة الاجتماعية التى تحدث فى العصر الحديث ( على الرغم من أن هذا الدليل جزئى بالضرورة ، لأن عملية النقطة الاجتماعية لم تتم بعد). ثانياً : وحتى إذا سلمنا بأن «الفرض» غير واف من بعض نواحيه ، فإنه سيكون ذا فائدة للتنبؤ وتوجيه السياسة .

وعلىنا أن نبين من البداية عدم ادعاء «الفرض» القدرة على التفسير الشامل لجميع مظاهر النمو الاجتماعى الحضارى والقطاعات الاجتماعية الحضارية ، فهو لا يحاول أكثر من الكشف عن ظاهرة قد تجوهلت ، بل وأنكرت ضمناً ، على زعم أن المجتمع الذى بلغ أعلى مرحلة من الحضارة قادر على بلوغ أعلى مرحلة من ذلك فى وقت

كثير تذكيراً من المجتمعات الأخرى . ولقد حجب شيوع هذا الزعم الرؤيا الواضحة للأحداث ، وأدى إلى مسخ الحقائق . فهو عقبة كأداء تعترض أى تفسير واف لعملية التغير الاجتماعى ، وعلى الأخص « لتقطع الذى يظهر فى التغير الاجتماعى » ونحن نفترف بأن الفرض جزئى ، ولكن كما بين ويلبرت مور ، « التفسيرات الجزئية هى أفضل ما يتوقع سواء ما اتجه منها لتفسير مصادر التغير أو طابع اتجاه التغير خلال الزمن (١) » . ٢

وبالنسبة للمصطلحات التى تضمنها « الفرض » عند الكلام عن التطور الاجتماعى الحضارى مثل « عال » و « ودان » و « مراحل » ، ربما أمكن القول بأنه بعد أن كان علماء الأنثروبولوجى والاجتماع ينظرون إلى هذه المصطلحات بوجه عام بازدراء خلال الأربعين السنة التى جاءت بعد سنة ١٩٢٠ ، فإنها قد عادت إلى التسرب مرة أخرى إلى ساحة المناقشات الأكاديمية الاجتماعية ، فلقد أدرك أنه رغم عدم وجود نظرية تستطيع تفسير كل مظاهر اتجاه التغير الاجتماعى تفسيراً وافياً، فإن القول بعدم اتباع التغير الاجتماعى لأى نمط على الإطلاق ليس ضرورياً أو مجدياً . وبدأ فى هذه المصطلحات عند استعمالها بوساطة نظريات التطور الكلاسيكية فى القرن التاسع عشر شيئاً من التعامل غير العلمى كالاعتقاد فى حدوث تقدم عالمى دائم . وترى المحاولات الآن إلى انتزاع مثل هذه المعتقدات من عقولنا مع عدم رفضها رفضاً باتاً ، فرغم ما يظهر فيها من قصور إلا أنها مازالت عوناً كبيراً لنا فى الإحاطة بالواقع .

وبينا التغير الاجتماعى سائر فى طريقه ، مرت عصور معينة فى تاريخ الحضارة تميزت بما فيها من ثبات نسبي من ناحية مكوناتها وأنماطها ، ومرت بالمثل عصور اتسمت بما حدث فيها من قلب للأنماط الاجتماعية الحضارية القديمة وإقامة أنماط

---

(١) ويلبرت مور Englewood — Social Change Cliffs ( نيوجيرسى )

جديدة مكانها . وظهرت تفسيرات شتى لتفسير كيفية التمام للظواهر والمكونات المختلفة لأية حضارة أو مدنية ، قيل بأن هذه الأنماط تمثل حاجات الإنسان الأساسية التي يلجأ إليها كأدوات أو التي تساعد على تكامله ( مالفينسكي ) كما وصفت بأنها أنماط جمالية ( روث بنديكت ) ، أو بأنها أساليب في الحياة ( روبرت ردفيلد ) ، أو بأنها تمثل التوافق بين بناء الشخصية والمكونات المختلفة للحضارة ( رالف ليتون و.ابراهيم كاردينر ) ، أو بأنها نظم ذات مغزى منطقي تعتمد على مسلمات أو نطولوجية أو ابستمولوجية ( سوروكين ) . وظهرت وجهات نظر أخرى كذلك لتفسير تكامل الحضارة . ولكن أيا كانت النظرية التي تتبعها فإننا نعترف ضمناً بوجود أنساق من الوحدات الاجتماعية الحضارية الشاملة ، هذا يعني أننا لانتطيع اعتبار أية حضارات أو مدنيات مينة جمعاً عشوائياً من الظواهر الحضارية . وعندما تظهر المجتمعات المختلفة تشابهاً في نمطها الشامل وفي مظاهرها التقنية والاقتصادية والسياسية والقانونية ، فإننا نستطيع الجمع بينها تحت عنوان واحد . ولن يتمدر بطبيعة الحال القيام بعدد من التصنيفات البديلة التي تتبع في أهميتها معايير مختلفة . يتضح إذاً أنه نظراً لأن كلمة مراحل من الكلمات التي تساعد على التفرقة بين أنواع مختلفة ، فإنها لا تمتد بالضرورة متافرة مع العلم .

ومع هذا فإن استخدام كلمة « أعلى » وكلمة « أوطى » عند وصف الحضارة يبدو أمراً محموقاً من الناحية العلمية ؛ لأن المفهوم السائد لهذه الكلمات يدل على الحكم على هذه الحضارات بأنها عالية أو « واطية » . ويعمل عالم الاجتماع إلى تجنب إصدار مثل هذه الأحكام الخاصة بالقيمة . وجدير بالقدر أن العالم البيولوجي يصف مراحل التطور بأنها عالية أو واطية ، ومع هذا قد يقال باعتماد أدلة التطور إلى حد كبير على الحفريات ؛ إذ نستطيع طبقات الصخور أن تبين الترتيب الزمني الذي اتبعته

بالعمل سائر الأنواع والأجناس والسلالات عند ظهورها<sup>(١)</sup> ونحن عندما نصف أية مرحلة بأنها عالية أو واطية ، فإننا لا نقصد إصدار أى حكم خاص بالقيمة . وما نشير إليه بكلمتى أعلى وأوطى ، هو مجرد « الموقع المكافئ والزمانى » الذى وجدت فيه الأنواع المختلفة . وسواء بدا هذا اللطع عن الاستعمال الصريح أو للضمير لمصطلح « أعلى » أو « أوطى » مقتناً أو لا ، فإن علينا أن نراعى أننا نستعمل هذه الكلمات بمعنى متحرر من أية إشارة إلى القيمة ، وأن أقصى ما نستطيع هذه الكلمات الإشارة إليه هو الترتيب الزمنى الذى يمكن إدراكه .

### اتجاه التغير الاجتماعى فى البلدان النامية وإيقاعه الزمنى

تعرض مشاهد التغير الاجتماعى فى البلدان النامية الحديثة فى آسيا وأفريقيا: وأمريكا اللاتينية عدداً وفيراً من للشكلات التى تحير الباحث فى علم الاجتماع . ولن نستطيع أية نظرية واحدة أن تفسر مختلف القوى الكامنة فى هذه المجتمعات البعيدة الاختلاف بقايلها المختلفة . إلا أننا سنوجه الاهتمام إلى بعض الظاهر المألوفة والنظمية فى هذه المجتمعات . ويبدو أنه لن يتعدر علينا مصادفة مثل هذه الظاهر .

وأول مظهر ملحوظ للتغير الاجتماعى فى هذه البلدان هو سرعة خطوته ، فلقد مرت بعض هذه البلدان خلال قرابة المائة عام فى صور اجتماعية وحضارية ، استغرق حدوثها فى الغرب زهاء أربعة قرون ؛ فلم تظهر مثلاً بعض الحركات التى يمكن مقارنتها بحركة النهضة وحركة الإصلاح الدينى فى أجزاء كثيرة من الهند إلا منذ مائة عام تقريباً . واليوم قد أصبحت الهند جمهورية دستورية ، يتمتع فيها

---

(١) أنظر كتاب جوردون تهايلد Social Evolutoin

(نيويورك - هنرى شومان ١٩٥١) ص ١٥



كل بالغ يحق الانتخاب ، ولنساء نفس الحق ، وآتم الهند ثلاث خطط خمسية للتنمية ، ولديها عدد وفير من الجامعات والهيئات العلمية ، يشغل فيها الباحثون في العلوم الطبيعية ، والاجتماعية والإنسانية ، ويتناولون نفس المشكلات التي تشغل العلماء في البلدان المتقدمة في القرب ، مع اعتمادهم على نفس المعدات على وجه التقريب . نعم مازال أغلب هذا التقدم مقصوراً على فئة قليلة من أهل البلاد ، وربما افتقر البعض إلى الضروريات . ولكن رغم هذا فهناك أفراد ( بل هناك جيل كامل من هؤلاء الأفراد ) قد شاهدوا في حياتهم صوراً متعاقبة من الحركات الاجتماعية الحضارية استغرق كل منها قروناً لكي ينمو ويبلغ النضج في البلدان التي اتخذت الصدارة في العصر الحديث . ولن يتعدى الثور في الهند على رجل عاش في أحد البيوت التقليدية الشديدة التحسك بالمعايير والتقنيات الوسيطة في عصر مبكر وانضم إلى إحدى جماعات الإصلاح الديني مثل « آريا ساماج » ونحس لشعارات النهضة التي تعزى بمجد الهند المريق ، ثم انضم بعد ذلك إلى الحركة القومية ، وأقسم على اتباع المثل الخاصة بالحرية والإخاء والمساواة ، وربما قام نفس هذا الشخص للشار إليه حالياً بالتحسس . للكلام عن التخطيط والصالح العام ، أو تطلع لفكرة إنشاء مجتمع اشتراكي لاطبق ولاطامى .

ويمكن ملاحظة مثل هذه التقلبات السريعة في بعض جوانب ذات أثر حاسم في الحياة الاجتماعية . وما يحدث في ( التكنولوجيا ) معروف وليس في حاجة إلى الزيد من التصرح ، فمن الأمور المألوفة أن يوجد إلى جانب الفلاح أو صاحب الحرفة الذي يستعمل بعض - أو أغلب - التقنيات والأدوات الحديثة آخرون يستعملون أدوات ترجع إلى القرن السادس ق . م . والثقة حادة إلى حد كبير حتى في مجال الفنون الجميلة ، فلقد سمعنا عن بعض شعراء من الهنود قد ألفوا قصائد من الـ Brajbhasa تتبع الأسلوب الوسيط ، ولكنهم شاركوا بعد ذلك في عدد من الحركات الأدبية التي تألفت ثم انطلقت .

وجدير بالذكر أننا لارنى فى البلدان الحديثة التنمية كالفند أية حركات اجتماعية حضارية تستغرق أجيالا طويلة ، وبدا من ذلك فإننا نرى عدة أجيال مختلفة يعيشون فى نفس الجيل . والحق أن معدل التغير الاجتماعى فى بعض البلدان الحديثة النمو قد يفوق أى شىء عرفه التاريخ حتى الآن . وغالباً ما يعتبر التغير الاجتماعى الذى حدث فى بلدان الغرب بعد الثورة الصناعية شيئاً لم يسبق له مثل ، ولكن الظاهر أن خطوة التغير الاجتماعى المعاصرة فى البلدان الحديثة النمو قد فاتته فى جملة نواح .

ومن بين الأسباب الواضحة التى تفسر ما طرأ من زيادة بالغة فى سرعة معدل التغير الاجتماعى توافر رصيد كبير من الخبرة التقنية والمعرفة والأفكار لدى هذه المجتمعات نتيجة للتقدم المبكر الذى حدث فى الغرب ، ونتيجة للأثر المفاجئ المركز الذى أحدثته هذه القوى المتراكمة على النظم الاجتماعية المتبعة ، فلا عجب إذن لما حدث من نشاط سريع غير عادى فى تغير أحوال المجتمع .

وما حدث له أهمية ودلالة من وجهة نظر «الفرض» الذى افترضناه ؛ فلقد خلق المعدل الهائل للتغير الاجتماعى قوة دافعة قد نقلت هذه المجتمعات إلى نقطة ربما فاقت النقطة التى بلغتها المجتمعات التى أحدثت الدفعة فى البداية . ولنضرب مثلاً للدلالة على ذلك ؛ فلقد كان الإنجليز هم الذين أحدثوا الأثر المباشر أو غير المباشر الذى أدى إلى تغير النظرة إلى مكانة المرأة ودورها فى الهند وسيلان . على أنه فى الوقت الذى أصبحت فيه المرأة تشغل فى كل من الهند وسيلان رئاسة الوزارة ، مازالت إنجلترا ضعيفة الأمل فى تحقيق أمر مماثل فى الغرب المجلى . ومن السليم به أن هذا التل يعد عادياً ، ولكن النقطة السكامة وراه وثيقة الصلة بموضوعنا ولها قيمة كبيرة . فنظراً لما حدث من سرعة هائلة فى التغير فى البلدان النامية ، لم يعد بالإمكان التوقف فى سهولة لإحداث التوافق الذى يساعد على إحداث تناسب

في الأنماط المعيارية أو التنظيمية عن طريق التخلي عن بعض مظاهر التقدم لمواجهة هذه القوى الجديدة ، فمن يتردد أى جيل شاهد مشاهدة ملموسة المسار الذى لحق بنظام اجتماعى كامل استمر في البقاء قرابة الألف سنة ، عن مواصلة عملية التغير إلى ما هو أبعد من ذلك . وتساعد الخطوات الواسعة للتغير على حدوث قفزات ، وتجاوز بعض خطوات متوسطة ، بل لقد أدى ذلك في بعض حالات إلى تجاوز النقطة التى بلغتها البلدان المتقدمة في الوقت الحالى .

لقد أصبح التراث المائل من المعارف العلمية والتكنولوجية التى استغرق حصول البلدان الغربية عليه قرونا طويلة ، وبعد القيام بمحاولات التعرض لجملة أخطاء ، ميسوراً ( أى ميسوراً بالقوة في أقل تقدير وفي صورة ملموسة ) لأى مجتمع متخلف من بداية رحلته تجاه صنع حياته بصبة الحياة الحديثة ، ولذا فإن في وسعه تجنب اتباع الناهج التى ثبت عقمها ، وتجنب الاتجاهات التى لا تؤدى إلى غير ألفة مسدودة .

ولكن هذا أيضاً يخلق مشكلات جديدة ، فالأمر لا يقتصر على نقل المعارف العلمية والتقنية من المجتمعات المتقدمة إلى المجتمعات النامية ، فهناك أيضاً أفكار وقيم وأهداف يتم نقلها باستمرار ، ومن ثم تنتقل أحدث أفكار الإصلاح الاجتماعى والنهوض بالصحة والعمران من البلدان الغربية إلى صفة أهل البلدان النامية ، بل وإلى السواد الأعظم من الناس . وهذا يحدث موقفاً متفجعاً يبدو في صورة فجوة كبيرة بين التطلعات والوارد ، وهى صورة معروفة للغاية المظلمة . وجدير بالملاحظة أن ما ينشأ من خلاف بين الأفراد لا يقتصر في هذه الحالة على التفاوت بين المستوى اللائق للحياة والوارد المتوافرة لتحقيق ذلك . إن للشكاة قائمة لدى جميع المجتمعات والحكومات التى تحاول توفير حياة آمنة لشعوبها ، ولا تتوفر إمكانات لتحقيقه ، فلم تيسر للبلدان المتخلفة القدرة على تحقيق ثورة صناعية وخلق قاعدة أساسية ، يستطيع

أن ينمو اعتماداً عليها اقتصاد يتمتع بالقعدة على الاكتفاء الذاتي . ويطابق هذا الموقف في تاريخ الاقتصاد ثلرحة الأولى للرأسمالية في أوروبا الغربية ، والتي عيّزت بما حدث فيها من استغلال غير محدود للعمال ، ومن تراكم للأعمال . ويطالب العمال في البلدان المتخلفة اليوم بساعات عمل وعمليات ( وربما طالبوا بزيادة في الأجور ) . يمكن مقارنتها بالامتيازات التي يتمتع بها العمال في المجتمعات التي بلغت شأواً كبيراً من التقدم .

ويدو للموقف على عكس ما قاله أوجبورن ( W. F. Ogburn ) في نظريته المروفة عن التفاوت الحضارى . وترى هذه النظرية تغير الجوانب للمادية من الحضارة في سرعة تفوق سرعة تغير جوانبها اللامادية ، ومن ثم يولشأ تفاوت يتسبب في إحداث توتر يؤدي في النهاية إلى حدوث انحلال اجتماعي . وما حدث في البلدان المتخلفة المعاصرة هو تفوق سرعة تغير مظاهر الحضارة اللامادية ( وعلى الأخص الأفكار والثلل الاجتماعية ) على المظاهر المادية للحضارة ، وأدى هذا التفاوت إلى حدوث توتر تمخضت عنه عواقب لا يستهان بها .

والواقع أن البلدان الحديثة النمو قد أصبحت تواجه هذه الأليم تحدياً مريعاً ، فإن عليها أن تحقق آمال منتصف القرن العشرين اعتماداً على موارد مازالت قرية الشبه بجالتها في القرون الوسطى . ولا يستبعد أن يؤدي هذا « التحدى » الكبير إلى إحداث استجابة هائلة في صورة استحداث حضارة جديدة من كل جانب .

وزداد احتمال حدوث ذلك عندما يكتشف امتلاء الطريق إلى مسيرة الحياة العصرية التي تحياها بلدان الغرب بمواقف خطيرة ، فإن الكثير من المميزات التي كانت ميسورة للنظام الرأسمالى في أول عهده لم تعد ميسورة للبلدان التي سارت حالة في طريق التمدن الحديث ، فلم يعد هناك أى مساحات شاسعة من الأرض البكر

يمكن شغلها ، ولم تعد هناك أية مستعمرات يمكن استغلالها ، واشتدت منافسة منتجات البلدان الأكثر تقدماً بحيث عجز رجال الأعمال في البلدان المتخلفة عن مواجهتها بغير عون منظم متفق عليه من الدولة . على أن تنازل الأفراد في للشروعات الاقتصادية عن إحدى الهام الأساسية التي يضطلعون بها للدولة سيجعل مبرر بقاء الرأسمالية الفردية مثار شك .

وربما كان هناك عائق عقائدى لا يقل من حيث الأهمية عن العوائق للادبية التى توقع نمو الرأسمالية في البلدان المتخلفة ، فلقد قادت الرأسمالية اليوم — حتى في البلدان التى انبثت منها ، وفي المجتمعات التى أصبحت تتمتع بفضلها بمستوى خيالى من العيشة — الكثير من الثقة بالنفس التى كانت تتمتع بها في الأيام النابرة . وكان رجال الأعمال والرواد الذين أنشأوا بناء الرأسمالية في الغرب يثقون ثقة كبيرة في عظمتها ، واعتقد هداة الرأى العام في تلك الأيام بأن هذا النظام سيعمل على تحرير البشر من ظلمات القرون الوسطى ، وأنه سيهديه سواء السبيل تجاه التقدم . ومن هنالم تتردد تلك الأجيال في دفع عن التقدم رغم الشقاء الذى رزحت فيه . واليوم أصبحت الرأسمالية تقتفر إلى مثل هذه الثقة . حقاً قد أرجع جوزيف شوميتز سقوط الرأسمالية في تكهناته لا إلى أى قصص مزعوم ، ولكنه أرجعها أساساً « إلى العداء للزائد من البيئة المحيطة بها ، وإلى التفرسات والإجراءات الإدارية التى تولدت عن هذا العداء »<sup>(١)</sup> واليوم وبعد أن أصبحت الرأسمالية عاجزة عن ابتثاث قدر كاف من الثقة يساعدها على تدعيم ذاتها في البلدان التى منحتها الكثير ، ما أعسر بث الوثوق بها لإنشائها من جديد في البلدان للتخلفة . وفي صريح العبارة فإن هذا

---

(١) انظر كتاب جوزيف شوميتز *Copitalism, Socialism and Democracy* (لندن - جورج ألين ، وأونون ١٩٤٧) ص ٦٣-١٠٦

يعنى عدم استعداد الكثير من الدول من الأجزاء النامية حديثاً من العالم لتمثيل الظروف للرأسمالية وإعطائها الفرصة الكافية للظهور .

والواقع أن المشكلات في هذه البلدان المتخلفة قد بلغت حداً كبيراً من التقيد بحيث يكاد يتعذر السماح أية حكومة بترك مثل هذه الأمور في يد الأفراد . وأصبح الأمر يتطلب اضطلاع الدولة بمسئولية القيادة في مسائل التنمية الاقتصادية ، وكذلك في المسائل الاجتماعية والثقافية . وبلغ التفاوت والتوتر حداً كبيراً ومعقداً بسبب سرعة التغير الاجتماعي وجسامة الآمال ، وأصبحت المشكلات أكثر إلحاحاً بحيث بدا أن المخرج الوحيد هو إخضاع كل شيء لعملية تخطيطية مركزة . واضطرت حتى السلطات الإمبريالية والاستعمارية إلى القيام بدور قيادى مماثل في المناطق التي تحتلها .

وكان من الطبيعي أن تصادف الأفكار الخاصة بالتخطيط الاجتماعي الاقتصادى الشامل والتغير للوجه ترحيماً من الصفوة ومن السواد الأعظم من الناس في البلدان المتخلفة أكثر من الترحيب الذى لاقته في البلدان التي ظهرت فيها في الأصل . فلقد انجذبت هذه البلدان — في ظروفها التي لا تشجع على ظهور نظام رأسمالى بغير تعرض لأى عويق ، وبسبب عدم قدرتها على انتظار قيام الأفراد بتحقيق نهضة اقتصادية — إلى أيديولوجيات اجتماعية اقتصادية تبشر بتحقيق تقدم سريع خاضع لمخطط .

ولا وجود في هذه البلدان المتخلفة لعدد من المقاومات التي حدثت ضد هذا التحول في البلدان النظرية الأكثر تقدماً . وهذا أمر يبدو فيه شيء من المفارقة ؛ ففي البلدان المتقدمة من الغرب ، وخلال الفترة التي تحقق فيها أكبر جانب من النمو الرأسمالى ، قاوم الكثير من المنظمات و « الأنماط القويمة » التي نهضت وازدادت قوة ، كل محاولات ترمي إلى خلق نظام جماعى أو إجراء تخطيط شامل ؛ فلقد

استقرت جذور المعتقدات والقيم الفردية في عقول أبناء الغرب ، وعملت الأفكار الفردية التي تدعو إلى الملكية والعدالة والحرية وإكمال الشخصية على مقاومة البرامج الجماعية والممارسات الجماعية ، ولا تصادف المشروعات التي تمد بتحقيق تأمين اجتماعي شامل — بسبب الانطلاق وروح المنافسة والقدرة على الكسب بغير حد — هوى لدى عامة الناس في أى مجتمع من مجتمعات الغرب .

وعلى عكس ذلك لا تتعارض القيم السائدة بين الفلاحين والمجتمعات الإقطاعية تمارساً تاماً مع القيم التي تدعو إليها الأيديولوجيات الجماعية بأنواعها المختلفة ؛ إذ تبدو القيم السائدة بين الشعوب الزراعية التقليدية ذات طابع جماعي ، في بعض مظاهرها . ولا تعد هذه النظم الجماعية بطبيعة الحال من نفس النوع الذي ترضى عنه الأيديولوجيات الحديثة للاشتراكية والشيوعية ، والتنظيم على نطاق واسع . إذ تنسم الحياة في هذه المجتمعات « بالروح العائلية » . ولا يصح إرجاع ذلك إلى عظم الدور الذي تقوم به العائلة في الحياة الفردية فحسب ، لأن باقي النظم والعلاقات تنسم هي الأخرى « بالطابع العائلي » ، ففي مثل هذه المجتمعات ، ما يمثل القات هو العائلة<sup>(١)</sup> . ولا يحتل الفرد ومنجزاته أكثر من مكانة ثانوية ، فإن كل ما ينجزه الفرد أو يحصل عليه لا يزيد من مكانته الشخصية أو من كسبه ، بل يضيف إلى رصيد العائلة من النفوذ والثروة . وما يحصل عليه كل عضو في العائلة من الحصيلة العامة لا يتوقف على ما يستحق ، أو على ما كسب ، ولكنه يتوقف على ما هو في حاجة إليه . ورغم الصعوبات الزائدة في تتبع كل المعايير التقليدية للنظم الفردية ، والتي ترجع إلى تأثير الحياة الحديثة ، فإننا إذا نظرنا إلى هذه النظم نظرة مثالية ، فإنها ستبدو أسمى من كل اتجاهات وعلاقات ذات نزعة فردية .

---

(١) انظر إلى كتاب سوروكين ، وتسيرمان ، وجاين  
Systematic Source book in Rural Sociology  
( مينابوليس ١٩٣٠ - ١٩٣٢ ) الجزء الثاني .

ولما كانت المجتمعات التي لم تعرف أسباب المدينة الحديثة لم تبلغ درجة التشبع ، بل تسمح بإضافة ما هو جديد ، لذا كان الحرص فيها على المنافسة ضعيفاً . ويظهر فيما بقي من مجتمع القرى التقليدية نوع من التبادل الاقتصادى الذى لا يعتمد على نظام السوق ، بل يعتمد على نظام تعاوى بين الطوائف المتخصصة ؛ فمثلاً فى كثير من القرى الهندية حيث مازال نظام « الجيجمانى » أو « الجاجانى » يعمل بنجاح ، لا يحصل الحلاق أو الحزاف أو التجار أو الحداد أو التسال على أجر فورى نظير الخدمة التى قام بها . فهم يقومون بأداء خدماتهم طوال السنة ، ويحصلون تقليدياً في موسم الحصاد على مقدار محدد من القمح من عائلات عملائهم من الفلاحين . ولا وجود فى هذه الحالة لأية منافسة فى البضائع والخدمات ، أو تحديد لقيم التبادل اعتماداً على هذا الأساس . ويستند كثير من الباحثين أنه قبل أن يتعرض مجتمع القرية الهندية للانحطاط فى ظل الحكم البريطانى كانت ملكية الأرض المزروعة فى كل قرية مشاعاً<sup>(١)</sup> . وقد يختلف الرأى فى هذه المسألة ، وإن كان ليس هناك أدنى شك فى أن الأرض قبل الاحتلال البريطانى لم تكن سلعة يمكن أن تباع أو تشتري فى حرية ، ومن المعروف أن ما يشده الناس فى أغلب المجتمعات القروية هو الحياة الآمنة الوادعة ، وأن هذا يهمهم أكثر من أية محاولة لرفع مستوى المعيشة . وتتبع فكرة الملك والدولة كذلك من الناحية التقليدية « النظام الأبوى » .. وحتى وإن تعذر قيام الدولة عملياً فى المجتمعات السابفة للمدينة الحديثة بأى خدمات على نطاق واسع لمواطنيها لأسباب معروفة ، فلا يصح القول بوجود أى مثل تدعو إلى الحد من نشاط الدولة ، يمكن أن نتأرن بالحالة فى المجتمعات المؤمنة بالحرية الاقتصادية الشاملة (Laissez-Faire)

---

(٨) انظر إلى كتاب راماكريشنا موكرجي Dynamics of a Rural Society (برلين أكاديمية فيراج ١٩٥٧ ص ١٥) فيه مناقشة حديثة نسبياً تبين حقوق مجتمع القرى فى الأرض المزروعة .



ولا يعنى هذا توفر نظم وقيم فى الماضى لدى المجتمعات المتخلفة يمكن مقارنتها ببرامج أو أيديولوجيات الشيوعية أو الاشتراكية أو أى نظام آخر من المجتمعات الجماعية الخاصة للتخطيط التى تقترح حالياً . وما أعنيه ببساطة هو عدم وجود أية مقاومة للتخطيط الشامل أو ما يشبه ذلك—فما يحتمل—كما هو الحال فى المجتمعات الرأسمالية التى بلغت شأواً بعيداً من التقدم . وكثيراً ما يتضح—حتى فى حالة ظهور بعض طوائف من الناس فى المجتمعات الحديثة النمو تتبع بالفعل اتجاهات تحيد النزعة الفردية والمنافسة الحرة— أن مثل هذا الحماس سطحى ، ويستطاع الجحولة دون استمراره بمجرد تعرضه لأى ضغط هين .

وزعم كتاب كثيرون وجود عداوة مطلقة بين القيم التقليدية وكل الصور الداعية إلى اتباع الاتجاهات العصرية . وقد لا يكون هذا صحيحاً . ولقد اتجهت بعض القيم التقليدية إلى مقاومة أى اتجاهات أو مظاهر من التى سادت فى باكورة العصر الحديث، ولكنها ربما حرصت على تحييد القيم والأنماط التنظيمية التى ظهرت فيما بعد . حقاً إن الحماس للفرط للنزعة الفردية وروح المنافسة والكسب غير المحدود من الأمور التى تتنافر مع القيم التقليدية السائدة فى أغلب المجتمعات التى تحيا فى ظروف ما قبل الدنية الحديثة فى البلدان المتخلفة ، غير أن الاهتمام الأكثر حداثة بالتأمين الاجتماعى والتعاونى قد لا يكون متنافراً مع القيم العائلية التقليدية . ومن هنا تند المجتمعات التى أمكنها الاحتفاظ حتى الآن بطابعها التقليدى أقرب إلى الليل إلى هذه القيم التى انبثت خلال مرحلة متأخرة .

ومما يثير الاهتمام إلى حد بعيد أن هذا قد يصح حتى عن جوانب معينة من التقنية التى قد يحتمل لجوء البلدان النامية حديثاً إلى استخدامها . ولقد فرق لويس مامفورد بين مراحل « جبر التقنية » و « التقنية القديمة » و « التقنية الحديثة » . وتعد مرحلة جبر التقنية من ١٠٠٠م إلى سنة ١٧٥٠م على وجه التقريب . وبدأت مرحلة

التقنية القديمة التي بلغت أوجها في منتصف القرن الثامن عشر في إنجلترا في  
الاضمحلال بعد سنة ١٩٠٠. ومنذ ذلك العهد بدأت مرحلة التقنية الحديثة في الظهور.  
وانصب أكبر جانب من الاهتمام في المرحلة التقنية القديمة على زيادة أحجام الآلات  
والمصانع، وتركزت هذه الآلات والمصانع عادة في المراكز الصناعية المزدحمة. واقتضت  
الضرورة ذلك أيضاً، لأن الفحم كان أهم مصدر من مصادر القوى في هذه الحقبة،  
وكان نقله شاقاً، ولذا أرغمت الصناعات على القيام بالقرب من مناجم الفحم. وفي  
عصر التقنية القديمة، كانت الاعتبارات الجمالية تصحى في سبيل للنفعة. ومع هذا  
فقد استطاعت الصناعات بعد ظهور مصادر جديدة للقوى كالبتروول والكهرباء في  
العصر الذي جاء بعد ذلك، أن تنتشر على نطاق واسع، وازدادت الآلات صفراً في  
حجمها، ولم تعد تبدو في الأحجام الهائلة التي كانت شائعة في عصر التقنية القديم<sup>(١)</sup>.  
ولم تعد البلدان للتخلفة التي لم تنجح إلى التصنيع إلا في الوقت الحالي — أى بعد أن  
تقدمت التقنية الحديثة — في حاجة إلى اتباع الطريق الذي سارت فيه المجتمعات  
الأكثر تقدماً فيما مضى. فهي قادرة على نقل مصادر القوى إلى أى جزء من أجزاء  
الدولة، وقادرة على توزيع مراكز الصناعة في شتى الأنحاء. وفي وسعها إلى حد كبير  
اعتماداً على القيم التي احتفظ بها أصحاب الحرف من الناحية التقليدية أن تواصل الجمع  
بين الجمال والنفعة.

---

(١) تبدو الملاحظة التالية التي أبدتها مامفورد مثيرة للاهتمام من وجهة نظرنا : « تمثل  
المرحلة التقنية الجديدة مرحلة فائقة في تقدم الآلة خلال الألف سنة الأخيرة . . . فهي تدل بحق  
على طفرة . . . وتختلف عن المرحلة التقنية القديمة اختلافاً يكاد يعبه اختلاف الأبيض عن الأسود .  
ومن جهة أخرى فإن الصلة بينها وبين مرحلة فجر التقنية شبيهة بالصلة بين البالغ والطفل » .

لويس مامفورد *Technics and Civilization*

(لندن — راولدج ١٩٤٧) ص ٢١٢ .

وهكذا يتضح كيف أصبحت للرحلة الأخيرة من مراحل النهضة الحديثة في متناول يد الدول المتخلفة ، وأنها من نواح معينة في مركز أفضل يساعدها على تخطي المراحل الأولية . وعندما تتبع البلدان المتخلفة السبل الحديثة التي ابتدعتها المجتمعات المتقدمة سواء كانت نظماً اجتماعية اقتصادية جديدة أو تقنيات جديدة — فإنه لا يتوقع بكل تأكيد أن تظهر هذه النظم أو التقنيات في نفس مظهرها الذي كانت ستظهر فيه لو أن الفرصة سنحت لها بذلك في البلدان المتقدمة (١) . ولكننا إذا راعينا أن هذه الصور من إنتاج مرحلة متأخرة كان علينا أن نمدها قد جاءت بمرحلة أبعد من المراحل السابق وجودها بالفعل .

#### ملاحظات ختامية :

يبين المناقشات الآتية الذكر عن اللامح الميزة للتغير الاجتماعي في البلدان المتخلفة عدم احتمال إتياع هذه البلدان في أعاطها الاجتماعية الحضارية لنفس الانحياز البدئي الذي اتبعته البلدان الغربية التي كان لها دور الريادة في هذا السيل في العصر الحديث . ولقد أظهرت هذه البلدان من جانب آخر ميلا إلى وضع بعض الأفكار الخاصة بالصور الاقتصادية الاجتماعية والصور الحضارية التي ظهرت في البلدان المتقدمة في مرحلة متأخرة ، موضع التنفيذ . وربما بدا من المقارقات — إلى حد ما — أن تحاول البلدان المتخلفة الإقدام جدياً على تنفيذ خطط وبرامج جديدة ، بينما لم تظهر

---

(١) بغض النظر عن الاختلافات الهامة في الظروف، فقد ترجع إعادة تشكيل النظم والانعجازات المستمرة إلى محاولة واعية من جانب الصغوة في هذه البلدان للحفاظ على طابع حضارتهم التقليدية ، إلى جانب ترحيهم بالتغير واتباع النظم المستحدثة .

أنظر :

Daya Krishna Considerations Towards a Theory of Social Change

( يومبى ١٩٦٥ ) ص ١٧٢ — ١٧٣ .

البلدان صاحبة هذه الخطط وهذه البرامج أية ميول جادة لوضع التنفيذ .  
ويمكن الرجوع في تفسير ذلك إلى طبيعة المشكلات التي تواجه البلدان المختلفة للماصرة .  
فالبلدان الحديثة النمو في حالة اضطراب وبليّة . وقد قامت هذه البلدان بتجربة بعض  
التغييرات التي تميزت بسرعة الفاتحة في بعض جوانب اجتماعية وحضارية ، حتى  
أصبحت لا تكتفى القيام بأي تغييرات أخرى . فلقد تمكنت مشكلاتها ( وهو ما يرجع  
إلى جملة أسباب متنوعة ) وما لم تعمل في حزم وثبات على سرعة حلها سيتمدد حتى  
ضمان تزويد جموع هذه الشعوب بالزاد الضروري . لقد أصبح التغيير في صورة  
متطرفة أمراً لازماً لهذه الشعوب ، على أنها قد رأت الطريق الذي اتبعته بلدان  
القرب بعد ابتعادها عن النظام الإقطاعي مسدوداً بعوائق جديدة من الناحية للمادية  
ومن الناحية المعنوية . ومن جهة أخرى فإن هذه البلدان تشعر بتعلق كبير ببعض  
البرامج والأيدولوجيات التي ظهرت في الأصل في القرب . وبينما لا تشعر بلدان  
القرب بأية ضرورة ملحة تدعوها إلى وضع هذه البرامج موضع التنفيذ على نطاق  
واسع ، فإننا نرى الدول الحديثة النمو متلهفة على اتباع هذه البرامج . ويلب دوراً  
في هذه الناحية أيضاً بعض قيم ذات دور فعال ؛ فبينما تقوم قيم « الفردية »  
وللأسف الخاصة التي اكتسبت نفوذاً كبيراً في القرب منذ للراحل الأولى من  
الرأسمالية بمقاومة قوية للحيولة دون اتباع النظم الجماعية ، فإننا نرى أن أنماط القيم  
التقليدية في البلدان المتخلفة لا تظهر أي تمارض مع الصور الجديدة . ومن ثم أصبحت  
الدول النامية هي أول من يحاول تجربة الأفكار الجديدة في البناء الاجتماعي .

إن تحليل اتجاهات التغيير الاجتماعي في العالم للماصر يؤيد تطبيق الاقتراض  
السابق ذكره فيما يبدو . وربما أمكن تطبيق هذا « الفرض » إلى حد ما على مراحل  
انتقال مماثلة في الحضارة في عصور أخرى كذلك ؛ فيمكن القول مثلاً بأن الرأسمالية  
ذاتها لم تستطع أن تظهر في أجزاء العالم التي بلغت الندوة في الحضارات السابقة  
للرأسمالية ، فلقد تقدمت أولاً في المجتمعات التي لم تتوفر لها مظاهر ثبات وتعدد مماثلة

للمظاهر التي بدت في الحضارات الإقطاعية المزدهرة للتمتع على الزراعة في الشرق .  
ولعل هذه الأحوال هي التي يسرت لبلدان غرب أوروبا وضع مثل هذه الحضارة  
المستحدثة . ولقد ساعدت للعارف للتمتع من الحضارات الأكثر تقدماً على النهوض  
بهذه المهمة في المراحل الأولية بطبيعة الحال . وهكذا يتضح أن الحضارات التي  
استطاعت اتخاذ الصدارة ليست هي القادرة على الاتجاه نحو الأراضي المراد  
اكتشافها . إن مثل هذه الفرصة مهيأة أكثر من ذلك أمام المجتمعات المتأخرة  
التي تستطيع بلوغ المرحلة التالية الأسمى .

ولقد حدثت نظريات مختلفة من نظريات « الإيقاع » في التغير الاجتماعي.  
المادة التي تثبت عدم اتباع نفس الاتجاهات الحضارية في نمواً لخط مستقيم . فلا يلزم  
أن تشترك أي حضارتين متعاقبتين في بعض جوانب ، ولا تشترك أية حضارتين  
متباعدتين في الزمان في جملة ظواهر . وربما استمد « الفرض » الحالي — من  
هذه الزاوية — مؤازرة من نظريات « الإيقاع » . ولكن هذا الفرض ذاته ليس  
بمجرد نظرية من نظريات « الإيقاع » ، لأن مثل هذه النظريات قد جعلت منها ينصب  
عند بحث التغير الاجتماعي على الاتجاه الإيقاعي للتغير الاجتماعي في نطاق حضارة  
معينة . أما هذا الفرض فيشير إلى انتقال روح المبادأة من الحضارات الأكثر تقدماً  
إلى الحضارات الأقل تقدماً ، وعلى انتقال اللبادة عادة الاعتراف بوجود اتصال بين  
هاتين الحضارتين ، واستخدام الحضارة الأقل تقدماً لمعارف وأفكار قدم تميتهما،  
في الحضارات الأكثر تقدماً .



هـنرى ن. ثولكوث  
المجتمع في العصر التبعثى  
ترجمة  
لوبيس اسكندر

رسم المهندس السويسرى جوستاف إيخلبرج Gustav Eichelberg فى كتابه  
Der Mensch und die Technik ( زيورخ ١٩٥٣ ص ١٨ ) صورة فكهية  
للتطور الشامل الذى اعتور المجتمع ، والذى مثله بسباق للمسافات الطويلة ، يبلغ  
طوله ستين كيلو متراً ويمثل كل كيلو متر منه ألف سنة .

ويسير هذا السباق السجيب على النحو التالى :

يحترق الجزء الأكبر من طريق السباق غابة بدائية لاتعتور أى شىء فيها تغييرات  
ظاهرة ، ولا تبسو أول دلائل الحضارة إلا قرب نهاية الطريق ، بعد ثمانية  
وخمسين إلى تسعة وخمسين كيلو متراً ، كالأدوات الأولية التى كان يستخدمها الإنسان  
البدائى ، والرسوم التى كان يصورها على الصخر وفى الكيلومتر الأخير يظهر أول  
أناس تولوا فلاحه الأرض .

وعلى مسافة ثلاثمائة متر من النهاية يجد للتسابقون أنفسهم فى طريق مرصوف  
بالحجارة يمر بأهرام وحصون روما القديمة . وعلى بعد مائة متر تبدو للأنظار مباني  
مدن العصور الوسطى . وقبل نهاية السباق يحسمين متراً نشاهد رجلاً تظهر عليه  
مخالب الفطنة والذكاء يقب السباق ، هذا الرجل هو ليوناردو دافنشى .

ولا يبتقى من الطريق إلا عشرة أمتار ، وعند ذاك يجري المتسابقون على نور للشاعل وضوء الصايح الزيتية الخافت ، غير أن معجزة تحدث في الجزء الأخير من السباق ؛ إذ تقمر الطريق أضواء الكهرباء ، وتحمل السيارات محل العربات ، ويسمع أزيز الطائرات ، وتهر الأنوار النامرة أنظار المتسابقين ويحيط بهم مندوبو الصحف والإذاعة والتليفزيون . . .

وهكذا ترى أن العشرة الأمتار الأخيرة تمثل السنوات المائة الأخيرة ، وبعبارة أخرى تمثل الفترة الزمنية التي حدث خلالها من التغيرات قدر ما حدث خلال كل الأجيال التي سبقتها من تاريخ التطور البشرى . وتتميز هذه التغيرات بأن التيارات الأساسية من النشاط الإنساني ، وما الإنتاج والبحث العلمي ، يتنافسان على احتلال مركز الصدارة ، وباقتران كل منهما بالآخر اندفعا إلى الأمام كالفيضان الجارف بغير في طريقه كل شيء . وهذا سبب من الأسباب الرئيسية في الزايد الشديد في سرعة التقدم العلمي والتقنى خلال القرن الأخير . وبفضل هذا الاندماج بين العلم والإنتاج ، أو قل بفضل هذه التكنولوجيا ، استطاع الإنسان أن يستغل إمكانيات قوى الطبيعة التي لا حد لها .

وهناك بالطبع ما هو أكثر من مجرد تزايد سرعة التقدم العلمي والتقنى ؛ فإذا كان مجال التكنولوجيا فيما مضى محصوراً في نطاق إنتاج السلع للمادية ، فإنها الآن قد دخلت في كيان الحياة الاجتماعية كله ؛ ذلك أن التكنولوجيا قد خلقت ثورة في وسائل النقل ، وأصبح لها أرسخ قدم في حضارتنا ، وحياتنا اليومية ، وأوقات فراغنا .

ولقد خطا التطور التقنى من حيث الكيف خطوة واسعة إلى الأمام يستلزم منا أن ننظر في ضوء جديد إلى كل ماسبق من تقدم علمى وتقنى ، وإلى كل ما يتوقع من تقدم في المستقبل . ووضع لنا علم السير نيتيقا Cybernetics ( علم المقول ) وعلم



اليونيقا Bionics ( البيولوجيا الألكترونية ) مبادئ لتكنولوجيا المستقبل ( مثل التكنولوجيا التي لا تعتمد على الآلات ، أو الأجهزة التي تمثل اتحاداً فسيولوجياً بين كائن حي ومادة لحياء فيها ) ، وكلها مبادئ لا تتماشى مع الأفكار السائدة . وتصاحب الثورة التكنولوجية كما تتحكم فيها الثورة في العلوم وفي التفكير التقنى وفي فكرة الناس عن العالم . وكذلك تؤثر التكنولوجيا في العلاقات الاجتماعية وفي الأيديولوجية والعلاقات الأخلاقية ، كما تثير أمام المجتمع مشاكل جديدة .

إن الكشوف العظيمة التي توصل إليها العلم والتكنولوجيا تتيح للإنسان قوى هائلة ، كما أن للشكلات الاجتماعية والاقتصادية التي خلقها التقدم العلمى والتقنى زرداد أهميتها كلما ازدادت ضخامة تلك القوى .

والتكنولوجيا الحديثة تساعد الإنسان في عمله ، وفي الوقت عينه تفرض على أشكال النشاط الإنسانى الأكثر تعقيداً ضرورات جديدة ملحة ، فهي ترفع القدرة الإنتاجية للعمل ، ولكنها تثير في الوقت نفسه وبصورة أهد ما تكون حدة ، مشكلة الانتقال من عمل إلى آخر وإعادة تدريب العمال . والتكنولوجيا هي التي تحدد الزيادة في وقت الفراغ ، وفي استطاعتها أن تساعد الإنسان على « قتل » هذا الوقت بأشكال سلبية من التسلية ، كما أنها تدخل الراحة في الحياة اليومية وتؤدي لها الخدمات ، وهي إلى جانب ذلك تحدد إيقاع الحياة .

وتثير الثورة العلمية والتقنية مشاكل كثيرة ملحة من النواحي الاجتماعية والاقتصادية نتيجة لما تحدته من صنوف التقدم في المجالات الهنية وفي قطاعات المجتمع ، وفي المجتمع كله ، وتتطلب هذه الثورة أوضاعاً معينة في تنظيم الإنتاج وفي تكنولوجياه وتوزيعه . والتقدم العلمى والتقنى للماصر لا يقف عند حد تغيير طبيعة عمل العامل بعد أن أصبحت عمليات الإنتاج كلها تتم بطريقة أوتوماتيكية، ولكنه إلى جانب ذلك يؤثر في وقت الفراغ الذى ينحو إلى الزيادة المستمرة فيحدد طبيعته ويعدها .

والوقت الحاضر الذى تتابع فيه الكشف الثورية فى الإنتاج ، وأساليب الإنتاج ، وتكنولوجياه ، وتوالى بصورة لاهتية لها ، وتقدم منه بعض المخترعات التقنية الجديدة قبل أن يتاح لها وقت كاف تطبق فيه على نطاق واسع فى عملية الإنتاج — فى هذا الوقت أصبح من الأمور الأساسية أن تكون لدينا استراتيجية تقسم عرونة خاصة ، استراتيجية تقنية اقتصادية تمتد بصرها إلى الأمام ، وتقدر بشرات السنين لا بالسنين ، ولا تركز على جانب واحد معين من جوانب الثورة العلمية والتقنية ، بل تستند إلى خط اتجاهها العام . والقدره الحركية للتكنولوجيا يجب أن تقابلها سياسة تقنية وعلمية معادلة لها فى تلك القدرة . ومن الهم ألا يقتصر تركيز الجهود والوارد مقدماً على ذلك القطاع من هذه الثورة الذى يحدد شكل الإنتاج الحالى ، بل يجب أن يتعدى ذلك إلى التركيز على الناحية التى تحدد الإنتاج فى المستقبل .

ولكى تبلغ هذه السياسة العلمية والتقنية ذروة الكفاية والفعالية يجب أن تقوم على نظام صارم من المبادئ النظرية للتقدم التقنى ، وعلى التعرف على القوانين المتعلقة « بالحركة الذاتية » للتكنولوجيا ، وإلا لاستحال تقدير مستقبل المجتمع والتوجيه الفعال للعمليات الاجتماعية فى الظروف الحالية ، فتحليل القوانين الخاصة بالتقدم التقنى وطبيعة تفاعلها مع القوانين الاجتماعية والاقتصادية يمكننا من تبين طريقنا بصورة أفضل فى الظروف الخاصة التى تحيط بالثورة العلمية والتقنية الحديثة .

إن قضايا هذا العصر الذى نعيش فيه لا يمكن البت فيها من أساسها دون تفسير « جدلى » لتاريخ التكنولوجيا كله ، ودون كشف المبادئ المتعلقة بالحركة الذاتية للتكنولوجيا ، كما أن المشكلات السيولوجية المتعلقة بتطور التكنولوجيا تتصل اتصالاً لا تنقسم عراه بمشكلات التطور العلمى كجزء من نظام شامل . وفى مقدورنا القول فى إيجاز بأن النطاق كله لا يعدو كونه نطاقاً واحداً للمعرفة ، وذلك لأننا نعتقد أن العلوم الحديثة ( وخاصة العلوم الطبيعية ) يمكن اعتبارها بمعنى من المعانى

تكنولوجيا المستقبل ، كما أن التكنولوجيا بدورها يمكن اعتبارها علوماً انتقلت من حيز النظريات إلى مجال التطبيق ، «التطبيق المادى للمعوم» (كارل ماركس).

إن الثورة العلمية والتقنية القائمة في العالم الحديث تؤثر تأثيراً ثورياً في كل جانب من جوانب الحياة الاجتماعية ، ومن الأمور الهامة أن نوضح المنطق الموضوعى لهذه العملية ، وتبين الاتجاهات الجوهرية للتقدم التقنى والأشكال التى تتمثل فيها من الناحية الاجتماعية . وهذه هى مهمة النظرية السيولوجية للتكنولوجيا ، وهى نظرية تتطور عند « نقطة الالتقاء » بين مجموعة من مختلف المعوم الاجتماعية ( للادية التاريخية — تاريخ التكنولوجيا — الاقتصاد السياسى — الشيوعية العلمية — سيكولوجية المهندس ) وبين مجموعة من مختلف المعوم الطبيعية ( التكنولوجيا — السيرينيقاليونيقا ) ، وبما أن هذا العلم يمثل للوقف الوسط الذى تقفه التكنولوجيا ، وهى موضوع بحث هذا العلم ، بين الإنسان ( المجتمع ) ومجال عمله ( الطبيعة ) ، فمن الطبيعى أن يتركز على القوانين الاجتماعية والطبيعية معا .

وإنك لتجد الأساس النظرى لتطور للشكلات التكنولوجية للعاصرة التى يتناولها علم الاجتماع في مؤلفات كارل ماركس وبخاصة في كتابه «رأس المال» وفي المخطوطات التمهيدية لهذا الكتاب . وهذه المخطوطات التى تبين للدخل الأول الذى اتخذته كارل ماركس في دراسته للتكنولوجيا ، وهو مخالف لدخل من سبقه من الباحثين ، هذه المخطوطات تمكنتنا من فهم أعمق لجوهر الإنتاج بواسطة الآلات و لقوانين التطور التكنولوجى ، وللمراحل التى مر بها ، وللعلاقة بين العوامل التقنية والعوامل الاقتصادية . لقد استطاع ماركس أن يتنبأ باتجاهات في التطور التكنولوجى لم يدا ظهورها بصورة واضحة إلى الآن .

### الحركة الدائنية للتكنولوجيا :

لكى نفهم المنطق الباطن لتطور التكنولوجيا ، لا يكفي أن ندرس العلاقات

الاقتصادية بين هذا المجتمع وذاك ، ونسبر قوانين التطور التكنولوجى كأنها حالة خاصة ووظيفة تدخل فى نطاق القوانين الاجتماعية والاقتصادية .

ومع ذلك فإن الاختراكية البدائية لا تزال ملموسة الأثر فى بعض المؤلفات التى تناولت مشكلات الثورة العلمية والتقنية للعاصرة ، والتى لا ترى فى التكنولوجيا إلا أنها شىء من اختصاص الاقتصاد . وخلال حياة ماركس حاول الاقتصادى برودون Proudhon أن يستتج العوامل التكنولوجية من العوامل الاقتصادية ، بل حاول بالذات أن يفسر ظهور الآلات بأنه حدث بفعل تقسيم العمل . وقد قال ماركس فى هذا الصدد « إن الآلة لا تختلف عن الثور الذى يجر المحراث فى أنها ليست ظاهرة اقتصادية » . والوصول إلى أداة من أدوات الإنتاج ، وهى الآلة ، على أساس تقسيم العمل بوجه عام ، لا يبدو أن يكون تفسيراً « يحمل من التاريخ شيئاً عديم المعنى » .

ومادامت التكنولوجيا ظاهرة لا يمكن إخضاعها للظواهر الاقتصادية ، فمن الطبيعى أن تتسامل عن القوى المحركة الداخلية فى تطور هذه الظاهرة ، وعن التناقضات الخاصة التى تنشأ منذ البداية ، وعن القوانين الحقيقية الخاصة بها . ويمكن القول بوجه عام إن التناقضات الداخلية للتطور التقنى إما أن تكون تناقضات فى تركيب الآلات وفى العلاقة بين النظام التقنى كله وبين أجزائه المفردة ، وإما أن تكون نوعاً من التنافر بين مختلف مجالات تكنولوجيا الإنتاج . غير أن هذه كلها تناقضات « خاصة » لا تلقى ضوءاً على عملية « الحركة الذاتية » للتكنولوجيا . وعند تحليل هذه المسألة تنشأ مشكلة هى مستوى التجريد المسموح به .

وسوف يثبت أن هذا التجريد شىء بعيد عن الواقع ولا يحمل معنى إذا أغفل الطابع الأساسى الخاص للظاهرة التى نقوم بتحليلها ، وهذا الإغفال شىء حتمى إذا أصبح نطاق المنطق الخاص بالتطور التكنولوجى قاصراً على التكنولوجيا بمنزلة عن أى شىء آخر . وقد سبق لنا القول بأن التكنولوجيا تحتل مكاناً وسطاً بين الفرد

الاجتماعى الذى يطبقها وبين الطبيعة باعتبارها موضوع عمل الإنسان ؛ فإذا نظرنا إلى التكنولوجيا بعزل عن النشاط الإنسانى أصبحت شيئاً مادياً فى الطبيعة لا حياة فيه مثله مثل كومة من الأحجار . ولا يمكن أن تصبح وسيلة تقنية إلا إذا دخلت مجال النشاط الإنسانى ، وهذا هو السبب فى أننا عند التعرض للمنطق الخاص بالتطور التكنولوجى لانتطيع تجريد النشاط الإنسانى ، فهذا المستوى من التجريد لا يمكن قبوله ، إذ أنه يؤدى بنا إلى إغفال الطبيعة الجوهرية للتكنولوجيا ، وأخص خصائصها اللدانية الكامنة فى داخلها .

والأدوات الفنية المستخدمة فى العمل هى من ناحية أمياء مادية مستخلصة من الطبيعة ، غير أن الإنسان يستخدمها من الناحية الأخرى لتوسيع نطاق العمل الذى يؤديه بأعضاء جسمه الطبيعية ، فتكون فى هذا الوضع جزءاً خلوأ من الحياة داخلاً فى نظام حى ، ولهذا فإن التحليل النظرى للمنطق الخاص بالتطور التكنولوجى يجب أن يتضمن دراسة هذين الجانبين من تلك العلاقة للتبادلة . والباحثون الذين لا يأخذون فى اعتبارهم إلا جانباً واحداً فقط إنما يوقعون أنفسهم فى تفسير مثالى للتكنولوجيا فيعتبرونها إنتاجاً مباشراً للأفكار والغايات الإنسانية ، أو فى تفسير تقنى يمت فيعتبرونها فى حد ذاتها وسيلة من وسائل العمل .

ويترتب على ذلك أن التناقض إنما يعود إلى أن للمنطق الداخلى ( الخاص ) للتطور التكنولوجى ليس بالمنطق المحصور فى ذاته وحدها ، بل يمدده المكان الأوسط الذى تشغله التكنولوجيا بالعلاقة القائمة بينها وبين الإنسان والطبيعة معاً . ومن ثم فإن العامل الفاصل هو الجانب الأول من هذه العلاقة للتبادلة ، أى العلاقة التاريخية وللنطقية بين التكنولوجيا وبين أعضاء الجسم التى يستخدمها الإنسان الاجتماعى فى عمله ، أو قل « أدوات الطبيعة التى يستخدمها فى الإنتاج » ، وذلك لأن عمل الإنسان هو صاحب الفضل فى خلق التكنولوجيا ، وليس فى مقدور

التكنولوجيا أن تؤدي وظيفتها الخاصة بها إلا في نطاق العمليات الداخلة في عمل الإنسان وارتباطها بالنشاط الإنساني الذي يتحكم فيه بقله .

ولا شك أن تحليل أبسط عمل قام به الإنسان هو النقطة التي تبدأ بها النظرية السبولوجية للتكنولوجيا وأول حلقة منطقية في سلسلة البحث . ذلك أن الإنسان . يحى<sup>٥</sup> إلى العالم خالو الدين ، ويقتصر عمله للؤثر في الطبيعة على قوة عضلاته فقط ، ويمكن تفسير الضرورة للعبة التي أوجبت ظهور التكنولوجيا بأنها نتيجة لضعف وعجز أعضاء جسم الإنسان الطبيعية التي يستخدمها في العمل وعدم قدرتها على التأثير المباشر في المادة الطبيعية التي لا تستجيب لما يبذله الإنسان من جهد بقوة . وعلى تكيف الطبيعة وفق احتياجاته . وهذا التمارض الذي بدا من أول الأمر بين البنيان الجسمي للإنسان وبين حاجته إلى تحول الطبيعة أمكن حسمه تاريخياً بظهور التكنولوجيا .

غير أن رفع التناقض إلى هذا المستوى لم يترتب عليه القضاء على هذا التمارض بل انتقل به إلى صورة جديدة ، وهي وجود تناقض متغير بين الإنسان وبين الأداة التي يستخدمها في عمليات الإنتاج . ومن أشكال تطور هذا التمارض عملية «التجسيد» . للطراد لوظائف الجهد الإنساني في نطاق التكنولوجيا ، ولعادات الإنسان . وتجاربه وعلمه .

وفي رأينا أن التفاعل بين أعضاء جسم الإنسان والأدوات التي يستخدمها يرتكز على مبدئين : أولهما مبدأ « الوحدة الوظيفية » ( فالإنسان أدوات تستخدم في تطويع الطبيعة لحاجات المجتمع ، وهذا هو أصل وسر التشابه النسبي بين أعضاء العمل في الإنسان والوسائل التقنية التي تقلدها ) ، وثانيهما هو « مبدأ التكامل » ( فالتكنولوجيا لا يتطلب منها أن تكون صورة مطابقة لأعضاء العمل في جسم الإنسان ، بل تعمل على إكمالها وزيادة قدراتها الإنتاجية . ومن هنا يتضح الطابع الخاص

للتطور التكنولوجى واستقلاله الذاتى النسبى ) . وكما أن التكنولوجيا تكمل أعضاء الجسم التى يستخدمها الإنسان فى العمل ، كذلك يكمل الإنسان التكنولوجيا يديه ونشاطه وجهازه الحسى وعقله ، ويواصل إكمالها حتى تبلغ مرحلة التسيير الذاتى الآلى Autom ation .

والدور الذى يقوم به الإنسان فى النظام التكنولوجى هو أنه بديل مؤقت يستطيع أن يحل مكان الآلة ، وهو دور يتخلى عنه شيئاً فشيئاً للممثل الحقيقى فى حلبة الإنتاج ، وبهذا يحرق نفسه من الوظائف التكنولوجية التى لا تلائمه ، ويلزم الوظائف الخلاقة التى هيأته الطبيعة لها ، وهى وظائف الإشراف والتوجيه .

والتسيير الذاتى الآلى الحديث ، بالإضافة إلى البيانات المستخلصة من البيونيقا والسيرنيديقا ومن سيكولوجية الفنانين ، كل أولئك يظهر فى وضوح أن تاريخ التكنولوجيا بأسره هو فترة ما قبل التاريخ بالنسبة لأنظمة التسيير الذاتى الآلى ، وأن الخط الأساسى للتطور التكنولوجى هو فى تطور تكنولوجيا تعتمد على التسيير الذاتى الآلى ، وذلك بأن تواصل تهذيب الأجهزة التقنية بحيث تقوم بهذا وذاك من أعمال الإنسان ، وترقى بهذه العملية حتى تبلغ حد الاستغناء عن العامل كلية ( فيكون المحرك جماداً ) .

واستبدال الأدوات الصناعية « أدوات الإنتاج الطبيعية » التى يستخدمها الإنسان وتحميد وظائف الإنسان العامل فى التكنولوجيا ، وإحلال القوى الطبيعية مكان قوة الإنسان ، كل أولئك يمثل المبدأ الأساسى فى « الحركة الذاتية » للتكنولوجيا .

ومن وجهة النظر هذه فإن المقياس الموضوعى الذى نستخدمه فى تقسيم التكنولوجيا إلى عصور ، هو التعديلات الجذرية التى تناولت العملية التكنولوجية فربطت مختلف العناصر فى قوى الإنتاج ( الإنسان والتكنولوجيا ) بعضها ببعض

أو بعبارة أخرى ، التعديلات التي تناولت الأسلوب التكنولوجي للإنتاج ، وهذا النوع الذي يتبر من حيث البدء شيئاً هاماً لفهم العمليات الداخلية الخاصة بالتطور التكنولوجي ليس مطابقاً للأسلوب الاجتماعي في الإنتاج ، وهو نوع لا يعتبر تكنولوجياً ، بل شيئاً أوسع مدًى، يرتكز على أساس اجتماعي اقتصادي .

ويعر المجتمع بثلاث مراحل أساسية تاريخية من حيث اشتراك الإنسان والتكنولوجيا في عملية الإنتاج، وهي تتميز على التوالي بالعمل اليدوي ، والليكنة ثم التسيير الذاتي الآلي . ويرتب على هذا أن تاريخ التكنولوجيا كله يمكن تقسيمه إلى ثلاث مراحل أساسية : (١) أدوات العمل اليدوي (وهنا يكون الإنسان هو الحلقة الرئيسية في جهاز العمل كله ، وتكون العلاقة بين الإنسان والتكنولوجيا هي صلة ذاتية) (٢) الآلات (وهنا يكون العامل جزءاً من نظام شبه آلي ، وتكون العلاقة هنا صلة موضوعية . (٣) أنظمة التسيير الذاتي الآلي (وهنا يقف الإنسان خارج العملية التكنولوجية . ويكون نوع العلاقة أنه حر) وللضمون الرئيسي للمرحلة الأولى تخصص الأدوات ، ولثانية لليكنة ولثالثة التحكم الذاتي الآلي . وتبدأ عملية التحكم الذاتي الآلي عندما تؤدي التكنولوجيا وظائف العمل الذهني . وفي رأينا أنه من النطق أن تقسم هذه العملية بدورها إلى مستويات مختلفة حسب مبلغ أداء العملية التكنولوجية لهذه الوظيفة أو تلك وحسب قدر التسيير الذاتي الآلي . وقد كان لاندنام الحد الواضح لمراحل التطور التكنولوجي ومستويات التسيير الذاتي الآلي تأثير سلبي في أبحاث علم الاجتماع أدى إلى نتائج خاطئة . وحدث هذا على سبيل المثال عندما عرضت النتائج التي ترتبت على خلق أساليب الإنتاج وعلى الأخذ بما يشبه التسيير الذاتي الآلي (وهو لا يمتنى في الحقيقة إلى تكنولوجيا أنظمة التسيير الذاتي الآلي) على أنها نتائج للتسيير الذاتي الآلي .

#### التكنولوجيا والطبيعة :

من الأمور الهامة من الناحية النظرية ألا تقتصر على تتبع التطور المنطقي لنظام



« تكنولوجيا الإنسان » ، بل يجب أن تتبع إلى جانب ذلك التطور المنطقي لنظام « التكنولوجيا والطبيعة » . ويحدث التطور التكنولوجي بطريقتين ، أولاهما « تجسيم » وظائف العمل ، وثانيتهما تحويل المادة الخام والعمليات الطبيعية إلى مادة صالحة للعمل وإلى عمليات تكنولوجية ، وبذلك تحول العمليات التي تؤديها الطبيعة بطريقة ذاتية إلى عمليات تؤديها التكنولوجيا بطريقة ذاتية . والصفات التي يتصف بها عمل التكنولوجيا ، مهما أدخلت عليها أنشطة الإنسان الاجتماعي من تعديلات ، فهي صفات لاصقة بالمادة الطبيعية .

وكل ما عُدته الطبيعة من تعديلات في معملها الخاص ، وكل ما يجري من تعديلات في عالم التكنولوجيا ، إنما هي نتيجة لمختلف أنواع تفاعل المادة . وبما أن هذه التفاعلات تعتمد على الأشكال الأساسية لحركة المادة ، فإنها قد تكون في طبيعتها ميكانيكية أو فيزيائية أو كيميائية أو بيولوجية . وبالطريقة نفسها يمكن تقسيم خواص المادة من حيث التشغيل والعمليات التشغيل التكنولوجية ( العمليات التكنولوجية ) إلى ميكانيكية وفيزيائية وكيميائية وبيولوجية . ورغم أنه من النادر في الإنتاج الحديث أن يظهر أي من هذه الأشكال في حالة نقية ، إلا أن تصنيفها على هذا النحو شيء لا غناء عنه لكي نقيم نموذجاً للكيان المنطقي للإنتاج ، ولكي نبين موقف وعلاقات مختلف مراحل الثورة العلمية والتقنية ، وما ينتظر لها من تطور .

وفي عصرنا الحالي الذي يسير فيه التقدم العلمي والتقني بمعدلات خارقة أصبحت مشكلة التنبؤ العلمي بالتطور التكنولوجي من المشكلات الحادة الموصلة . وفي الحق أن كل تقدم أساسي في الثورة العلمية والتقنية إنما يمر عن عملية المزج بين هذا العلم أو ذاك وبين الإنتاج ، وعن عملية تجميع المعرفة العلمية بخواص المادة وتفاعلها في شكل تكنولوجي ، وعن عملية التطبيق التكنولوجي للأشكال المعروفة من

حركة المادة . فما إدخال الكيمياء في الإنتاج إلا أن يكون عملية تحويل العلم إلى قوة إنتاجية مباشرة ، ونتيجة ملموسة لصلابة الوثيقة بين الكيمياء والإنتاج ؟ وبالطريقة نفسها نستطيع التحدث عن إدخال البيولوجيا أو في الفيزياء في الإنتاج ، وهذه الفكرة الأخيرة تشمل كل منجزات العلم المعاصر من استخدام الكهرباء إلى التطبيق الصناعي لمل الألكترونات والطاقة النووية وأشعة الليزر .

ومنطق العلاقة بين الأقسام الأساسية للثورة العلمية وبين تأثيرات الأساليب التكنولوجية التي تعتبر أساساً لها ، يقابل منطق العلاقة القائمة بين الأشكال الرئيسية لحركة المادة التي يكون فيها الشكل الفيزيائي أعلى من الشكل الميكانيكي ولكنه أدنى من الشكل الكيميائي ، كما أن هذا الأخير يكون أدنى من الشكل البيولوجي . وفي وسعنا أن نرى اليوم تحقق ما تنبأ به كارل ماركس عندما قال إن الإنسانية عندما تهضم عمليات إدخال الكيمياء في الإنتاج يتغلب التأثير الكيميائي أكثر فأكثر على العمل الميكانيكي . وميزة أساليب التكنولوجيا الفيزيائية والكيميائية على الأساليب الميكانيكية أنها تستغل الخواص « الخفية » للمادة ، وهي الخواص التي تسكتشف على مستوى الميكروسكوب ، فالأسلوب الميكانيكي لا يستطيع أن يعدل الإشكال مادة الشغل ، أما الأساليب الفيزيائية ، والأساليب الكيميائية بنوع خاص ، فإنها تحدث تعديلاً جديراً في خواص المادة فتحولها إلى حالة نوعية جديدة ، وبذلك تصبح مادة جديدة .

وعندما تسيطر التكنولوجيا على الخواص « الخفية » للمادة وتنفذ أكثر إلى أعماق الكون الأصغر ( الميكروكوزم ) سوف تحقق منجزات فاعلة ، وهذا من شأنه أن يحدث ثورة في التكنولوجيا نفسها وهي في كثير من الحالات ربط بين تطبيق الأساليب الفيزيائية والأساليب الكيميائية . وهكذا يحدث الارتباط بين الفيزياء والكيمياء لا في مجال العلم فحسب بل في مجال الإنتاج أيضاً .

ولكن إذا كانت للأساليب الكيميائية أو الأساليب الفيزيائية الكيميائية

أعظم الفعالية في التغيير التكنولوجي للطبيعة غير المضوية ، فإن الأساليب البيولوجية أو البيوكيميائية ضرورية للنجاح في تغيير الطبيعة المضوية . ولاشك أن التقدم المتظر تحقيقه في ميدان التكنولوجيا لا بد أن يكون متصلاً بحكم منطق الأشياء . بالاستغلال العلمى للخواص البيولوجية التى تصنف بها الطبيعة .

ويتيح لنا علم البيونيقا أن نخلق نوعاً جديداً من الوسائل التقنية التى نحكى للبادئ التى يهتدى بها الكائن الحى . وإذا ما استخدم هذا العلم التقنى فإنه يستطيع تغيير الطبيعة الحية ويمكننا من التحكم فى الوراثة واستخدام الخواص المعينة للكائنات الحية لخير الإنسان . والعمل يجرى الآن لصنع أجهزة « ركب » فيها كائن حى طبيعى داخل نظام تقنى .

ولاشك أن النشاط المنعكس الذى يقوم به الكائن الحى أعظم تقدماً بكثير من جهاز التحكم الألكترونى الموجود حالياً والذى يحاول محاكاة هذا النشاط . وهذا هو السبب فى أنه من المنطق ومن الممكن نظرياً أن يستخدم الجهاز المصنوع للحيوان مثلاً بحيث يمكن لتيارات البيولوجية للتحككة فى قلب هذا الكائن الحى أن تتحكم فى أداة تكنولوجية فى الوقت عينه . وجهاز الحيوان هو نظام بلغ مستوى رقيقاً مع التقدم يتصف بالقدرة على التنظيم القادى والتحكم فى عمل القلب والريتين والدورة الدموية الخ ، وأى انحراف داخل الكائن الحى يسجله جهازه المصنوع ويصحح وضعه . ومن ثم فإن الأداة التكنولوجية إذا تمثرت أو بدأت تؤدى وظيفتها بصورة رديئة أثرت فى الجهاز المصنوع للحيوان فيأدر هذا إلى العمل على تصحيح الوضع .

لقد كانت التكنولوجيا فيما مضى عملية تقنية للإنتاج فى أساسها ، تؤدى وظيفة أداة العمل الجسمية ، أما تكنولوجيا المستقبل فسوف تكون شيئاً مختلفاً عن ذلك

لأنها تستحق طريقها إلى كل جانب من جوانب الحياة البشرية ، ذهنية وعاطفية وجسمية . وسوف تمثل التكنولوجيا البيونيقية في صورة أعضاء حواس صناعية ، وأعضاء تفكير صناعية ، وأعضاء نشاط جسمي صناعية ، تقوى أداء الأعضاء الطبيعية لوظائفها وتمكله . أما الوسائل التكنولوجية التي بدأ تجهيزها الآن لأداء أعمال ذهنية فسوف تبدو كالمعالول الحبرية إذا قيست بما سوف تستحدثه التكنولوجيا الطبية في المستقبل ، أو قل إذا قيست بما سوف يوجد في المستقبل من « أجهزة العقل الإنساني » ( كارل ماركس ) .

ومصير هذه الأجهزة أن تكون أداة تؤدي مختلف أشكال النشاط الإنساني ، وتقوم بمخدمته بطريق مباشر أو غير مباشر . وسوف تكيف مثل هذه التكنولوجيا على أحسن وجه بحيث تلائم إمكانيات الكائن البشري ، وسوف تسمح هذه الأدوات التكنولوجية لأعضاء التفكير واللمس والسمع أن تزاوّل نشاطها بقدر كبير من القوة . وهكذا تكتسب « تكنولوجيا الإنسان » صورة جديدة تؤدي فيها التكنولوجيا بكل ما في هذا اللفظ من معنى وظيفة أعضاء صناعية يستخدمها الإنسان الاجتماعي ، وتبدو كأنها تكنولوجيا « بشرية » .

ما هو إذن مكان التفسير الدائى الآلى بين كل ما ذكرنا من عمليات الثورة العلمية التقنية ؟ إن منطق الأشياء نفسه يدعو إلى القول بأن التفسير الدائى الآلى متصل بتطبيق البيانات السيرييقية على الإنتاج ، غير أن التفسير الدائى الآلى لا يمكن أن يوضع في نفس مستوى ما يميناه استخدام الكيمياء والطبيعة والبيولوجيا في الإنتاج ، وهى عمليات تتطور بفضل التفسير الدائى الآلى إلا بموازاته . إن هذا التفسير يشغل مكاناً خاصاً في كيان الإنتاج المعاصر .

والتفسير الدائى الآلى مرحلة محددة في مستوى تطور أدوات الإنتاج ذاتها ، فهو ذلك الشكل التكنولوجى الذى تستخدمه الوسائل التكنولوجية للعمل في مادة

الشغل . ومن الناحية التاريخية كان أول تطور للأساليب التكنولوجية على مستوى أدوات العمل اليدوى ، ثم على مستوى الليكنة ، أما الآن فإن التطور يجرى على مستوى التسيير الذاتى الآلى . وللهمة الكبرى التى تقتظر النشاط الإنسانى هى استخدام التكنولوجيا فى استغلال العمليات الأوتوماتيكية للطبيعة ذاتها .

ووسائل التأثير فى الطبيعة لا يسعها إلا أن تأخذ فى اعتبارها الأشكال التكنولوجية لتلك الوسائل ، فما دامت الليكنة هى الشكل المناسب للتكنولوجيا لليكانيكية ، وما دامت بعض الخواص الفيزيائية للطبيعة ( كالبخار والكهرباء ) يمكن استخدامها على المستوى التكنولوجى بواسطة الليكنة ، إذن يعدى الإمكان أن نستثنى عن الأوتوماتيكية فى تطبيق كثير من العمليات الفيزيائية والكيميائية التى توصل إليها العلم الحديث .

لقد عرضنا هنا للتكنولوجيا ، والتسيير الذاتى الآلى كآلو كانا فى الحالة النقية وتناولنا للنطق الداخلى للتطور التكنولوجى بما فيه من خير وشر . ولكننا بعلنا هذا قد أوجدنا فى عقولنا تجريداً للعلاقات الاجتماعية التى لا يمكن للتكنولوجيا أن تتطور إلا فى نطاقها . ومثل هذا التجريد السموح به من أجل أهداف معينة فقط ، يمثل رغم ذلك مدخلا فى جانب واحد إلى تحليل التطور التكنولوجى ، وذلك لأن التقدم التكنولوجى فى حقيقة الأمر إنما يتأثر بالكيانات الاقتصادية والسياسية والأيدىولوجية للمجتمع ، وهذه بدورها تتأثر تأثراً كبيراً بالتكنولوجيا ، غير أن هذه السألة موضوع بحث خاص .



## أندريه بوفّر:

### تحول الاستراتيجية

ترجمة: محمد علي أبو ذرة

يعيش الإنسان اليوم عصر تقلبات عميقة ، فإن معدل التطور التاريخي قد ارتفع  
بحقبة تحت تأثير التطور التكنولوجي ، وتكاد القوانين القديمة في كل المجالات تفقد  
كل ما كان لها من قيم ، ولا مناص لنا من ابتداع قوانين جديدة . وهذه الظاهرة  
تبرز بصفة خاصة في لعبة المجابهة بين التجمعات البشرية ، حيث تبلغ التغيرات درجة  
من العمق يقف معها اللاعبون وللتخرجون جميعهم حيارى مشدوهين أمام الأشكال  
الدقيقة الجديدة للصراعات الحديثة ، حين تلح الحاجة إلى اتخاذ قرارات هامة عاجلة  
حتى كل لحظة . إن ظهور الأسلحة النووية وتقدم الحرب الآلية للبيانيكية من  
جهة ، وفعالية الأشكال البدائية في النزاع في « حروب التحرير » من جهة أخرى ،  
لتخلق موقفاً متناقضاً يبدو بغير سوابق تاريخية إلى حد أن أفكارنا عن الصراعات  
المسلحة تبقى محكومة إلى حد كبير بتجارنا الحديثة في الحربين العالميتين الأولى  
والثانية . ولكن الضرورة تقضي بإعادة النظر في هذه الأفكار بشكل  
جذري .

ومن الضروري للوصول إلى ذلك أن ندرس من جديد ما تمنيه الصراعات بين

الأمم من الناحية الموضوعية حتى نكشف عن المنطق الذي يحكمها ، وبهذا ننتدى إلى طريق الاستراتيجية<sup>(١)</sup> من جديد .

وازداد الإحساس بهذه الضرورة في السنوات العشرين الأخيرة ، وبخاصة عند أولئك الذين يسمعون إلى حل المشكلات للمقدمة التي أثارها وجود الأسلحة الذرية ، وهم الأمريكيون أولاً ثم الأوروبيون من بعدهم . وقد أنشئت مختلف المعاهد للدراسات الاستراتيجية ، ثم بدأت تظهر رويداً رويداً تلك للعالم للدهشة للاستراتيجية الجديدة .

إن مثار الدهشة في هذه العالم هو أن تقاليد الاستراتيجية قد عفا عليها الزمن . لقد كانت الاستراتيجية في تقدم مطرد منذ فجر التاريخ ، ولقد سيطرت في أول القرن العشرين على فن الحرب بلا منازع في كنف نابليون وكلوزفنتس<sup>(٢)</sup> . على أن الاستراتيجية عندما أريد لها أن تتقل من عالم التجريب لتتخذ شكل القواعد والقوانين انتهى بها الأمر إلى أن تنحصر في نظرية متطرفة متأثرة بروسيا تأثراً واضحاً ، تلك النظرية التي رأت في الحرب أعظم اختبار للأمم يصدر الحكم فيه . بعد مواجهة دموية في أقصى صورها . وفي ظل هذه الاستراتيجية للتطرفة نشبت حرب ١٩١٤ . وكانت التجربة التي نشأت عن تطبيق هذه الاستراتيجية مضللة أكبر تضليل ، فإنه بدلا من النصر الماجل هبطت الحرب إلى قتال الخنادق وطال أمدها

---

(١) الاستراتيجية هي التي تحدد الهدف العام للحرب ، كما تحدد أسس النزاع المسلح . ونوع وتركيب القوات المقاتلة ، والوسائل اللازمة لإنجاز العمليات العسكرية ، بالإضافة إلى اختبار اتجاهات وإمكانات الأعداء المحتملين وتحليل منافعهم وآرائهم الاستراتيجية ، والإلمام بكيفية توزيع القوى العسكرية والسياسة وتدريب الجوانب السكية والكيفية للأسلحة المستخدمة ، وقياس القدرات النسبية للجهات والمجاور المتأثرة ، وتحديد النقاط الجغرافية التي تستخدم في هذه القدرات والأسلحة — المترجم .

(٢) كلوزفنتس Clousewitz ، ١٧٨٠ — ١٨٣١ ضابط في الجيش البروسي ، ألف في العلوم العسكرية — المترجم .



فيها ، ووجد أنه من المستحيل « حسم الموقف في المعركة » ، وتحول الأمر — كما حدث في فردان — إلى حالة رهية يحاول فيها كل فريق إنهاك قوى الفريق الآخر .

والنتيجة التي استخلصها الجانب الفرنسي من هذه الحرب ، هي أن « الاستراتيجية » أخفقت ، وأنه من الضروري في عصر التقدم الصناعي الذي نعيش فيه أن ندخل الحرب على أساس التكتيك الذي تتيحه المواد الجديدة ، ونبتدئ الاستراتيجية آنذاك على أنها من الماوم البالية ، وأخضعت مقوماتها إخضاعاً تاماً للتكتيك ، واتخذ الفن العسكري خصائص مواصفات للهندس ، بمعنى أنه من أجل الدفع يلزم عدد معين من الأساحة الأتوميكية في كل كيلومتر ، أما من أجل الهجوم فيلزم إلقاء عدد معين من القنابل ( وزنها كذا من الأطنان ) في كل كيلومتر مربع . وانطلاقاً من هذه للتقدمات نشأت في فرنسا فكرة صارمة جداً عن الحرب : وهي أنه يجب تكوين جبهة دفاعية متصلة ، وهذا يتطلب عدداً كبيراً من الفرق ( مائة مثلاً ) مما يستتبع تبعية البلاد تبعية ضخمة جداً ، ولن يكون في مقدور العدو تحطيم هذه الجبهة التي كان حتماً أن تمرزها تحصينات خط ماجينو . ونحن — الفرنسيين أنفسنا — لن نكون قادرين على تحطيم جبهة العدو التي يدعمها خطر سيجفريد قبل أن نكون قد جئنا كل المواد القوية الضرورية ، وبعبارة أخرى قبل السنة الثانية من الحرب على أحسن تقدير . وفي هذه الأثناء يفرض الحصار على العدو .

وانهارت هذه الخطة في مدى أسابيع قليلة أمام قوة الفرق الألمانية للدركة وقوة الطيران الألماني مما كما هو معروف . وكان كثيرون في ذلك الوقت لا يزالون يعتقدون أن المسألة كانت مسألة خطأ في التكتيك لا أكثر ؛ فقللوا من تقدير فالية الصفحات وقوة الطيران ، وعابوا مواطن النقص في معدات الفرنسيين

التي كانت على أية حال أقل مما ذكر . ولكن مع استمرار الحرب لم يكن الإنسان يملك إلا أن يدرك بأن وراء مشاكل المواد الحربية التي لا ينسکر أحد أهميتها ، كانت هناك مشاكل كبيرة ذات طبيعة استراتيجية محضة : مثل دور شمال أفريقيا الفرنسي ، وأخطاء ألمانيا في استراتيجية العمليات في روسيا بأهدافها التباعدة ، والفاصلة بين مهاجمة ألمانيا عن طريق شمال إيطاليا وفيينا ، أو عن طريق فرنسا وبلجيكا . وهكذا كشف النقاب من جديد عن دور الاستراتيجية على الأقل في الميدان الحربي .

ولكن برزت ظواهر أخرى جلبت إلى السرح عوامل جديدة أو تبدو جديدة : فقد أدخلت قبلتنا هيروشيا ونجازاكي إلى مصانع السلاح سلاحاً مدمراً لا يقاس إلى كل ما عرف من قبل ، وهناك أيضاً حرب المصابات الصينية التي قاومت اليابان الجبارة ، والمقاومة الفرنسية ، وحرب المصابات في يوغوسلافيا ، وكلها ظواهر ترتكز على إرادة الإنسان وتعارض تعارضاً تاماً مع الأفكار المؤسسة على تفوق المواد الحربية . وهكذا ظهر تياران متعاكسان : الأول يتجه إلى فن حربي يتزايد تعقده وأخذه بأسباب العلم ، والثاني يدل على إمكان كبح جماح الآلات بوسائل غاية في البساطة بل بدائية ، وقد اضطر الجيش الفرنسي في حملاته في الهند الصينية وفي الجزائر إلى أن يصارع الفعالية الرهيبة لهذه الوسائل التي أعادت إلى الأذهان حرب المصابات القديمة ونظمها .



وليست الطفرة من شيم الطبيعة ، فإن إدراكنا لهذه الأشياء آتى تدريجاً ففي مرحلة البداية كانت الظاهرة النووية تعتبر وسيلة جديدة للعرب. وعمشياً مع الطريقة الوضعية التي ولدتها تجربة ١٩١٤ — ١٩١٨ ، ووفقاً للإجراءات

التي انبثقت من أبحاث العمليات التي استخدمت في بريطانيا والولايات المتحدة أثناء الحرب ، حاول الأمريكيون حل المشكلات الفنية المختلفة الناجمة عن الأسلحة النووية التي نمت في نفس الوقت إلى حد الحرارة النووية ، وأدى بهم الأمر إلى وضع التكتيك اللازم لاستخدامها ، وتنظيم قواهم في ضوء هذا التكتيك ، وتبعاً لذلك نشأت القوى المضاربة الاستراتيجية والأسلحة النووية التكتيكية ، وواضح أنه كان لها قوة مدمرة هائلة ، ولعلها كانت ستستخدم في قتال القوات التقليدية لو توفرت الأسلحة النووية لأحد الفريقين فقط . ولكن لسوء الحظ أنشأ العدو ( المحتمل ) قوى مشابهة ، ومن ثم طرأت مشكلة جديدة تماماً .

وبتقدم الزمن حلل الأخصائيون هذه المشكلة ليتسبوا لها حلولاً وفقاً لمفكرتهم عن الحرب ، وكانت الكشف سريعة مذهلة ، فقد أدركوا منذ البداية والفرع بدلاً من أن الميزة الأساسية والحاسمة بلا أدنى شك . في هذه الحرب النووية الثنائية ستكون لمن يأخذ بزمام المبادرة ، وكأني بها مكافئة على العدوان ، وتبعاً لذلك تركز جهد الإبداع في التكتيك على اصطلاح وسيلة للإفلال من فعالية هجوم معائل للهجوم على « بيرل هاربور » لو أنه كان هجوماً ذرياً . وقد أمكن ذلك بالاحتفاظ بعدد معين من الطائرات حاملة القنابل عطفة على الدوام في سماء المنطقة لتنفذ أول غارة للعدو ، والاحتفاظ بطائرات أخرى على أهبة الاستعداد للمبادرة بالطيران قبل هجوم العدو . واتخذت وسائل باهظة التكاليف لاكتشاف اقتراب العدو ، وللإذاعات « النذرة » تفادياً لنصر المفاجأة أو الأخذ على غرة . وهكذا فقد « الهجوم المفاجئ » أخيراً قدرأ كبيراً من مزاياه . ولكن في سبيل درء خطراً ، انبثت للأسف خطر آخر ، ذلك أن كل هذه الطائرات المسلحة أو المتحفزة والتي كان يجب أن تنطلق إلى العمل لدى سماع أول إنذار ، تقول إن هذه الطائرات كانت مصدر خطر كبير هو خطر إشعال نار الحرب خطأ أو مصادفة ! وأجريت الدراسات الإحصائية في نفس الوقت لمعرفة آثار حرب ذرية مشبوبة، فوجد

أنها تعادل زلزال أغادير أو سكوبي مضاعفاً آلافاً . وربما زاد عدد الضحايا في اليوم الأول على مائة مليون من الأتس من كل من الفريقين . إنها أظهرت موقفاً غير معقول حقاً .

وهنا تولى الحكم كيندى ، وجاء معه نجبة من المفكرين الذين أمعنوا النظر في هذه المشاكل ، فاستقر رأيهم فوق كل شيء على وجوب تجنب وقوع « الحرب بطريق الخطأ » . وفي الوقت المناسب أخرجت التكنولوجيا النووية الترية التي لا يمكن اكتشافها ، والمزودة بصواريخ بولارس ، وتقرر توزيع الصواريخ « ماييوتمان » الجديدة على الأرض في أعداد ملائمة تحميها قواعد من الأمنت الساح ، ونتيجة لذلك أصبحت القدرة على الرد على أول هجوم مؤكدة مضمونة ، وربما كانت قوية إلى حد لا يمكن أن يتجاهله العدو ، لأنه سيكون هناك أكثر من ٢٠٠٠ صاروخ معد . فإذا سلمنا بأن هذه الوسيلة لا تخطئ فعايتها فلن نعود مضطرين إلى أن نرد على أول إنذار . كذلك في حالة الخطأ أو المصادفة فسوف يكون هناك وقت للوصول إلى قرار مدروس ، بل لقد يسمح الخط التليفوني المباشر ببادل الحديث قبل نشوب القتال .

وقد خطر « الحرب بطريق الخطأ » ، ولكن نشأ موف جديد أقل رهبة من سابقه ولو أنه لا يغلو من مخاطر جديدة ، لقد تزود السوفيت هم أيضاً بقوة للنار لا سبيل إلى التزل منها ، وأصبح الرد الساحق المدمر من أى من الفريقين حقيقة مؤكدة تسفر عن احتمالات تفوق حد التصور (يقول مستر مكنمارا: إن خسائر الأمريكيين قد تصل إلى ١٢٠ مليوناً من القتلى على الأقل)، واتضح تحت هذه الظروف أن الحرب النووية ستصبح مستحيلة ، وأن جميع الأسلحة النووية الفادحة التكاليف لا يمكن أن تستعمل للاشتراك في الحرب ، بل لمنع الحرب . ولم يعد الجانب الإيجابي للقتال هو الجدير بالبحث ، بل الجانب السلبي ، جانب ثنى العدو عن الحرب . لقد آن أوان استراتيجية واعية تمام الوعي ، هدفها ثنى العدو عن الحرب .

ومرة أخرى تبرز مشاكل جديدة شاقة ، فإذا كان التهديد طريق ثنى العدو عن الحرب ، فلا أقل من أن يكون هذا التهديد معقولاً في ظاهره . ولكن لما كانت الأخطار للتباعدة قد وصلت إلى هذا الحد ، فإن « معقولة » الرد الفوري أو إمكان تصديقه ، قد فقد كل منطق فيه ، وعلى ذلك أصبح من واجب الاستراتيجية أن تضي عليه المعقولة .

ولم يكن الأوروبيون : الألمان أولاً والفرنسيون من بعدهم ، راضين عن استراتيجية ثنى العدو عن الحرب ، التي بنيت على أساس التآكد من حصر الصراعات في نطاق ضيق . إلا يعني هذا قيام حرب تشمل أوروبا فقط برمتها أو جزءاً منها ؟ وكان هذا الفرض يقض للصاحج من حيث إنه يخرى العدو بالقيام بعمليات حرية محدودة وفي نطاق ضيق ، ولكنها تعود بأشد النتائج وبالأعلى أوروبا ، ولذلك فضلوا بالسليقة ثنيًا تاماً عن الصراع عن طريق التهديد بكارثة لا تبقى ولا تندر . وبهذه الروح أعلنت فرنسا عن عزمها على رد استراتيجي مثلها في ذلك مثل السوفيت ، أما الألمان فقد طالبوا بالنشر الواسع للأسلحة القذرية التكتيكية على طول بلاد الستار الحديدي ، ليؤكدوا لأى عدو تسول له نفسه الاعتداء عليهم أن الحرب منذ البداية لن تكون إلا حرباً ذرية . ومن ثم نجد — عن طريق التصريحات النظرية المجردة — أنه قد احتفظ بدرجة للمعقولة التي يمكن أن تؤكد ثنى العدو عن الحرب، على الرغم من أن الوضع القذري لا يزال ثابتاً لم يطرأ عليه أى تغيير .

وكان لزاماً أن ينتهى زمن التجريد . وكانت أزمة كوبا الحادة أول مناورة خطيرة للإقناع بالعدول عن الحرب في العصر القذري ، فبعد أن هدأت الاتسمالات وحلت الظاهرة ، اتضح أن الإقناع بالعدول عن الحرب كان إجراء يؤذن فشله

بالشروع فى استعمال الأسلحة النارية . إن مناورة الإقناع بالدول عن الحرب يجب أن تنفذ قبل بدء الحرب ، أى فى وقت السلم ، وقوامها استغلال التهديد بالتدخل النوى عن طريق الاستخدام لللائم للتصريحات السياسية والإجراءات العسكرية ، ( وهى فى حالة كوبا إعلان النفي العام ، ودعوة الاحتياطى ، وإعداد قوة للنزول إلى البر ، والحصار البحرى ) ، والواقع أنها كانت مناورة سيكولوجية أساساً .

وهكذا نجد أن الاستراتيجية بعد أن تحلّت من ماضىها الوضعي قد اكتشفت من جديد طبيعتها الحقيقية التى تتمثل فى كيفية استخدام واستيعاب مختلف الوسائل لللائمة لتحقيق غايتها ، وليست هذه الغاية إلا إذعان العدو للشروط السياسية التى يراد فرضها عليه .

لقد أوردنا هذا العرض السريع ( والناقص ) لتطور الاستراتيجية النارية ، لنوضح كيف كان من الضرورى — بنس النظر عن المشاكل المادية — أن نكتشف من جديد — وفى صورة حديثة — الحقائق القديمة التى سادت الصراعات الإنسانية دائماً : وهى أولاً تهوى العامل السيكولوجى ، وهو مصدر كل القرارات والشروط فيها ، ثم الطبيعة الكلية حتماً للظواهر التى تشمل العوامل السياسية والاقتصادية والدبلوماسية كما تشمل العوامل العسكرية . وقد يكون للعوامل العسكرية فى حالة حينها دور غالب ، أو دور ثانوى ومساعد فقط . ومن ثم تنشأ صراعات قد تختلف معالمها اختلافاً كبيراً ، ولكن منطقها الداخلى واحد ، وهو الوصول إلى استسلام العدو ( أو ثييه عن الحرب ) ، وهذه النتيجة التى يجب أن أضيف أنه لم يتيسر إدراكها بوضوح بعد فى العالم كله ، قد أمكن كذلك استخلاصها استخلاصاً بطيئاً من تجارب الحروب التى اضطرت القوات النظامية للاتحام فيها برجال العصابات ، وهى تجارب كانت بصفة عامة خداعة .

في هذه التجارب لم تعد للسؤال مسألة أسلحة عالية وتهديد بكارثة ذرية ، ولكنها على الأصح موقف أسد يهاجمه العوض . كان للقوات النظامية ميزة التفوق الحربى فى الأسلحة وفى الحركة فى البر والجو ، ففى مقدورها أن تتحرك فى كل مكان تقريباً دون قتال ، وتدافع بشكل مناسب عن اللواقع التى اختارت أن تحتلها ، ولكن العدو الحفى الذى لا يدرك له مكان ظل موجوداً . والحقيقة أن حرب المصابات بتأثير الثورة السوفيتية قد أحرزت تقدماً فكرياً مشهوداً ، فنظريتها التى اكتشفها « لورنس العرب » اكتشافاً جزئياً ، وصاغها ماوتسى تونج فى شعارات ، ووضعت لها قواعد تدرس فى موسكو ، أصبحت الآن واضحة الحدود والمالم ، وقواعدها مدعمة تدعياً تاماً .

القاعدة الأولى : لا تقبل الاشتباك فى قتال إلا إذا كنت فى وضع متفوق  
تفوقاً كاملاً . القاعدة الثانية : لا تهاجم العدو إلا إذا كنت واثقاً من تحطيمه (عموماً بإيقاعه فى فخ أو أخذه على غرة) . القاعدة الثالثة : يجب ضمان صمت الأهالى وتأنيدهم بالإرهاب والبطاية والتأثير الذى تتركه الأعمال الحربية الصغيرة التى تؤدى على أحسن وجه . القاعدة الرابعة : إجبار العدو القوى على التشتت بمهاجمة وتدمير كل شوء ليس عليه حراسة . القاعدة الخامسة : يجب أن تهدف من أعمالك الحربية إلى السكائب النفسية لا للمادية . القاعدة السادسة : يجب أن تعيش بعيداً عن الأهالى ، وأن تسلم نفسك بعيداً عن أعين العدو ، فإذا طبقت هذه القواعد تطبيقاً صحيحاً أمكن فى سرعة مناسبة شل قدرة عدو هام تفرق هنا وهناك ليحمى عدداً كبيراً من اللواقع ، ومن ثم فإن القوات غير النظامية أو المصابات تتمتع بـسط كبير من الحرية فى العمل ، ويمكنها يطاء أن تنظم أكثر فأكثر من القوات الهامة ، وبعد مرحلة « القطاعات » تأتي مرحلة « الجماعات » ، ثم مرحلة « الكتائب » ، وفى

النهاية ، وبالمساعدة الأجنبية القوة ، يمكن تكوين « الألوية » ( كما هو حادث اليوم في فيتنام ) ، أو حتى « الفرق » ( كما حدث في تونكين ١٩٥١ ) . وعلى هذا الأساس تمهد حرب المصائب التي بدأت بها الحرب لشرع أضخم يسمح بالقيام بهجوم عام يمكن من تحطيم العدو أو طرده . هذا هو الهدف الأنسب الذي تصوره ماوتسى تونج وجياب ، ونجح في بلوغه ضد الصينيين الوطنيين ، والذي حقق نتائج هامة في تونكين في ١٩٥٤ .

ولا يمكن تطبيق هذه النظرية دائماً على أية حال ؛ ففي معظم الحالات لا تستطيع القوات غير النظامية أن ترقى إلى حد التغلب على القوات النظامية العادية ، ففي الحرب الأخيرة في الصين ضد اليابانيين ، وفي أوروبا ضد الألمان كانت غلبة الجيوش التقليدية هي التي مهدت سبيل النصر النهائي لرجال المصائب وللقاومة السرية . والجهود العسكرية الفرنسية في الجزر ضيقت الحناق على القوات غير النظامية حتى أصبحت في موقف دفاعي حرج . وهنا ظهرت فكرة استراتيجية خيثة جداً صاغها ماوتسى تونج لأول مرة ، تلك هي نظرية « الحرب الممتدة الأجل » . وطبقاً لهذه النظرية لم تكن الحرب تسمى إلى انتصار عسكري ، لأنه مستحيل بلوغه ، ولكنها كانت تسمى مجرد استمرار الحرب لأطول أمد ممكن ، حتى يضيق العدو ذرعاً بهذه الحرب التي لا تعرف لها نهاية ، ويرغب في النخيل عن أهدافه السياسية ، وهذه هي اللابؤنة بالإتهاك والإجهاد ، والحرب الجزائرية أروع مثل لها ، ولكن يبدو أنها تطورت في فيتنام في صور مختلفة .

وتبرز للابؤنة بالإجهاد والإرهاق الطبيعة السيكلوجية الأساسية للاستراتيجية ، وهي تتطوى على سلسلة من الإجراءات التي تضع العدو في أشد حالات الضيق والقلق



من الناحية السيكلوجية ، على أن يوجه تخطيط الاستراتيجية إلى إطالة أمد هذا القلق ما أمكن . وإبتداء من هذه الفكرة يتسع نطاق الحرب المحلية المحدودة القليلة العنف نسبياً إلى نطاق عالمي شامل . وموجز القول : إن استغلال القوى النفسية التي يمكن أن يكون لها دور في العالم يأتي بنتائج حاسمة أبعد آراً من استغلال هذه القوى في نطاق محلي ؛ فإذا كان للطلوب هو زلزلة أركان حكومة العدو وتقويض سلطتها فالهدف الرئيسي هو خنق رأى عام قوى مناهض للحكومة ، والرأى العام العالمي هو السبيل الأمثل بلوغ هذا الهدف ، ونجاح الناوره عندئذ لا يؤدي إلى تحطيم إرادة العدو في الداخل فحسب ، بل إنه يؤدي كذلك إلى الحد من حركته في الأعمال العسكرية بدرجة كبيرة نتيجة لما يفرسه عليه ضغط الرأى العام العالمي من قيود . وبهذه الطريقة جيل بين القرنين وبين التدخل ضد قواعد جبهه التحرير الجزائرية للنشرة على طول الحدود التونسية والقرية ، كما أثار ضرب ساقية وحدها بالقنابل عاصفة من الاحتجاج العام . ولهذا النتائج السيكلوجية أثر مساعد آخر ، فإنها تفرى رجال المقاومة السرية والأهالي الذين قاسوا ويلات الحرب بأنهم يحظون بتأييد الرأى العام العالمي ، ومن ثم يحفظون بالأمل الذى يخلق فيهم القدرة على الاستمرار في السكاح إلى أبعد مدى . إن شل حركة العدو وتقوية الأمل هما التعبيران الأساسيان للناورة ؛ إذ يكفي على المستوى العسكري المحلى أن يبقى رجال المقاومة على قيد الحياة ولوبصورة مزعزعة ، وليكن دليل بقائهم مثالا في القيام ببعض الأعمال التي قد تكون صغيرة ، ولكنها مؤثرة إلى حد كاف من الناحية السيكلوجية . أما على المستوى السياسى المحلى ففي الإمكان الحصول على تأييد الأهالي الذين تهيأت أذهانهم بمد فترة إرهاب لا يرحم ، بخلق « موضوع » سياسى يتلام تماماً مع رغباتهم الأساسية ( مثل الاستقلال والرخاء وإعادة توزيع الأرض الخ . . ) . ولما كانت المصالح غير متساوية من الناحية السيكلوجية ، حيث إن رجال المصابات يجازفون بكل ما لديهم ، على حين يذود الطرف المعارض عن مصالح ثانوية نسبياً ، فإن الإنسان قد يرقب الأمل في أن يقبل

هذا الطرف الأخير المعارض في النهاية للاتفاق والتراضى مع الثوار بعد فترة من الوقت ( سبع سنين طويلة في حرب الجزائر ) .

هذ الوصف لمظهر « المناورة بالإهلاك » من جانب واحد لابد من تعديله جزئياً إذا عرضنا لمظهر الصراع بين الجانبين . هذا هو ما نراه الآن في فيتنام . والحق إن الإنسان في هذا المقام ليذهل لتطور الذى يقوم به الجانب الأمريكى ، وهو مماثل لما قامت به فرنسا في الجزائر ، مع بعض الفروق الهامة التى نشأت عن تباين الوسائل التى استخدمتها كل من فرنسا والولايات المتحدة فيما يتعلق بالقوات المقاتلة وفيما يتعلق بتصرفاتهما الدولية سواء بسواء ؛ فالولايات المتحدة — التى قدمت الشورى لحكومة فيتنام الجنوبية وأيدتها — اعتمدت في المرحلة الأولى على استراتيجية سياسية اجتماعية قائمة على خلق مناطق « هادئة » في البلاد ، وقد شجعها على الاعتداد على هذه القاعدة نجاح البريطانيين في الملايو ، بفضل سياسة الرقابة والسيطرة على السكان ، وبفضل أسلوب في التنظيم داخل القرى يضمن دفاع الأهالى عن أنفسهم ، وربما كانت النظرية في حد ذاتها بارعة بامتازة ، ولكن لها عيوباً معينة ( لم يدركها الفرنسيون دائماً بوضوح في الجزائر ) ، على أنها فوق ذلك لم يمكن تطبيقها تطبيقاً حسناً في أى مكان آخر ، وأول سبب لذلك هو أن رجال المصائب في الملايو كانوا من الصينيين ، ومن ثم كانت للمشكلة مشكلة جنسين يتصارعان ، أما السبب الثانى فهو أن رجال المصائب في الملايو لم يكن في الإمكان إمدادهم بالمواد من قواعد قريبة كما هو الحال في فيتنام ، ولهذين السببين ، ولأسباب أخرى غيرها ، كانت استراتيجية « التهدة » خائبة أو كالتأنيب ، وزاد من خيبتها أنها أدت إلى شل حركة هجبات فيتنامية جنوبية هامة ، ونتيجة لذلك تركت مساحات شاسعة من الغابات والمستنقعات دون رقابة ، فاستطاعت قوات الفيتكنج أن تنظم فيها صفوفها في حصانة ومناعة ، إلى حد إقامة للمسكرات والقواعد ، وتشكيل وحدات

مقاتلة على مستوى الكتاب . ولم يجمع الأهالي تجمعا حقيقيا وراء حكومة فيتنام الجنوبية ( افتقارا إلى « موضوع » سياسى مناسب ) ، وتدهور الموقف الحربى ، وبخاصة لأن كثرة وقوع الانقلابات فى سيجون ترتب عليها تحطيم وحدة الجيش فى فيتنام الجنوبية .

واختار الأمريكيون أن يتدخلوا تدخلا مباشرا ، بعد أن واجههم هذا الموقف الذى سبب لهم قلقا متزايدا بالإضافة إلى ضغط بعض الأحداث الصغيرة مثل ضرب قاعدة بيان هو بالقنابل . وكان ردهم — عشيا مع منطق أساليبهم ومع نزوعهم إلى الاعتدال على قوة السلاح — القيام بحملة لضرب فيتنام الشمالية بالقنابل طبقا لخطة موضوعة ، لأنها متهمه بتأييد الفيتكنج . وكان المقصود بالتهديد بامتداد الضرب بالقنابل إلى المناطق الصناعية فى فيتنام الشمالية هو إرغامها على الوصول إلى اتفاق ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث كما هو معروف . وكان من الممكن التنبؤ بهذا الفشل لأن هذا الإجراء المشكوك فى سلامته من الناحية السيكلوجية ما كان يؤدى إلا إلى أن تشدد فيتنام الشمالية من مقاومتها . ولكن توسيع نطاق العمليات العسكرية استتبع فى نفس الوقت توسيع نطاق العمل السياسى توسيعا كبيرا فقد تبنت الصين الشعبية قضية فيتنام الشمالية فى بيانات صاخبة ، وتدخل الاتحاد السوفيتى تدخلا محدودا ، وذلك بإرسال الأسلحة للضادة للطائرات ، وعززت آمال الفيتكنج بسبب هاتين النتيجةين . أما فيتنام الشمالية التى لم تقدم حتى ذلك الحين إلا بعض للمونة الحقيقية المحدودة فى جملتها ، فقد أرسلت علنا بعض الفرق العسكرية إلى فيتنام الجنوبية ، وقوبل التوسع فى الغارات الجوية بتوسع فى حرب العصابات ، ونحرج الموقف .

وهنا لم يكن للولايات المتحدة أى خيار ، إلا أن تخطو بالتوسع خطوة أبعد ، وترسل إلى فيتنام قوات أمريكية برية كبيرة ، ومن ثم فإن الأسلوب غير المباشر فى الضغط

على فيتنام الشمالية أخلى السبيل للكفاح المباشر ضد استخدام الفيتكنج للوسائل  
الناجحة . وقدسرت باتخاذ هذا القرار في الولايات المتحدة موجة من الأمل في  
تحقيق انتصار عسكري ، ولكن النتائج كانت مدهشة ومضلة ، ذلك  
على الرغم من استخدام أحدث القوات عدة وعتاداً ، وعلى الرغم من تعزيزها  
بالبطيران تعزيزاً هائلاً ، فإن للمارك ( وعلى الأخص في بلي مي Plie Me ) أثبتت  
قدرة الفيتكنج على المقاومة الضارية وعلى إزال الهزائم بالقوات الأمريكية .  
واضح للوقف بعد عدة شهور مليئة بمختلف التجارب ، وأصبح إمكان الظفر بنصر  
حربي شامل حاسماً أمراً مشكوكاً فيه أكثر فأكثر . ولم يكن أمام أى من  
الجانين كليهما إلا أن يتجه إلى الناوره بالإتهاك والإرهاق .

وقد عززت هذه الحال الدروس التي تعلمتها فرنسا من الحرب الجزائرية ،  
وهي أن الصراع بين القوات النظامية والقوات غير النظامية يتقلب إلى عجز أى  
من الطرفين عن الوصول إلى نتيجة نهائية . وبما أنه ليس في الإمكان « فرض »  
حل بوسائل عسكرية ، فإنه يصبح من الضروري « إقناع » الطرف الآخر  
بقبول التسوية والاتفاق ، وهنا يأخذ الجانب الأقوى زمام المبادرة في إصدار  
« إعلان بالسلام » بقصد إظهار حرصه على تهدئة الأمور وحسن مقاصده ونواياه أمام  
المالم ، وهو في هذه الأثناء يدعو غيره للدخول في مفاوضات . أما الجانب الضيف  
فيفرض للمفاوضة لأنه لم يحقق أهدافه السياسية الرئيسية . وهنا يزداد الضغط  
العسكري عليه حتى يخفف من مطالبه خشية تدهور موقفه إذا هو لم يقبل التراضى .  
وهكذا يبدأ « طور للمفاوضة » ، وهذه هي ذروة للمركة ، حيث تتضافر الأعمال  
الحرية والإعلانات السياسية بقصد فتح باب للمفاوضات الرسمية، ويصبح هذا الجهد

حملة دبلوماسية على مستوى دولي . وينتهي هذا الطور عادة إن عاجلاً أو آجلاً  
 بمقد مؤتمر . ولكن إذا عدنا بالذاكرة إلى السوابق في حالة بان منه جون  
 Pan Munh John وجنيف لوجدنا أن العمليات الحربية بهذا الوصف لا توقف ،  
 بل قد يكون الأمر على تمام التقيض ، ما لم يكن توقفها شرطاً مقررأ لانقضاء للمؤتمر  
 ( كما يطالب الفيتناميون الشماليون الآن ) ، فهذا هو الظرف الذي يمكن أن يكون فيه  
 النجاح الحربي ذا قيمة عظمى ( كما حدث في ديان يان فو ) . وتلك تكون فترة  
 حافلة بالقلبات والأخطار التي تترك نتيجة للمركة وبند وشروط التراخي مطلقة في  
 في كفة القدر حتى تم الاتفاقية النهائية .



وتوضح هذه الاعتبارات السابقة إلى أي حد تغيرت الأفكار الاستراتيجية في  
 عصرنا الحديث ؛ فإن اندفاع العلم والتكنولوجيا إلى المجال الحربي قد تنزع  
 القوة الحربية أحياناً هائلة وقدرة على التدمير تجاوز المقائم للرجوة في معظم اللواقف  
 السياسية التي يمكن تصورهما ، وتبعاً لذلك تنزع هذه القوة الحارقة إلى إبطال  
 مفعولها ، و إلى أن تفرض على القتال أشكالاً معينة ومحددة تحديداً دقيقاً ، خصوصاً  
 لأن تطور الأفكار بعد الحربين العالميتين للماضيتين تبعه اتجاهات متزايدة إلى رفض  
 إبادة القتل الجماعي .

وفي هذا الاستعمال للتناقص القوة ، تصبح الاستراتيجية ، وهي ذات جوهر  
 سيكولوجي أكثر منه مادياً ، نظاماً لازماً لإدراك وتوجيه الأحداث التي تنشأ  
 عن الحروب بين الشعوب ، فهي تفرض السلام بالإقناع بالدول عن الحرب في

جزء من العالم عن طريق التهديد القدرى حينما كان ذلك مقبولا . أما في بقية  
أنحاء العالم فإن الاستراتيجية تلعب دوراً دقيقاً يبدو جديداً تماماً، حيث لا تشكل  
القوة إلا أحد العناصر في لعبة معقدة تنظم كل وسائل الحرب ، وتمتد لتشمل  
العالم كله حتى تنهى للنزاعات عن طريق التسويات التي توقف طبيعتها على أية  
حال على درجة الإقناع التي يمكن ممارستها عليها .  
وبهذا نبعد كثيراً عن كلوزفيلس .

## برنار - لاسوردى - دوتشين النمو الاقتصادى وثمنه<sup>١</sup> ترجمة : أنور المحندى

إن النمو والتقدم الاقتصاديين هما للوضوعان الكيران اللذان يشغلان مجتمعا اليوم ، لأتهما يتلان رغبة البشر في الرفاهية والمساواة الصادقة . وهذه الرغبة هي كذلك أمل روحي ؛ لأن لدى الناس فكرة راسخة مؤداها أن ارتفاع مستوى المعيشة مرتبط بتقدم المجتمع ثقافياً وخلقياً وروحياً . وإذا كانت قد ساورتهم في أوقات مضت شكوك في نفع الثروة ، فإن هذه الشكوك لا يمكن أن تؤخذ مأخذ الجد الشديد اليوم ، بعد أن أصبحت الثروة ثروة المجتمع . وتأسيساً على هذا الاتجاه العام فإن المعتقدات الاجتماعية القديمة تحو إلى قهذان بؤرتها ، أو إلى اتجاه وجهة جديدة ولنضرب لذلك بعض الأمثلة :

فلاشتركية في الوقت الحاضر على الأقل ، يبدو أنها تتخلى عن مثاليها الأصلي وبعض قيمها ، والسألة في الواقع لا تعدو تنظيم الاقتصاد بطريقة اشتراكية في عمومها ، لكي يتحقق أسرع رفع لمستوى المعيشة لدى أكبر عدد من الناس مع أقصى درجات الكفاية الاقتصادية .

كذلك تجتاز الكنيسة هذا التغير نفسه ، فهي تؤكد معتقدات المجتمع وتسلم بالنمو الاقتصادي كوضوع الساعة التي لا بد منه لتقديم البشر ، وتكثفي بالإصرار على ضرورة ترويض هذه الحركة وتأسيسها<sup>(١)</sup> . وبعد أن عدلت موقفها من الحياة

(١) انظر بيان الأساقفة الفرنسيين عن النمو الاقتصادى في صحيفة « لوموند »

( ٥ و ٢٣ و ٢٤ مارس ١٩٦٦ ) .

والعلاقات الجنسية لم يعد لها مناص من تثير مثال من الأخلاق الاقتصادية كانت  
ترده إلى الكتاب المقدس . وإذا كان التحرك نحو «السياسي» و «الجماعي» يقضي  
إلى إهمال مشكلة الخلاص الشخصي التي كانت إلى الآن العنصر الأساسي  
للكنييسة ومحط اهتمامها الأول ، فلا بد للمرء أن يتساءل : هل يبقى الدين بعد هذا  
هو ذات الدين في حقيقة الأمر وواقعه ؟ .

وفكرة الخلف المتسلطة على عصرنا هذا لم تظهر إلا حديثاً ، وذلك بعد أن  
تقبلت الدول المتقدمة والمتخلفة جميعاً المعايير الغربية للنمو والتقدم الاقتصاديين  
تقبلاً عاماً . وقبل عشرين عاماً فقط ، حين كان الفرق الموضوعي بين البلاد المتقدمة  
والمتخلفة موجوداً منذ قرون ، لم تكن هنالك « مشكلة » تخلف بهذا الوصف (١) .

أما في ميدان العلوم الاجتماعية فقد حدث مزج غير متجانس بين ماركس  
وروستوف ، وجاءت حتمية اقتصادية تميل إلى التبسيط . أو ليس النظام السياسي  
لديمقراطية مرتبطاً بأحوال اقتصادية معينة ؟ وهل الديمقراطية ممكنة عملياً خارج  
الدول الغنية ؟ وأليس أفضل النظم السياسية والاقتصادية متصلاً بحالة تطور رأس  
المال ؟ وأليست القومية محقة حين تستهدف معاونة التنمية الاقتصادية  
لبعض الدول ؟

إن الأمر في حقيقته - كما أكد ج ، ك . جالبريث - هو أن كثيراً من المشكلات  
المروضة في إطار « اقتصاد الفقر » يجب عرضها بطريقة مختلفة في إطار « اقتصاد  
الغنى » ، ولكن هذا في الواقع لا يعني إلا ما يأتي : إن للمشكلات المروضة في إطار اقتصاد

---

(١) يرجع ظهور فكرة التخلف في المؤتمرات الدولية وانتشار هذه الفكرة في  
الرأي السائد إلى النقطة الرابعة في برنامج ترومان لعام ١٩٤٨ . وأول الدراسات والمقالات  
النظرية التي طورت الفكرة تطوراً منظماً (نوركي ، وفرانكل ، وسوفي ، وكولن كلارك)  
نشرت بين ١٩٥٢ و ١٩٥٤ .



الفقر يجب إعادة عرضها من جديد في إطار يُلهم بنظام الموارد العظيمة الاتساع ويتصف بمجالات جديدة لانكاد نعرف عنها شيئاً . ومن الواجبات الملقاة على عاتق العلوم الاجتماعية المعاصرة أن تدرس الأشياء الثابتة وتستخلص التغيرات التي لا بد منها .

ويبدو أنه من الشروع تماماً ، بعد انقلاب الماديات والأنظمة والآنكار المتصلة بالنمو والفكرة السابقة عن التقدم الاقتصادي المستمر انقلاباً أساسياً ، أن نحكم على النمو الاقتصادي بأنه خير أو شر أو بين بين ، مستعملين في ذلك قيم الميافيزيقا والأخلاق «القبلية» ومثل هذه الأحكام تكون صائبة في ذاتها مادامنا على وعي بالقيم الكامنة تحتها ، ولكنها نادرة لأتتا حين نحكم على النمو لانبدأ بالقيم المطلقة والثابتة ، دون النظر إلى مفهوم غامض نوعاً ما عن التقدم نفسه ، مفهوم يصوره خيراً مادياً ومعنوياً لأ كبر عدد من الناس ، واتقاء للتناقضات أو المشكلات الكبرى ، ومستوى مرمعاً من التورتات الكامنة بحسبه الناس على نحو ما متمشياً مع مستوى عال من الروحانية .

إن الذي يشده عصرنا ليس الأحكام المطلقة ، بل جمع النافع والمزايا التي يمكن رؤيتها بوضوح ، مقابل المضار التي بدأنا يطفء في الوعي بها . ذلك أن الوهم بأن النمو والتقدم ظاهرتان موهوبتان لنا ، يمينها العلم والإنجازات التكنولوجية من الخارج — هذا الوهم يتبدد جزءاً فجزءاً . فكلماً زاد علنا بهاتين الظاهرتين وكلاماً وضع أن التبرم لا يزول ، بدأت الآمال السحرية في التبخر . وقد أخذت تروج بين الناس فكرة ثمن النمو وتكلفته ، وهي فكرة كانت في الجومند سنوات . فهل أنت اللحظة التي أصبحنا فيها مستعدين لمعالجة الموضوع أكثر تمشياً مع العقل ، ترفض الكثير في سبيل الأكثر ، معالجة مقترنة بمفاضلة سياسية متخيرة ، ذات معنى حقاً ، بين الإمكانيات المتاحة لنا ؟

إننا لن نردد هنا الحديث في التواحي الإيجابية للنمو ، فهي أولا معروفة جيداً وقد ناقشنا غير مرة كتابات فوراستيه<sup>(١)</sup> مثلاً، إنما ستنى هنا بعض التأملات التي نشأت عن تطور النمو الاقتصادي المعاصر . وهذه التأملات والتعليقات ستسير على النهج الآتي :-

١ — إن تكاليف النمو تزداد وضوحاً : فهي سترى بسرعة أكثر من سرعة النمو ذاته ؟

٢ — إن مقاييسنا الكمية الحالية ناقصة أو خاطئة لا تصلح لفحص التقدم والنمو .

٣ — يجب أن تؤخذ العوامل الكيفية أو النوعية بين الاعتبار في قراراتنا ، حتى ولو لم يمكن تحويلها إلى تقديرات كمية ، وحتى لو ظل إدماجها أمراً شاقاً .

### أولاً — طبيعة تكاليف النمو :

يمكن القول بأن تكاليف النمو تكون مباشرة أو داخلية إذا سلطنا اختياراً بأننا نحمل زيادة في الدخل أو رفاهية على المستوى الشخصي ، أو زيادة في التاج القوي على المستوى الجماعي . . . وتعتبر غير مباشرة وجانبية أو خارجية إذا كانت نتيجة للشكل الذي تتخذه الحركة الجماعية .

### التكاليف للبائسة :

وهي نوعان : الجهد البشري ، والاستثمار الضروري .

#### ١ — الجهد البشري :

هذا أول التكاليف للبائسة . وفي ظننا أن الوقت قد حان لتتخلص من الوهم الذي تدعمه مقاييس كمية فيها دقة ، ولكن فيها إلى ذلك تحيز شديد ، وهو الوهم

---

Le grand espoir du xxe siècle ( PUF 1952 ) ; Machinisme et ( ١ )  
bien-être ( 1951 ) ; La civilisation de 1975 ( 1958 )

بأن التقدم التقنى والعلمى يقلل من الجهد والمشقة البشريين ، فليس لهذا التقدم من الناحية الدائمية أى صلة بما يحسه الناس خلال التطور الفعلى . ونحن إذا استثنينا بعض الحالات النادرة وجدنا القليل جدا من الناس من يشعرون بأنهم تحرروا من ربة عملهم المهنى ، أو أصبحوا أقل شعوراً بالحرية فيه ، أو أتيت لهم فرص أكثر للاختيار .

ولعلنا إذا بدأنا بالتقيض القبلى كنا أقل تحملاً للخطأ : فنحن إذا حسبنا الجهد البدنى والعصبى ، جهد التكيف والتوترات فى مجتمع معقد وجدنا أن الجهد البشرى فى مجتمع النمو يتغير ولكنه لا ينقص أبداً ، بل الأرجح أنه يزداد شدة ، وهذه الزيادة فى الأغلب شرط لازم لريادة الإنتاجية .

إن أحدا لا يجادل فى أن يوم العمل فى عصرنا هذا أقصر بالقياس إليه فى أسوأ فترات القرن التاسع عشر حين كان يوم العمل فى الصانع يمتد أحياناً إلى ١٢ ساعة أو يزيد ، وأن للطالب للمادية ليوم العمل عندنا قد تناقصت . ولكن يقابل هذه الحقيقة حقائق أخرى مضادة ؛ فالزيادة فى الوقت الذى يستغرقه الذهاب إلى العمل والعودة منه ، سواء بالتروأو السيارة الخاصة ، تمثل أحد هذه اللطال . ثم هناك زيادة مطردة فى شدة العمل وانضباطه . ويبدو أن عدد الذين يجب أن ينزلوا عملاً وجهداً أقل هو فعلا دون عدد للطالين بالجهد الإضافى . وثمة فارق هام بين العمل فى وظيفة متوسطة أو عالية فى منتصف القرن التاسع عشر . وكان عمالاً روتينياً فى معظمه . وبين مسئوليات الوظائف المائلة فى منتصف القرن العشرين ، ضد المال والفنيين فى وظائف المرتبة الثالثة<sup>(١)</sup> فى ازدياد ، وحياتهم المهنية تزداد مشقة ، ومسئولياتهم المهنية — سواء المدنية أو الجنائية — تتقل يوماً بعد يوم فى هذا المجتمع الذى

---

(١) يقدر أن عدداً فى فرنسا سيخضعون على الأرجح فى ١٩٧٥ ( G. Mathieu )  
Le Monde عدد ١٩ أبريل ١٩٦٤ .

لا يمكن أن يمتنع عدم الثقة أو الخطأ . إهم المثلون الذين يؤدون دوراً في اللعبة الاجتماعية ولكنهم محرومون من المعايير اللازمة للحكم على هذه اللعبة ، سجناء سرابها ، القانونون بفنائها والسكادحون إلى منتهى قدراتهم ليصلوا على هذه الكسرة — ليس أوساط المال في يومنا هذا هم الجماهير المستقلة الأساسية في حضارتنا ؟

ومع ذلك نلاحظ هنا أنه إذا كان الجهد البشرى لا يبدو متناقصاً البتة ، فإن المسألة ليست مسألة تكلفة مطلقة ، فإن للعمل إشباعاته وتوازنه ، وكل شيء يتوقف على طبيعة هذا العمل وعلى تكيف الفرد وفق واجباته ودوره الاجتماعى ، ولكن علينا أن نتخلص نهائياً من خرافة « الهبة المجانية » و « المن السماوى » . وإذا كانت هناك تجربة واحدة تشارك فيها جميعا ، فهي أن أوقات فراغنا ، ومكافآتنا المالية ، لا تمنح لنا عطايا مجانية ، إنما نحن ندفع ثمنها بمجهودنا ، وندفعه غالباً ، بل غالباً إلى حد أننا أحياناً لا نستطيع الاستمتاع بها كما ينبغي .

## ٢ — الاستثمار الضرورى :

وثانى تكاليف النمو هو مجموع الاستثمار اللازم ، بما فى ذلك الاستهلاك والاستثمارات الثانوية .

وتظهر بعض المعايير التى تتخذ كمعاملات لرأس المال أن ربحية رأس المال ، فرعاً فرعاً وقطاعاً قطاعاً ، تنبج إلى الزيادة فى مدى الزمن الطويل ، فحصل عادة بفضل « العامل التبقى » ( التقدم التقنى والتعليم ) على نتيجة محسوسة أكبر بذات القدر من رأس المال ، تماماً كما نحصل على كمية أكبر بذات كمية العمل ( لا نوعيته ) . فهل نستطيع أن نتوقع أنه قد يحدث نمو فى الإنتاج القوى باستخدام قدر من رأس المال أقل مما كنا نستخدم فى الماضى ، وهو توقع يبدو منطقياً ؟ إن هذه الفكرة تقوم على نظرة محدودة جداً . فلأسباب كثيرة لا بد خلال النمو القوى من أن يزداد

مقدار رأس المال إلى مدى ازدياد الشدة النوعية للعمل البشرى . والملاحظ في جميع البلاد أن معدل الاستثمار بالنسبة إلى التاج القوى ، يجب ألا يتناقص إذا أريد تحقيق النمو الاقتصادي . ولا بد ، كمد أدنى ، من استثمار النسبة ذاتها من نمو التاج القوى ، أى قدر أكبر من حيث القيمة المطلقة . فها هي الأسباب الداعية لهذا الامتناع التزايد لرأس المال ؟

أول هذه الأسباب أن التقدم التقنى والتعليم اللازمين لجعل رأس المال أكثر إنتاجاً يستهلكان في ذاتهما مالا ويطلبان استثمارات ثانوية .

وثانياً متصل بزيادة استهلاك ( الديون ) المرتبط مباشرة برأس المال التزايد . فهذا القدر من رأس المال النامى يحتاج إلى صيانة وحفظ ليظل منتجاً ، وهذا يفسر سبب النفقات للتزايد . ولتصور فرداً يزداد ثراء يوماً بعد يوم ويحول كوخه شيئاً فشيئاً إلى قصر ، فيضيف إليه أجنحة في كل عام ويحصل على دخل من هذا البناء الإضافى . إن هذا الشخص لا يد له في كل عام من أن يخصص مبالغ أكبر يقطعها من دخله النامى لصيانة قصره للطرد التوسع . ويحتسب أن ينمو رأس المال بسرعة أقل من الدخل الحاصل ، أى ما دامت ربحية رأس المال معبرا عنها بالدخل لا تنقص . فإن لم يحدث هذا فإن مصاريف الصيانة ستنتهى بإتفاص الدخل الحقيقى للمالك . ويصدق هذا على المجتمع الذى عليه أن يواصل استهلاك الديون للتزايد ، كما يصدق على الصالح الاقتصادية الخاصة ؛ فالزيادة في كمية السلع الدائمة أو شبه الدائمة يمكن أن تناس بالمصروفات المخصصة للصيانة والاستبدال الإضافى .

وثالث أسباب امتناع رأس المال مرتبط بالتزايد في عدد السكان ، وهى مظهر آخر من مظاهر النمو . فإذا ظل مستوى رأس المال ثابتاً مع زيادة السكان تناقصت الإنتاجية لكل شخص عامل ، وكانت نتيجة ذلك البطالة . والواقع أننا لا نستطيع أن نعين شخصاً جديداً في عمل من الأعمال ، مع ما يبدله في الإنتاجية ،

دون رأس مال إضافي . لذلك يحتاج الأمر للاستثمارات الثانوية لتوفير العمل للأجيال القادمة الأكثر عدداً .

والسبب الرابع لامتناع رأس المال هو أن التمويل يتطلب استثمارات اجتماعية « مراقبة » كالإسكان ، والمدارس ، والجامعات ، والطرق ، والمراكز الإدارية والسياحية في المدن الخ . . وأزمة المساكن يمكن تحليلها جزئياً بالنمو ذاته . فتحول سكان الريف إلى سكان مدن يشهد عليه هجر المباني الريفية الضيقة والطلب على الشقق أو الغرف في المدن أو الضواحي . ومن شأن النمو الديموغرافي ( أى السكان ) أن يزيد حاجات الأسر وينفض سرياً إلى الحاجة لمزيد من الشقق . والإدارات العامة والخاصة المتزايدة تمتص المباني قديمها وجديدها .

والسبب الخامس منشؤه أن تكاليف النمو الخارجية التي سنحاول إجمالها فيما يلي تحتاج إلى استثمارات للإصلاح والترميم والترتبات التي تستهدف التخفيف والتلطيف من المضايقات .

ونلاحظ هنا أن وفور رأس المال في بعض القطاعات يراقبها استهلاك طبعي من جانب المجتمع في قطاعات أخرى . على أى حال لتذكر أن استثمار ٢٠ - ٢٥ ٪ من الناتج القومي إذا كان الناتج كبيراً يسر منه إذا كان صغيراً ، ومن ثم فإن السكافة الحقيقية للاستثمار الرائد تنخفض أثناء التنمية . ولكن لو توافرت مختلف حاجات رأس المال في مجتمعات النامي فإن شرط الاحتفاظ بالدخل الحقيقي على مدى فترة طويلة من الزمن هو استمرار التقدم التقني القادر على استخدام رأس المال بطريقة أكثر اقتصاداً ، والذي يتبع بناء على ذلك الاستجابة للحاجات للزيادة لرأس المال .

#### التكاليف الخارجية :

إذا كانت التكاليف سالفة الذكر متصلة مباشرة بالنمو الواعي المرغوب فيه ، فإن التكاليف الخارجية هي تلك التي لا تدرك أو تحس في البداية ، والتي تبدو كأهمها

نتائج فقط للحركة العامة ذاتها . وليان طبيعة هذه التكاليف تضرب مثلاً من صناعة السيارات .

إن أربعين سنة من التقدم التقني قد خفضت الثمن الحقيقي للسيارات الجديدة والمستعملة إلى حد كبير ، ولكن التأمين على السيارات ، الذي كان في بداية الأمر اختيارياً ورخيصاً نسبياً ، أصبح إجبارياً في بلاد كثيرة ، وتكاليفه النسبية المطلقة في ازدياد كل عام ، وستستمر في الارتفاع نتيجة للعوامل الآتية : ازدياد عدد الحوادث ، زيادة لا تتناسب مع عدد السيارات المؤمن عليها مع اقتراس كثافة المرور الشديدة ، وأن تكاليف الإصلاح ليست أماناً صناعية « من المرتبة الثانية » بل مصاريف وأجورا للصناع ، وتكاليف التأمين والملاج مصاريف « من المرتبة الثالثة » ثابتة أو متزايدة في قيمتها الحقيقية ومن ثم فهي متزايدة باستمرار في قيمتها الاسمية ؛ وأخيراً ارتباط التعويضات عن الموت أو الحوادث بالقيمة المتزايدة للضحايا ، لأن قيمة الحياة البشرية تزداد في المجتمع التقني كما تزداد القدرة الشرائية . ونتيجة لهذه السلسلة من التطورات يستطيع المرء أن يشتري سيارة مستعملة في حالة جديدة تقريباً بثمن منخفض ، ولكن التكاليف السنوية للتأمين قد تكون أعلى من ثمن الشراء الأصلي .

وبالمثل فإن التمييز عن تكاليف خارجية كانت في البداية لا تمكّد تدرك ، ولكن بعضها يزداد بأكثر من نسبته إلى نمو الناتج القومي . وسنتناول بالبحث ألواناً من هذه التكاليف : المضايقات والتلوث نتيجة لإتلاف الثروات الطبيعية ؛ تكاليف الزحام الشديد ؛ تكاليف التغير ، تكلفة التوتر والرغبات المرتبطة بحالة التبرم الدائم .

المضايقة والتلوث :

يذكر لنا برتران جوفيل المثل الآتي :

١ — إن تفضيل الناس لمناخ لوس أنجلوس تفضيلاً ملحوظاً خلق فيها تركيزاً كبيراً للمساكن والأعمال .

٢ — هذا التركيز جعل جو هذه المدينة المزدحمة من أضر الأجواء في العالم .

٣ — إن مزايا المناخ تناقصت تناقصاً واضحاً ، وحماية الجو أو تحسينه اقتضت اتخاذ خطوات ترتب عليها إتفاق الأموال على معدات وتجهيزات خاصة للسيارات والصانع .

وبالمثل فإن تلوث البحر والأنهار ، التي يسببها إلى أن تصبح « مزابل البشرية » كإقيل ، واستعمال القضاء الهوائي وضوء الطائرات ، كل هذا يفضي إلى مشكلات تزداد وضوحاً يوماً بعد يوم ويحتاج علاجها إلى تكاليف موضوعية .

وعرف دجونيل التكاليف الخارجية بأنها « الأضرار النسبية للغير والتي لا يدفع مسبوها تكاليفها » ، وهو يذكر لنا تعريف الاقتصادى البرالى فون ميزيس الذى يرى أن « حقوق الملكية معناها أن المالك يجب أن يضاف لحسابه جميع المنافع التى ينتجها للغير استخدام ملكيته ، وأن يحمل ثمة جميع الضرر الذى يحدثها هذا الاستخدام » . ولكن الذى يحدث اليوم هو أن المزايا والمنافع الخارجية المتصلة بحقوق الملكية — كالقيم العالية فى المدن — بازالت خاصة للأفراد ، فى حين لا يدفعون التكاليف الخارجية المتصلة بممارسة هذه الحقوق ، أو تلقى هذه التكاليف أساساً على عاتق المجتمع الجماعى . أفلا يجب فى الاقتصاد الاشتراكى حقاً أن يتكفل بالتكاليف الخارجية ذات للنشأ الخاص المتسيبون فيها ؟ ولكن هذا البدء صعب التطبيق على ما يبدو من وضوحه وبساطته . فالسيارة مثلاً تقضى إلى مصروفات معينة كبناء المدن حول احتياجاتها ، ولكنها أصبحت ضرورة جماعية ، جزءاً من إيقاع الحياة ، وضرورة تستلزمها بثرة مواقع العمل ،



والحاجة إلى الهروب . إنها لم تعد ترفاً ؛ فتحمل الأفراد الخصوصيين جانباً من جملة تكاليفها سيكون في النهاية ظلماً للبعض وقيداً على القوة الدافعة لصناعة نمو رئيسية .

### تكاليف الزحام الشديد :

إن تكاليف الزحام البشرى الشديد لا ترتبط بزيادة السكان ، فحسب ، بل بإمكان الانتقال والحركة . والكثافة الحقيقية للسكان تزداد بازدياد الرخاء والثروة . وواضح أن الكثافة السكانية المثلى — البادية في الرفاهية — ليست واحدة بالنسبة لشعب ثابت وآخر متقل . ومنذ اللحظة التي يستطيع فيها السكان أن يتركزوا في أماكن جدينا بسرعة كبيرة يحدث الزحام ، وتهبط الحالة المثلى المتصورة على شكل الرفاهية وحيز السكنى ، مادياً ونفسياً<sup>(١)</sup> .

وتكاليف الزحام الشديد يشعر بها ضحاياها شعوراً قوياً ويحاولون توقي هذا الزحام ووضع الخطط للحد منه . ولكن محاولة المرء أن ينادر بهذا قبل أن يتدفق مد القدين يسافرون مع المد ، أو ذهابه إلى الريف مع أنه يؤثر الذهاب إلى البحر ، أو انطلاقه إلى الشواطئ المليئة بالمستقعات التماساً للوحدة ، أو زيارته البقاع الساحلية في غير موسم السياحة ( كزيارة اليونان في منتصف الشتاء مثلاً ) — كل هذه الحلول التي يترتب عليها انتشار في الزمان والمكان تفرض خسائر واضعة في الراحة والبهجة ترجح المكاسب الحاصلة من خفة الزحام . وبالطبع لم يشغل السياح كل مكان على ظهر البسيطة ، وما زال هناك الكثير من الأماكن ومواطن الطبيعة الجميلة التي لم تكتشف بعد والتي ربما كانت قرية اللال ، ولكن

---

(١) انظر : Dennis Gabor, *Inventons le futur* ( Paris, Plon, 1963 )

مادامت المراكز الثقافية التاريخية القديمة الكبرى محدودة العدد ، فإن تكلفة الزحام السياحي ستظل دأمة الزيادة من وجهة النظر الإنسانية .

ولابد أن تتغير أنماط الحياة اليومية تبعاً لشدة الزحام والتركز : وحسبنا مثلاً على ذلك يوم العمل للتصل ، ولكن أخطر الأمثلة ولا ريب أنه بطول اللدة قد تظهر للفارقة وعدم التناسب بين التكاليف الخاصة والعامة التي يتكلفتها إنجاب مزيد من الأطفال في هذا العالم ؛ فقد تكون التكاليف الجماعية الناجمة عن شدة الزحام والتركز ، وعن التعليم الذي لا تقف أطول مدته ، وعن زيادة رأس المال الضروري ، أعلى من تكاليف الأسرة . فهل يقتضى الأمر فرض ضريبة على جميع الأطفال الزائدين على عدد معين باعتبارهم ترافاً بدلاً من تقديم الخدمات للأسر ؟

في ظل هذه الظواهر لابد من إعادة النظر إعادة كاملة في العلاقات بين النمو الاقتصادى والمشكلة السكانية . فلو بدأنا ، حتى في المجتمعات الغنية ، بالمبدأ البدئى القائل بأن أعداد السكان لا يمكن أن تخطى في تزايدها إلى ما لا نهاية ، فإن النمو الطويل المدى ، النمو الوحيد المقبول من وجهة نظر الرفاهية والديمقراطية والحرية الحقيقية ، هو النمو الاقتصادى بغير نمو عددى ، وهذا النوع يبدو الآن ممكناً إمكانية حقيقية ، ولكن علينا منذ الآن أن نعد أنفسنا للمشكلات التي يشهدها سكان معمرين ، وهي مشكلات لا مفر منها .

وأخيراً يجدر بنا أن ندرج زحام المعرفة والإعلام ضمن مختلف تكاليف الزحام ، وهذا هو « زحام العقول » على حد قول بير ماسيه<sup>(١)</sup> والمشكلات هنا مرتبطة بمهمة مستحيلة تقريباً هي مهمة مسايرة المعرفة الدائمة المتغير ، وهي تبرز أمام مشكلات الإعلام متخذة صورة الإعلان والدعاية أو العلاقات العامة بدلاً عن الإعلام . وترتبط الدعاية ، وهي ضرورة وظيفية للعالم الماصر ، بإعادة تشكيل

الإجماع ، والبحث عن الفاعلية السياسية وسط أعداد متزايدة من الناس التأهين في يبداء التموض والإيهام بسبب تكاثر المعرفة التي لا يستطيعون تحملها .

ولكن إذا كان من المحال السيطرة على المعرفة والإعلام ومسايرتهما ، فإن هذا يعتبر من ناحية وظيفة من وظائف تغيراتها ، ونحن نجد أنفسنا هنا أمام نوع آخر من التكاليف : تكاليف التغير .

#### تكاليف التغير :

هذه التكاليف لا تندرج بسهولة تحت تصنيف التكاليف إلى مباشرة وخارجية ، بعضها مسلم بأنه يرفع مستوى المعيشة ، وغيرها يبدو نتائج لا تكاد تلاحظ للاتجاهات العامة .

إن التغير لذيذ من نواح كثيرة ، وهو مصدر للخلق وتجديد الروح ، ولكن هذا لا يفي أن في الإنسان شوقا إلى ركائز ثابتة مستقرة يلوذ بها ، وإلى بيئة تتسم بناصر الدوام والاستمرار . وتأقلم الإنسان مع عالم ليس فيه شيء دائم إلا التغير السريع يقتضيه تكاليف باهظة ويسبب خسائر هامة . وعدم ثبات المواقف والعادات يمثل جهداً ، وعنصر توتر ، قد يكون خلافاً أو مدمراً حسب الحالة ، وهذه التكلفة تلفت النظر على الأخص في الدول النامية حيث تمارض العادات الدينية وطرائق الحياة ، والمواقف من الوقت وللحال ، مع تيار التنمية الاقتصادية <sup>(١)</sup> .

وقد يحدث في اقتصاد البلاد النية أن يتطلب التحرك اللازم الذي يقتضيه النمو ، والذي يقال لنا إنه غير كاف في فرنسا ، خروجاً على الاستقرار الجغرافي ، والاستقرار المهنى والبيئة الاجتماعية .

---

(١) انظر في هذه المسألة وفي تكاليف النمو عموماً B. Cazes, *Lavie économique* ( Paris, A. Colin, coll. U. 1965 ) .

ويرافق النمو في الوقت نفسه تغير الأيديولوجيات ، وتآكل للمعتقدات ، وتحوير طرق التعبير عن الحقيقة ، والنمو يدخل « النسبية » في مناطق كثيرة من العالم الاجتماعي . إن الفرد لم يعد واثقاً من حصيلة للمعتقدات التي يدين بها ، ولا واثقاً مما يعرفه ، لأن هذا الذي يعرفه تتغير « موضته » باستمرار . ونحن نتساءل : ألا يخشى أن يصبح هذا الذي نتشدد به كثيراً ، وهو « إدارة العجلة باستمرار » و « التشكيل الدائم » ضرباً من القربة النفسية إذا لم نكن حريصين ؟ ألا يتعرض الإنسان الحديث لخطر رؤية ذهنه وهو يعامل كما تعامل الآلة السريعة التقدم ، وألا يخشى عليه رغم جهوده كلها من أن يصبح بروتارياً فكرياً ، عاجزاً عن تحصيل نواة من المعرفة الثابتة واكتساب أداة للتفكير تمكنه من السيطرة على الكون الذي يعيش فيه ؟ وأليس الجيز المتضائل المنوح للفلسفة ، وهى علم التخليق و « الحكمة » علامة على أننا نقضل بناء آلات لتعليم علوم تتلاءم مع الحاجات الاجتماعية ، عن صوغ كائنات قادرة على الحكم من أساس للمقاييس العالية ؟ وأليست هذه الصعوبة المتزايدة في السيطرة على المشكلات والوسائل متعارضة مع الديمقراطية السياسية ، إذا كان رأينا في الديمقراطية أنها نظام قائم على إمكان الاختيارات الملنة والقرارات العقلية ؟

إن الروتين ، وهو تعرباً قصد في الجهد ، ليس له بالطبع قيمة في ذاته ، ولكن الجهد العقلي الإضافي الذي يطلب إلى الفرد بذله يجب ألا يكون هدفه مجرد زيادة إنتاجيته وكفاءته التقنية للتغيرة ، بل التأثير في قدرته الدائمة على التحكم في مجموعة المشكلات التي تهمة .

وأخيراً لننظر في آخر مجموعة من التكاليف :

تكلفة التوترات ، والرغبات ، والسخط الدائم .

تظهر هذه التكاليف أوضوح ما تظهر في الاقتصاديات الرأسمالية القائمة على حاجات

الستهلكين وورغباتهم ، ولكن من الصعب أن تبين كيف تستطيع الاقتصاديات الاشتراكية أن تتجوز تماماً من هذا التطور ، وهى الموجهة إلى ذات الاهتمام بالتقدم الاقتصادى ، والثروة المادية فيها هى تقريباً الهدف النطقى الوحيد القادر على فرض نفسه .

إن « المركز » فى هذا العالم الاجتماعى — الذى نرى فيه الأوضاع عرضة للتغير ، والاستهلاك المتزايد هو القيمة الغالبة — هذا المركز تحدده إلى درجة كبيرة القدرة على الاستهلاك ، والناس يتصورون الحياة على أنها الاكتساب المستمر للمركز ، ذلك الاكتساب الذى تصبح مظاهره الخارجية « موضة » بالية بمجرد حصول الجماهير عليها . تلك إذن ظاهرة الاستهلاك المتباهى<sup>(١)</sup> وكلنا فى مجتمع الاستهلاك الضخم نريد الأشياء ذاتها ، ولكننا نريدها فى أوقات مختلفة . وكثيراً ما يظهر الناس هذا الاستهلاك المتباهى بالحصول على الأشياء قبل غيرهم ، فيصبح الزمن هو المصدر الأول للتبرم والخط . والمركز تقررره تفاصيل ثانوية كالجلبة أو الاختلاف ، ويقرره سبق الحصول على الأشياء الذى يقبه التقادم السريع ، وهو جزء لا يتجزأ من صميم النظام الاقتصادى . ومن الأهمية أن نذكر أن الإشباعات النفسية يعتمد بعضها على بعض . فانتقال البعض إلى مستوى استهلاك عال معناه خفض من الرضا النفسى للغير ، فإذا لحق هذا الغير بهذا المستوى كان فى هذا خفض لمستوى الرضا عند ذلك البعض ، تبعاً لظاهرة التشبع وما يترتب عليه من خفض فى مركزه .

فهل نستطيع أن نتوقع رؤية زمن تخفض فيه قيمة الاستهلاك بحيث لا يصبح هو مقياس المركز ؟ لو حدث هذا لكان فى جملة تقريباً من ظروف الاشتراكية .

---

(١) أنظر مقالنا "La consommation ostentatoire et l'usage des richesses"

(Bulletin SEDEIS, Nov. 1 1965) .

على أن هناك ظاهرة أخرى تخلق الحاجات وتبقى على التورات ، وذلك أن الإنسان في سبيل الفكاك من عبودية الحضارة الصناعية وعنائها نشأت لديه حاجات زائدة للراحة والهروب . فهو يطور نظاما للاستجابات ، ولكن بطريقة تجعل حاجاته للتعبير تزداد ويصبح إشباعها غالى التكاليف باستمرار ، بمعنى أن الفرد الذى كان قائماً بإتفاق يوم الأحد في فورتبلو أو آخر الأسبوع في دوفيل لا بد له الآن من أن يذهب إلى أسبانيا ، وربما في النهاية إلى يرو ، وهذا يتطلب وسائل نقل جماعية أو فردية بتكلفه متزايدة . ولقد أفضى نمو شبكة الانتقال إلى نحو الأهداف النهائية ، ونحو الأهداف إلى نحو الوسائل . وما أشبه هذه الحال بقصة أخيل والسهلقة ، فالأهداف والوسائل لا يمكن أن تلتقى أبداً ، والتبرم باق على حاله .

فإذا كانت هذه الأنواع من التكاليف قائمة ، فما هى قيمة ما نملك اليوم من أدوات التقدير الكمية التى تقيس التقدم الاقتصادى ؟ لننظر الآن إلى مواطن قصورها وأخطائها .

### ثانياً : قصور القاييس الكمية الحالية أو أخطؤها .

إن القاييس الحالية الرئيسية للتقدم والنمو الاقتصاديين هى مجموع التاج القومى والدخل القومى وتكاليف نموها جميعاً ، وكذلك مستوى المعيشة معبراً عنه بالقوة الشرائية الحقيقية ، أى حجم الاستهلاك أو قيمة التقديرات بالأسعار الثابتة . ولنبداً بالقول بأن رجال الاقتصاد والإحصاء أخذوا منذ سنين يظهرن مواطن القصور أو الثغرات ، أو عبارة أخرى الأخطاء ، فى هذه الأدوات التحليلية<sup>(١)</sup>

---

(١) تارن: M. Gilbert & I. B. Kravis, Etude comparative des produits nationaux et du pouvoir d'achat des monnaies (O. E. C. E. 1955); B. de Jouvenel, "Niveau de vie et volume de consommation, cit.: "A Better Life in an Affluent Society" Diogenes, Spring 1961).

إن ما أدخل على حياة جماهير الناس من عناصر رئيسية للرفاهية والراحة أمر لا ينكر ، ولكن كان من الممكن في المجتمعات التقليدية الحصول على مستوى عال من العيشة باستهلاك يختلف تمام الاختلاف عن استهلاكنا ، في حين أننا نصل إلى مستوى في العيشة هو في حقيقته متوسط جداً وغير مرض على الإطلاق رغم الاستهلاك لحجم كبير من السلع . وهذا هو السبب في أن ب . د جوفيل قد بين بجلاء استحالة أى مقارنات جادة من حيث حجم الاستهلاك : فالسلع ليست واحدة بل تختلف من فترة إلى فترة ومن بلد إلى بلد . وعملية الثراء على حد قوله « ليست رأية بل منحرفة » فالأسرة التى تنتمى للطبقة العامة والتى كانت قبل قرن من الزمان تمنى أن تعيش كأسرة نظيرها ولكنها ميسورة الحال تفوقها فى الثنى عشرة أضعاف ، والتى ظلت محتشبة بهذه الأمانة ، هذه الأسرة لاتستطيع أن تحقق أمنيها حتى ولو قال الإحصائيون إن ثروتها تضاعفت عشر مرات . إنها لاتستطيع أن تبني وتسكن بيتاً كبيت الأسرة الأخرى ، أو أن يكون لها خدم . نخدمها . ولكنها تملك سلماً ، شائعة الاستعمال اليوم ، كان وجودها أمراً لاتصوره أسرة غنية قبل قرن . ونحن حين نفكر فى الثروة إنما تفكر غالباً فى عناصر الامتياز الأصعب منالاً والتى لا يمكننا أبداً أن نملكها . إنما الذى يمكننا أن نملكه هو شيء آخر : هو الاستكثار من السلع التى يهبط ثمنها الحقيقى ، وهذا اللون من الثراء يخلف السخط فى نفوسنا .

وهناك سبب أدق لقصور المفاهيم التى اختيرت لقياس مستوى العيشة . ذلك أن قيمة الاستهلاك الوسيط تنمو مع كل مستهلك ، وهذه الاستهلاكات الوسيطة تعجب على أنها نهائية وتوضع من حجم الاستهلاك ومستوى العيشة والتأج القوي .

ولكن الواجب عند تقييم الإنتاجية ألا تشمل الثروة القومية « الاستهلاك الوسيط » لختلف فروع القطاع للتج ، إذ أنها لاتشمل غير مجموع القيمة التى

يضيفها كل فرع من هذه الفروع . ولكن من أخطاء المائدة القومية اعتبار مجموع الاستهلاك البقي استهلاكاً نهائياً وعدم التمييز بين الاستهلاك الانتفاعي والوسيط ، والاستهلاك الذي هو في حقيقته نهائي . فحساب التناج أو الدخل القومي يجب «فشه» بطرح قيم معينة منه هي في الواقع تكاليف ، أو استهلاك وسيط ، يفهم خطأ أنه نهائي . ولنضرب لذلك بعض الأمثلة (١) .

إذا زاد انتقال الناس يومياً إلى أعمالهم ومنها بسبب التمدن وشدة الزحام انعكس الاستهلاك الإضافي في البنزين أو قطارات النقل كأنه زيادة في الاستهلاك ، كما لو كان التمرض هو السفر للفرحة . وهكذا تضاف تكلفة كلية للتناج القومي .

وقد قدر سيمون كوتزنس في الولايات المتحدة أن نفقات الطعام للفرد بالأسعار الثابتة ارتفعت ٧٥ ٪ من ١٩٠٩ إلى ١٩٤٩ — ٥٧ . ولكن محال مادياً أن يكون حجم الاستهلاك للمادى قد ارتفع بهذا المعدل ، لا بمعدل ١٢ — ١٥ ٪ ، وهو الأقرب إلى التصديق . أما الباقي ، أي أربعة الأخماس ، فهو إما ناشئ عن زيادة عارضة في العدد والتنوعية ، وإما ناشئ أساساً عن تكاليف نقل الطعام وتوزيعه التي هي نتيجة التمدن وبعد مراكز الإنتاج . وفي مثل كهذا تحسب تكاليف النقل كأنها جزء من التقدم والنمو .

وبالمثل تحسب خدمات للطعام والكافيتيات والفنادق والاستراحات الخ . التي حلت محل خدمات البيت المجانية على أنها زيادة في الدخل القومي . وقد حاول كولن كلارك حساب قيمة الخدمات البيئية المجانية في إنجلترا بقدرها بقيمة التناج القومي في ١٨٧١ ، ونصف التناج القومي في ١٩٥٦ . والحاصل أن تخلخل الأسرة التقليدية ، وبعد أما كن العمل ، ويوم العمل للتواصل — كلها تبدو أوتوماتية

---

(١) الأمثلة الثلاثة الآتية منقولة عن مقال ب . دجوفنيل المذكور .



في زيادة حجم الاستهلاك بقدر معادل للخدمات التي يحصل عليها الناس أو أقل منها .

يضاف إلى هذا أن التاج القوي لا يشمل السلع المجانية أو الثروات الطبيعية ، بل على تقيض ذلك تعتبر بعض التكاليف المتصلة باستصلاح الثروات الطبيعية أو تجديدها ، وهي تكاليف ستزداد أهمية ، جزءاً من التاج القوي . وكما زاد عدد الحوادث ( والحوادث أبرز نتائج الزحام الشديد ) فارتفعت بذلك تكلفة الإصلاح والعلاج والدواء الخ .. زاد التاج القوي . وعملاً بهذه المقاييس فإنه لو اصطدم نصف السكان بالنصف الآخر ، مع فرض المساواة في جميع الظروف ، لنجم عن ذلك زيادة ملحوظة في الدخل . فالتاج القوي إذن يضيف إليه تكاليف خارجية ولكن ليسبها عكسياً . فهو يشمل ظواهر التدمير التي لا ترى إلا إضافات ناجمة عن نفقة التعمير الجزئي .

ونتيجة لهذه الإسقاطات والانحرافات ، نستطيع أن نخلص إلى أن الطريق من اقتصاد الكفاف إلى اقتصاد السوق ، الثنى ، للمقد ، لا بد مقص إلى المبالاة في تقييم مستوى المعيشة والتاج القوي . وليس بين صيرراتنا الكمية الحالية وبين مستوى المعيشة الواقعي ، ورضا الناس ، ورفاهية السكان الحقيقية ، إلا شبه طفيف .

والوعي بظاهرة التكاليف الواضحة والمستترة وبمواطن القصور في أدوات المعايير التي نستخدمها خلق بأن يؤدي إلى إعادة تقييم بعض المقاييس الحالية وإحلال أخرى أصلح منها محلها .

### ( ثالثاً ) نقد مقاييس النمو الحالية :

ينبغي نقد تزعيتين صريحتين أو مستترتين : —

- ١ — الزعة إلى النظر إلى حجم التاج القومى ومداه دون النظر إلى تكوينه .
  - ٢ — الزعة إلى التضحية بما لا يمكن قياسه فى سبيل ما يمكن قياسه .
- إن المصر القومى يعيش فى يقسم بالاهتمام الشديد بالتاج القومى وبمعدل النمو . وعلى قدر إحساننا بأن الموقف الحالى غير مرض ، بل على قدر ما يخلق النمو للمصاعب والتوترات وألوان التبرم ، تنجى بحل هذه كلها إلى المستقبل ، ونؤمن بالحرفاء التى تزعم أننا نستطيع بالتقدم ، وبالتنمية ، وزيادة الموارد ، أن نحل جميع مشكلاتنا ، دون أن نتبين بعد فى وضوح شديد أن التقدم والنمو يخلقان بالطبع مشكلات أخرى . وهذا المهروب إلى المستقبل يلخصه هذا التعبير الوحيد عن التقدم ، التعبير العددي ، الممكن قياسه ، والذي يلقي التصديق والاعتقاد من الجميع : وهو « معدل النمو » .

إننا بدلا من أن نبدأ من هذه القضية : وهى أن زيادة التاج القومى خير فى ذاتها ، يجب أن نبدأ من مقدمات مختلفة<sup>(١)</sup> :

- إن الرافاهية لاتوقف فقط أو بشكل رئيسى على الكم بل على الكيف، وهذا معناه أن التاج القومى يشمل شيئا أكثر من حجمه ومعدل نموه .
- إن الطريقة التى يكتسب بها الدخل أهم من الدخل ذاته .
- يجب أن ينظر إلى العمل كأنظر إليه «مثاليو» الاشتراكيين فى القرن التاسع عشر على أنه هو والعامل واحد ، هو والفرد واحد ، كما ينظر إليه من حيث عمل العامل للمجموع ، أى إنتاجيته .
- يجب أن نتخلى عن الفكرة التى تزعم أن النمو يحل جميع المشكلات ذاتيا .

---

(١) أنظر فى هذا الموضوع W. Weisskopf , "Croissance économique et le bien — être humain" (Economie et humanisme, Sept — Oct. 1965).

ويجب أن نعلم بأنه يسهل حل بعض المشكلات الهامة مثل عدم المساواة ، ولكنه يخلق مشكلات جديدة بعضها ذو خطر أقل ، وبعضها أخطر من المشكلات الأولى .

— كل نمو مقيس للتاج القوي يجر تكاليف خارجية مقيسة وغير مقيسة ، ويدو أن بعضها يزداد بسرعة تفوق نسبتة إلى زيادة التاج القوي .

— كل الأعمال المقصود بها زيادة مجموع التاج القوي يجب فحصها من زاوية آثارها السلبية للمكتة ، ويجب أن نذكر أنه ليست كل الزيادات في التاج القوي مرغوبا فيها بنض النظر عن تكاليفها .

أما التزعة الثانية التي تستحق النقد فهي التضحية بنير القيس في سبيل القيس . إن حضارتنا جعلت من الإحصاء ديناً . والإحصاء هو قبل كل شيء الحقيقة القيسة . فالحساب معناه الوعي والدراية في هذا المجتمع الذي ترقد خرافاته في طبقة من مقاييس السوق العقلية ، والنتيجة أنه ليس هناك وجود اجتماعي كامل إلا لا يمكن حسابه ، أما مالا يمكن حسابه فذلك ثانوي وغير « واقعي بالمعنى الصحيح » . وإعطاء شيء من الأشياء ولها معناه المربوب من اللبس والتموض ، وترتيب العالم ، وإقامة الأولويات بين الحقائق . ومن ثم نرى أنه بين الواقع للقيس والواقع الذي لايسهل قياسه ، قد يضحي في سبيل الأول بالثاني الذي يوزنه الوجود الاجتماعي الكامل .

وكثير من اتجاهات النمو الحالية وتكاليفه يمكن تفسيره على هذا النحو : وهو أن غير القيس لاوجود له .

وإذا كان الصبح مثلاً قد سمح له بالانتشار وهو في مامن حصين ، فليس السبب أننا استعملنا أساليبنا الهيمنة الرخيصة لإرساء دعائم كل قبيل ، ولا أن حضارتنا فقدت

إلى حد كبير قدرة الخلق الجمالية التلقائية ، إنما هو راجع قبل كل شيء إلى أن التصح  
لا يمكن قياسه ، وإذن فليس هناك إنسان مسئول عنه مسئولة حقيقية .

ولاريب في أنه لو أمكن قياس ضرر النمو وتكاليفه لاختلف الموقف ولكن  
هناك وعى سريع عام به . ولو أمكن تقدير قيمة عددية للضرر الذى يحدثه مصنع من  
المصانع لكان لزاماً عليه أن يوضع عن الضرر ، ولاضطر إلى التعويض ، ولما أمكن  
إلا أن يوافق عليه .

أما وهذه النزعة موجودة في وقتنا هذا ، فإن هناك خطأ طبيعياً لمهاجتها : وقوام  
هذا الخطإ إضافة حساب الآثار السلبية والتكاليف الخارجية على قدر الإمكان لجعلها  
واضحة للعيان . وهذا موقف ضرورى لاختيار لنا فيه ، بل هو الحل للممكن الوحيد  
ذلك أننا إذا استبدلنا بالتقدير الكلى الفج تقديرأ مذهباً مرهفاً يتضمن النوعية لكان  
هذا في ذاته حلاً ناقصاً ، ولو اقتصر التغيير على هذا دون غيره لجعلت «الصنيع» العادية  
الفكرة التالية ، التى عبر عنها ب . شاربونو أفضل تعبير ، أسدق منها في أى وقت  
مضى — وهى « الكل لأجل الشعب ، ولاشئ بواسطة الشعب »<sup>(١)</sup> وهذا في  
الحقيقة أسلوب التكنولوجيا وطاها .

يضاف إلى هذا أنه يستحيل التخلي كلية عن فكرة النمو ، لأن الأنظمة والعادات  
لا يمكن تغييرها تماماً على هذا النحو . وكل خطة توضع للموازنة بين الكميات النامية  
لن تتخذ مظاهر النوعية إلا بصعوبة ، وسنظل طويلاً لانستطيع أن نعمل بطريقة  
مختلفة . وتغير دون كبير مشقة إلا بمزيد من التنمية . ولكن لنحترس من أننا

بهذه الطريقة ، وبحشد الوسائل ، لن يستمر النظام في سيره البطيء ، للتمتع بمثل السخف الذى كان يسير به من قبل .

ومن الضروري أن تتناول مشكلة التنمية بقدر أقل من نقاد الصبر وقدر أكبر من الحيلة قبل أن نجرؤ على التفكير إطلاقاً في عدم التنمية . إن دروح الصبر وحساباته هى التى يجب أن تتغير . إنها روح طلب للزبد والأصول التى انبعثت منها ، والطريقة التى تحصل بها على هذا الزبد — هذا هو الجدير بالتطوير والتغيير . والأمر يتوقف على الوعي ، أى على إزالة الغموض والاهتمام للترايد بالتنوعية ، إذا شئنا ألا يظل النمو الاقتصادى عملية غير معقولة من بعض نواحيها .



# ديوجين مَصْبَاحُ الْفِكْرِ



مجلة دولية لعلوم الإنسان

يصدرها المجلس الدولي للفلسفة والعلوم الإنسانية

معاونة منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة

وتصدر النسخة العربية

بإشراف وزارة التعليم العالي - الشعبة القومية لليونيسكو

مركز تبادل القيم الثقافية بالقاهرة

# المجلس الدولي للفلسفة والعلوم الانسانية

## الهيئات العلمية المنضمة إليه

- \* الاتحاد الدولي للجامع العلمية .
- \* » » » لجمعية الفلسفة .
- \* اللجنة الدولية للعلوم التاريخية .
- \* » » » الداعة لماء اللغة .
- \* الاتحاد الدولي لجمعية الدراسات الكلاسيكية .
- \* » » » لعلوم النوع الإنسانى والسلالات البشرية .
- \* » » » اللجنة الدولية لتاريخ الفن .
- \* الجمعية الدولية لدراسة تاريخ الأديان .
- \* الاتحاد الدولي للأدب واللغات الحديثة .
- \* » » » للمستشرقين .
- \* » » » الجمعية الدولية لعلم الموسيقى .
- \* الاتحاد الدولي لعلوم ما قبل التاريخ والتاريخ القديم .
- \* المؤتمر الدولي للشعبيين بالدراسات الأفريقية .



## لجنة تحرير ديوجين

- \* د. و. بوجن (الملكة المتحدة)
- \* أ. كازو (الكيك)
- \* داي (المند)
- \* ج. فرري (البرازيل)
- \* ف. جبريلي (إيطاليا)
- \* م. هوركيمر (ألمانيا)
- \* ر. ب. مكينون (الولايات المتحدة)

\* رئيس التحرير : روجيه كايوا

\* سكرتير التحرير : جان دورسون

## النسخة العربية

مدير عام العلاقات الثنائية  
وزارة التعليم العالي

\* رئيس التحرير : مصطفى حبيب

تصدر من مجلة ديوجين في أربعة أعداد في السنة بخمسة لفات

ثمان المئد من النسخة العربية ١٠ قروش

الناشر

سجل العرب

## محتويات العـدد

صفحة

### المرجل الثالث

التبسيط العلمى والراديو

بقلم : ابراهيم ا. مولز وچان م. أوليف

ترجمة : الدكتور السيد محمد بدوى

١

التغريب والعمل الاجتماعى

بقلم : آدم شاف — ترجمة : الدكتور محمد محمد القصاص

١٩

الهند الحديثة والغرب

بقلم : ك. ا. نيلاكانتا ماسترى — ترجمة : عبد المرز عبد الحق

٤

الاستراتيجية والنزعة الانسانية

بقلم : لوسيان جولدمان — ترجمة : الدكتور فؤاد زكريا

٨١

بين منطقة الراعى (الاستبيس)

في عهد الرعاة الرحل الاوائل

وبين الصين في الفترة بين القرنين

التاسع والعاشر (ق. م)

١٠٩

بقلم : ياروسلاف پروفسيك — ترجمة : محمد مرسى أبو الليل

ابراهيم ٢. موثر دچان م. أوليف

## الرجل الثالث

التبسيط العرسي والرايو

ترجمة: الدكتور السيد محمد بدوي



يتطور مجتمع أقصى القرب نحو مجتمع للاستهلاك؛ إذ تنزع للفروق بين الطبقات الاجتماعية إلى التلاشي بفضل الرفاهية وطرائق المعيشة التي تم أكثر فأكثر بحيث أصبحت تشمل من يحتلون القمة مثلما تشمل من يحتلون أسفل السلم الاجتماعي . بل إن فكرة الطبقة الاجتماعية نفسها قد قلّرت أن تزول من للأذهان ، وحل محلها تمييز جديد يرتكز على الثقافة وعلى الشكل الذي تتخذه الثقافة في مجتمع تغطيه وسائل الاتصال الكثيفة ، ولهذا يمكن أن نقترح أن مجتمع عام ١٩٩٠ ستميز فيه الجماعات الإنسانية بحسب الأذواق والقدرات التي تؤدوين كل واحد من أفرادها .

وفي الوضع الراهن يمكن القول إن ما اصطلاح على تسميته بالثقافة ينزع إلى التوسية أكثر مما ينزع إلى الاختلاف والفرقة : فكل الناس يقرأون نفس الأخبار التي تخرج من نفس الوكالات ، ويشاهدون نفس المشاهد على شاشة التلفزيون أو السينما ، وربما يكونون قد قرأوا نفس الكتب التي تخرج بثلاث الألوف من نفس دور النشر .

---

كاتباً هذا المقال :

إبراهيم ا. مولز : حصل على الدكتوراه من السوربون في الطيبة الرياضية ، وكانت رسالته عن « الهيكل التيزيقي للعلامات الموسيقية » ثم حصل على الدكتوراه في الفلسفة عن « العمليات الخافتة للنشاط التقني ونظرية الإخبار في الإدراك الحسي » . وهو الآن أستاذ في جامعة ستراسبورج . وبهم في أبحاثه بتطبيقات وسائل الإعلام في مجالات العلوم الاجتماعية والسيومتري ، والاقنويات ، والإدراك الحسي . وله بحوث منشورة عن : الخلق الموسيقي ، وسيكولوجية الثقافة والصوتيات . جان م. أوليف : مهندس ويصل الآن رئيساً لقسم الخدمات الاجتماعية والنفسية في مجال الاناعة . وكتب مؤلفاً عن « الفرسة الكبرى للتلفزيون » بالاشتراك مع جان كلزيف الذي كان أستاذاً لعلم النفس الاجتماعي بمعهد العلوم الاجتماعية بجامعة الاسكندرية بين عامي ١٩٥٢ — ١٩٥٤ .

فنحن إذن نزع لأن نميش بنفس الأفكار ، ولأن تكون لنا نفس الاستجابات . وفي الواقع ، فإن الفرق الحقيقي الذي ينشأ في مجال الثقافة لا يركز على كم الأشياء التي نعرفها أو التي لا نعرفها بقدر ما يركز على الوقت الذي تستغنه جبال هذه الأشياء .

فمن ناحية ، ولأسباب عملية واقتصادية ، نجد أن الغالبية العظمى من المجتمع الشامل تميل إلى عدم الاهتمام بمعرفة الطريقة التي يتم بها خلق الثقافة ، بل تكتفي بأن تقبلها على أنها إنتاج يُعرض عليها ضمانات تأتي من الهيئات التي تدعيها . ومن ناحية أخرى ، تكون نواة صغيرة لأفراد يصبحون « محترفين » للثقافة . وكما تشير إليه ملاحظة إدجار موران Edgar Morin ، فإن مجتمعنا يبد ، في الواقع ، خلق تقسيم جديد بين « المستهلكين » للثقافة و « البدعين » لها . وتأخذ الهوة بين الفريقين في الاتساع منذ اللحظة التي تركز فيها الثقافة على وسائل الاتصال الضخمة التي تحتاج في إدارتها إلى الدقة وإلى رؤوس أموال هائلة . وقد لاحظ لازارفلد Lazarsfeld ، وشرام Schramm ، وبرلسن Berelson وغيرهم هذا التمييز الذي يبدو جلياً بين من يتكلم أو يخلق للواد الإذاعية وبين من يسمعها ، أو بمعنى آخر يستهلكها ليتشبع بها عقله وفقاً للشكل الذي يسميه الثقافة . وأعطى علم الاجتماع لهذه الظاهرة مقياساً دقيقاً تحت اسم « الرفض الثقافي » ، يشير به إلى اختلال التوازن الذي يوجد بين من يسهمون في الإبداع الثقافي ، وبين من يظنون في جوهرهم مستهلكين فيتركون ، على هذا النحو ، كل نشاط إيجابي بين أيدي المتخصصين .

#### التقاني والقابل للفهم :

وجميع وسائل الاتصال الجماهيرية الضخمة ، مهما كان نوعها ، لها معاييرها الخفية . فهي تزعم — حتى ولو كان هذا الزعم لا يقوم على أساس — أنها « تسهم »

في ثقافة مجموع الشعب ، وأنها تقدم إلى سامعيها أو قرائها أو مشاهدي برامجها عناصر للتفكير أو أحياناً عناصر للعمل . وعلى أية حال ، فإنها تلن جميعاً ، في منافسة شديدة ، عن فضائل الوثوق من مصادر المعرفة التي تستقيها بالاتصال بمبدعي الثقافة رأساً . ويؤكد القاعون على الإذاعات الثقافية على أهمية « الثقافية » في هذا المجال ، ويحصلون من هذه الثقافية إحدى وسائلهم التي يستخدمونها أكبر استخدام في نشاطهم ، فيقترحون على الجمهور « مقابلة » أو لقاء مع « يونسكو » . يتحدث عن أسس المسرح الحديث ، أو مقابلة مع البروفسور « إكس » التخصص في فلسفة « نيتشه » ، وقد يقترحون ( إذا أمكن ) مقابلات مع نيتشه شخصياً . وهل هناك أجل من أن نجمع الأفكار الحقيقية عن الوجودية من فم مؤسسيها . أنتسهم ؟ أو نحصل على عناصر نظرية النسبية من فم العالم الرياضي الكبير الذي أبدعها ؟ في الحقيقة ، نحن نعرف أن قيمة مثل هذه الأصالة تتركز بصفة جوهرية على « الأسطورة » التي يكونها العامة بالنسبة لمقاتلة الثقافة المقدسين .

ومع ذلك ، ففي كل مرة تقوم محاولة لدراسة جدية لهذه المسائل — وقد قامت الإذاعات المختلفة ، على وجه الخصوص بدراسات عديدة لها — كان الأمر ينتهي ( إلا في حالات شاذة لا قيمة لها في صياغة مبدأ عام ) إلى الاقتناع بأن مبدعي الثقافة يظلون بعيداً عن تناول العامة من الشعب ، إذ أن هؤلاء لهم لتهم المختلفة ، ولم يشواغلهم المباشرة ، ووسائلهم الخاصة في الاستمتاع بمرائهم ، وهم لا يمتلكون هذه المرونة الذهنية التي ربما كانت الصفة الجوهرية للفيلسوف ، أو الباحث أو التخصص . وعندما ينجح لقاء إذاعي مع أحد العلماء ، فإن هذا النجاح يرجع في معظم الحالات إما إلى أن الموضوعات التي نوقشت قد اهتمت بأحد الجوانب الإنسانية المباشرة للسألة العلمية ( وهذا الجانب الإنساني من صنع الصحفي أو كاتب الحديث ) — ومعنى ذلك أن نكون على هامش للسألة العلمية لا في صميمها — وإما أن يُعزى النجاح إلى الاكتفاء بمظهر ثانوي ، أو تافه جداً مستخلص من للسألة الأصلية ، ويعرض لأحد

التفاصيل التي تكون قابلة للتطبيق المباشر في مجال حياتنا ، ولا يستبعد أن يكون « خالق » المادة العلمية ذاته قد تحور بطريقة ماهرة على يد المنتج أو الصنف أو ملحق الصفحات المنشورة . فظهر أوج « الموشير » يستخرج من المادة الأولية التي يقدمها المتخصص عند سؤاله ، عبارات وصور وعناصر يستطيع أن يدعجها ، بطريقة يختلف قدرها من النجاح ، في برنامج مقترح من قبل . وفي الواقع يعتبر الفهم المباشر للمادة العلمية غنوداً عن القاعدة ، إذ أن لغة العلماء المتخصصين قد أخذت تيل أكثر فأكثر ، في مجتمعاتنا ، نحو التجريد والتخصص والصعوبة . وهذه اللغة بالنسبة للمختصين وظيفة « ضرورة » ، وتعتبر وسيلة الخاصة في عملية الاختزال العقلي . ضلينا إذن أن نستبعد تماماً فكرة عدولهم عن هذه اللغة ، وذلك مثلما نستبعد فكرة عدول العالم الرياضي عن استخدام الجبر ليستخدم بدلاً منه ، في التعبير عن نظرياته ، لغة الحياة اليومية .

لنستمتع الثقافة والمستمع والمُشاهد لأحد العروض الفنية ، يكونون لأنفسهم ثقافة متوسطة سموها فيها كلاماً عن كل شيء دون أن تعمقوا شيئاً بالذات . والعرض الجوهرى من ذلك هو الاستمتاع أو شغل أوقات فراغهم ، إما بطريقة مباشرة باستيعاب عناصر طريقة وأصيلة ومثيرة ، وإما بطريقة غير مباشرة بقصد التمتع الاجتماعية في الظهور بين الأصدقاء ، وأحياناً على أمل أن تساعد هذه الثقافة على استخراج شيء يفيد في ممارسة المهنة .

### ثقافة الفيسفساء أو تعليم الكبار :

والواقع أننا نتبعه نحو صورة نسميها بثقافة الفيسفساء ، وهى الثقافة المكونة من قطع وأجزاء يلتصق بعضها بجوار بعض بدون أى رابطة ، وهى تنطبع في أذهان الجمهور عن طريق وسائل الاتصال الجماهيرية . وهذه الثقافة قد تكون عظيمة



الاتباع ، ولكنها تقوم على « رفض » أى مجهود الفهم والاستيعاب . وعلى هذا النحو يستطيع كل فرد أن يعرف عن كل شيء قدرأ ضئيلاً من المعلومات ، ولكن بدون مجهود ، لأن المجهود — حسب تصويره — يجب أن يحتفظ به لأوقات العمل، ولأن وسائل الاتصال الجماهيرية ليست إلا وسائل للترويج والمثمة .

ويحاول المتبعون ، أى أولئك الذين يسهمون بنشاط في وسائل الإعلام ، أن يحققوا — بطريقة يختلف حظها من البراعة — هذا الجمع بين العمل والترويج . ويرغب معظمهم ، بدافع من النزعة الإنسانية التي لا يستطيعون التغلص منها عن وعى ، في إدخال الثقافة في المجتمع المعاصر بالجمع بين هذين النصرين المتناظرين : التثمة والمعرفة .

وتقابلنا هذه المشكلة بصفة خاصة في إذاعات الراديو والتلفزيون . فالاهتمام بالثقافة لا ينبى مطلقاً عن هذه الإذاعات ، ولكنه بكل تأكيد يظهر بدرجات جد متفاوتة . فعند البعض يعتبر الراديو وسيلة ممتازة توضع تحت تصرفهم لكي يؤثرأ على الجمهور ويبعثونه ، في آن واحد ، البازلاء ، والتلجات ، والثقافة . وإذا أدخلوا في الدعاية لمنتجاتهم بعض الجمل للموسيقية لموزار أو بعض فقرات من بسكال ، لكي تكون ضمائرهم مستريحة ، فإن ذلك لا يكون الغرض منه تسهيل البيع فحسب ، بل وأيضاً إذاعة شيء من الثقافة والمساهمة على هذا النحو في إبراز عظمة الموسيقى .

وهناك غير هؤلاء ممن يعيشون عن استخدام مركزهم ، كلاك لوسائل الإذاعة ، لخدمة مثلهم العليا الشخصية ، أي ما كانت هذه المثل . ولكنهم جميعاً يقبلون فكرة أن الراديو يجب ، بطريقة ما ، أن يكون في خدمة الثقافة ولو جزئياً . وفي الواقع ، فإن هذه المسألة ذات أهمية بالغة ، إذ أن مجتمعنا ينزع إلى أن يكون نخبة لتلك السلبية الثقافية التي وصفناها من قبل ، وينزع أعضاؤه بسبب ذلك ، إلى أن يفقدوا معنى قيم المشاركة في المجتمع . فليس من النادر أن نسمع رجل الشارع يتعز على محدثه

بقوله : « هذا ليس من شأنى » أو « هذا الأمر أكبر من أن أحمله » الخ . . .  
هذا الرفض أو السلبية يشبه إلى حد ما سلبية الحيوان الذى تجرى عليه التجارب فى  
العمل ، حين تلقى المنبهات المتناقضة وينتهى به الأمر إلى أن يظل ساكناً مستملاً  
بدون أى استجابة . ففى التعقيد الشديد لمجتمعنا الحديث ينتهى الأمر بالفرد إلى  
رفض اللهم ، وذلك بعد أن تتنازع عوامل ومتطلبات شديدة الاختلاف فيما بينها .  
ويحدث هذا بسبب الإدراك الذى نشعر به جميعاً من أن القرارات الحقيقية تتخذ  
خارج نطاقنا بواسطة مجموعة من الإخصائين ، ولأسباب تبلغ فى تجريدها واستصالتها  
على العرض والهمم درجة تجعل من الأيسر أن نرجع فى شأنها إلى ذوى المعرفة .  
ونستطيع أن نقول ، استناداً إلى هذه الحالة ، إننا أمام حالة مرضية حقيقية  
فى المجتمع .

وترجع المشكلة ، فى نظرنا ، إلى مشكلة تربية أو تثقيف الكبار . فلنكن يشترك  
الإنسان فى شيء لا بد أن يعرف ، ويفهم ، ويهتم ، ولكى يعرف لا بد أن يجد من  
يفسر له . وقد قلنا إنه من الواضح أن مبدعى الثقافة ليسوا هم من يستطيعون أن  
يشرحوا بطريقة مقبولة وكاملة وميسرة ما أبدعوه من أعمال علمية وفنية أمام الجمهور .  
وعلى ذلك تبرز أمامنا ، فى المستوى الاجتماعى ، ضرورة الاستعانة بما سماه لازار سفيلد  
« الرجل الثالث » ، ويعنى به الوسيط أو همزة الوصل الضرورية بين الإبداع الثقافى  
وبين تمثيل واستيعاب الثقافة . أى أن هناك وظيفة جديدة تفرض نفسها على المجتمع :  
وهى الوساطة .

فالوسيط يصبح مسئولاً عن إصال عناصر الفكر من أولئك الذين يصنعونها  
فى لغة مجردة ولكن ضرورية لنسق تفكيرهم العالى ، إلى هؤلاء الذين يجب أن يكون  
لهم الحق ، بعد الاطلاع ، فى إعادة النظر فيما تقرره النظريات الجديدة ، سواء أكان  
ذلك يتصل بسياسة القضاء أم بالشرح الجديد . وهذه القرارات تتخذها ، حتى الآن ،

في غالب الأحيان سلطات متباعدة ، ويسمح فقط لأعمالها التي تشتهر بأنها معصومة من الخطأ أن تدخل في « السجل » . ولم تستطع وسائل الاتصال الجماهيرية ، في الوقت الحاضر ، وعلى الأخص الراديو ، أن تحقق وظيفة الوساطة هذه ، إذ أنها وقفت عند مستوى « التسلية » ، الذي وصفه « رايت ميلز » Wright Mills وظلت عاجزة عن أن تجعلنا نشترك في الثقافة الحديثة .

وقد كانت الاستثناءات في هذا المجال ذات دلالة واضحة ؛ فهي تؤكد أولاً التقسيم الطبقي الذي يمكن أن يوجد بين رهبان العلم وبين الشعب . فال فئة الأولى تحسن الظن ، بصفة عامة ، بنهم الفئة الثانية لاستيعاب المعارف الجديدة . ولكن استطلاع الرأي يشهد بأنها مخدوعة في ذلك . فمحطات الإذاعة المسماة بالثقافية تمانى من أمراض السأم التي تؤدي بها أحياناً ، كما هو الحال في إيطاليا مثلاً ، إلى الخمود التام . والإذاعات المماثلة في إنجلترا وفرنسا تستطيع أن تحصل على زبائن عظمين ولكنهم قلة ، وأثبت تحليل عينة من هؤلاء الزبائن أن المستهلك الثقافي هم ، بوجه عام ، أقلهم حظاً منها . وتؤيد الأرقام بتطابق غريب هذه النتيجة : فالمحطات الأمريكية المتخصصة في الإذاعات ذات المستوى الرفيع تعتبر نفسها سعيدة ، في الواقع ، حين تحظى بنسبة من السمعين تتراوح بين ١ ٪ و ٢ ٪ . وتجد نفس هذه النسبة في مجموعات المحطات الثقافية للإذاعة في أوروبا .

فلا تقبل جمهرة الشعب أن تكون وسائل الترويج عسيرة على الفهم ، ولا زال العامل يعتقد أن وقت الفراغ يتألف من تبسيط متناه لأشكال النشاط الفنية والفيزيائية . وقد يأتي اليوم الذي يسمح فيه امتداد واحة الفراغ أو عطلة نهاية الأسبوع بقبول شيء آخر غير ما يتعارض تماماً مع مفهوم العمل . ولا تنكر أن بعض أنواع « الريسورتاج » الملهى قد نالت درجة عظيمة من التقدير

والاستعسان . ولكن الباحثين لم يقوموا بتعطيل عميق للوقوف على أسباب هذا النجاح ، ويجب أن ندخل في حسابنا أن تلك البرامج كانت تنطوى على عنصر للفاجأة ، أو الغرابة بما أكسبها طابع « التسلية » بأوسع معانى هذه الكلمة ، من غير أن يكون لذلك إلا صلة واهية بمعنى الثقافة .

### المخطوات الأولى :

إن الوسيط الضروري بين مصادر الثقافة والجمهور يجب ألا يترتب على هذه الضرورة نفسها القيام بدور ليس له ، ويجب ألا يندمج في فئة « التكنوقراطيين » ويتحول هو نفسه إلى مثل للاحتكارات الثقافية . فالصور الذى يقوم به يتسع للكثير ولكنه دور محدود . وعلى هذا النحو يمكن أن نرسم حدود وظيفته .

لما هي الأدوات التى يجب أن تكون فى متناول يده لتحقيق هذه الرسالة ذات الأهمية الجديدة حتى ولو كان مفهومها قديما ؟ مشكلة نشر المعارف ليست جديدة فى الواقع . ولكنها من الآن فصاعداً تبرز أمامنا كمسألة « اتصال » أو توصيل بالمعنى الذى تشير إليه النظرية السهية بهذا الاسم . فكيف تؤمن « خير » درجة من التوصيل بأقل « تكلفة » بين خالق الثقافة ومستهلكها ؟ هناك شعور سائد — منذ الأبحاث العديدة التى قام بها فى هذا الموضوع ، وعلى الأخص فى مجال الراديو ، يلى Beighly ، وهوفلاند Hovland ، وألبرت Allport ، وكاتريل Cantril ، وبرلسون Berelson ، وفرونون Vernon ، وفلش Flesch — بأن لدينا فى الوقت الحاضر عناصر متفرقة لتكنولوجيا الاتصال على النطاق الواسع ، وأن هذه المشكلة تشبه إلى حد كبير مشكلة تعليم الكبار . فالأمر لا يبدو إدخال رسالة من نموذج معين فى عقل عدد من الناس ، وتزويدهم بإمكانية إدماج هذه الرسالة فى الهيكل العام لمعارفهم .

فالبسيط إذن عليه أن يعرف، من ناحية ، كيف يتمثل - بدرجة كافية - المعلومات الضرورية من المعرفة ؛ ومن ناحية أخرى كيف يكتسب الرونة التي تجعله يتشبع مع الدوافع الميكولوجية لمن يتطلع إلى الثقافة عن طريق العملية . ونستطيع أن نقول إنه بالرغم من مرات الفشل البديدة التي تظن هنا أنها القاعدة ، فلم يثبت أحد بعد أنه من المستحيل جذب اهتمام الجمهور العريض إلى عنصر ثقافي هام ، وذلك لأننا لم نحاول قط استخدام هذا الشيء الصعب وهو التطبيق للتهجي لمجموعة الوسائل التكنولوجية التي في حوزتنا لكي نجعل موضوعا من الموضوعات في متناول جمهور معين .

ومع ذلك فنحن نعرف أنه ، في مجال الصحافة الأسبوعية ، قد استطاعت بعض المجلات التي تعود إلى نفس الموضوع أسبوعا بعد أسبوع ، أن تستخلص موضوعات صعبة في بعض الأحيان وتضعها في متناول جمهور ضخم . ونعرف أن الاستعانة على نطاق واسع بوسائل الرسوم البيانية ، واستخدام الرسامين للهرة بصفة خاصة لعمل إحصاءات مصورة بالاتصال بالتخصصين ، كل ذلك قد سمح « بهضم » أفكار صعبة نسبيا في الاقتصاد السياسي مثلا . ونعرف أيضا أن بعض التجارب للتعرفه ، كذلك التي قام بها بعض كبار المهتمين بتبسيط المعرفة وشيوعها ، قد زودتنا بنماذج من الإنتاج الإذاعي الممتاز في مناسبات معينة . وقد أثبت ذلك أنه كان في الإمكان ، أحيانا ، عن طريق حسن استغلال الظروف للناسبة ، أن تحظى الأفكار ، وللواد الثقافية ، والظواهر العلمية ، التي كنا نمقد باستصاها على الجمهور ، بنجاح واسع وتم بين الناس بسرعة غريبة .

أليس من الممكن إذن أن يصبح ما تم بمساعدة الظروف اللوائية موضوعا للدراسة للتهجية والتقنين ، بدلا من أن يترك للصدفة وحدها أو للاتصال للوقت ؟ وهل ما يتحقق من الفائدة يبدو كما لو كان شيئا غير خاضع للعقل ، ولا جدوى من البحث عن

قوانينه ؟ إن الدراسات المختلفة التي ذكرناها منذ قليل تنهض دليلا واضحا على أن الأمر ليس كذلك ، وتؤكد أنه سيتحتم على كل إذاعة ، لها اهتمامات أخرى غير إرضاء الجمهور بأقل التكاليف العقلية للمكينة ، أن تواجه هذه المشكلة إن عاجلا أو آجلا . وسيظهر حينئذ بالذات دور الوسيط الذي نحاول توضيح أهميته الاجتماعية الجديدة . فما هو يا ترى مضمون هذا النوع من النشاط ؟

### محاولة لوضع بعض التعاريف :

هذا الرجل الثالث ( أى الوسيط ) سيجد نفسه ، بحسب تعريفه ، يحتل مكانا بين مبدع اللادة العقلية والجمهور الذى قد يميل إلى الاهتمام بأنواع الإنتاج العقلى . غير أن هذا الوسيط هو نفسه ، فى واقع الأمر ، مبدع : فما يبدعه هو طريقة الاتصال ، وللدخول إلى الثقافة فى أحدث مظاهرها ، وأكثرها جدة ، وأقربها إلى القبول العام ، وكذلك أكثرها أهمية من حيث البدء . وهو يعرف كيف يختار ، ويميز ، ويقدم ، فى الوقت المناسب ، إلى جمهور يتحكم فى معارفه قانون الجهد الأقل ، تلك العناصر التى تنتمى إلى أحدث ما ظهر فى عالم العلوم والاقتصاد والفن والسياسة والصناعة .

وهذا الدور خطير وخطر فى الوقت نفسه . فهو يحتاج ، بين ما يحتاج إليه ، إلى ثقافة تتعدى للمستوى العام ، وإلى قدرة على التركيب ، وإلى موهبة عقلية ، وإلى إرادة وصمود لا نظير لهما . فهل يوجد ، إذن ، أفراد مزودون بهذه الصفات ؟ وهل تمثل هذه الصفات يمكن أن تجتمع فى فرد واحد ؟ حقا هناك شخصيات نادرة استطاعت ، فى هذا الوسط الخاص بوسائل الاتصال الجماهيرية ، أن تؤكد نجاحها بطريقة رائمة ، وإذا كانت شهرة هؤلاء الأفراد لا تمتد أبداً نطاق الأوساط المهنية ، فإن المسؤولين الكبار على رأس أى جهاز من أجهزة الاتصال : سواء كان الراديو أم الصحافة الخ . . . يستألفونهم على نطاق واسع ( مع الحذر من

الاعتراف صراحة بالقيمة العظيمة لوطيقتهم الاجتماعية. خوفاً من أن يجد هؤلاء الرؤساء أنفسهم خاضعين لنفوذهم) .

ونستطيع الآن أن نحدد للمشكلة على هذا النحو : كيف يمكن أن نجتمع كل هذه الفضائل ، إن لم يكن في جميع مجالات الثقافة ، فل الأقل في عدد معين منها ؟ ودور الوسيط ، كما قلنا ، هو أن يقوم أولاً بعملية اختيار ، دون أن يستسلم لإغراء العناصر للثيرة . وعليه بعد ذلك أن « يشر » على أفكار أصيلة ليترك منها رسالة طريفة ، خلابة ، سهلة الاستيعاب ، متسقة ، رقيقة ، تتجنب التلفيق الشائع بين التبسيط الحُلّ والعمق التامض ، وتتعد عن السحر السهل الذي يبذل طيعة الفكرة الأصلية ، هذا المفهوم عن الدقة العقلية قد يكون من أندر الأشياء التي يمكن أن نجد لها في وسط وسائل الاتصال الجماهيرية في عصرنا الذي يشغلنا الجري وراء الهدف ، ويهرب من العمل الجدي بالاتجاه إلى الوسائل السهلة التي يقدمها غير التخصصيين ممن قد يحذون أنفسهم في مركز الحكم على القيم .

ولكن الراديو مثلاً يذيع من ١٢ ساعة إلى ١٦ ساعة في اليوم من البرامج للتوعية التي تشغل منها البرامج الثقافية بمناها الصحيح ربع هذا الوقت: أي أنها تشغل بالنسبة لحطة إذاعة واحدة أكثر من ١٠٠٠ ساعة في إلى ٣٦٥ يوم . فلكي يتم إعداد مثل هذه البرامج بأمانة وضمير يجب أن تكون الأخطاء التي ترتكب جد طفيفة: إذ يكفي خطأ واحد ، في الواقع ، لكي يقيد المستقبل ويهدم التوازن المتأرجح الذي يجب أن يقوم بين التمتع والثراء ، في وسط جمهور المستمعين .

وكنقطة للبدء يجب أن يكون مفهوماً أن إذاعة تستغرق ساعة في موضوع علمي تتطلب ، لكي تعد إعداداً صحيحاً ، وقتاً معادلاً للوقت الذي يتطلبه رجل العلم لإعداد مادته ، أو - مني آخر يجب أن يكون هذا الوقت شهراً على الأقل - . ويكفي أن نرجع إلى الألف ساعة التي أشرنا إليها ونقوم بعملية مذهلة للوقت اللازم لإعدادها . وعلى

ذلك ، فالحفنة من الرجال الشجعان التي نجدها في الأصولي الإذاعية لباريس ،  
ولندن ، ونيويورك ، والتي تقود معركة الثقافة الحقيقية ضد ثقافة « التليفزيون » ،  
لا يمكن مطلقاً أن تكفي للقيام بهذا العمل . ويستلزم الأمر أن تكون هناك فرقة  
مكونة من عدة مئات أو من عدة آلاف من الأشخاص المؤهلين .

### القائمان :

ومن الناحية الفنية يجب أن يكون الوسيط رجل علوم ، ويتحلى في الأصل بصفة  
عامة إلى العلوم الإنسانية ، وأن يكون على دراية بنظريات وسائل الاتصال ،  
واكتسب خبرة في وسائل ضبط الأصوات ودرجة فهمها ، وكذلك في اللغويات .  
ويجب أن يعرف كيف يتحكم تحكماً تاماً في الوسائل التكنولوجية للراديو أو للتصاغة ،  
وأن يعرف كيف يعثر بنفسه على عناصر المعلومات المناسبة لحل أى مشكلة تعترضه .

ولا شك أن الالتزامات والواجبات التي يجب أن يمتلكها الوسيط تفترض ، بصفة  
قطعية ، أن يتحقق له في آن واحد : المعرفة التامة بما يقوم به العلماء ، وكذلك معرفة  
سلوك ونفسية أولئك الذين توجه إليهم الإذاعات . وإذا كان في الحالة الأولى في  
خدمة علم أو فن ، فهو في الحالة الثانية الذي يجب أن يسيطر ( بالمعنى الحقيقي لهذه  
الكلمة ) على علم أو فن ، ونعني به سيكولوجية وسيولوجية الأفراد ، والجماعات  
الصغيرة ، ثم الجماعات الكبيرة في النهاية . ويستمد اليوم هذا العلم وهذه المعرفة  
عناصرها الضرورية ، بصفة أساسية ، من استتار الرأي العام . وهذه الاستتارات  
قد أصبحت عاملاً هاماً في فهم العلاقات ، وبالتالي في تكييف وسائل الاتصال لدرجة  
أننا لم نعد نتصور كيف يمكن أن نسد الهوة الموجودة بين العالم العقلي وبين الجمهور  
بدون استخدامها بطريقة منهجية ومنظمة .

وما دامت الحاجة قد خلقت فإن أداة تحقيقها ستعجن وتتهذب وترتفع في



مستواها بما للطالب للزيادة التي سيعبر عنها ، من ناحية ، الأعضاء العاملون في المجال العقلي ، ومن ناحية أخرى ، هذه الكتلة من الجماهير التي لا تتفق قط على رأى أو ذوق ، والتي سيؤكد أفرادها ، بفعل الظروف نفسها ، عناصر فرديتهم وشعورهم بكيانهم .

وإذا كان الوسيط ينقل بفضل كفاءاته العلمية رسالة رجل العلم إلى الجمهور ، فإن عمله يقتضى منه كذلك أن ينقل إلى رجل العلم رسائل الجمهور بعد تفسيرها ، وهى فى الأصل — إلا فى حالات نادرة — بيئة التعبير ، غير متأسكة وغامضة بما يجعل العلماء أنفسهم غير قادرين على حل رموز رد فعل الأفراد الذين يتألف منهم هذا الجمهور . فواجب الوسيط إذن هو معالجة هذه الرسائل بحيث يستطيع العلماء الإحاطة بمضمونها . وهذا الاستقطاب للزدوج يصبح له ، فى آن واحد ، أهمية عملية بل ونوع من التأثير الخلقى ، إذا قصدنا من ذلك أن كل ما يعمل على تحسين العلاقات المتبادلة بين الكائنات الإنسانية يكون له أساس خلقى .

لقد ظل استطلاع الرأى العام ، ردحا طويلا من الزمن ، يفهم على أنه ذو اتجاه واحد : فكان يستخدم ، من حيث للبدا ، فى تزويد رجل السياسة أو إحدى للؤسسات التجارية بالناصر التي تسمح بحمل الحملة الانتخابية أو الدعاية التجارية أكثر فاعلية . وكانت هذه النظرة تحمل تقطين جوهريتين .

(أ) أن الشخص الذى يجب على أسئلة الاستبيان يصبح ، بهذا الفعل ذاته ، مذبذبا لرسالة . فهو يوصل إلى شخص آخر ، فى حالة انتظار ، تقمة من المعلومات عن سلوكه وأذواقه ، وما يتمسك به .

(ب) بل إن هناك ما هو أهم من ذلك ، إذ يحطم ما كان يشكو منه الناس من إغفال ذواتهم باهتمامهم فى المجتمع . ذلك أن واضع الاستفتاء بينهم فجأة ، بالمضى

الحرفى لهذه الكلمة ، إلى وجودهم ، ويضع فى اعتباره حوافزهم ، وما يؤدى إليه  
تقوُّمهم أو كراهيتهم لبعض الأشياء . وهو بعد ذلك يجرم إلى اتخاذ موقف معين  
فى مجالات علمية ظلوا رافضين أن يحكموا عليها بأنفسهم دون أن يشعروا بذلك فى  
بعض الأحيان . وهكذا يتذكر الكائن الفرد فجأة أنه عضو فعال فى الجماعة ، ونتيجة  
ذلك واضحة : إذ أنه يستعيد ذوقه الطبيعى تجاه المعرفة ، ويتحرر من حالة السبات  
الناجمة عن تعقيدات الحياة الاجتماعية — التى كانت تبدو له بدون حل — ولا يعود  
يشعر بأنه فرد مجهول الهوية فى مجموعة بلغت من التركيب حدًا يستعصى على فهمه  
الشخصى ، ويضدو من جديد عضواً نشطاً يهتم بحياة بلده .

على هذا النحو ، وبفضل الحركة ذات الاتجاهين بين خالق الرسالة العلمية  
وللمستهلك للمادة الثقافية — التى ييسر سبيلها الوسيط وتضبطها الاستفتاءات فى كلا  
الاتجاهين — يتدعم مبدأ الحوار ( أو الديالوج ) بين مبدع الثقافة ومستهلكها .  
ويستطيع هذا الأخير أن يتخلص من السلبية الثقافية التى أشرنا إليها فى البداية طر  
أنها وباء مجتمعتنا الذى ينزع أكثر فأكثر نحو تكوين الجماعات الصغيرة على حساب  
الهيكـل الشامل .

### تبسيط العلوم أو الثقافة الدائمة :

من التحليل السابق يبرز أماننا التبسيط العلمى عن طريق وسائل الاتصال  
الجماعية بوصفه « وظيفة كبرى » من وظائف مجتمعتنا . ومهما كان نوع الصعوبات  
التي ينطوى عليها ، فإنه ينزع أكثر فأكثر إلى أن يذوب فيما يمكن أن نسميه  
« ثقافة الكبار » ، أى أنه يرتبط بفكرة « الثقافة الدائمة » التى يكون الفرد فيها  
ملتقى إمدادات دائمة من عناصر ثقافية يشغل عليها ذهنه لينبئ منها أثره الخاص فى  
المالم . وسواء تحققت الوساطة عن طريق للهندس الثقافى ، أو للهمم بالتبسيط ،  
أو للعلاق ، أو عن طريق مبدع الثقافة نفسه — إذا كان بالصدفة قادر على ذلك —

فإن هذه الوساطة قد أصبحت اليوم وظيفة هامة من ناحية الكم، ولا يكفي للقيام بها تلك الحفنة من الأفراد الذين توافروا على تحقيقها في عشرات السنين الماضية، عن طريق الإعداد والدق السليم. والحقيقة أنها تتطلب وسائل أخرى، ونطاقاً أكثر اتساعاً، ولا يصح أن تبقى بعد الآن « صنعة ماهرة » بل إن مكنتها اليوم يجب أن يكون على مستوى الإنتاج الكبير؛ وهى تتطلب إنشاء « علم » يرتب عليه بالتالى وجود « تكنولوجيا » جديدة. ولتؤكد مرة أخرى على حقيقة هامة وهى أن قواعد هذه التكنولوجيا موجودة بالفعل، ولكنها مبثورة هنا وهناك.

ويحتاج تنفيذ هذا البرنامج أولاً إلى عمل على المستوى النظرى، يتبعه وضع للبادئ، ثم جمع وتركيب الأفكار للتأثرة عن طرائق العرض، وعن مستويات للمرفة، وعن مصادر اختيار الثقافة، وعن للقدرة على الاستيعاب، وعن قواعد الإنتاج الراديو فونى الخ...

ومن ناحية أخرى يجب القيام بعمل تجريبى ذى صفة علمية يستطيع الراديو والتلفزيون أن يفتحا فيه مجالاً ممتازاً للعمل عن طريق الاتصال اليومي بملايين المستمعين، وبمواجهة عالم يتجدد على الدوام ويتعين تفسير نزوعه فى كل لحظة، أو بمعنى آخر كشف خباياه العقلية أمام الرجال الذى يسكون هذا العقل. ويمكن لأنواع الإنتاج الثقافى أن تحاول إرساء دعائم هذه للبادئ عن طريق المحاولة أو عن طريق الخطأ — وربما كانت تفعل ذلك الآن ولكن عن طريق الخطأ بصفة خاصة. وأخيراً فإن الاهتمام باستبصار رأى العام ومراقبة اتجاهاته يسممان بتكوين فكرة حقيقة عما يدور فى ذهن الجمهور وتحديد رغباته. وهناك من الأسباب ما يبعث على الاعتقاد بأنه إذا استخدمنا فى سبيل ذلك الوسائل الضرورية والمناسبة، فإن « الرفض » المتواصل للثقافة — وهو الظاهرة الثابتة والميراث للمواطن الجماهيرى — سيتلاشى ليفسح المجال، فى الوقت المناسب، أمام الاهتمام والبحث عن « الفنة الثقافية »، وهو مفهوم ما زال فى حاجة إلى التعريف.



آدم تشاف

التغريب والعمل الاجتماعي

ترجمة: الدكتور محمد محمد القصاص



من تلك الكلمات التي راج استخدامها في هذه الأيام مصطلح ( الغرب )  
 alienation مما جعله موزعا للرب فضلا عن بعض الشبه الأخرى . فقد كثر  
 استعماله حتى أسيء هذا الاستعمال ، وقد أصبح كلمة مبهمة ، ومن ثم كلمة غامضة .  
 وهى تثير بين ما تثيره معارشات أولئك الذين يعتبرون أن ما مثله خطر من الناحية  
 العملية، والذين يحتلون موقفا يرون أنه يستحق الدفاع عنه . وتستند هذه للمعارشات  
 على حجج ومواقف مختلفة من الناحية العملية . إذ تبدأ بمن يرون أنه يجب مكافحة  
 جميع الكلمات الغامضة والبهمة وتنتهى بمن يكافحون التشاؤم في « فلسفة اليأس »  
 فهناك إذن بين المعارضين كل أولئك الذين يتمسكون بقائيد الوضعية الجديدة  
 وبنية التحليل للنزوى للمصطلحات ، ويوجد أيضا الكاثوليكيون بل والماركسيون ،  
 وهذا أمر قد يبدو عجيبا إذ أن للركسين هم الذين يحملون من الناحية التاريخية أكبر  
 نصيب من مسئولية الشيوع الحالى ليس لمصطلح « الغرب » فحسب بل أيضا  
 للتطورات النظرية للتصلة به .

والواقع أن « الضمون » النظرى لمصطلح الغرب قد وصل إلينا عن طريقين  
 متصلين فيما بينهما ولكنهما مع ذلك مختلفان ، أحدهما — وهو طريق التسلسل  
 المباشر للأفكار — ينحصر فى الهيكلية التى مارست تأثيرا متصلا على تيار الفلسفة  
 الإنسانية الألمانى بوجه خاص ، أما الطريق الثانى فهو طريق للركسية . ثم لابد  
 أن نقول فى هذا الصدد بأن للركسية ترتبط من حيث للوهلة ارتباطا عضويا بالهيكلية ،  
 غير أن فهمها للترتيب يختلف اختلافا بينا ، كما أنها هى التى أدت فى القرن العشرين  
 ليس فقط إلى نشوء هذه النظرية ، بل أدت أيضا فى الفترة الأخيرة إلى تفتتها ،  
 وتفتتها النيف .

ومن شأن الرواج المفاجئ في الوجدان العقلي أن ينطوي على عناصر تتسم بالكف للظهور إن قليلا وإن كثيرا ، ولكنه لا يمكن مطلقا أن ينحصر في حب التظاهر وحده أو على الأقل قليلا ما يحدث ذلك ، فهو يرجع على وجه العموم إلى وجود حاجة اجتماعية إلى تزويد ظواهر معينة بتفسير لها — ومن ثم يرجع إلى اهتمام نظري جديد ببعض الأفكار ، اهتمام يحدد « نقل الأفكار » كما قال بحق لودفيك كزيفسكي Ludwick Krzywicki ، إذا كان هذا هو السبب الوحيد لإن الرواج المفاجئ « للتحريب يتطلب تحليلا سيكولوجيا وسيكولوجيا دقيقا ، ومن جهة أخرى ينبغي لعدم وضوح المصطلح وإيهامه على نحو ما هي الحال في استعماله الجاري ألا يثبط اهتمامنا عن السعي إلى تحديده بمساعدة منهج التحليل للعنوي. فهذه هي وسيلتنا الوحيدة ، إذا أردنا أن نعرف من أين جاء « الرواج المفاجئ » لمصطلح معين ، أو لتصور معين ، ومن جهة أخرى — وهذا هو الأهم — إذا أردنا أن نعرف مصير قيمتها السياسية . ذلك لأن هذا هو جوهر المسألة : إذا ظهرت حاجة اجتماعية إلى تفسير بعض الظواهر — وهذا هو ما يبين « الرواج المفاجئ » للتصور الذي نحن بصدده — فإن ذلك يرجع على وجه العموم إلى أن بعض المسائل تتطلب التفسير — لكي يستطيع الارتقاء بالعمل الاجتماعي نحو الكمال . « فالرواج » العقلي ليس إذن إلا مجرد التعبير التلقائي ، وبالتالي التعبير غير الثوري عن ذلك . ومن شأن التفكير ألا يسمح لنا فقط بالشعور بما يحوي وراء هذه العمليات التلقائية ، ولكنه إلى جانب ذلك يحدد الأفكار التي ظلت حتى هذا الحين قليلة الوضوح وخداعه من جراء إيهامها . ففي وسع التفكير بل من واجبه أن يلمع دورا هاما في ترقية التصرفات الاجتماعية للربطة بهذه المجموعة من الأفكار .

هذا هو وجه المسألة الذي نأتمن به أولا وقبل كل شيء في هذه المجالة وهذا هو ما يفسر لنا عنوانها .



١ — لنحاول بادئ ذي بدء أن نحدد معنى الأفكار الجوهرية لهذه الحجج ،  
وسأجهد في أن أفضل ذلك على طريقة التعريف الأولى ، أعني أن أقدم معنى الكلمات  
التي استعملها كما أفهمها وعلى نحو ما أتوى استعمالها بعد ذلك

ذلك أن جميع الوسائل الأخرى مصيرها الفشل بسبب التاريخ الطويل ( الذي  
يرجع إلى الفلسفة الوسيطة على أقل تقدير ) للمشكلة وإيهام مصطلح « التعريب »  
للتقرب على ذلك . ولما لم يكن تاريخ هذا المصطلح هو الذي يهمني هنا وكان من  
الممكن ألا تكلم عنه قط في سياق البحث ، فإنني سأقتصر — مهما كانت أهمية هذه  
الوسائل — على مجرد الإشارة إلى أنه من الممكن دائماً أن نشر على أسس أو على دوافع  
له خلال التاريخ. وليس معنى ذلك أن التعريف الذي أتبناه يتفق مع أي تعريف آخر  
في التاريخ ، كما أنه ليس معناه من باب أولى — أن تكون بنية مجموع التصور أو النتائج  
العملية للمستخلصة منه بمثابة لأي شكل من الأشكال التي اتخذها في الماضي . وهذا  
ينطبق أيضاً على تصور ماركس الذي اعتمد عليه مباشرة والذي اعتبره تصوّر  
حين يتعلق الأمر بخطوطه الموجهة . ولكن فكرة ماركس قد تحولت تبعاً لتحول  
تصوره للعالم وتبعاً لنضج آرائه في المجتمع ، هذا إلى أن نحو العلاقات الاجتماعية منذ  
« ماركس » وبالأخص تجارب الأمم المؤسسة للنظام الاشتراكي تقومنا إلى ضروب  
من التفكير لم تظهر لدى ماركس أو لم تكن قد وصلت إلى درجة نضجها .

ولنجعل من الاختلاف بين الوضمة والتعريب نقطة انطلاق لنا .

خلال عملية الحياة يدخل البشر في علاقات بعضهم مع بعض بواسطة أعمالهم  
للتنوع أشد تنوع ، وسواء أكانت أعمالاً مادية أم روحية فالإنسان يحول الواقع  
للأدى لكي يحيا ، ويتبع مختلف السلع المادية التي تستخدم في سد حاجات البشر  
الاجتماعية ، ولكنه أيضاً يخلق سلماً روحية يبنى لها أن يجيب على حاجات

معينة ، على مختلف الراحل التاريخية لتطور المجتمع . وكذلك يخلق الإنسان المجتمع نفسه من حيث كونه مشتبكاً في علاقاته الاجتماعية ويخلق وسائل تسمح له بالاتصال بغيره من البشر ، وبجارية أخرى ( إذ أن ما تقدم لم يذكر إلا كثال من أجل صياغة هذه الفكرة ) يعمل الإنسان ليعيش ، ولكنه يعيش أيضاً بممارسة العمل . ذلك أن الإنسان لا يوجد بالنسبة للآخرين إلا من خلال أعماله ، وهو بالنسبة للآخرين ليس إلا ما حققه بأوسع معنى لكلمة « تحقيق » فكل عمل للإنسان منظور إليه على أنه فعل ، كذلك كل صنع للإنسان منظور إليه على أنه إنتاج ، يتبر إرثاً للإنسان في الخارج ، لأن الإنسان يعمل وهو يفكر ، وهذه في أغلب الظن إحدى الخصائص التي تميز الإنسان عن عالم الحيوان ، فكل ما يفكر فيه الإنسان حيناً يتجه نحو هدف معين يتحول — حيناً يعمل — إلى عمل موضوعي ، أعنى إلى شيء ما يوجد خارج أى عقل بشرى وبصورة مستقلة عنه ، وهذا هو ما أعنيه بالموضوع . وهذا يقول إلى القول بأن للوضعة هي عملية تحول الفكر الإنساني في ممارسة العمل إلى منتجات مادية أو روحية إلى منتجات تستحوذ على وجود موضوعي ، أى وجود مستقبل عن الإرادة الإنسانية والوجدان الإنساني . وما لا يحدى أن نضيف إلى ما تقدم — وإن كنا نفعل ذلك ولو من باب الحذقة البحتة — أن عملية اللوضعة هي أساس الحياة الاجتماعية للبشر وشرطها — سواء أكان ذلك بمعنى أنها تسد حاجاتهم المختلفة أم بمعنى أنها تسمح لهم بالاتصال فيما بينهم ، أى بالتعايش .

لم تصبح فكرة التخریب قابلة للفهم إلا ابتداء من اللحظة التي أمكن الكلام فيها عن معنى « اللوضعة » باعتبارها عملية وأيضاً باعتبارها مجموعاً لطاقة حيوية وأفعال ومنتجات خاصة بالنشاط البشري .

وهنا أيضاً ستكون نقطة البدء لملاحظة الظواهر التجريبية في ميدان الحياة

الاجتماعية البشر . وهكذا نجد لدينا إذن منتجات مختلفة للنشاط البشرى . وهى من صنع الأفراد ، لأن الأفراد الأحياء المشخصون هم وحدهم الذين يوجدون بيولوجيا . ولكن بالرغم من أن الإنسان يوجد ك فرد بيولوجى مشخص ، فإنه دائماً فرد اجتماعى ، وذلك لأنه ( جنائياً وعقليا ) نتاج مجتمع معين ولأنه لا يستطيع الحياة والبقاء إلا فى مجتمع وإلا مشتبكا فى علاقاته ودولانية<sup>(١)</sup> عمله . وضروب النشاط البشرى الاجتماعية هى الأخرى بهذا المعنى المزدوج ، مثلها فى ذلك مثل منتجات الإنسان التى تعمل هى أيضا بصورة اجتماعية . ويمكن لدولانية هذا العمل أن تختلف تبعا للعلاقات الاجتماعية التى تحكمها . وبالرغم من أن الإنسان يخلق سلما مادية وروحية بقصد أن تعيب على بعض حاجات غيره من البشر ولهذا الغاية فإن ملاحظة الحياة الاجتماعية تبرهن على أن منتجات النشاط البشرى تشرع تحت ظروف اجتماعية معينة ليس فقط فى أن تعمل بصورة قائمة بنفسها ، أعنى مستقلة عن إرادة خالقها ومقاصدهم ، بل أيضا ضد إرادة خالقها ومقاصدهم فتتفوق مقاصد أصحابها وتهديم هذه الصورة أو تلك وهذا بالذات هو ما نسميه بالتغريب . وهكذا ليس التغريب إذن إلا عملية سير منتجات البشرية للمادية والروحية ، بفضل علاقات اجتماعية قائمة ، على نحو مستقل عن إرادة أصحابها ومقاصدهم بصورة 'تلقائية' ، وبذلك تمر قل مقاصد البشر وتهدد وجودهم بصورة أو بأخرى ، فليس ما نسميه بالتغريب إذن إلا سيرا معينا لأعمال الإنسان تحت ظروف اجتماعية معينة ، سيرا تخرج دولايته عن رقابة الفرد بل والمجتمعات وبصورة تهدد مقاصدهم بل ووجودهم . وخير مثال يوضح لنا ذلك مثال الساحر البتدى<sup>٢</sup> الذى أطلق بعض القوى ثم أصبح عاجزا عن السيطرة عليها .

يمكننا إذن أن نحتم تحقيقنا عن العلاقات التبادلية بين الوضعة والتغريب .  
والنتيجة النهائية هى الآتية :

(١) ترجمة لكلمة *mécanisme*

الموضعة ظاهرة ضرورية لعملية حياة البشر ؟ فبدون اللوضعة للفهمومة على هذا النحو لا يستطيع البشر أن يوجدوا (لأن الإنتاج للادى والروحى ليس إلا شكلا من أشكال اللوضعة) ، ولا أن يتعايشوا (ولو لم يكن ذلك إلا بسبب مسألة اتصالهم فيما بينهم) .

أما التفریب فإنه ليس بظاهرة ضرورية لعملية الحياة البشرية (فليست جميع منتجات الحياة البشرية مغربة بالرغم من أنها تستحوذ دائماً على وجود موضوعى) ولكنه من الأمور الممكنة حسب . وهذا يتوقف على سير المنتجات الإنسانية للموضعة . وفى بعض الظروف تصير الموضعة « تفریباً » وفى بعضها الآخر لا تراها تحمل أية صمة للتفریب (أو أنها تفقدها حين تتغير الظروف بطريقة معينة) . والنتيجة العامة التى يمكننا استخلاصها من ذلك (وهى فى غاية الأهمية بالنسبة لبقية تحقيقنا) هى أن عمليات التفریب من عمل مجموع العلاقات الاجتماعية ، وأنه يمكن لها — تبعاً لتركيب المجموع — أن تظهر أو أن تختفى . ولسنا فى حاجة إلى تأكيد مدى أهمية هذه الملاحظة بالنسبة لجميع ضروب النشاط الاجتماعى الذى ينحصر هدفه فى تكوين العلاقات الإنسانية بصورة شعورية .

٢ — يجب علينا من أجل أن نفهم معنى الفكرة التجريدية « التفریب » أن نلجأ إلى بعض الأمثلة التى يشتر مصطلح « التفریب » بالنسبة لها مصطلحاً مناسباً لتسمية عمل المنتجات البشرية فيها بطريقة معينة .

ولنبداً بتفریب المنتجات المادية للإنسان .

ولنأخذ السوق الرأسمالية التى اجتذبت انتباه ماركس بصورة خاصة . ففي هذه السوق تداول السلع ، وهى ذات قيمة وسعر محددین على أساسهما يجرى تبادلها والسلع بملکات مادية (أعمال للإنسان) ينبغى أن تفيد فى سد بعض الحاجات المادية للبشر . ولكن لما كان المجتمع الرأسمالى تسوده علاقات اجتماعية محددة تقوم على

علاقات الملكية ، وكان طابع العمل الإنساني فيه يشير بصيرورته سلبية ، فلم تعد وظيفته التي كانت تنحصر في إشباع حاجات البشر أمراً حاسماً ، وإنما تتطلب على ذلك وظيفته التبادلية صانعة رأس المال . فإنتاج الإنسان في دولاية السوق الرأسمالية لا يعمل فقط بطريقة قائمة بذاتها مستقلة عن إرادة خالقه ومقاصده ( سلم الأعمار ، والفصل بين السلع المقصود بها إشباع الحاجات البشرية بين البشر الراغبين في إشباع هذه الحاجات ، ذلك النصل الذي يعتبر من أمثله القصوى إهلاك المنتجات الغذائية في حين أن البشر جوع ... الخ ) . ولكنه أيضاً يعمل ضد أهدافه ومقاصده مهدداً وجوده المادي ( البطالة ، أزمة زيادة الإنتاج ) . فهذا مثل تقليدي لما يراد بمصطلح تغريب المنتجات المادية للإنسان .

ولكن مجال التغريب لا يقتصر على ميدان المنتجات المادية . والمثال التقليدي للتغريب في ميدان الأفعال الروحية هو الدين — ومن ثم اهتم به ماركس الشاب ومعاصره .

إذا طرحنا الوجدان الأسطوري القائل بأن الله خلق الإنسان على صورته ، وجب علينا أن نسلم بدعوى لودفيج فويرباخ Ludwig Feuerbach باعتبارها الدعوى المنطقية الوحيدة ، وهي أن الإنسان يخلق الآلهة على صورته ، وذلك ما يمكن بيانه بسهولة على أساس الدراسات المقارنة في ميدان علوم الأديان . الإنسان يخلق الدين . وإذا أدخلنا في حسابنا الاختلاف بين الأمور المادية والأشياء المعنوية فإن الموقف هنا مماثل في هذا الصدد للتقلبات التي تصادفه باعتباره خالقاً للسلع . والواقع أن منتجات خياله الموضوعة تأخذ — تحت ظروف اجتماعية معينة — في ممارسة وجود ليس فقط مستقلة عنه بل يذهب إلى حد تهديد وجوده : فتولد الاضطهاد ومحاكم التفتيش والموت حرقاً . ولا يحتاج المرء لكاء خارق لكي يرى امتداد هذه السألة حيناً يحدث في ظروف معينة أن يأخذ مذهب من المذاهب طابع الدين بكل ما يحمل

ذلك من أخطار ضد حرية الإنسان وسعاده . يقول دوركايم Durkheim « إن أى مذهب يقوم مقام دين إذا استطاع أن يجعل إحدى الجماعات متجانسة على أساس من المقيده ، وليس على أساس من ضروب الإقتناع القابل للإثبات علمياً » ، وهو على حق . وقد كان ماركس ومصاصروه على حق هم الآخرون ، حين بدءوا في كفاحهم من أجل الإنسانية بمهاجمة التفریب الدينى . . وذلك لأنه ما دام المرء يتمسك بقدرية المصائر البشرية وأنها تتكون بفعل عوامل غير بشرية وفوق بشرية ، مادام المرء لم يسلم بفكرة القيام بالقات للمصائر البشرية ، ذلك الطابع الذى يقول بأنها تتكون بفعل البشر ومن أجل البشر ، إذا ظل ذلك كذلك ، فإنه لا يمكن تحقيق خط فلسفة إنسانية بصورة ناجحة .

ولنتقل الآن إلى الحاضر لنأخذ منه مثلاً صارخاً : وهو اكتشاف البقيرة البشرية لتعجير القدرة والمخ الآلى . فلا شك فى أن هذا ميدان ناتج من خلق العقل وأنه يمين بداية عصر جديد فى تطور البشرية ، عصر يفوق فى احتمالاته المستقبلية النتائج الاجتماعية لما عيناه بالثورة الصناعية . ها هى ذى إذن اكتشافات يمكن لها أن تحقق وجود الفردوس الأرضى الذى تتكلم عنه الأساطير ، ولكنها قد تصل ، فى ظروف اجتماعية معينة إلى تهديد البشرية بالتدمير التام . فأماننا هنا مثل تفكيرى للتفریب : التهديد معروف للجميع فى يومنا هذا ؛ وليس هناك من إنسان يرغب فى أن يدمر شخصياً أو اجتماعياً ، ومن ثم فمن حقنا أن نفترض منطقياً أن الجميع يريدون أن يتجنبوا هذا التدمير ، ومع ذلك فإننا نسارع نحو الهاوية بقدم ثابتة . وهكذا لم يحدث للإنسانية فى يوم من الأيام أن وجدت نفسها بصورة واضحة مؤتسة إلى هذا الحد فى موقف ذلك الساحر المبتدى . وهذا بالقوات ما أسميه بوقف التفریب . والاسم لا يهمنى كثيراً (والحقيقة أننى لم أجد خيراً منه ، كما هى الحال فى المصطلحات التقليدية) ولكن الأمر يتعلق بمواقف اجتماعية موضوعية يجب أن نراها وأن نعرفها لئلى نستطيع ضمان النجاح للأعمال الاجتماعية الموجهة لمخاربتها .

بهذا المعنى يتضمن مصطلح التغريب وظيفة معنوية جد شاملة . فالواقع أن التغريب يعنى جميع العمليات الاجتماعية التى تعمل فيها منتجات الإنسان - المادية والروحية - فى دولاية اجتماعية تبينها علاقات اجتماعية محددة ، وتعمل بطريقة ليست مستقلة عن الإنسان فحسب، بل مضادة للأهداف الاجتماعية التى حددها لنفسه ومهددة أيضاً فى بعض الأحيان لوجوده الاجتماعى .

إذا كان مضمون التغريب على هذا النحو مضمونا واسماً ، فإنه مع ذلك محدد بدرجة كافية لمنع الخلط بين التغريب وأية موضعة أخرى ، وبينه وبين ما يسمى بالداء الاجتماعى .

وإذا كان قانون للورور مثلاً يسرى مستقلاً عن إرادة الأفراد الذين يلزمهم بعبور الشارع بطريقة منظمة ، فليس ذلك تغريباً لهذا السبب ، كذلك ليس من التغريب مثلاً نظام للوازين واللكيل للسلم به اجتماعياً ، أو اتجاه للورور فى الطرق . . الخ ، وذلك لأنه ليس هناك معارضة لأهداف البشر الاجتماعية ، بل على العكس من ذلك ، فى كل حالة من هذه الحالات يطلق الأمر باتفاق اجتماعى يحقق هذا النوع من الأهداف، كما ليس هناك - من باب أولى - خطر يهدد وجودهم .

وكذلك الحال حين يحاول اللره خلط التغريب بالداء الاجتماعى . فإذا كان صحيحاً أن التغريب داء اجتماعى ( بالمعنى الدقيق لمصطلح « داء اجتماعى » ) فليس صحيحاً أن كل داء اجتماعى تغريب . ولندكر من ذلك ، مثلاً ، الأوبئة وحالات الانتحار التى يسببها حب قاتل . . الخ . . فالأمر يتعلق هنا بملاقة جزء بكل لا بملاقة تعادل .

( ٣ ) هناك مسألة خاصة من مسائل التغريب تتطلب علاجاً على حدة ، وهى مسألة

ما يسمى بالتغريب الدائى ، فهناك نوع أدبى معين مستوحى من الوجودية يخلط بين التغريب والتغريب الدائى . وهذا خطأ جسيم يتطلب الإيضاح .

« التغريب » يصف العملية التى بها تصير منتجات الإنسان غريبة بالنسبة إليه ، أعنى أنها تعمل مستقلة عن الإنسان ورغم إرادته ومقاصده ، فهنا منتجات الإنسان هى التى تكون فى وضع « تغريب » وليس الإنسان نفسه . وإذن فإننا إذا تكلمنا عن تغريب الإنسان ، أخذ هذا المصطلح معنى خاصاً . فيجب علينا إذن أن نذكر التغريب الدائى لكى يدل على الاختلاف بين الحالىين . ونرى للوقف والعلاقات التى تخصها تلك التسمية الكتابات التى تعالج هذا الموضوع .

فى هذا الصدد ترتبط ضروب الخدس الأكثر قدماً بتحليل التغريب الدينى من الناحية الذهنية . والواقع أن دولاية هذا التغريب تنحصر فى أن الإنسان يخلع بعض خصائصه الشخصية فى صورة مطلقة على كائن فوق بشرى من صنعه هو . وبهذه الطريقة تصبح صفات كالخير والعرفه والحب . . . الخ . ( بعد أن ترفع إلى اللطوق ) خصائص الإله ، ولكن هذا الأمر نفسه يؤدى إلى حرمان الإنسان منها إذا قورن بالتفويض الكامل الذى خلقه هو نفسه . فهنا التغريب مزدوج ، أولاً لأن الخصائص الإنسانية انتزعت من الإنسان ، وباعتبارها « مغربة » تصبح جزءاً لا يتجزأ من إنتاج العقل البشرى ، ومنذ ذلك الحين تعمل بصورة مستقلة . وثانياً لأن الإنسان يفرق نفسه من هذه الصفات نفسها التى قلها خارجه . يمكن لهذا التصور الذى ندين به لتوريباخ أن يعتبر أول شكل اتخذته فكرة التغريب الدائى .

ولكن هناك أيضاً تفسير أبسط من ذلك بكثير . فالتغريب اسم يطلق على العملية التى فى أثناءها تصير منتجات الإنسان فى علاقة معينة بالنسبة لحائتها . وكذلك



يمكن لهذه العلاقة أن تظهر بين طاقات الإنسان واستعداداته ، وبعبارة أخرى بين شخصيته باعتبارها مجموع طاقاته واستعداداته . . . الخ وبين الفرد البشرى باعتباره «حامل» لها ، ويدود ذلك حيناً يحدث للإنسان وشخصيته ، بمد وضعه في مجال الاقتصاد التجارى ، أن يصيرا سلعة هما الآخران ويخضمان لقوانين الاقتصاد التجارى وتقديراته . وهذا هو الفرق بين العمل وبين الخلق الحر ، بين واقع أن يكسب للراء عيشه وبين أن يعمل ليحيا على حاجات البشر ، الخ. وهذا يحمل أسماء مختلفة في الحياة وفي الأدب : تجارة الثقافة ، تحويل المواقف والخلق الثقافى والعمل إلى سلع . . . الخ . وتعمد الكتابات حول هذا الموضوع — بما فيها البيان الشيوعى — إلى نقد هذا الموقف الذى فيه يعرض للبيع كل ما يملك الإنسان بما يحمله وكيف نفسه بمطالب للشرى ، وكيف عن أن يكون هو نفسه . وهو فى هذا السبيل يخرّب نفسه . ومن المعانى التى يتضمنها الليل الأملى للماركسى « للإنسان الكلى » إيجاد ظروف تسمح للإنسان بالعمل وفقاً لحاجاته وأذواقه ، أى أن يخلق لأن يشتغل . ( وهذا السياق يمكننا من فهم السبب الذى من أجله يعتبر ماركس أن العمل تغريب ، « نشاط غير إنسانى » ، ذلك فى حين أنه لا يعتبر النشاط الخالق ضرورياً للإنسان فحسب ، بل أيضاً من خصائصه .

نستطيع فى ضوء هذه المناقشة أن نحسن أيضاً فهم الفرق — ذلك الفرق الذى يعتبر من خصائص هيجل ولكنه يلعب دوراً كبيراً لدى ماركس فى شبابه — بين الإنسان الحقيقى والإنسان كما هو فى الواقع . فالإنسان الواقعى — كما هو عليه الآن — يحمل علامات تفرؤية بالنسبة لكافة النوعى . فى حين أن الإنسان « الحقيقى » يخلو من ذلك . ولكن الإنسان الحقيقى مثل أعلى ، نموذج .

لقد تكلمنا حتى الآن في مسألة التهرب الدائى من زاوية العلاقة للمبر عنها  
بـ « الإنسان - شخصية الإنسان » ولكن هذا المصطلح يتضمن معنى آخر يتكرر  
وروده بوجه عام فى المناقشات التى تدور حول التهرب . . . ونفى « تهرب »  
الإنسان باعتباره فرداً بالنسبة إلى المجتمع ، وإليه يرجع عدم الالتزام فى  
شئون المجتمع .

إذا نظرنا إلى مؤلفات ( فلسفة اليأس ) ، سواء أكانت فلسفية أم أدبية ، وجدناها  
خسبة ومتنوعة بما تتضمن من موضوعات عن المزلة ، وعن الإنسان الضائع وسط  
الجمهير ، إذ أنها لا ترى معنى الحياة ( باعتباره هدفاً يحده المرء للحياة ) . الخ .

هناك فى هذا المجال كثير من التكلف المظهرى والاضمحلال . ويعمل لهذه  
المؤلفات أن تهافت على التحليل النفسى لأفراد مرضى . ويستطيع المرء أن يرى  
فيها تلك الفكرة الرجعية ، فكرة الصفوة . ولكن يوجد فيها تعالجه مسألة  
واقعية لا يصح لنا أن ننسى النظر عنها ، لأنها تعمل بظواهر اجتماعية جديدة  
وسلبية يناسب أن يطلق عليها مصطلح التهرب الدائى كل المناسبة .

المجتمع المصنع تصنعاً شاملاً يمر معه من جهة خلق مجتمعات مدنية ضخمة بكل  
ما نعمله من إيجابى وسلبى فيما يسمى بمجتمع الجملة . كما أنه من جهة أخرى يستمتع  
تفكك الروابط التقليدية من فصائل متنوعة ، ابتداء من الروابط العائلية ومعرباً  
على الروابط انسانية وروابط الجوار والعقيدة . الخ ، أعنى التى تحدد تقليدياً وطبيعياً  
مشاركة الفرد فى المجتمع ، فمن شأن المدينة الكبيرة ، وبالتالى من شأن ثقافة مجتمع  
الجملة أن يحطم الروابط التقليدية . ولكنها تخلق روابط جديدة أقوى من الأولى  
من وجهات عديدة : النقابات والنوادي الرياضية والجمعيات الثقافية والأحزاب  
والجمعيات السياسية والروابط التى تخلفها ثقافة الجملة التى تنشرها الصحافة والراديو  
والتلفزيون . . . الخ . فالإنسان كفرد وضع فى هذا المركب الهائل ، يرتبط بالمجتمع

بعدد من الروابط أكبر بكثير من روابط الماضي ، بروابط أقوى سواء فيما يتعلق بتكييف شخصيته وتكوينها أو فيما يتعلق بانتمائه العضوى فى مجموع البنية الاجتماعية واستعالة حياته معزولا خارج هذه البنية ومستقلا عنها . فهناك إذن عملية إدماج وتركيب واضحة من جانب المجتمع تعين اندماج الفرد فى المجتمع بصورة أوثق ، على الأقل من بعض الجهات . وهذا لا يتعارض بأية حال مع التفكك الناجم فى نفس الوقت فى البنية الاجتماعية والذى يؤدى إلى التفرق الدائى بالمعنى الذى يهناها أبو جحاص .

المؤلفات ، والمؤلفات الجيدة تنتشر وتشمل أكثر من عشرات من البحوث العلمية . لإيضاح ما نقوله يكفى أن نشير إلى قصة شتاينبك Steinbeck « غناب النضب » ، وفيها يصف المؤلف بصورة موحية بشكل غريب كيف أن اشتراك البشر فى مصيرهم يجعلهم فى مجرتهم نحو الترب يجمعون فى جماعات غير محددة يستطيع كل منهم فى أحضانها أن يعول على مساعدة الآخرين إياه ومساعدته إياهم .

لقد أضف المجتمع المسمى بمجتمع الجمل هذا العامل بطبيعة الحال . فالإنسان غبارة فى هذا المجتمع الذى تستعمل عليه الحياة بدونه . إنه يتوقف عليه من نواح عديدة . ولكنه ذرة يستطيع المجتمع أن يستغنى عنها بكل سهولة . وهنا يكمن الاختلاف العظيم . وهذه الرابطة العضوية والقوية إلى أقصى حد من ناحية ، ضعيفة جداً من ناحية أخرى . وهذا هو السبب فى أن المرء لا يستطيع أن يعول على مساعدة الآخرين إياه وتضامنهم معه ( باستثناء اتحادات خاصة كالجماعات الثورية ، ولكن ذلك ليس من خواص المجتمع فى مجموعه ) . وهذا هو السبب فى أنه من السهل على المرء أن يكون له علاقات ، ولكن من الصعب أن يكون له أسدقاء ( وهذا ما هو واضح جداً فى المجتمع الأمريكى ) . ولما كان هذا من تأثير القواعد الشديدة العمق التى تحكم المجتمع المصنع تصنيعاً عالياً — فى النظام الرأسمالى على الأقل — فإن المرء لا يكون موضوع التفكك فحسب ، بل وخالفه أيضاً ، وبعبارة أخرى يفقد المرء

الرغبة في الالتزام بالمسائل الاجتماعية ويحصر نفسه أكثر فأكثر في دائرة مصالحه الخاصة الضيقة . هذا على أية حال هو الميل الرئيسى . وليس معنى ذلك بطبيعة الحال أن كل ميل للمشاركة في الحياة الاجتماعية ينعدم انعداماً تاماً في المجتمعات المصنعة تصنعاً عالياً ، فهو يوجد في الجماعات التي تحدد لنفسها أهدافاً نوعية أو ثورية أو دينية ، ولكن هذه استثناءات لا تغير الميل العام . وتظهر هذه المشاركة بشكل عام على مستوى المجتمع كله حينما يتعلق الأمر بالدفاع عن قضايا قومية . ومع ذلك فإنه حتى في هذه الحالات لا ينهزم الميل إلى التفكك . ولكن فقط يتوصل إلى التغلب على الميول المتناقضة في داخل مجتمع واحد بعينه . ولكن تبقى مسألة التغريب الدائى على حلها بالرغم من ذلك .

هذه هي « النواة العقلية » لفلسفة عزلة الفرد الضائع وسط الجمهور . . الخ ، وهي ذات وجهين: أولهما أن الأمر يتعلق بتفكك معين لمجتمع الفرد فيه شيء غريب عنه ، وفي مقابلة ذلك يعتبر المجتمع شيئاً غريباً أيضاً بالنسبة للفرد ولا يتطلب منه أى التزام على الأقل من الناحية الاتقالية . وثانيهما أن المرء يجد أنه قد ظهرت أمامه فردية عنيفة قريبة من الفوضى لدى الأفراد المتفككين على هذا النحو ، وفي هذا الوقت يظهر نوع من انتشار الرتابة ، ولا سيما في الحياة الروحية لدى الأفراد المنغمسين في مجتمع الجملة وثقافة الجملة يهدد بتحطيم الشخصية ويذكرنا بتلك الصورة الحزينة التي تثيرها القصص الوهمية كفضى زمياتين Zamiatine وهكسلى Huxley وأورول Orwell وغيرهم .

هذا المجموع العقد من الوسائل التي يجدر بنا دراستها بدقة أكثر من أن نرفضها بدافع الشعور الوقائى يعتبر من إخص خصائص التغريب الدائى .

إذن يرتب بكل وضوح على ما تقدم قوله ، أنه لا يصح الخلط بين غموض التغريب وغموض التغريب الدائى ، وإن أولئك الذين يميلون إلى إرجاع مسألة التغريب بكل بساطة إلى مسألة الإنسان الغريب بالنسبة للمجتمع لا يفهمون المسألة بكل بساطة أيضاً ، وعلى أية حال لا يفهمونها كما تتمثل في سياق التقليد المركسى . ومن جهة

أخرى يقيّن أيضاً أن مسألة التّغرب الدّائى تحمّل وجهين على الأقل وأن تفسيره الجارى والمبسّط ينطوى على خطأ يزيد من اختلاط الصورة المقّدة من ذات نفسها صورة مشكلة اجتماعية راهنة على أكبر جانب من الأهمية .

٤ — إذا كنا نتكلّم عن « التّغرب » فهل نحن تفكّر فى الحالات الداخلية للأفراد الذين يحسون أنهم « معزولون » ، « ضائعون » ، « محرومون من معنى الحياة » . . إلخ — أم تفكّر فى بعض العمليات الموضوعية التى تؤثّر فى الوضع الاجتماعى والكمال الاجتماعى للأفراد ؟

يتبين من مناقشاتنا السابقة أن السؤال لنوى بالأحرى .. ومع ذلك فإنّ الدين يوجّهونه على حق ، لأنّ للمشكلة ليست واضحة بأية حال إذا وقفنا لدى اللّؤلعات الجارية حول هذا اللّوضوع .

التّغرب هو الاسم الذى يطلق على عمليات معينة موضوعية يصبح لمتجات الإنسان فيها علاقات معينة بصاحبها . فإذا وجه السؤال من هذه الزاوية أصبح خالياً من المعنى . ولكنه يصبح ذا قيمة فى حالة التّغرب الدّائى .

فى هذه الحالة ، « التّغرب الدّائى » ، فى مفهومنا ، هو الاسم الذى يطلق على بعض عمليات موضوعية تجعل الفرد يجد نفسه فى موقف معين حيناً يملق الأمر باستعداده تجاه شخصيته الخاصة ، باستعداده تجاه البشر الآخرين وتجاه المجتمع . وتتمكّن هذه العمليات بصورة واضحة فى وجدان الأشخاص الذين يحسون أنهم معزولون ضائعون دون هدف ... إلخ . ولكن ما يحومونه ليس إلا ظاهرة ثانوية بالنسبة للعمليات الموضوعية التى هى أصل له ، وبعبارة أخرى ليس الإنسان مغرباً بمعنى التّغرب الدّائى لأنّه يحس بأنّه كذلك، بل الأمر على العكس من ذلك، إذ أنّه يشعر بأشياء معينة لأنّه يوجد فى موقف موضوعى يدعى بالتّغرب الدّائى . ولكى نعرف

هذا الموقف يمكننا أن نأخذ باقتراح البعض كالاستاذ س. زلكيفسكى Zolkiewsky  
فستستخدم لغة نظرية البنائية Structuralisme وذلك بأن نحمله تبعاً لبنية العلاقات  
الاجتماعية (التي يمكننا إذن أن تكرر) ، تلك العلاقات التي تحدد الوجود الفردي  
للإنسان . ولكن يمكننا أيضاً أن نعرفه بطريقة أخرى، بأن نستعمل مثلاً اللغة  
التقليدية للنظرية الاجتماعية التاريخية للركسية . وأنا شخصياً أعتقد أن هذا الحل  
أفضل ، لأنى أخشى أن يكون تطبيق نظرية البنائية وطريقتها الذى ذاع انتشاره  
إلى حد الإسراف قائماً على غير أساس ، وأنه يرجع بالأحرى إلى نزوة عابرة أكثر  
من أن يرجع إلى حاجات البحث الحقيقية (كما هى الحال حين حدث خلال العقد السادس  
من هذا القرن أن انتشرت تحت تأثير «الوضعية» الحديثة نزوة استخدام اللغة  
الشككية ، وهذا بالرغم من أن تطبيق هذه النظرية قد أدى إلى نتائج واسعة  
وبرهن على جدواه — ولكن فى بحوث علم اللغة وحده — ومع ذلك فإن هذه  
مسألة بسيطة تتطلب التحقيق فى البحث عن طريق للممارسة . وهذا لا يغير من  
جوهر المسألة التي طرحناها فى شيء ، ونسئ مسألة الطابع للوضعية للتغريب .

وهكذا قد اتهمنا من تفسيرنا — السطحي على الأقل — للأفكار التي تهمننا  
والتي لابد لها أن تنفتح فى متابعة بحثنا . وهنا سؤال يفرض نفسه علينا ، وهو : هل  
تنطوى هذه البحوث على قيمة عملية أيا كانت ؟ أو بعبارة أخرى، هل يمكن لبحث  
التغريب الذى يدور حوله اليوم نزاع كبير ألت يكون مفيداً للعمل الاجتماعى ؟ وإذا  
كان الجواب إيجابياً ، ففي أى أمر يستطيع أن يفيدنا ؟

جوابى على هذا السؤال بالإيجاب ، فأرى أن هناك أربعة ميادين على الأقل تصلح  
أن تستخلص من مبحث التغريب الجوانب العملية للاستفاد بها .

(١) لنبدأ بقم التصنيف والمعرفة التي تنطوى عليها .

تحقيقاً إن هناك نظرية عامة و كلية للتغريب تسمح لنا بتصنيف المواقف الاجتماعية

للعطاء لنا والتي تنطوى على خصائص تتفق وتلك التي تعرفنا عليها في مواقف التعريب في مجموعها . ومن شأن ذلك أن يسهل لنا وظيفة المعرفة والتشخيص إذا كان الأمر يتعلق بعدل اجتماعي محتمل .

( ب ) ما يهمننا بالذات من الناحية العملية إنما هي الوظيفة التي نسمع جممل التشخيص .

نحن نعرف ، تبعاً لنظرية التعريب العامة ، أن إنتاج اللوحة يأخذ الصفات الخاصة بعمليات التعريب فقط في اللحظة التي تساعد فيها العلاقات الاجتماعية على ذلك والنتيجة البسيطة جداً التي سبق أن استخلصناها من ذلك فيما تقدم هي أن بعض العلاقات الاجتماعية تسمح بالتغلب على التعريب . وحينما نتحقق خصائص التعريب تأخذ منتجات الإنسان ، مادية كانت أم روحية ، في العمل وفقاً لإرادة منتجها ومقاصده ويكف عملها عن أن يكون تلقائياً .

وهذه بعض الأمثلة :

في السوق الرأسمالية تحمل السلعة كل سمات الإنتاج الإنساني التعريب . وذلك لأنها تعمل في ظروف معينة للرأسمالية تقوم على علاقات الملكية ، فينبغي إذن تغيير العلاقات الاجتماعية التي تؤدي إلى هذا التعريب ، وفي المقام الأول علاقات الملكية . وذلك من أجل التغلب على التعريب الذي لا ينطوي على عدم التخطيط في الإنتاج وعلى الأزمات فحسب بل ينطوي أيضاً ، وبالتالي ، على البطالة والجوع والبؤس وكذلك على خطر الحروب الإمبريالية التي تهدد وجود البشر بطريقة مباشرة . وقد كانت هذه إحدى أفكار ماركس الأساسية التي قامت نتائجها العملية بتحديد خط التطور في عصرنا كله .

وكذلك الحال حينما يتعلق الأمر بالدولة باعتبارها تنظيمًا للقسر المادي ، باعتبارها « جماعات من البشر المسلحين » كما قال لينين ، وبالنظم التي من قبيل الجيش

والشرطة والمحاكم والسجون . إنه تغريب يتوقف أصله واستكلاله ، في نظرة الأيديولوجية الماركسية للمستقبل ، على علاقات اجتماعية معينة ، على انقسام المجتمع إلى طبقات متخاصمة بسبب نظام الملكية الخاصة . والنتيجة أننا إذا أردنا فهم التغريب ، وبالتالي نشر الديمقراطية الاجتماعية ، فإنه يجب علينا أن نغير العلاقات الاجتماعية التي تؤدي إلى التغريب ، أعني انقسام المجتمع إلى طبقات متخاصمة ، ذلك الذي يفرض مقبدا استبعاد نظام الملكية الخاصة بوسائل الإنتاج المسيية للطبقات .

مثال آخر من رصيد للسائل الماركسية التقليدي : التغريب الديني . ولا حاجة بنا إلى وصفه ، فإنه أكثر من واضح ، فيمكننا إذن أن ننتقل مباشرة إلى النتيجة العملية . ويجب من أجل القضاء عليه أن نغير العلاقات الاجتماعية ، وفي المقام الأول في ميدان الثقافة والتربية والتأليم على أية حال . هذا مايجب للتغلب على هذا التغريب باعتباره ظاهرة جملة ، لأن الأمر يتعلق هنا بظاهرة سيكولوجية في غاية التعقيد بحيث لايمكننا أن نرجعها إلى العلاقات الاجتماعية وحدها وأن نقرض أن مجرد تغير هذه العلاقات يؤدي إلى اختفاء العقائد الدينية كليا ونهايياً .

يمكننا أن نعم معنى هذه الأمثلة من وجهة النظر التي تهمننا ، وكل تغريب يمكن التغلب عليه (بطبيعة الحال من خلال عملية تطول إن قليلا وإن كثيراً) ، إذا عرفنا ما يسيبه اجتماعياً وعدلنا ، بصورة مناسبة ، العلاقات الإنسانية التي تدفعه للعمل .

(ج) هذه الحقيقة لا تبرز لنا فقط القيمة العملية لنظرية التغريب بل إنها في الوقت نفسه تبرز لنا قدرته على التعبئة حينما يتعاق الأمر بالعمل الاجتماعي الذي هو أحد العناصر التي يقوم عليها طابع التناول (وقد يقول خصوم ماركس : طابع الوهم وآلاف السينين) لفلسفة ماركس الإنسانية . وذلك لأننا إذا لاحظنا أن التغريب داء اجتماعي (وهاتان فكرتان غير متساويتين كما سبق أن قلنا فليس كل



داء اجتماعي تفريراً بالضرورة) فإننا نلاحظ أن الإنسان الذى يسلك سلوكاً اجتماعياً ، قادر على قهر دائه . وهذه حقيقة جديدة بالنسبة من أجل العمل الاجتماعى ، وبالتالى متناقضة ، وهى كذلك على أية حال إذا قارناها بـميتافيزيقى الشر فى بعض فروع الفلسفة الوجودية ، كوجودية سارتر مثلاً تلك التى تنادى بالانتصار المحتوم للشر مهما استطاع البشر أن يفعلوا .

ويمكننا أن تصور مدى هذه القوة التبعيية إذا أدخلنا فى حسابنا أن مشكلة التغريب مشكلة دأمة مهما كان النظام الاجتماعى ، إذ يكفى وجود علاقات اجتماعية معينة لكى تشجع للوضعة فى العمل باعتبارها تفريراً .

هل يوجد قانون نافذ بصورة دأمة ؟ هل نعرف ما هى العلاقات الاجتماعية التى تساعد على عمليات التغريب ؟ فى رأى أنه لا توجد قوانين صالحة لكل الأحوال والظروف ، وفى هذه الحال لا توجد وصفة عامة لاعتراض سبيل الظاهرة .

يؤدى بنا هذا على الأقل إلى نتيجتين عمليتين هامتين : أولاً أن الكفاح ضد التغريب عملية لانهائية لها ، هدفها الدائم القضاء على تغريب محدد ، لاعلى التغريب بوجه عام ، وإلا كان ذلك نوطاً من الوهم Utopie وليس هذا العمل محمداً تحمداً دقيقاً فحسب ، بل إن نطاقه الاجتماعى بعيد للذى . فهو يتجه إلى توسيع معرفتنا بالعالم بالرغم من أننا نعلم علم اليقين أن الأمر يتلوق بعملية لانهائية لها كما لو كانت متوالية رياضية تتجه نحو حد. ومع ذلك فإن كل خطوة من خطى هذه العملية تتلوى على أهمية عملية كبيرة بالنسبة للبشرية ، حتى مع معرفتنا أنها عملية لانهائية ، وذلك على نحو ما هو مهم أن نعالج مرضاً معيناً مع أنه يمكننا أن نتعرض بحق بأن الجسم البشرى سيصاب فى المستقبل بأمراض أخرى .

ثانيتها أن هذه النتيجة ذات أهمية تصوى حيناً تنتقل إلى مشكلة التغريب فى النظام الاشتراكى ، فإذا كان لا يوجد قانون عام لنشوء التغريب ، فإنه يمكننا ألا

نستبعد مقدماً إمكانية أن تظهر في المستقبل مواقف وعلاقات اجتماعية غير معروفة لنا حتى ذلك الحين وفي وسعها أن تولد صوراً جديدة من التعريب، ويبقى هناك شيء لنقوم بعمله ، وهو أن نسلم كيف نعرف أهم علاقة موجودة بين للوضعة والتعريب ، والطابع الضار اجتماعياً لهذا الأخير، وأن نكون على بينة من أن الأمر يتعلق بظاهرة اجتماعية يمكننا التغلب عليها إذا عرفنا العلاقات الاجتماعية التي تبعها وغيرها بطريقة مناسبة . وليس هذا الذي نقوله دواء شافياً، ولكنه بكل تأكيد توجيه قيم من أجل العمل الاجتماعي . فالواقع أنه يسمح لنا ليس فقط بالكلام على القدرة العملية التي ينطوي عليها التعريب ، ولكن أيضاً بإدخاله في قاموس وسائل العمل إذا زدونا فكرة « العمل الجيد » بمعنى واسع بدرجة كافية .

٦ — هذا الذي تقدم يقودنا إلى مشكلة التعريب في النظام الاشتراكي . إذا كانت الوضعة تتحول إلى تعريب تحت علاقات اجتماعية معينة ، فإن هناك سؤالاً يفرض نفسه علينا ، وهو : هل الاشتراكية باعتبارها تكوننا اجتماعياً تمنح هي الأخرى لهذه القاعدة ؟ إن تلك المشكلة من الموضوع بحيث يبدو سؤالنا هذا تافهاً عديم الجدوى لولا الإيماءات التي تستخلص من بعض مؤلفات ماركس في شبابه . فكان ماركس في هذه الفترة يعتبر أن استبعاد التعريب الاقتصادي يؤدي بصورة آلية إلى القضاء على جميع أشكال التعريب . وفي وسعنا أن نفسر هذه الظاهرة تفسيراً محدوداً ونسلم بأن ماركس كان يفكر فقط في التعريب الخاص بنظام الملكية الخاصة الذي ينبغي أن يكتفى باختفائها ، أو أن نسلم بأن حكم ماركس على التعريب كان عاماً ، وحينئذ نترف بكل بساطة بأنه أخطأ . هذا إلى أننا إذا تأملنا المؤلفات التي كتبها في سن النضوج ، رأينا من حقنا أن نشك فيها إذا كان قد تمسك ببعض أفكار مؤلفات الشباب في هذا الصدد ، تلك المؤلفات التي كانت ذات طابع خيالي .

إذا تكلمنا عن التعريب في الاشتراكية ، وجب علينا أن نتبع ماركس في

التفريق بين مرحلتين: للرحلة الدنيا، وهي الاشتراكية والمرحلة العليا وهي الشيوعية. وهما تختلفان اختلافا جوهريا من حيث روابطهما للنشئة بالرأسمالية ، وبالتالي بالملكية الخاصة وانقسام المجتمع إلى طبقات .

إذا تتبعنا أفكار ماركس ، رأينا من نافذة القول أن قرر أن الاشتراكية لا تستطيع من حيث تعريفها ومن حيث واقعها أن تتطلب حق النهاية على أي من ضروب التغريب المعروفة حتى على التغريب الاقتصادي . وذلك أننا حتى إذا عضضنا النظر عن اللاركية ، لم يسعنا إلا أن نقول بأن الدولة والبيروقراطية ضربان من التغريب. ومع ذلك فهما موجودتان في الاشتراكية ، ويجب أن توحدًا ، وأوضح من ذلك أن الانقسام إلى طبقات يبقى في الاشتراكية مثل الفروق بين العمل البدوي والعمل العقلي والتي بين العمل في الريف والعمل في المدن . . الخ. وحتى إذا كان الأمر يتعلق بأساس الأسس وهو التغريب الاقتصادي ، فإنه يبقى دائما أن نحل مشكلة الملكية ، لأن استبعاد الملكية الخاصة ليس قضية سلبية يسوئها التأميم فحسب ، بل أيضا ، وربما بوجه خاص ، قضية إيجابية ، أعنى إقامة الاشتراكية التي تجعل جميع المواطنين مشتركين في الملكية . ودون ذلك يستحيل الانتقال إلى الشيوعية التي هي رابطة حرة للتشجيع على حد تعبير المصطلحات اللاركية . من الواضح إذن أن استمرار عمليات التغريب في مرحلة الاشتراكية أمر واضح ( وذلك على ضوء اللاركية ) من الناحية النظرية . وإذا كان ذلك كذلك حقا فلا يمكننا أن نستبعد وجود ظواهر تغريب في ظروف جديدة ، وذلك مثلا كالبيروقراطية أو آلية سير القصر للمادى، وأن يستفعل أمر هذه الظواهر بصورة عابرة ، بل وأن نجد أنفسنا أمام أشكال جديدة من التغريب غير معروفة لنا حتى الآن. ولا يمكننا من ناحية النظرية أن نرفض مثل هذه الإمكانيات ، أما من وجهة نظر الواقع فيستحيل علينا أن نرفضها .

ماذا يمكننا أن نقوله في هذا الصدد إذا تعلق الأمر بالشيوعية ؟

من وجهة نظر معينة ليس لهذه للسألة أية أهمية عملية في الوقت الحاضر ، وقد كانت هناك بعض الأوهام التي يعلها الخاس في فترة معينة ، أما الآن فيمكننا أن نقرر بكامل وعينا أنه حتى في البلاد التي تلعب بالاشتراكية نرانا لا تزال بعيدين عن مجتمع يشر بأن قيام الشيوعية فيه سيكون حقيقة واقعة ، وهذه هي الوجهة التي تهمنا هنا ولولم يكن ذلك إلا لأن للممارسة العملية تأزمنا برفض دعوى ستالين باعتبارها تعديلا للماركسية قائما على غير أساس ، تلك الدعوة التي تذهب إلى أنه من الممكن إقامة مجتمع شيوعي في نظام دولة تضم جهازا عادلا للقسر للمادى والبيروقراطية فيناسب إذن أن نرجع إلى نظرية ماركس في أن الشيوعية لا يمكن أن تقتصر إلا على النطاق العالمي ، لأنه لا بد من هذا الشرط ، من ناحية النظرية على الأقل ، لكي تحق الدولة وضروب الصراع للسلاح ويخلق أساس مادي لقانون توزيع السلع للادية لكل حسب حاجاته الذي بدوره يمكن أن تعود القذارة القديمة ، على حد تعبير للمصطلحات الماركسية ، إلى الظهور تحت شكل آخر .

يمكننا إذن إقامة أسس ، أو إذا فضلنا ، إقامة هيكل المجتمع الشيوعي ، ولكن الطريق الذي يؤدي إلى تحقيق ذلك لا يزال طويلا ، ولما كانت أمثاله الانتقال إلى النظام الجديد ، ولا سيما في البلاد للصنعة تصنيعا عاليا ، تختلف عن تلك التي عرفناها حتى الآن ، فإن شكل مجتمع المستقبل هذا سيكون في أغلب الظن مختلفا . ومن المستحيل أن نقول منذ الآن أى شيء محدد عن هذا الموضوع . وهناك مع ذلك بعض أسئلة مرتبطة بالتغريب يمكن ، بل يجب ، أن نهتم بها حتى بالنسبة لهذا المستقبل البعيد .

يجب أن نقرر في المقام الأول أنه من المستحيل نظريا أن نستبعد ظهور عمليات التغريب في هذا النوع من المجتمع أيضاً . ولما كان لا يمكن أن يوجد التغريب دون

موضعة ضروب النشاط البشرى ( وقد سبق أن قلنا رأينا في ذلك ) فإنه لا يمكن  
استبعاد أن تظهر بعض عمليات التغير ولو بصورة عابرة . ويمكننا أن ننتبأ مثلا  
بأن رابطة للتجين الحرة ، كما دعاها ماركس ، ستصطم بصعوبات كبيرة حينما تريد  
أن تحارب خطر التغير من جانب جهاز الإدارة والتخطيط والإنتاج والذى  
سيميل — بطبيعة الحال — إلى نوع من الثبات الأمر الذى يحمل في نفسه خطر  
التغير ، وذلك بسبب طابع المالية الذى سيكون طابع هذا الجهاز في ذلك الحين ،  
وبسبب ضرورة الاستعواذ على إخصائين ذوى خبرة فنية عالية . ومن المؤكد إذن  
أنه ستوجد صعوبات وإمكانات للسقوط في اتجاه عمليات التغير ، ولكن من  
للوكد أيضاً أنه ستوجد في مقابلة ذلك وسائل أتصح لمقاومة هذه العمليات ومنها  
استخدام الآلات الألكترونية التى ستصمم لهذا الغرض .

وهناك مسألة أخرى ستفرض نفسها على هذا المجتمع ، أعنى مشكلة مساهمة  
أعضائه في الحياة المشتركة ، وإذن عبارة أخرى ، في مكلغة ظواهر التغير الدائى .  
والأمر هنا يتعلق بتكوين شخصية البشر أعضاء المجتمع الجديد التى يجب أن تتأرجح  
بين حفرة الفردية للتجهة نحو القوضوية ومنزلق تحطيم الشخصية الفردية ، ذلك  
الأمر الذى انتقل بفضل نهضة الكيمياء الحيوية من ميدان الأسطورة إلى ميدان  
الإمكانات الحقيقية .



ک.ا. نینداکانشا ساستری

الھمنہ الحدیثۃ والغریبۃ

ترجمہ: عبدالعزیز عبدالحق





### بداية الاتصالات الأوربية الحديثة :

لقد تضاءلت اتصالات الهند بأوروبا منذ القرن السادس الميلادى . وكان آخر من كتب عن أحوال الهند من الأوروبيين راهب بيزنطى عجيب الشأن يدعى كوزماس إنديكوبليستس ( Cosmes Indicopleustes ) أى الرجل الذى أبحر إلى الهند ) ، اشتغل فى مبدأ أمره بالتجارة مع بلاد الشرق الأقصى وحلته أعماله التجارية على القيام برحلات عديدة ، وصل فيها إلى جزيرة سيلان . ثم اعتزل الأعمال الدنيوية فى أخريات أيامه واعتكف راهباً فى دير سيناء ، حيث دُون كتابه : التخطيط السيجى Topographia Christiana تناول فيه وصف العالم السيجى حوالى سنة ٦٤٠ م . ولم يزر الهند فى خلال العصور الوسطى أحد من الأوروبيين سوى عدد قليل من البشريين كانت عنايتهم موجهة إلى كسب الوثنيين من أبناء البلاد المختلفة إلى المسيحية . وما كتبه هؤلاء لا يزودنا إلا بالترز اليسير عن تاريخ اللوثرات الثقافية المتبادلة بين الهند وأوروبا . وفى الواقع نرى أن الهند والبلاد الشرقية عموماً غدت آنذاك جبلة عن العقل الأوروبى إلى حد أن كتابات الرحالة ( البندقى ) ماركو بولو ( Marco Polo ) عن مشاهداته فى الشرق اعتبرت من الموضوعات التى شك فيها الأوروبيون عهداً طويلاً بل كانوا يصدونها حديث خرافة ، مع أنها فى مجملها اشتملت على بيانات ووقائع أثبتت الدراسات الحديثة مبلغ ما بها من الصحة والصدق .

يبد أن أجّل ما حدث من اتصال بين الهند والترب بدأ بمجيء البرتغاليين إليها فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر الميلادى . وقد كانوا على شاكلة سابقهم يهتمون بالمسائل الدينية أكثر من اهتمامهم بالتجارة ، وإن كانوا قد

استأثروا وحدهم بالعلاقات التجارية مع الشرق ، بناء على مرسوم عجيب أصدرته  
البابوية آنذاك ، وأيدت فيه دعاوى البرتغاليين في هذا الاحتكار . غير أن الهولنديين  
والإنجليز والفرنسيين سرعان ما نازعوا استثمارهم بالتجارة مع البلاد الشرقية عندما  
دخلوا بأساطيلهم في المحيط الهندي ، حيث دبت منافسة قوية بين الشركات الأوروبية  
التي أنشئوها والتي تنازعت فيما بينها للحصول على امتيازات تجارية من الدول الهندية .  
وقد نجم عن هذا بحكم الظروف القائمة آنذاك تزايد التدخل في العلاقات السياسية  
بين هذه الشركات والممالك والولايات الهندية .

وتنظراً لما أبداه البريطانيون من استعداد للاستفادة من تجارب غيرهم ، ومن  
حذق وتدير في ركوب المخاطر ، وإلى ما صادفوه من حسن الطالع ، فقد ظفروا  
بأعظم قدر من النجاح على منافسهم ، حتى استطاعوا أن يسيطروا تقوِّدًهم على جميع  
أرجاء الهند في مطلع القرن التاسع عشر . وقصة هذا التوسع السياسي كثيراً ما  
تناولها الكتاب حتى صار العلم بها مألوفاً شاملاً . غير أنا سنقصر عنايتنا هنا على  
بيان التأثيرات الاجتماعية والثقافية التي صاحبت هذا التوسع التاريخي للنفوذاً لاسثمار  
البريطاني ، وتدفق الأوروبيين وغيرهم من أبناء البلاد الغربية ، سعيّاً وراء التجارة  
والفتح وأغراض أخرى عملوا على تحقيقها في بلاد الهند ، كما سنتناول الاتصالات  
الاجتماعية وللؤثرات الإضافية التي نجمت عنها ، كما نذكر ما لا يزال باقياً من أثر  
هذه العوامل من الناحيتين المادية والروحية ، وذلك بقدر ما يمكن تتبعه من تفاعل  
بين حضارتَي الغرب والشرق ، وعلى الأخص ما يتيسر ملاحظته من نتائج هذا  
التفاعل في كل من إنجلترا والهند بصفة خاصة .

### السياسة البرتغالية و نتائجها :

بما أن البرتغاليين كانوا أول أمة أوروبية استهلت هذه الحركة ( الاستعمارية )  
الحديثة ، وعدت تجاربهم من ناحية مثلاً يحتذى ، ومن ناحية أخرى عبرة وعظة

وذلك بالنسبة للأمم التي جاءت في أعقابهم . ولا نستثنى الإنجليز من هؤلاء ، فن  
الحير أن نبدأ بتناول الظواهر الهامة لهذا الاتصال الذي كان البرتغاليون أول من  
بدأ به ، والذي ظل قائماً إلى أن قضى عليه نهائياً بالأمس القريب .

« عندما أتى فاسكو داجاما مراسيه في قاليقوت في العشرين من شهر مايو سنة  
١٤٩٨ م أرسل رسولاً لقيه تاجر مغربي مسلم من طنجة (أوتونس) قام بتقديم  
وفد البرتغاليين إلى بلاط الزمورين ، ونهض بالترجمة بين البرتغاليين الذين لا يعرفون  
أية لغة من لغات الهند ، وأهل ملبار الذين لا يعرفون أية لغة من لغات الغريين<sup>(١)</sup> .  
وهذا النظر الروائي نجد له وصفاً رائعاً في الكتاب السابع من الملحمة الشعرية  
الشهيرة للمروعة باسم Os Lusíadas والتي تتبع بدقة في هذا الموضوع الوقائع  
التاريخية الصحيحة . وقد نظم هذه الملحمة الشاعر البرتغالي لويز دي كاميونس  
Luiz De Camoéns في سنة ١٥٧٢ م . وكان قد ذهب جندياً مع الحملة البرتغالية  
وتبدأ الملحمة برحلة فاسكو داجاما حول رأس الرجاء الصالح ، وتنتهي بالدفع عن  
ديو الذي كان قد قام به جان دي كاسترو Jao Le Castro في سنة ١٥٤٦ م  
وقد أشاد بهذه الملحمة وزاد في إطرائها كل من مونتسكيه ، وريتشارد بيرتون  
R. Burton . وقد صرف الأخير أعواماً عدة في ترجمة هذه الملحمة (إلى الإنجليزية) ،  
ونوه ببراعة ناظمها في وصف الترف الشرقي . Lux ex oriente<sup>(٢)</sup> .

وكان البرتغاليون يسيطرون على الطرق البحرية في المحيط الهندي في القرن  
السادس عشر ، وأنشأوا لهم محطات على طول الساحل الغربي لبلاد الهند ، في مقدمتها  
جوا Goa . ولم تكن هذه المراكز مجرد محطات تجارية ، بل كانت قواعد بحرية

(١) ل . س . س . س . ١ مالى L. S. S. G. Malley الهند الحديثة والغرب ، مطبعة

جامعه أكسفورد — إنجلترا سنة ١٩٤١ م .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٠ .

محسنة خاصة لسلطانهم . وكان يقصد بها أن تكون نقطة حراسة لإمبراطوريتهم وديانتهم . ولم يمتدوا في استعمارهم على الهجرة والاستيطان قدر اعتادهم على التوسر بالنساء الهنديات . ولم تلحق أبنائهم منهن أية وصمة أو معة بسبب هجنتهم . وعُرف البوكريك Albuquerque ( ١٥٠٩ — ١٥١٥ م ) الذى استولى على جوا وضما إلى البرتغال بما اتسم به حكمه بصفة خاصة بالوسط والاعتدال . وقد ظل الناس فيما بعد يذكرون له هذه السجايا ، وكان إذا أصابهم الضيم والأذى على يد خلفائه ، يجتمعون حول قبره ، ويشرون عليه الزهور ، ويقدمون الزيت للمصباح الذى يظل ممتداً فوق قبره ، ويستشفعونه فى إنصافهم وكشف الضر عنهم .

يبدأ اضطهاد البرتغاليين لغير المسيحيين بدأ فى سنة ١٥٤٠ م ، ثم أدخلوا محاكم التحقيق Inquisition بعد ذلك بعشرين عاماً . وعينوا فى كل مدينة برتغالية فى الهند واحداً من رجالها ، خولوه سلطة القبض على أى شخص يشبه فى عدااته للكنيسة ، وإرساله إلى جوا لحاكمه وكان لهذا التصب والاضطهاد أثرهما ، فإن كثيراً من القاطعات المجاورة لجوا أخذ أهلها فى الزواج عنها حتى كادت تخلو من سكانها إبان الفترة التى انتهت بحلول القرن الثامن عشر . ولكننا نرى صورة مغايرة لهذه الأوضاع فى شمال شرقى الهند ، حيث المستعمرة البرتغالية الرئيسية هوجلى Hugly التى كانت مليئة بالتامرين عن لا يتقيدون بوازع ولا تردعهم سلطة ، فقد كانت غالبيتهم من لصوص البحر وقطاع الطرق وشذاذ الآفاق ، يعيشون فى الأرض فساداً ويحيون حياة منحلة ، كما أثار عليهم سخط شاه جهان Shah Jahan فبرّد عليهم حملة خربت مدينة هوجلى فى سنة ١٦٣٢ م . وكانت هذه نهاية قوّة البرتغاليين فى بنغالة ، كما أن سلطانهم فى مستعمراتهم الأخرى لم يستمر طويلاً ، إذ تسنىّ لهم ولنديين أن يتزعوا منهم السيادة على البحار ، وأن يرغموهم على عقد معاهدة فى سنة ١٦٤٨ م اقتصر فيها قوّذهم على مستعمرات جوا وديو ودامان Daman التى ظلوا يحتفظون بها إلى الأسس القريب .

## كلمات وأشياء جديدة :

لقد أضافت اللغة البرتغالية كثيراً من الكلمات إلى مفردات اللغات الهندية .  
خلفه التاميل Tamil مثلاً اقتبست من البرتغالية أسماء الأشياء التي كان البرتغاليون  
أول من أدخلها في بلاد الهند مثل أناسي annasi ( الأناناس ) والكوبا Koyya  
( الجوانة ) وبابالي pappali وهو المعروف باسم popaw وقانو Valtu ( البطة )  
وبونال punal ( القمع ) وتوباكي Tupakei ( البندقة ) وغيرها . وهناك  
كلمات أخرى يجرى استعمالها في الحياة اليومية في لغات هندية أخرى كالأردية  
مثل ألماري almari صوان الملابس ، وميز mez للتضدة ، وبستول pistaul السدس  
وهكذا .

وكانت قد نشأت لغة برتغالية دارجة غدت لغة التفاهم Lingua Franca في  
الستعمرات الأوروبية على طول الساحل الهندي . وكان على الهولنديين والبريطانيين  
أن يستعينوا بالترجمة البرتغاليين في القرن السابع عشر . وحتى سنة ١٨٢٨ م كان  
القائد الهندي للمستعمرة المتمركزة الصغيرة في سيرامبور Serampore يقدم تقريره  
اليومى للحاكم الترويجي محرراً بهذه اللغة . وظلت اللغة البرتغالية الدارجة هي لغة  
المحادثة بين الأوروبيين وخدمهم وكثيراً ما كان يستعملها اللورد كلايف Clive  
الذى لم يتيسر له قط أن يحقّق أية لغة من اللغات الهندية ، ولكنه ألم بقدر من  
اللغة البرتغالية في البرازيل حيث قضى هناك تسعة أشهر وهو في طريقه لأول مرة  
إلى بلاد الهند<sup>(١)</sup> .

وعليّنا أن نذكر أن من بين الأشياء الأخرى التي أدخلها البرتغاليون في الهند

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٧ .

التبغ والفلفل الأحمر chilies حيث أن هذين أحدثا انقلاباً في العادات الاجتماعية والتغذية ، فإن استخدام ورق التبغ في التدخين بلغ من سرعة انتشاره وشدة الإقبال عليه حداً حمل شاه جهان Shah jahan على أن يصدر مرسوماً يحرم فيه عادة التدخين بحجة « ماله من ضرر بالغ في صحة معناتها وعقولهم » . ولكن هذه النواحي شاركت مصير أمثالها . فقد كتب أحد الكتاب الفرس المعاصرين يقول : « يبدو أن النبلاء وللتسولين ، والأقوياء والأشرار ، وللؤميين ومتحرري الفكر ، والشعراء وللورخين والخطباء البلقاء ، والأطباء وللرضى ، والمطاء والسوقة ، والأغنياء والفقراء ، يبدو أن هؤلاء جميعاً قد غلبت عليهم عادة التدخين وملكت قياهم ، فصاروا يؤثرونها على كثير من ألوان الترف ، بل وفي غالب الأحيان يقدمونها على كثير من ضروريات الحياة » .

وقد أخذ الناس يَهَشُّون بالنارجيلة hookah ويدونها أمتع رفيق يخفف عن السافر وعناء رحلته ويؤنس الراهب في وحدته . ونرى في جميع اللغات الهندية أن كلمة الفلفل الأحمر Chilies مشتقة من كلمة pepper . وقد صار استخدام البديل الجديد لهذه اللادة في المعابد وفي مزاولة الطقوس للقدسة أمراً محظوراً إلى اليوم شأنها في ذلك شأن شرافه Sradh ، غير أن عدداً كبيراً من أبناء الهند وبخاصة الأندريون andhras يتعشقون تناول الفلفل الأحمر وبها السكون عليه .

### الانجليز :

وقد وفد على الهند بالإضافة إلى البرتغاليين الهولنديون والفرنسيون ، وهؤلاء أخذوا في منافسة الإنجليز على مستويات مختلفة سواء في التجارة ، أو في علاقاتهم بالبلاد الهندية ، ولكنهم خسروا السباق وغادروا الحلبة عاجلاً أو آجلاً . وليس لنا إلا أن نشر إليهم من وقت لآخر في الجزء الباقي من هذا البحث ،

إشارات غابرة . وعلينا أن نتناول بصفة خاصة للمستعمرات الإنجليزية وحياتها الاجتماعية والثقافية . ومن الطبعي أن ينصرف اهتمامنا إلى مدنت مدراس وكلكتا وبومباي التي حلت محل مدينة سورات Surat التي كانت للركز الرئيسي للإنجليز على الساحل الغربي للهند . ولم ينبج الإنجليز نهج البرتغاليين في العمل على تصير الهنود واستعمار البلاد الهندية عن طريق التَّسْيِرَى بالساء الهنديات . ولم يحاولوا التدخل في شئون الديانات الهندية أو عادات الهنود الاجتماعية .

وفي البداية صرف الإنجليز عنايتهم إلى الأعمال التجارية دون سواها . وتبين لهم بعد انقضاء فترة من الزمن كانوا قد تأثروا خلالها إلى حد ما بسياسة الفرنسيين ضرورة إنشاء قوة سياسية وعسكرية لحماية مصالحهم التجارية ، فأخذوا على عاتقهم القيام بإدارة رقعة كبيرة من البلاد ، إلى أن وجدوا أنفسهم يسيطرون على شبه القارة الهندية بأسرها . ومع أنهم قطعوا هذا الشوط الكبير في بسط نفوذهم على الهند ، فإنه لم يَدْرُ بِحَسْبِهِمْ قط أن يستوطنوا الهند بصورة دائمة ، إذ كانوا ينظرون للهند دوماً على أنها مستعمرة الاستغلال وليست مستعمرة للاستيطان . وكانت إدارة الشركة البريطانية طيلة سيطرتها على البلاد الهندية ، أى حتى سنة ١٨٥٨ م حرصة على مراقبة منع البريطانيين من الهجرة إلى بلاد الهند ، وحصر النشاط الذي تقوم به بعثات التبشير للسعي في حدود معينة .

وكان السفريين الهند وأنجلترا في القرنين السابع عشر والثامن عشر، بل وحتى انتاح حقاقا السويس في سنة ١٨٦٩م يقتضى رحلات بحرية طويلة. وكان على رجال الإدارة البريطانيين أن يقضوا سنوات عديدة في الهند ، تهيأت لهم فيها فرص الاتصال بالهنود أكثر مما كان لخلفائهم في العصر الحديث . وكانت للؤثرات التبادلة بين الشمين أكثر ظهوراً في اليهود الأولى منها في اليهود المتأخرة .

## القامرات والأحداث الخيالية :

لم تكن حياة موظفي الشركة البريطانية لتخلو من القامرات والأحداث الشبيهة بالقصص الخيالي . فالرحلة إلى الهند كانت تستغرق فترة من الزمن تقارب ما بين ثلاثة أشهر وستة طبقاً لمتطلبات الظروف والأحوال . وكانت السفن تتوقف في ماديرا Madeira لتأخذ ما يتزود به أبناء المستعمرات الإنجليزية في الهند من الخمر ، كما كانت تتوقف في مدينة الرأس وفي ترينكومالي Trincomalee في جزيرة سيلان .

وكانت أخطار غرق السفن وتعرضها لمهجمات القرصان ماثلة دائماً . غير أن ما حل بأولئك الذين أبحروا من إنجلترا في السفينة Persia Merchant في مارس سنة ١٦٥٨ م يجب أن يعد من الحن الثرية في نوعها . فإن السفينة قد تحطمت عند جزر ملديف Maldives في أغسطس . وفي صعوبة بالغة وصل عدد من ركابها على سفينة أصغر حجماً إلى جزيرة سيلان . وكانت عدتهم ثلاثة عشر رجلاً قبض عليهم ملك كاندي Kandy وأمر بسجنهم مدى الحياة . أما الباقون فقد تحطمت سفينتهم مرة أخرى في خليج منار Mannar . وكان من ركابها روجر ميدلتون Roger Myddleton الذي وصل إلى بورتو نوفو Porto Novo ومنها سار براً حتى وصل إلى حصن سنت جورج في أكتوبر سنة ١٦٥٨ م حيث عين قائداً للقامية<sup>(١)</sup> .

وقبل ذلك بعامين حدث أن قارباً يحمل ثلاثين إنجليزاً وعشرين من الوطنيين ليصل بهم إلى السفينة مايفلور Mayflower انقلب قرب مازولياتام Masulipatam ففرق بعض ركابه . ولكن الآخرين غلوا محبوسين في داخل القارب وقاعه إلى أعلى . ولكنهم نجوا بفضل ما كان في القارب من الهواء إلى أن تم إنقاذهم بعد أن

---

(١) لم Love آثار مدراس القديمة - لندن سنة ١٩١٣ م ص ١٧٣ .



فرغ من إعادة وضع القارب في مدى ساعتين<sup>(١)</sup> . وكانت أمواج شاطئ مدراس كثيراً ما تكون سيّياً في غرق الضباط وصناديق الكنوز ورزَم البريد ، كما حدث في سنة ١٦٩٧م<sup>(٢)</sup> .

### الرحلة وما بعدها :

وكانت وسائل الراحة والرفاهية التي يتمتع بها المسافر على ظهر السفينة تتوقف على سمة نفوذه ووفرة ما في كيسه من المال . وكثيراً ما يكون بين الركاب سيدات شابات قصدن سفرهن ارتياد سوق الزواج في الهند وكن يشغلن أكبر حجرة في السفينة ، ويستريحن أنظار الركاب بمشاجراتهن ودسائسهن . وعلى ظهر إحدى السفن لقي وارن هيستجر Warren Hastings البارونة إيمهوف Imhoff . وعندما وصل إلى بلاد الهند كان مركزه في المجتمع وما حظى به من استقبال حار متوقفاً إلى حد كبير على خطاب التوصية الذي أحضره معه من إنجلترا . وكان في الأيام الأولى لشغله منصب الحاكم يبادر إلى استضافة القادمين الجدد . ولكن لما اتسع نطاق مراكز الإقامة تعذر عليه أن يعضى في إغداق كرمه على كل قادم دون تمييز ، ذلك لأنه إذا ما عدم المرء توصية صحيحة عاقه قعداتها عن أن يشغل مكانة مناسبة في الحياة الاجتماعية . وقد يعضى وقت طويل دون أن تقدم إليه دعوات عامة ، وخاصة لتناول الإفطار أو العشاء<sup>(٣)</sup> .

وفيا عدا موطنى الشركة الإنجليزية وغيرهم ممن يشتغلون بالتجارة لحسابهم الخاص عن سنتكلم عنهم فيما يلي ، كانت هناك في الهند طبقة كبيرة العدد من الأوروبيين

(١) المصدر نفسه ص ١٦٢٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٨٨ - ٥٨٩ .

(٣) ت . ج . ب . س - T.S.P. Spear : النواب The Nabobs مطبعة

جامعة أكسفورد - إنجلترا سنة ١٩٣٢ ص ٤٤ .

كانوا بالأحرى طغمة من الآفقيين ، ملأت جرأهم التي اقترفوها ما لا يقل عن خمسة وعشرين مجلداً من سجلات ديوان الهند<sup>(١)</sup> . وكان « سفلة الأوروبيين » مصدراً لكثير من المتاعب المرهقة للحكومة . وأثار استهتارهم وصخبهم في الرأي العام الهندي مشاعر التحامل والكراهية للأوروبيين عموماً . أما ما لقيه كاري Carey من ترحيب بالغ من جانب القرويين البنغاليين في ديارتا Debarta في سنة ١٧٩٤م ، فيمزي إلى أنهم رأوه مغايراً للأوروبيين ممن كانوا « يعدونهم أشد ضراوة من الثور » . وقد ذهب الأب دوبوا Dubois إلى أن تدهور البعثات التبشيرية المسيحية وانحلالها إنما يرجعان إلى حد كبير إلى شنوذ الأوروبيين في تصرفاتهم وفساد أخلاقهم بما عمّ أرجاء الهند كافة . وقد سجّل ملاحظة أبداها هندي لأحد القسس جاء فيها : « الديانة المسيحية ا ديانة الشيطان المسيحي يُدمن الخمر ويُوغِل في ارتكاب المنكرات ، ويتأدى في التطاول على الناس بالضرب والأذى ويُغْرِق في سبهم بأقبح الشتائم والتموت » . ولما أخبر البشر الدنمركي شقارتس Schwartz مؤسس إرسالية تينفلي Tinnevelly راقصة هندوكية بأنه مامن وغد شرير يتاح له أن يدخل مملكة السماء ، ردت عليه في حدة وهي تقول : « واسفاه يا سيدي ، إنه في هذه الحالة لن يدخلها ألبتة واحد من الأوروبيين » .

Claud Martin كلودمارتان

عمت الهند مظاهر الخلل والاضطراب في القرن الثامن عشر ، مما أفسح المجال للغامرين العسكريين من جميع الجنسيات أن يتقدموا لخدمة أمراء البلاد الهندية المختلفة خارج الأراضي التي تحكمها الشركة الإنجليزية ، سعيًا وراء الثروة

(١) المصدر نفسه ص ٦٠ .

والنفوذ . ولعل أبرز من يمثل هؤلاء كاولدمارتان القرنى الذى جاء إلى بونديشرى Pondicherry فى سنة ١٧٣٥ م . وبعد أن تطلبت به الأحوال، دخل فى خدمة آصف الدولة نائب أود Nawab of Oudh وكان يعمل فى دور صناعته فى منصب قبطان . وبلغ ما تركه من المال عند وفاته ثلاثة وثلاثين لاکاً<sup>(١)</sup> وذلك فى سنة ١٨٠٠ م . وقد أوقف الجانب الأكبر من هذا المال لإنشاء مدارس لامارتنيير La Martiniere فى لكتنو وكلكتاوليون (والأخيرة هى مسقط رأسه فى فرنسا) وكان له من السرارى أربعة نساء من أصل أوراسى وكان فى خدمه وحشمه عدد من الأغوات والأرقاء . وقام بتربية عدد من أبناء الأوروميين الذين غادروا لكتنو فيما بعد ولكنه ذكرهم فى وصيته . وكان سخياً واسع الكرم ، اشتهر بما كان يقيمه من للمآدب والولائم الفخمة . ودلت أمتعه عند بيعها بعد وفاته على تنوع ميوله وأذواقه . فقد اشتملت على أربعة آلاف من الكتب اللاتينية والفرنسية والإيطالية والإنجليزية والفارسية ومنها مخطوطات بالنسكريفية واشتملت على مؤلفات زوفانى Zoffany ودانييل Dannels كما ترك مائة وخمسين صورة زيتية<sup>(٢)</sup>

وقد كانت لكتنو فى الواقع قد اصطبغت بالصبغة الأوروبية . وامتد تفرنجها من الأشياء الظاهرة إلى ما هو أكثر عمقاً فى مجالات الفكر والتيارات الأدبية للماصرة وقد أحس الطران هبر Heber الذى زار لكتنو فى سنة ١٨٢٤ م أن لكتنو أقرب شهاً إلى بعض العواصم الأوروبية الأصغر حجماً (مثل درسدن Dresden) منها إلى أى شئ آخر رآه فى الهند . وقد لاحظ أن ملك أود Oudh يعمل كثيراً إلى علوم الميكانيكا والكيمياء ويواصل الإللام بأحدث ما يجرى من الوقائع خارج بلاد الهند.

(١) اللاک أو اللاخ lakh عبارة عن مائة ألف روية (م)

(٢) المصدر نفسه ٨٣: ٨٠

وقد خلفه نصير الدين حيدر ( ١٨٢٧ - ١٨٣٠ ) الذى ورث عن سلفه ميوله العلمية والفنية ، وكثيراً ما كان يرتدى الزى الأوروبى ويضع على رأسه قبعة . وقد أنشأ مرصداً عين فيه فلكياً بريطانياً . وكان فى حاشيته المانى يشتغل بالطباعة والموسيقى . وكان قصره المسمى حافلاً بالصور الفنية . ومنها صور بريشة الفنان زوفانى Zoffany وقد تأثر الأدب الأردى تأثراً قوياً بالأفكار المستحدثة والأساليب الجديدة . ونهض القصص التمثيلية باللغة الأردية حيث ألقت مسرحيات مثل مسرحية إندار صبة Indar Sabha بقلم أمانات Amanat وقد كتبها على غرار الأوبرات الأوروبية .

« وكان وجيد على شاه آخر ملوك أود Oudh ذا ذهن متوقد فى مسائل الفن والأدب ، واجتذبت حاشيته نخبة متألفة من الفنانين الأجانب وكانت لديه مطبعة تطبع بها المؤلفات الأردية والفارسية بحروف متحركة ، كما أنشأ متحفاً ومكتبة ضمت مالا يقل عن مائتى ألف من المخطوطات والكتب النادرة . وعندما قضى على مملكة أود فى سنة ١٨٥٦م خبت أضواء النارة الأخيرة للنهضة الثقافية الإسلامية التى استمدت عناصرها من أصولها القديمة ولكنها تأثرت بالحضارة الجديدة التى جاءت من الغرب <sup>(١)</sup> .

#### وغيرهم :

وينتمى إلى نفس الطبقة التى ينتمى إليها أمثال كلودمارتان : رايموند الحيدر بادى الذى أنقذ إمارة حيدر أباد من للارائين Marathas ، ودى بوانى de Boigne وبيرون اللذان اتصلا بخدمة سنديا Sindhia ثم ولتر راينهارت أو سومرو الذى عرف بسوء سيرته . وكان فى خدمة مير قاسم ، وسكينر Skinner وتوماس . وكان فى البنجاب القادة العسكريون : ألارد Allard ، وفيتنورا Ventura وافيابل Avitabile الذين عملوا فى جيش رانجيت سنج ولم يعد من هؤلاء إلى إلى أوروبا سوى عدد قليل . واتخذ أغلبهم فى معيشتهم أسلوباً هو أقرب إلى الطابع الهندى .

(١) مال Malley المصدر منه ص ٣٩٧ : ٣٩٨

وكان دى بوانى عزباً ومع ذلك فقد خصص فى قصره فى كوال Koil (عليكره) جناحاً للحريم . وكان بعد العشاء يأخذ فى تطويق مدعويه بأكاليل الزهور ويمتد حفلات للاستقبال ( على الطريقة الهندية ) ويحضرها ولده الصغير الذى لم يكد يتجاوز السنوات الأربع من عمره وهو يرتدى من اللابس ما يطابق زى أمراء الهند ، وما يلائم ألوان الكشمير<sup>(١)</sup>

وأتخذ بض هؤلاء الأوروبيين لأنفسهم زوجات من أعرق الأسر المسلمة مثل الرائد هيدر هيرسى الذى تزوج بآنبة ملك كامبى الخلوع ، وتبنى ابنة الإمبراطور أكبر شاه الثانى . وكان لهذا الرائد ابن تزوج بآنبة أخت الإمبراطور نفسه . وكان للعميد جاردنر Gardner أعقاب فى أوتار برادش ( التى كانت تسمى سابقاً بالمديريات للتحدة ) امتدت سلاتهم إلى القرن العشرين ، وأخذ هؤلاء يطالبون بألقاب أسرهم القديمة . بل حدث أن بعض كبار الموظفين فى الشركة البريطانية قضوا سنوات عديدة فى المناطق الريفية فى الهند ونهجوا فى معيشتهم نهج الهندوس . وقد تزوج العميد كيركباتريك Kirkpatrick للقيم البريطانى فى حيدر آباد بسيدة مسلمة من أسرة عريقة ، وكان يتكلم الفارسية كأحد السادة العطاريف . وكان فى أخلاقه ولباسه لا يكاد يُفرق بينه وبين أحد من النبلاء المسلمين<sup>(٢)</sup> . وعن بعد مثالا فريداً لهذه الطبقة سير دافيد أوكترونى Sir David Ochterlony القيم البريطانى فى الحاشية الإمبراطورية بدلى . وكانت له تصور فى دلى وكرنال Kernal وغيرها . وقد أدهش المطران هير Heber اصطناعه للمادات الشرقية . وكان هناك آخرون يشبهونه .

(١) سير Spear المصدر نفسه ص ٩٣

(٢) مالى Malley المصدر نفسه ص ٥٣٥

يبدأ أن الفارمين العسكريين لم يكونوا مع ذلك موضع ثقة لدى من يستخدمهم من الأمراء الوطنيين . فإن رانجيت سينغ Ranjit Singh الذى كان يحضهم جميعاً بعودته ، بل كان يحترم عدداً منهم مثل آلارد Allard ، لم يثق بهم حين نشبت الحرب بينه وبين الإنجليز . وكان يقول : « إن هؤلاء الأوروبيين جميعاً سواء أكانوا من الألمان والفرنسيين أو الإنجليز أوغاد خونة يفهمون بعضهم بعضاً » . وفى الحق لم يحارب واحد منهم فى جانب السيخ Sikhs إبان الحروب التى نشبت بين هؤلاء والإنجليز . وقد تطوع الكثيرون من هؤلاء الفارمين فى الجيوش البريطانية<sup>(١)</sup> .

### أصحاب للزراع :

وهناك طبقة أخرى من الإنجليز من أصحاب مزارع النيلة indigo الذين عاشوا فى الريف الهندى وكانت الشركة الإنجليزية قد بدأت فى الاهتمام بزراعة النيلة فى سنة ١٧٨٠ م . وبعد ذلك بـ ١٠ سنوات صارت الصناعة الأوروبية للنيلة وطيدة الدعائم فى بنغالة وبهار وأود ، بل أخذ كل من كارى ومارتان ودى بوانى فى زراعتها لفترة من الزمن . بيد أن غالبية أصحاب للزراع من الأوروبيين أو النمط الأوسط منهم جروا على أن يعيشوا فى عزلة وانفراد فى الريف الهندى . وما لبثوا أن غدوا موضع السخط والكراهية من جانب الشعب بسبب معاملتهم الجافة للفلاحين . وقد أوحى للظالم الذى كانوا يقرءونها للكتاب الهندى ديناباندومترا Dinabandhu Mitra بفكرة مسرحيته البنغالية نيلداربان Nildarpan التى كتبها فى سنة ١٨٦٠ م . وقد ترجمها إلى الإنجليزية م . م . داتا M. M. Datta :

---

(١) خوشوانت سينغ Khushwant Sing : السيخ The Sikhs لندن سنة

وكان أهم ما يسعى إليه صاحب المزرعة هو أن يحصل على ثروة كبيرة يعود بها في أسرع وقت ممكن إلى بلاده . وقد ظل إنتاج النيلة من الصناعات الهامة حتى سنة ١٨٩٧ م . ولكنها بعد هذا التاريخ أخذت وشكا في التدهور بسبب منافسة أصباغ الأنيلين Aniline الألمانية لها . ومع أن البن كان معروفاً منذ القرن السادس عشر، فإن زراعته على نطاق كبير في ميسور جنوبي الهند لم تبدأ إلا في سنة ١٨٣٠ م وأعقبها مباشرة زراعة الشاي والمطاط .

### مواطن الإقامة :

بدأت مواطن الإقامة بصفة عامة بطريقة متواضعة كما كان الحال في مازوليانام على ساحل جولكنندا Golconda في سنة ١٦١١ م . واقتصرت فحسب على عازن السلع وعدد قليل من منازل السكنى . يدأن ما أتاحته هذه المراكز من فرص لتقديم التجارة والصناعة ساعد على سرعة نموها حتى صارت مزدهرة بالسكان من مختلف العناصر والجنسيات ، ونجد على سبيل المثال أن المرسوم الأول الذى أصدره دامرلا فينكاتادري Damerla venkatadri خاصاً بالتجار الإنجليز في مدراس ضمن فيه ما يقدمونه من مواد معينة للنساجين وغيرهم من عمال الصناعة واشترط إخطاره قبل تقديم هذه المواد والحصول على موافقته . وفى أكتوبر سنة ١٦٤٠ م . كان هناك ما يقرب من أربعمائة أسرة كان تزايد عددهم يثير متاعب غير قليلة عند جيرانهم المحليين لهم (١) .

وفى سنة ١٦٤٥ م خول شرى رانجا (٢) Sri Ranga الشركة البريطانية سلطة.

(١) لف Love المصدر قس ص ٣٦ .

(٢) فى الأصل أن التحويل منح بواسطة Vijayanagar emperor Sri Ranga ولم تشر في مصادرها على أن شرى رانجا كان إمبراطوراً ولكنه يوج ملكاً فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٦٤٢ م . أما التصريح واسمه Kanl ولعله من الكلمة العربية قول قدس صدر فى ١٠ =

قضائية على مدينة مدراس بأسرها . وقد وضع هذا حداً لمشاعر القلق التي نجمت عن إحدى جرائم القتل التي حدثت في سنة ١٦٤١ - ١٦٤٢ م . وقد أبلغ بنيتها Naick حاكم الإقليم ، « لقد طالب بأن تأخذ العدالة مجراها ضد القتلة ، طبقاً لقوانين إنجلترا ، ولكن إذا لم يتيسر لنا ذلك فليتنا أن نطبق العرف الجاري في إقليم الكرنات Karnate » . ذلك لأنه كتب في Olai ( ومعناها ورق النخيل الذي كان يستعمل في تحرير الأوامر والرسائل في الهند في تلك الأيام ) : « إذا لم تقتص من القتلة فمن يجرؤ على القدوم إلى هنا والاشتغال بالتجارة ؟ » .

ثم حدث فيما بعد في سنة ١٦٦٦ م عندما وقعت جريمة أخرى من جرائم القتل أن أنشأت الشركة ديواناً للحاكم حول سلطة قضائية شملت كلا من المدينة مدراس والحصن . وعقدت أول محاكمة بواسطة المحلفين في مدراس في أبريل سنة ١٦٦٩ م بعد أن تقلد فوكسكروفت Foxcroft منصب الحاكم ( العام ) للشركة <sup>(١)</sup> . وقد عقدت آخر محاكمة بواسطة المحلفين منذ سنوات قليلة ألغى بعدها هذا النظام في المحاكمات .

#### مدراس في سنة ١٧٠٠ م :

كانت مدراس بطبيعة الحال حوالي سنة ١٧٠٠ م أصغر في الساحة وأقل سكاناً مما هي عليه في الوقت الحاضر . وكان الحصن أقل من نصف حجمه الحالي ، تتألف منه المدينة الأوروبية ، « وتجري في بوابته البحرية الأعمال التجارية ، وكان يزدحم بها

---

ستونفبرسنه ١٦٤٥ ومنع فيه شرى رانجا أصطاب المصانع البريطانية في مدراس إعفاء من الرسوم الجمركية كما خولهم سلطة القيام بالشئون الإدارية في المدينة ، راجع كتاب التواريخ الزمنية للهند الحديثة ( بالإنجليزية ) بقلم جيسس بيرجس James Burgess - لإدنبه سنة ١٩١٣ ص ٩٣ و ٩٥ ( المترجم ) .

(٢) لف Love المصدر نفسه ص ٤٢ : ٦٨ ، وم ٢٧١ وما بعدها .



التجار الوطنيون . أما التجار الإنجليز فقد كان الكثيرون منهم يضعون العمام على رؤوسهم ويرتدون الملابس الهندية ، يأخذون في الصفق والساومة لحساب الشركة أو لحسابهم الخاص .

وكان الماس يهرب من جولكوندا والياقوت من بورما واللؤلؤ من توتيكورن Tuticora وخشب الصندل من ميسور . أما الحبوب والتوابل وأزوتات الصودا والنيلة وأقمشة القطن فتخصص للتصدير . والملح وجوز النخيل [وَيُضَعُ نظراً لحواصه المسكرة] والسمن الهندي والتبن وغيره من السلع فإنها تخصص للتجارة الداخلية . وقد وجدت هذه السلع كلها طريقها إلى هذه السوق القريبة المرتجلة ، تبادلها أبدى التجار عند البوابة البحرية <sup>(١)</sup> . « وكانت للدينة الوطنية التي زالت معاملها منذ هذا التاريخ متصلة بالبحر الأوروبي من جانبه الشمالي . أما مدينة جورجتون الحالية فكانت تقع في أقصى الشمال . وكانت ضاحية قليلة السكان تتخللها الحدائق العامة وللتنازل ذات الحدائق . وكان يلعباً إليها تجار الشركة التماساً للراحة من عناء الأعمال . وإلى غرب الحصن كانت هناك قرى صغيرة تحيط بها الأرض الزراعية التي تستغلها الشركة اعتماداً على تراخيص غير ثابتة من حكومة البلاد التي تسيطر على جميع المناطق الواقعة جنوبي تريليكين Triplicane والتي ليس للبريطانيين عليها أية سيطرة أو نفوذ .

ومما يدل على أن هذا المصنع الذي أنشئ في مدراس لا تجمعه وحدة معينة بل يجمع اشتراكاً من جنسيات عديدة ، ما سبق أن حدث في يونيو سنة ١٦٤٢ م عندما قرر مجلس إدارة حصن سنت جورج استبقاء الراهب الفرنسي إفرايم دي نيفير.

(١) السيرة في Mrs Penny : حصن سنت جورج بمدراس - لندن سنة

Ephraim de Nevers لكي ينهض بالشعائر الدينية الخاصة بالقيمين في المدينة من البرتغاليين الكاثوليك الذين اجتذبهم مدراس ، قدموا إليها من المستعمرة البرتغالية المجاورة في سان تومي San Thomé . وقد بنى الراهب كنييسة كرسيت للرسول سنت أندروز . وكانت في أول أمرها حظيرة من الخشب ، ثم أقيم لها مبنى في سنة ١٦٧٥ م ، يقع إلى الجهة الشمالية من الحصن . وقد كثر قيام المشاجرات بين الفريقين المتجاورين ، مما أفضى إلى اعتقال إفرايم وسجنه في سان تومي في سنة ١٦٥٧ م ، ثم أرسل إلى جوا لهافته أمام محكمة التحقيق . غير أن هذه المنازعات سوت في ماهدة عقدت في ديسمبر سنة ١٦٥١ م . وعاد إفرايم إلى الحصن في سنة ١٦٥٢ م . ومن الطريف أنه جاء في إحدى مواد الماهدة ما يقضى بوجوب إعادة النساء للتزوجات اللاتي هربن من يوتهن إلى أزواجهن ، غير أنه لم تيسر إنفاذ هذا القانون بالنسبة للأزواج الذين كانوا آنذاك لا يماشرون زوجاتهم وكانوا قد تقيوا عن يوتهم غية منقطة .

وكان بقاء البرتغاليين في مدراس زهنا بوجود آباء الكابوشيين ، وقد شعرت العناصر البريطانية أن رحيل البرتغاليين عن الحصن يؤدي إلى تساؤل قوته وإلى التضييق من شأنه في نظر جيرانه من الهنود ، إذ كانوا يدركون جيداً « ما يثيره وجود الرجل الأبيض من رهبة وفزع في نفوس جيراننا »<sup>(١)</sup> .

وقد نجم عن حصار جنود جولاكوندا الحصن سان تومي في سنتي ١٦٦١ — ١٦٦٢ م هجرة عدد كبير من التجار البرتغاليين إلى حصن سنت جورج مما أدى إلى ازدياد نشاطه التجاري وتوديم قوته . وقد تيسر استخدام الجنود البرتغاليين لقاء مربات تبلغ نصف أو ثلاثة أرباع ما يدفع لأمثالهم من الجنود البريطانيين<sup>(٢)</sup> . وحوالي سنة

(١) المصدر نفسه ص ١٨٣

(٢) المصدر نفسه ص ١٩٦ و ٢٠٩ : ٢١١

١٦٧٠م كتب توماس بوري Thomas Bowrey ياناً شاهناً ذكره فيما يلي :  
 « لقد سمع الكثير من البرتغاليين بالإقامة ( في مدراس ) إذ أنهم ارتضوا أن  
 يخضعوا للحكم البريطاني وكثير منهم من كبار التجار . . . وكثير منهم ممن يحمل  
 أيضاً السلاح في خدمة شركة الهند الشرقية المحترمة . . . ولكن لا يبين أحد منهم في  
 منصب من مناصب الديوان . ومع أن مرتباتهم مثيلة فلإنها تكفل لهم عيشاً طيباً .  
 وهي تدفع لهم شهرياً كسائر الجنود البريطانيين ، كما تقدم لهم اللؤن والملابس التي  
 تلائم هذا المناخ وهي ملابس رخيصة وجيدة . . . أما السكان اللوطينيون فهم جميعاً  
 من أجناس أدنى منزلة، Gentiles . وكثير من اللباريون Mallabars يعيشون عند  
 الأسوار الخارجية لهذا المكان الذي يسمى حصن سنت جورج . وقد سمعت رواية  
 يمكن أن يوثق بها وهي أن هناك ما لا يقل عن أربعين ألفاً من الرجال والنساء  
 والأطفال ، ممن يخضعون لرأية حصن سنت جورج ، ويدفعون جميع أنواع الضرائب  
 على البضائع التي يشترونها أو يبيعونها ، وذلك في نطاق مرعى مدافنا<sup>(١)</sup> . وفي  
 سنة ١٧٩٢م سمع للبرتغاليين البروتستنت أن يؤدوا صلواتهم مرة في الأسبوع بلغتهم  
 الأصلية في كنيسة القديسة ماري القائمة في داخل الحصن ، إلى أن بنيت لهم كنيسة  
 خاصة جمعت تكاليف بنائها من تبرعات السكان<sup>(٢)</sup> .

### الأومن :

وقد كان الأرمن أحد العناصر الأجنبية الشهيرة بين سكان مدينة مدراس . ففي  
 سنة ١٦٨٨م سمحت الشركة الإنجليزية بإقامة الأرمن في المدن البريطانية في الهند ،  
 وخولتهم جميع الامتيازات التجارية والحقوق التي يتمتع بها الإنجليز . وكان ذلك  
 بتوصية من مير جوسيا تشيلد Sir Josia Child نائب الحاكم آنذاك ووساطة

( ١ ) المصدر نفسه ص ٢٧٩ : ٢٨٠

( ٢ ) المصدر نفسه ص ٤٨٠

سير جون شاردن Sir John Chardin في لندن الذي كان من كبار تجار أصفهان وإذا بلغ عدد القيمين من الأرمن في أى مكان في المدن البريطانية في الهند أربعين أرمنياً ، فإنه يسمح لهم بإقامة كنيسة ويعنحون الأرض التي تقام عليها ، ويقدم لهم مبلغ خمسين جنياً سنوياً لمدة سبع سنوات مرتباً للقسيس<sup>(١)</sup> ( الذي سيستخدمونه في أداء عباداتهم ) .

وعلى الرغم من الامتيازات الخاصة التي منحت للتجار الأرمن ، « فقد أظهروا قدراً بالغاً من الوقاحة والتبجح والطرسة » ، كما لاحظ ذلك رئيس الحصن في سنة ١٧٢٤م<sup>(٢)</sup> . وكانت تجارة مانيل في الفلبين كلها أيديهم ، وكانوا يستخدمون الأجزاء السفلى من السفن الدنكرية في استيراد البضائع من أوروبا ثم يصدرونها إلى بوند يشرى والوافي الأجنبية الأخرى في الهند . وقدم من مانيل بطرس أوسكان Petrus Uskan الذي لعب دوراً هاماً في الحياة الاجتماعية بمدينة مدراس . فقد بنى على نفقته الخاصة جسر مارمالونج Marmalong Bridge ( والتسمية محرفة عن مامبالام Mambalam وهو اسم قرية على مقربة من سايدابت Saidapet ) . وقد شيد هذا الجسر فوق نهر أوديار Adyar في سنة ١٧٢٦م .

وكان أوسكان Uskan يعطف كثيراً على الكاتوليكية فقد شيد سلباً طويلاً ذا رجات يصل إلى كنيسة قديمة على قمة جبل سانت توماس ، وفتح ضريح القديس توماس في سنة ١٧٢٩م حتى يتسنى للمؤمنين أن يحجوا إليه . ويستند أن الإشارة إلى ذكرى افتتاحه قد نقشت على حجر بالأحرف الأرمنية ، والعبارة مفادها : « إحياءً لذكرى الأمة الأرمنية في سنة ١٧٢٩م » . وقد أقيم الحجر في الجدار الشرقي

---

(١) المصدر نفسه ٥٤٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٣١ : ٢٣٢ .

الكنيسة القديسة ريتا St. Rita في نهاية المنطقة الجنوبية في الشارع الرئيسي لسان تومي .

وقد قام أوسكان بشراء بعض المخازن في داخل الحصن في المدينة البيضاء في سنة ١٧٤١ م . وبعد ذلك بعامين قرر مجلس الشركة الإنجليزية أنه : « نظراً لأن جانباً كبيراً من المدينة البيضاء صار في حوزة الأجانب ، فإنه لن يسمح لتغير رعايا بريطانيا العظمى أن يقتوا عقاراً إلا بإذن خاص من الحكومة » . وقد اتخذت في نفس الوقت خطوات لمنع السليين من السكنى في المدينة السوداء<sup>(١)</sup> . وقد توفي أوسكان في سنة ١٧٥١ م في السبعين من عمره . وفي السنة نفسها قدم شومير سلطان shaw mier Sultan ملتصقاً يطالب فيه بتعويض ثمناً لبيته في شارع شارل الذي كان يقيم به آنذاك نائب الحاكم ، كما طالب بمواصلة إقامته في المدينة البيضاء في مدراس وكان مديرو الشركة قد حظروا على الأرمن حظراً قاطعاً أن يقيموا بها . فكان عليهم أن يتنازلوا عن بيوتهم في المدينة البيضاء للأوروبيين وأن يذهبوا للإقامة في المدينة السوداء . وذكر مديرو الشركة أنهم « لم يصدروا قرارهم هذا بسبب بغض يستشعرونه بصفة خاصة نحو الأرمن ، إذ أنهم على العكس يرونهم شعباً يلتصق به إلى أقصى حد ، وعلى ذلك فمن الواجب أن تدبر لهم مساكن أخرى » . يمكن أن يوجد منها في المدينة السوداء<sup>(٢)</sup> . كما أمروا أيضاً بدم كنيسة البرتغاليين الكاثوليك في المدينة البيضاء . ولا يزال الشارع الأرمي إلى اليوم أحد الشوارع الهامة في حي الأعمال بمدينة مدراس .

#### اليهود :

كان هناك أيضاً بعض اليهود ممن يعمل أغلبهم في تجارة اللباس بالاشتراك مع

(١) المصدر نفسه ص ٣٠٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٧٦ .

التجار اليهود في لندن ، وكانوا يستوردون اللرجان إلى مدراس . ويزكرنا شارع  
تجار اللرجان بهذه التجارة التي كانت قائمة في القرن الثامن عشر ، وفي تاريخ سابق  
فيما بين سنتي ١٦٨٣ و ١٦٨٧ م كانت قد نشأت جالية صغيرة من تجار اللاس من  
اليهود البرتغاليين ، واستطاعت أن تعمل لها على جبانة خاصة بها تقع إلى الجنوب  
من شارع مينت Mint في ميدانايكتا<sup>(١)</sup>.

### الظروف المفايرة في بومباي وسورات :

يمكن القول بصفة عامة أن الظروف والأحوال في كل من مدراس وكلكتا لم  
تسكن لتشجع على حرية الاتصالات الاجتماعية أو إقرار المساواة بين الأوروبيين  
والهنود . ففي غمار الصراع السياسي في الأراضي المجاورة كان العمال والصناع  
الهنود ينظرون إلى البريطانيين في مراكز استيطانهم التي تصودها حياة اقتصادية  
منظمة والتي لأهلها من القدرة على الدفاع عن أنفسهم ما يدفع عنهم غائلة الاعتداء ،  
على أنها حتى يلجأ إليه ، يحظى العائد به بالأمن والطمأنينة ، وإذا ما سمح له بالإقامة  
فيه عد ذلك من أعظم للن .

ومن جهة أخرى أفتح كل إنجليزى نفسه ببلخ ما عليه التجار الهنود في كل من  
مدراس وكلكتا من خداع وحقارة . بينما كان هؤلاء الآخرون يدركون جيداً  
ما يغيب على التجار البريطانيين من الأثانية والجشع ، والمخالة في السلب والنهب  
والسمى للحصول بكل الطرق على أكبر قدر من الثراء .

غير أن الأحوال في سورات وبومباي كانت مفايرة لهذا تماماً . فالإنجليز في  
سورات أقاموا مصانهم في أرض تخضع خضوعاً تاماً لحكم التتول . كما درجوا عهداً  
طويلاً على تقاليد يتعاملون فيها على قدم المساواة مع التجار الهندوكيين والمسلمين

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٨٦ .

والبارسين . وقد أكسبتهم هذه النزعة نظرة رحيمة تسمح للجمل لجميع الجنسيات ، كما زودتهم بقاعدة أفضل للاتصالات الاجتماعية الحرة والتعاون المتبادل .

هذا وإن بومباي في نشأتها التاريخية بدأت بقاعدة برتغالية ثم بريطانية ، نمت حولها تدريجياً للمدينة الهندية ، ولقي اتصال عمراتها بعض الصعوبات فقد تجتم اجتذاب التجار إليها لأن سورات سبق أن توطدت بها دعائم العمران إذ كانت أقرب اتصالاً بالطرق التجارية الكبرى . ونذكر عرضاً أن من الخصائص التي تهرت بها بومباي وجود عدد كبير من الأرقاء الزنوج بها ممن كانوا يستخدمون في مختلف الأعمال . وكانوا يستوردون من مدغشقر على سفن إنجليزية ، ومن مناطق البحر الأحمر بواسطة النحاسين العرب . وكانت الحكومة تستخدمهم جنداً وعمالاً ، وعينت عناية بالغة بوضع القواعد والنظم التي تكفل حسن معاملتهم<sup>(١)</sup> . أما البارسيون فقد تأخر توافدهم في أفواج كبيرة . ولكن لما استقر مقامهم في بومباي فإنهم مالبتوا أن صاروا من ذوى للسكان والنفوذ ، ذلك لأن نظرهم إلى الحياة كانت أقرب إلى الأوروبيين من سائر الجماعات الهندية الأخرى . وقد كانوا أول من ارتدى الزي الأوروبي . وكانت جماعتهم أميل إلى الوداعة والسالة ، يعتمد أفرادها على أنفسهم . وكانوا ذوى عزمة وإقدام في أعمالهم التجارية بقدر ما امتازوا به من الألفة وحسن المعاشرة .

#### موظفو الشركة :

كان الخط الأوسط من موظفي الشركة البريطانيين الوافدين على الهند هم ممن يشتغلون بالأعمال الكتابية ، وكانوا يبدأون في تقلد وظائفهم في الخامسة عشرة من العمر ، يقضون سنوات الحدائة التي يشتد فيها أثر الانطباعات بين ظهراني الهنود ،

---

(١) سير Spear المصدر نفسه ص ٧٣ .

وذلك في وقت لم يكن قد استوى فيه عودهم بعد ولم ترسخ في نفوسهم ما يقوّمون به شخصيتهم من المبادئ والعادات . وغدا للوقف حرجاً عندما استولت الشركة على ديوان بنغالة في سنة ١٧٦٥م ، ونحتم عليها أن تُفَرِّق صفار موظفيها في جميع أنحاء الديرية للقيام بجمع الضرائب ، فجعلتهم بذلك أوثق اتصالاً مع سادة الريف والنواب وملوك الأراضي . وقد ساعدت هذه الظروف بدرجة كبيرة على تخنيد الإنجليز وتيسير اصطناعهم لطرائق الحياة الهندية وعاداتها . وقد لاحظ دودويل (١) Dodwell في حديثه عن مدراس مثلاً أنه لم يكن هناك من الرأئس الإنجليزيات سوى عدد ضئيل منهن ، وأن للنازل النائية كانت تستخدم لسكنى الخيليات . ولكن علينا مع ذلك أن نذكر أن النوع الأكثر ثقافة من موظفي الشركة ، أحسن الانتفاع بهذه الفرص ليغرس في نفسه تمشق الأدب الفارسي والأدب السنسكريتي أو العناية بالأساطير الهندوكية أو الاشتغال بالشعائر الاجتماعية والآثار المحلية وغيرها .

### الجنود البريطانيون يحولون دون التهديد :

ومع ذلك فقد كانت هناك مؤثرات قوية تعوق عملية التهديد تعزى إلى وجود عدد من جنود الجيش لللكي البريطاني في الهند . وقد كانت خدمتهم العسكرية في البلاد الهندية تعد مجرد مهمة مؤقتة لا يقصد بها البتة اعتبار الهند المجال الدائم لمملهم في الجندية ، فكانوا يتطلعون دائماً إلى الوقت الذي يعودون فيه إلى إنجلترا . وفي القرن السابع عشر كان هؤلاء الجند في بداية أمرهم قلما يتجاوزون النطاق الخارجي لمدينة بومباي . ولكن حين بدأت حروب الكرنات بين الإنجليز والفرنسيين في

---

(١) هنري دودويل : نواب مدراس - لندن سنة ١٩٢٦ م ص ٢١٠ .



أواسط القرن الثامن عشر اختلعت أعمال الشركة العسكرية بالحروب الاستعمارية الكبرى بين إنجلترا وفرنسا ، بدأت أفواج من جنود الجيش الملكي البريطاني وضباط البحرية تعد على الهند ، وبدأ الإنجليز عند تكاثر عددهم يتطلعون إلى أن يجعلوا عظم حياتهم مطابقاً بقدر الإمكان لنمطها في بلادهم ، فبدلاً من أن يكتفوا بأنفسهم حتى تتلاءم معيشتهم مع ظروف الهند ، أصرروا على أن تكون جميع المراكز التي اتخذوها مواطنين لإقامتهم صورة ماثلة تماماً لأنموذجها الأصلي في إنجلترا . وقد ظل المذهبان لفترة من الزمن في القرن الثامن عشر قائمين ، أو كما يقال «يتعايشان» ولعل أبرز مثال لهذا ما تزودنا به مدينة لكنو ، حيث رأينا كما سبق أن ذكرنا ، أن النائب Nawab نفسه كان يصطنع أسلوب الحياة الأوروبية ويتبرجج بقدر ما كان يعمل الأوروبيون المحيطون به على تهنيذ أنفسهم باصطناع أسلوب الحياة الهندية .

#### عوامل أخرى ذات طبيعة معالة :

ولكن بعض الوقت قدر للمذهب الإنجليزي الفوز في النهاية بفضل عدد من الظروف والملازمات التي ساعدت على تحقيقه ، فقد عمل كورنواليس Cornwallis على إقصاء الهنود عن المناصب العالية في خدمة الشركة . وظلت هذه القاعدة سارية حتى أوائل القرن العشرين . كما أن افتتاح قناة السويس والتحسينات للطرد في صناعة السفن التي تسير بقوة البخار وفي وسائل المواصلات الأخرى التي قصرت فترة سفر بين إنجلترا والهند زادت من توثيق الصلات بين البلدين ، وتيسر للنساء البريطانيات الزواج إلى الهند والعيش فيها مع أزواجهن . ونرى فوق كل شيء أن تدعيم إنجلترا لتفوقها السياسي وبسط سيطرتها على جميع أرجاء الهند والسكان العالية التي أضفتها هذه الأوضاع على البريطانيين ، كانت كلها مؤثرات قوية أيدت هذا الاتجاه . وأخيراً خلقت حوادث سنة ١٨٥٧م جواً من الشك وسوء الظن للتبادل سمَّ العلاقات بين الحكام والمحكومين لفترة تزيد على جيل كامل .

## العلاقات بين الأجناس :

كان بين الأوروبيين والهندوكيين والمسلمين من الفوارق وفي نظرهم للحياة ما ياعد كثيراً فيما بينهم . ولكن لم يكن هناك أى أثر لشاعر عنصرية أو أى حديث فى تفاوت الأجناس وتفاوت بعضها وانحطاط البعض الآخر . وقد لاحظ الحالة الأجانب من أمثال بلسايرت Belsaert وبرنيه Bernier ومانوتشى Manucci كثيراً مما يشوب المجتمع الهندى والحكومة الهندية من الميوب والتقص الذى تناولوها بالفرح والتطبيق . ولكن لم يبد واحد منهم أى اعتراض على مخالطة الهنود والعيش بين ظهرانهم ، بل حبذوا الانخراط فى خدمتهم والعمل تحت إشرافهم . ومع ما عشى علاقات الجانبين من جهل مشترك وتحامل متبادل فى تقدير كل منها للآخر ، فإنه لم تكن هناك أية علامة من علامت التعيز العنصرى .

وحق فى هذه الفترة التى تميزت باختلاط جميع الجنسيات ، كان اتصال الأوزوبيين بالمسلمين والبارسين أكثر تحرراً من اتصالهم بالهندوكيين ، نظراً لقيود نظام الطبقات عند الآخرين ، وهى قيود تحول دون اللؤاكلة inter-dining .

وفى القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر ، كان فى كل مركز من مراكز إقامة البريطانيين حفنة من موظفى الشركة يضاف إليهم عدد من التجار الأحرار [ الذين يشتغلون لحسابهم الخاص ] ثم الجند من الهنود . وكان هؤلاء مصدراً للقلق وللتناب للسترة بسبب تقاليدهم وعاداتهم التى درجوا عليها وكذلك بسبب طباعهم وتصرفاتهم ، وكان هناك أيضاً عدد كبير يتراوح بين الزيادة والنقصان من البعارة وغيرهم . ولعلنا لا ننسى أن هذه الطبقة كانت تتألف منها غالبية مرتادى الحانات الكاثوليكية وبيوت النبيذ التى كانت أعظم الأماكن المحيية إليهم التى ينتجعون إليها .

ومع وجود قلة من موظفى الشركة الذين كانوا يعيشون مع أسرهم ، فقد كان

هناك نقص زائد في عدد النساء الأوروبيات . ولم تكن هناك مشاعر قوية تستنكر الزواج المختلط حتى القرن التاسع عشر . وقد تزوج البعض بالفرنسيات والبرتغاليات . غير أن الزواج بالنساء اللواتي كان أمراً مقبولاً وعادياً . وكان ينظر إلى ذرية هؤلاء الذين كانوا يسمون بالتوباس Topasses أو الأوراسيين Eurasians أن لهم «حق بالتوظيف» في خدمة الشركة . وكان منهم جماعة في حامية مدراس العسكرية .

وقد لاحظ ماندلساو Mandelslo في سنة ١٦٣٨ م أن « سكان جواهم إما من الكاستيز Castizes أى من أبوين برتغاليين أو ميسيز Mestizes أى من أب برتغالي وأم هندية . ويتميز الميسيز بلونهم اللاتل إلى لون الزيتون ، غير أن الجيل الثالث منهم يصل في سواد بشرته إلى درجة تماثل سواد السكان الوطنيين . وقد حدث هذا أيضاً في الجيل الرابع من الكاستيز مع أنه لم تشب نسلهم أية هجنة <sup>(١)</sup> » . وقد نهج الإنجليز أيضاً — بدرجة متفاوتة — نهج البرتغاليين لفترة من الزمن . ولكن الحكومة حظرت للمصاهرات المختلطة ، واشترطت الحصول على موافقتها لعقد أى زواج مختلط . كما كانت هذه هي القاعدة للثمة في بونديهرى ، بل أقام الهولنديون محكمة مختصة بالنظر في مدى صلاحية الطرفين للزواج وكفاءة كل منهما للأخر <sup>(٢)</sup> .

وعلى طول ساحل كورومانديل Coromandel في سنة ١٦٩٩ م قدر عدد الإنجليز بمائة وتسعة عشر رجلاً وإحدى وسبعين امرأة ، سبع وأربعون منهم كنّ متزوجات ولكن الكثيرات منهن لم يكن من الإنجليزات . أما عدد الإنجليز من السكان المدنيين في مدراس في الفترة نفسها فقد قدر بمائة وأربعة عشر رجلاً، سبعة وسبعون منهم من

(١) اتبناها سير Spear في كتابه السابق الذكر ص ٦١ .

(٢) دودويل Dodwell المصدر نفسه ص ٢٠٢ .

موظفي الشركة . تسعة وعشرون من غير الموظفين وتسعة وثلاثون من البحارة وإحدى عشرة امرأة من الأراذل وثمان من الآنسات. وإذا أضفنا الجنود إلى هؤلاء بلغت جملة العدد أربع مائة نسمة . وكان في كلكتا آنذاك عدد أكبر من البريطانيين يبلغ نحو ألف ومائتين ، توفي منهم ، كما يقول هاملتون Hamilton في فصل واحد من فصول الصيف أربع مائة وستون<sup>(١)</sup> .

وقد أسفرت تربية الأطفال المهجاء عن عدة مشكلات عولجت بمختلف الطرق وعلى مستويات متفاوتة . فالأطفال غير الشرعيين من أبناء وارن هيستنجز ربوا في إنجلترا وظهرت عليهم ملامح التجابة والرشد ، كما أوضح ذلك بالر Palmer في رسالة إليه . وفي رسالة أخرى لبالر يتضح منها أن Innes كان له ثلاثة أطفال غير شرعيين وهجاء ، إثنان منهم كانوا صهياً كالأطفال الإنجليز الخالص تماماً . ولقد أرسلوا إلى إنجلترا ليتلقوا تعليمهم هناك . أما الثالث « فقد زادت سمرة إلى الحد الذي يسهل معه التعرف على هجته » . ولذلك فقد أرسل إلى بنفالة ليتلقى تعليمه بها، مع أنه أقوى إخوته بنية<sup>(٢)</sup> وقد بقي بعض هؤلاء الأطفال في إنجلترا حتى صاروا أيماعاً . ولكن غالبيتهم — بعد أن تهذبوا تهذيب السادة عادوا إلى الهند يقضون حياتهم بها ، ويعملون في الوظائف الكتابية . غير أن موقفهم أحاطت به الصعاب بعد سنة ١٧٩٢ م حينما حظرت الحكومة استخدامهم في وظائفها .

وكانت هناك ملاجئ<sup>٣</sup> للأيتام في كلكتا ومدراس يترى فيها الأطفال الذين لا يرسلون إلى إنجلترا . أما أبناء الضباط فقد أنشئ<sup>٤</sup> لهم معهد خاص في سنة ١٧٨٢ م ينفق عليه بما يستطع شهرياً من مرتبات الضباط وتقدر هذه الاستقطاعات تقديراً

(١) المصدر نفسه ص ٦٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٦٣ .

تصاعدياً طبقاً لرتبهم . » وكان أبناء الضباط يبيتون للعمل في الشركات وأبناء الجنود يرسلون إلى كتائب الجيش للعمل في فرق الموسيقى طبالين وزمارين . وكثير من البنات يتزوجن بالجنود الأوربيين . وقد قلل هذا من الإباحية السابقة . واشتغل بعض البنات وصيغات للسيدات أو تزوجن بالضباط ، غير أن الكثرات صرن أخداناً ، بسبب كراهية الإنجليز للزواج المختلط .

وقد لحقت السيدة بنى Mrs.Penny للوقف في مدراس حوالى سنة ١٧٩٠م على الصورة التالية : « كان المجتمع الإنجليزي في عهد جورج الثالث متحلاً في أخلاقه ، حيث استباح الإنجليز لأنفسهم حرية لا ضابط لها ، عدوها تعويضاً لهم عما يلاقونه من عناء في حياتهم في اللقي . وكانت هناك نسبة معينة من الرجال الذين لم يتابعوا السير في مضمار العناية فآخذوا لمن زوجات وآثروا الحياة الشريفة البعيدة عن العبث والجهنم . غير أن عدد النساء الإنجليزيات لم يكن متوافراً . ولذا وجد كثير من الرجال أن من الأسر لهم أن يخذلوا النساء الوطنيات أو الأوراسيات بدلا من أن يسعوا للزواج من امرأة من نساء الطبقة التي ينتمون إليها . ونشأ عن هذا التسرى زيادة كبيرة في عدد السكان ممن هم من أصل أوراسي . وكثير من الأطفال الأوراسيين كانوا يعمدون في الكنيسة وتسجل لهم أسماء ليس لهم حق قانوني في اتخاذها <sup>(١)</sup> » .

### النساء الانجليزيات في القرن الثامن عشر :

كان النساء الإنجليزيات في الهند في القرن الثامن عشر يحتلطن بالهنود في حرية وانطلاق . ولم تكن قد نشأت لديهم تلك الميول والمحظورات التي عرفت بها خليفاتهم في العصر الفيكتوري . فلم يجدن أية غضاظة مثلا في الاختلاط بالرجال من الهنود

---

(١) السيدة بنى : المصدر نفسه ص ١٨١ .

الذين كان نساؤهم يمشن محجيات عن الأنظار . وقد ملنَ أحياناً إلى التحرر في مسكنهن بما كان يثير التقزز والنفور في مشاعر الهنود ، بل إنهن من وقت لآخر كن يدخنن النارجيلة ، ولا شك أنهن لم يرين بأساً في أن يقوم غيرهن بتدخينها وهم في صحبتهن . وكن يشين حفلات الرقص الهندية ويستمتعن استمتاع الرجال بها . وقد سارن الزى الشائع وهو ارتداء العمامة واستحدثته في لندن وكن يستملن بعض الكلمات الأردية مثل كلمة bibi .

غير أن ازدياد عدد هؤلاء النساء وما طرأ على نظراتهن ونزعاتهن من تغير أدى إلى ارتفاع مستوى أدبهن وتهذيبهن كما أدت حرية الاتصالات الاجتماعية في القرن الثامن عشر إلى تكوين صداقات شخصية وثيقة بين الإنجليز والهنود . وهناك أمثلة عديدة ذوت أخبارها . وتتميز علاقات المودة هذه بصفة خاصة إلى أن الهنود آنذاك لم يكونوا بحاجة إلى تعلم الإنجليزية لاكتساب مودة الإنجليز لأن الآخرين كانوا قد حصلوا على قدر يعتد به من طلاقة الحديث باللغة الفارسية أو الأردية ، بل أجادوا في بعض الحالات التحدث بالسكربتية .

#### التغيرات في القرن التاسع عشر :

غير أنه حدث في أواخر القرن الثامن عشر تغيرات ملحوظة في هذه الظواهر كلها ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، فإن اللورد كورنواليس ، بإقتضائه للهنود عن تقلد اللباس الكبيرة في الحكومة عمل على خلق طبقة من الإنجليز انقردت وحدها يشئون الحكم . وجاء شور Shore بعد كورنواليس وكانت له معرفة جيدة بأحوال البلاد وأهلها . ولكنه كان كسلفه متشدداً في منع الاتصالات الاجتماعية . وخلفه ولسلي Wellesley الذي كان يعيل إلى معاملة الأمراء الهنود باعتبارهم أقداماً جهلة كثيراً الثروات والسقطات في حاجة إلى أن يصعدوا دوماً بإرشاداته وأن يقهرهم على الانصياع إلى توجيهاته . كما كان ينزع إلى تجاهل غيرهم ممن هم أدنى منهم منزلة .

ودرج على إقصاء كل من الهنود والتجار من منهم ، عما كان يقام من الولائم والحفلات في دار الحكومة . وقد بلغ من تبهه وغطرسته أنه كان في معاملته لمثل السلطات المحلية ، يلتزم بأن تكون الشقة بيته وبينهم بيده بقدر الإمكان . وهو الذي استحدث تقليداً جديداً جرى فيه على اعتبار الهنود ذوى حضارة أخط منزلة ، وأنه يتحتم قبل كل شيء إشعارهم بالأبهة والمظنة وسعة النفوذ والسلطان .

وقد كتب بالمر إلى وارن هيستنجر في هذا الصدد يذكره بصلته الوثيقة بعدد من السادة الهنود كانوا من بين أصدقاء هيستنجر ، ثم مضى يقول : « إنى ألاحظ بقلق بالغ ذلك النظام الذى تسير عليه الحكومة الحالية ، ويكاد يسايرها فيه كل أوروبى في أخلاقه وتصرفاته مما يسىء كثيراً إلى أصدقائك الهنود ويسبب لهم مزيداً من القم والسكدر . فقد أبعدوا عن جميع الوظائف المحترمة ، أو عما يدر منها دخلاء . ويلقون في المجتمع معاملة تنطوى على التعالى والغطرسة والتجنب والتحفظ يسامون بها خسفاً وهواناً . لقد انقطع حقاً كل ما يبتنى وبين الإنجليز من العلاقات الاجتماعية<sup>(١)</sup> . »

وفي أوائل القرن التاسع عشر في سنة ١٨١٠ م زارت السيدة جراهام Mrs Graham بومباى ومدراس وكلكتا وأحزنها أن « ترى تلك الشقة التى تباعد بين الأوروبيين والوطنيين ، إذ قد بلغ من اتساعها في كل من كلكتا ومدراس أنه تعذر على التعرف على أية أسرة فيهما كما تسير ذلك في بومباى . إن هذا الاختلاط يفتنى فيما أعتقد أن يعمل على إضفاف نوازع التحامل المتبادل بين الشعبين . غير أن أثر هذه النوازع في مشاعر الإنجليز قد أدى فيما يبدو إلى نتيجة عكسية . فكل بريطانى يرى في نفسه وقد شفع بأنفه في تيه فاضح وزهو وقبح أنه يتثل الإنجليزى النموذجى ( جون بول ) . »

---

(١) سير Spear المصدر نفسه ص ١٣٩ .

وقد ازدادت الحالة سوءاً وتفاقت في السنوات التالية ، حتى عدّ سماح بنتك Bentinek للهنود بأن يأتوا لسراى الحاكم العام في عرباتهم دليلاً على فيض سماحته وغامر به وشهامته . وقد أطلع الإنجليز عن مواصلة السير على تقليد كان متبعاً ، كفوا فيه عن زيارة كبار الأعيان إذا ما قلدوا منصباً في اللقاطعات التي يوجدون بها . وأخذ الواحد منهم في التثبت من شأن كل هندي فيما يتعلق بحقيقة منزلته وجاهه قيل أن يسمح له بالقدوم لزيارته .

#### دور النساء :

ومن العوامل الرئيسة في تقايم النفور والتباعد بين الإنجليز والهنود زيادة عدد النساء الإنجليزيات ممن قدمن منهن إلى مراكز الإقامة بالهند حيث أنشأن لهن بيوتاً وأسراً . وجذا ما نجم عن قدومهن من تغيير طيب الأثر ، إذ ساعد وجودهن على تهذيب أخلاق الإنجليز في الهند بكفهم عن المحون والاستهتار وحملهم على العيش في ظل حياة عائلية سليمة غير أنه لسوء الحظ كان للبيئة الفرية التي أحاطت بالنساء الإنجليزيات فعل مضاد ، كثيراً ما صاحبه الانفعال والتجامل مما أدى إلى إثارة مخاوف الرجال وذلك بسبب ما عسى أن يقع في أي وقت من ضرر أو أذى لنوبيهم وأصدقائهم .

بل نرى أن المجتمع الإنجليزى في الهند ، قبل حلول سنة ١٨٥٧ م كانت قد بدأت تساوره مشاعر القلق والاضطراب وهواجس الرية والترقب ، كما يتضح لنا من نشرة عنايتها : « ملاحظات عن الهند » . طبعت في سنة ١٨٥٣ م ، غلامن اسم كاتبها . وقد جاء فيها : « إن كل شاب إنجليزى يقوى على أن يعول زوجة يقدم على الزواج ، ثم لا يلبث بعد تزوجه أن يحتل قلبه وقلوب امرأته تقوراً وحقداً على البلاد وأهلها وعلى كل ما عت إليه بصله . وإذا ما اتفق للزوج حظ من النظر الفلسفى لمو قدر من إيمان الفكر فليس لامرأته دون ريب نصيب منها . وما تردده امرأته



من عبارات الصِّحة ( في سورة غضبها ) في مثل قولها : « زنوج قباح » ،  
« وصاليك وثيون أبحاس » ، و « مخلوقات قدرة » ، ليس سوى أصداء لما يضح  
به زوجها في تقصه للهنود بقوله . « وحوش أداكم » ، و « هوام سوداء » .  
ويلتقط أطفالهم هذا السفه اللب والطبع التزق . وقد سمعت طفلاً إنجليزياً في الخامسة  
من عمره يسبب هندياً كان يقوم على العناية بأمره والسر على خدمته ، وذلك بقوله :  
« وحش أسود » . وليس ذلك لأن الإنجليز من ذابهم بصفة عامة أن يسطنوا الجفاء  
والقسوة أو يميلوا إلى الخشونة والغلظة ، ولكنهم لا يرون أية غضاضة في أن يعبروا  
عن غضبهم واحتقارهم بقدر ما تسعفهم به لغتهم من نوت مهينة وشتائم مقدعة .  
أما أولئك الذين يُدفع بهم وهم في مية الصبا إلى العمل بين ظهراني الوطنيين  
فسرعان ما يشمخون بأنوفهم ويطعمون صلفاً ويكتسبون من الطباع ما يحطهم نصف  
آسيويين<sup>(١)</sup> .

وكان الاستخفاف بمشاعر الهنود والتهاون بها أمراً شائعاً بين البريطانيين حتى  
أن اللورد دالموزي Dalhousie عند زيارته للمعبد الذهبي في أمريتسار Amritsar  
في ٢٢ نوفمبر سنة ١٨٤٩ م سار على أرض للمعبد المقدسة دون أن يخلع حذاءه ،  
وذلك على مشهد من آلاف المحتشدين من جماعة السيخ<sup>(٢)</sup> .

### سنة ١٨٥٧ وما بعدها

إن الحوادث الملمجة التي وقعت في سنة ١٨٥٧ م والتي كان لا مفر من وقوعها  
وصلت بالتباغض والتفور بين الفريقين إلى غايتها . فقد صارت القاعدة أن يكون  
للإنجليز أندية خاصة بهم . وصارت للتأميمات القديمة التي كانت تساعد على قيام  
الصدقات الشخصية بين الإنجليز والهنود على قدم المساواة أو ما يقرب من التكافؤ

(١) اقتبسها سير Spear المصدر نفسه ص ١٤١ .

(٢) خوشوانت سنج Khushwant Sing المصدر نفسه ص ٨٠ .

بينهما من وقائع الماضي التي عفا الزمن عليها وجر عليها ذيل النسيان ، وعلى الرغم من قيام الحركة القومية وانتشارها وهي التي تمد في ذاتها إحدى نتائج التربة الإنجليزية ، فإنها لم تؤد إلى تيسير الاتصالات الاجتماعية بصفة عامة ، مع ما كان هنالك دائماً من الاستثناءات التي تثبت لنا صحة القاعدة . ولكن ما لبث أن أنهى البريطانيون سيطرتهم السياسية على البلاد الهندية في سنة ١٩٤٧ م حتى عادت العلاقات بين الإنجليز والهنود إلى أوضاع طبيعية تسف بها أطراح جميع المؤثرات القديمة لتجاذب الريب ومُدْأخَلَة الشبهات ومحق مشاعر الاستملاء والتحقيق .

لوسيان جولدمان

الاشتراكية والنزعة الإنسانية

ترجمة: الدكتور فؤاد زكريا



كان كبار المفكرين النظريين للاركسيين في الفترة السابقة على عام ١٩١٧ يعتقدون أن انتصار الثورة البروليتارية ، وتحقيق اشتراكية وسائل الإنتاج ، والأخذ بنظام التخطيط للركزي ، يؤدي حتماً إلى قيام مجتمع لا يعود فيه الكيان الاجتماعي - بعد مرحلة تمهيدية هي مرحلة دكتاتورية البروليتاريا الديمقراطية<sup>(١)</sup> - منقسماً حسب الطبقات ، ويلقى فيه استغلال الإنسان للإنسان . ويرتب على ذلك أن يستوعب هذا المجتمع في داخله تلك القيم الكبرى للورثة عن النزعة الإنسانية لدى الطبقة الوسطى (كالإخاء ، والحرية الفردية ، والمساواة ، وكرامة الشخصية الإنسانية ، وحرية التعبير ) ، بحيث يضاف عليها لأول مرة في تاريخ البشرية طابعا من الصدق والأمانة ، بدلا من ذلك الطابع الشكلي البحت الذي كان يضيفه عليها المجتمع الرأسمالي<sup>(٢)</sup> .

صحيح أن المجتمعات الرأسمالية الديمقراطية تعترف قانوناً بمساواة المواطنين جميعاً وحريةهم أمام القانون ، وبحق كل فرد في التعبير عن آرائه بحرية ، غير أن الافتقار إلى المساواة في المجال الاقتصادي يؤدي إلى الحد من تلك المساواة والحرية القانونية ، وكذلك حرية التعبير عند الفرد ، بحيث تصبح مظهرأ شكلياً بحتاً ، مادام

---

(١) تعد هذه المرحلة دكتاتورية بقدر ما تتطوى على وجود دولة بروليتارية تطبق تدابير القهر على الطبقة الوسطى . وتعد دكتاتورية ديمقراطية بقدر ما تكون هذه الدولة ممثلة للأغلبية العظمى من الشعب ، وتطبق تدابير القهر ، لأول مرة في التاريخ ، على أقلية رجعية ضئيلة فقط .

(٢) سوف تظهر هذه الدراسة أيضاً في مجلد شامل لمجموعة من الدراسات بقلم كتاب متعددين ، في هذا الموضوع نفسه . وسوف ينشر هذا المجلد الإنجليزية ، بإشراف هـ لريك فروم Erich Fromm ، في دار Doubleday للنشر بنيويورك .

مواطنو مثل هذه الديمقراطية ينقسمون إلى أقلية من الأغنياء وأغلبية عظمى من العمال الفقراء نسبياً . والأهم من ذلك أن هذا الفقر يحرم السواد الأعظم من العمال من القدرة على التمتع الحقيقي بالحرية التي يعترف بها القانون<sup>(١)</sup> ، ومن الانتفاع من حق التعبير عن آرائهم بطريقة فعالة<sup>(٢)</sup> .

أما المجتمع الاشتراكي فهو الذي كان يُتوقع منه أن يعيد إقرار المساواة الحقة ، بل أن يقضى في أول مراحله على جميع الفوارق الملحوظة في الثروة ، حتى يتسنى له على له هذا النحو أن يضفي على الحرية والمساواة والكرامة الإنسانية معناها الكامل . في مثل هذا المجتمع يُقضى على الاستغلال ، ويخطط الإنتاج بطريقة رشيدة ، ويؤدي منع الإنتاج المخصص للسوق إلى إعادة تأكيد الطابع الكفائي للعلاقة بين البشر والسلع ، أو بينهم وبين غيرهم من البشر ، فيترتب على ذلك كله أن يتمكن مثل هذا المجتمع من أن يكون مركباً جامعاً ، على مستوى أعلى ، بين العناصر الإيجابية في أشكال المجتمع الرئيسية الثلاثة التي سبقت ، وهي :

#### (١) لاطبقية المجتمعات البدائية ،

(ب) العلاقات الكيفية بين الناس بعضهم البعض ، وبينهم وبين الطبيعة ، وهي العلاقات التي كانت تتميز بها المجتمعات السابقة على الرأسمالية ،

(ج) الترشيح الذي أدخله المجتمع الرأسمالي في الصانع الخاضعة للملكية الخاصة ، وقيم الإخاء والمساواة والحرية التي تربط بهذا الترشيح ارتباطاً وثيقاً .

لهذه الأسباب كلها كان ماركس وإنجلز ومن اقتفى أثرهما من المفكرين

---

(١) أبدى أناطول فرانس ذات مرة ملاحظة مشهورة ، قال فيها إن القانون يمتد بالنسبة لأصحاب الملايين والمصاليك معاً ، بنفس الحق في النوم تحت جسور باريس .

(٢) لا بد لتحقيق ذلك من مال يكفي لنشر صحيفة ، وتنظيم اجتماعات ، إلخ .

الماركسيين يتوقعون أن تكون الثورة الاشتراكية نهاية لعهد ما قبل التاريخ ،  
وانتقالا من عالم الضرورة إلى عالم الحرية .

وما زال هذا التصور العام للأمور ، الذى حُدِدت مماله في القرن التاسع  
عشر ، يسود الجانب الأكبر من التفكير الاشتراكي في عصرنا الحاضر . ومع ذلك  
فإن ما حدث بعد عام ١٩١٧ من قيام دولة واحدة في البداية ، ثم عدة دول أخرى  
فيها بعد ، تنسم كلها بالطابع الاشتراكي وتفخر به على المستوى الأيديولوجي ، وإن  
كانت في واقع الأمر تمارس عملها على المستوى السياسي والاجتماعي داخل إطار  
واقع شديد التعقيد ، قد كشف بوضوح عن وجود تنافر ملحوظ بدرجات متفاوتة ،  
بين الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي لهذه المجتمعات من جهة ، وبين البناء  
الملاوي الأيديولوجي المشار إليه من قبل من جهة أخرى . فضلا عن ذلك فإن  
القضاء على هذا التنافر ينبغي أن يكون من أولى مهام أية فلسفة اشتراكية حية بالمعنى  
الصحيح ، تسعى إلى ممارسة نشاطها في تلك المجالات الفكرية التي يحرز فيها فهم  
الواقع وزرع هالة النموذ عن جميع الأيدولوجيات أعظم تقدم .

والواقع أن هذا التنافر بين الواقع والأيدولوجيات ليس في ذاته جديداً  
ولا مستغرباً ؛ ففي كل الأحوال تقريباً كانت الحركات الاجتماعية والسياسية  
الكبرى تكون لنفسها ، بطريقة تكاد تكون عتومة ، مفاهيم مبسطة عن المستقبل  
. وإمكانات تحقيق القيم التي ألهمتها تحقيقاً فعلياً ، كذلك فإنه عندما كان يتضح بعد  
انتصار الثورة أن الواقع الاجتماعي أعقد وأشد تشابكاً مما استطاع أن يقتبأ به الرجال  
الذين أدت جهودهم إلى قيام الثورة ، كان يظهر في كل الأحوال تقريباً زعماء  
يستأنون هذا الموقف الجديد ليطنوا أنه يطابق بالضبط ما أراداه الثوريون وتنبأوا  
به ، وأنه لا داعي بالتالي لإثارة أية مشكلات .

غير أن المفكرين التقدميين كانوا من جانبهم يحاولون دائماً أن يكشفوا مدى اعتماد أمثال هذه التأكيدات عن الواقع ، ويمحطوا الأداة التي أناحت تحويل الأيديولوجية ثورية إلى « أيديولوجية » تبريرية ، ويميدوا ذلك الانسجام بين الفكر والواقع ، الذي لا يكون الفكر تقدماً بحق إلا بفضل . ولقد كانت تلك واحدة من اللهايم التي أنجزها ماركس وإنجازاً بالنسبة إلى المفكرين الأيديولوجيين للطبقة الوسطى الظافرة ، كما أنها قطعاً هي للهمة التي ينبغي أن ينجزها ، في الوقت الراهن ، كل للمفكرين الراغبين في حفظ تراث للتوسين العظام للماركسية فمالوحيا ، بالنسبة إلى :

( أ ) للدافعين النظرين عن الدول الاشتراكية الجديدة التي ظهرت على أثر ثورات مضادة للرأسمالية .

( ب ) للدافعين النظرين من المجتمعات الرأسمالية الغربية التي يطرأ عليها تطور .

( ح ) للدافعين النظرين عن مجتمعات « العالم الثالث » .

لهذا السبب كانت أمامنا الآن مهمة ملحة ، هي تحرير أنفسنا من جميع الشعارات التي تراكم على الحياة السياسية للحركة الاشتراكية ، وعلى الفكر الاشتراكي والنظرية الاشتراكية ، حتى نستطيع العودة إلى تحليل للتطور الاجتماعي والسياسي العالمي منذ عام ١٩١٧ ، يتسم بأعظم قدر ممكن من الإيجابية والدقة . وفي إطار هذه المهمة ، نود اليوم أن نثير - ولو بطريقة تخطيطية إلى حد ما - مشكلة تبدو لنا ذات أهمية خاصة :

لو أجرينا مقارنة فعلية بين التحليلات التي تركها لنا ماركس وبين التطور الحقيقي الذي مرت به المجتمعات الرأسمالية منذ نهاية القرن التاسع عشر حتى وقتنا الحالي ، والمجتمعات الاشتراكية منذ عام ١٩١٧ حتى اليوم ، لتبين لنا أن مثل هذه المقارنة تستتبع إجراء تصحيحيين على جانب كبير من الأهمية . وعلى الرغم من أن



هذين التصحيحين قد يدوان ، على مستوى النظرية ، من نوع يمكن إدماجه بسهولة داخل الكيان العام لفلسفة ماركس أو للاركسين ، فإنهما مع ذلك يقتضيان ، من الناحية العملية ، تغيرات كبيرة في أهداف هذه الفلسفة وآفاقها بالنسبة إلى السلوك الاشتراكي العملي .

ولكن كلا من هذين التصحيحين يتعلق ، سواء في المجتمعات الرأسمالية الغربية أو في المجتمعات ذات الطابع الاشتراكي ، بمشكلة العلاقات بين الواقع الاجتماعي والقيم ذات الصبغة الإنسانية .

فلنبدا إذن بالإشارة إلى التحليل الأول من التحليلين الرئيسيين للمجتمعات الرأسمالية اللذين خلفهما ماركس :

( أ ) نظريته « فتشية » السلع ( \* ) ، أو تشيؤها Reification ، إذا استخدمنا التصحيح الذي أدخله « لوكاش » على هذا المصطلح فيما بعد :

( ب ) نظرية الزدياد التدريجي في قهر الطبقة العاملة ، وضرورة ازدياد : وعيها بدورها الثوري .

وقد ثبت أن أولى هاتين النظريتين ليست صحيحة فحسب ، بل إنها أهم بالنسبة إلى أي فهم لتطور العالم الرأسمالي في القرن العشرين مما توقع أي مفكر نظري ماركسي قبل عام ١٩١٧ ، أما النظرية الثانية فقد انضغ الآن على نحو متزايد أنها عتيقة بالية ، بل إنها تناقضت مع التطور الفعلي للمجتمع أخذ يعمل على تعديل بعض الجوانب الأساسية في تركيبه .

---

( \* ) المقصود بنظرية فتشية السلع *Fetishism of goods or commodities* في المصطلح الماركسي ، تلك النظرة الباطلة إلى الأشياء والسلع وعلاقات الإنتاج ، التي ترتب على نظام الملكية الخاصة ، وما يؤدي إليه من تبادل للسلع في السوق ، لا بطريق مباشر . ونتيجة هذا الوضع هي اعتقاد الناس بأن لهذه السلع والعلاقات الإنتاجية طبيعة خاصة بها لا يمكن التحكم فيها — وفي هذا تستر على حقيقة الاستغلال القائم في نظام الملكية الخاصة .

وبما له دلالة البالغة أن لينين، على الرغم من تمسكه بالأصول الماركسية، قد اضطر، لكي يعمل حساباً للواقع الاجتماعي والسياسي لحصره، إلى أن يضيف فكرتين بالتى الأهمية إلى تحليلات ماركس، هما :

(أ) الفكرة القائلة بأن التطور التلقائى للطبقة العاملة يؤدى إلى إيجاد نقابات أو إتحادات عمالية، لا إلى إيجاد طبقة ثورية .

(ب) أنه توجد في جميع أرجاء الغرب فئة من العمال تتفاوت أهميتها المادية، ولكنها تشكل « أرستقراطية للطبقة العاملة » تندمج في المجتمع الرأسمالى، وتقدم الأساس الاجتماعى للحركة الإصلاحية Reformist (\*).

هذه الملاحظات التى أدلى بها لينين، والتى ينبغى شرحها والتوسع فيها بمزيد من الاستفاضة قبل أن يتسنى لنا مجرد فهم التطور الذى حدث في النصف الأول من القرن العشرين<sup>(١)</sup>، ينبغى أن تضاف إليها بضع ملاحظات أخرى بشأن الثورات التى مرت بها الرأسمالية الغربية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .

ولما كان المجال لا يتسع هنا لمعالجة هذه الأفكار بمزيد من الاستفاضة، فلأقرر لنا من أن تقتصر على ملاحظة ما يأتى :

أن تأخر قيام الثورة التى توقع للماركسيون التمسكون بالأصول أن تقوم في البلاد الرأسمالية الغربية منذ وقت بعيد، وكذلك

---

(\*) الحركة الإصلاحية، في المصطلح الماركسى، حركة عمالية تقوم بها الفئة الأرستقراطية من العمال، وهى الفئة المتحالفة مع الرأسمالية، وتنادى بالإصلاح التدريجى بدلاً من الثورة العالية، وتؤكد إمكان التحالف بين العمال والرأسماليين، وتبذل فكرة الصراع الطبقي. وهذه الحركة هى التى تمثلها الأحزاب الاشتراكية (المضادة للشيوعية) بدرجات متفاوتة .

[المترجم]

(١) توجد في الطبقة العاملة بالعالم الغربى مستويات اجتماعية ذات اتجاه إصلاحى (reformist) في أساسه، وهى ظاهرة تبدو راجعة إلى أن نسبة الطبقة العاملة الغربية التى تخلصت، بفضل وجود أسواق استعمارية وجهود النقابات، من عملية الفقر المتزايد التى تنبأ بها ماركس وتوقعها، كانت أكبر بكثير مما اعتقد لينين .

التجربة المكتسبة من الأزمة الاقتصادية الكبرى في الأعوام ١٩٢٩ - ١٩٣٣ ، وضغط التوسع الاقتصادي ، وبالتالي القدرة العسكرية للاتحاد السوفيتي ، ثم للسكة الاشتراكية بأكلها نتيجة لذلك - هذه العوامل كلها أدت إلى تمكين العالم الرأسمالي من أن يستحدث ، في الوقت الراهن ، أساليب مُرضية بدرجة متفاوتة لتنظيم النّاتى الاقتصادى ، تتيج له أن يتجنب إلى حد بعيد الأزمات البنائية الناجمة عن فائض الإنتاج ، وأن يضمن بالتالى فى داخل البلاد الصناعية بالعالم الغربى ، وبنفس النظر تماماً عن وجود أسواق خارج حدود العالم الرأسمالى ، توسعاً كبيراً فى القوة الإنتاجية ، بل ومستوى للعيشة يرتفع باستمرار ، وإن كان معدل سرعة ارتفاعه يتفاوت من وقت لآخر ، بالنسبة إلى الأغلبية العظمى من السكان ومن بينهم الطبقة العاملة .

ومن الممكن بطبيعة الحال أن يتمكن الاقتصاد الاشتراكي من تحقيق توسع أسرع فى الإنتاج ، وزيادة رفاهية سكانه ، غير أن هذا أمر لم يثبت حتى الآن بصورة قاطعة ، وعلى أية حال فليس من الممكن أن يقوم العمل الاشتراكي فى المجتمعات الصناعية فى الغرب على فكرة ازدياد فقر الطبقة العاملة بالتدريج ، وعلى تحويلها الضرورى إلى قوة ثورية .

فى مثل هذه الظروف نجد أن هذه المجتمعات قد بدأت الآن تسير فى تطور اجتماعى واقتصادى وسياسى مختلف عن ذلك الذى تنبأ به ماركس ، وهو تطور له آفاق جديدة ، ويعترض لأخطار جديدة .

فالناس ، والعمال بوجه خاص ، لم يعودوا فى هذه المجتمعات مدفوعين بالضرورة ، تحت ضغط الفقر للتزايد ، إلى اختيار طريق الاشتراكية - صحيح أن العالم إذا أصبح اشتراكياً بحق فقد يقدم إليهم مزايا إقتصادية معينة ومزيداً من رفاهية العيش ، بل إن الأرجح أنه سيقدم لهم ذلك . ولكن لابد لهم أن يشعروا بذلك عن وعى أولاً ، وليس لنا أن نتوقع اكتسابهم لهذا الوعى بنفس المجتمعية والضرورة التى

تصورها للفكرين الماركسيون النظريون في القرن التاسع عشر . وبذلك يصبح الصراع بين الرأسمالية والاشتراكية ، في هذه المجتمعات ، صراعاً من أجل السيطرة على الوعي الطبقي للعمال والشعب في مجموعه . وقضاه عن ذلك فإن ماله أهمية خاصة أن البناء الأساسي ( infrastructure ) لا يساعد قوى الاشتراكية في الصراع ، كما اعتقد ماركس والماركسيون التقليديون ، بل إنه يعمل — بمكس ذلك — على تحقيق اندماج الطبقات العاملة في النظام الاجتماعي القائم ، إذ أن التغيرات الاجتماعية التي تحدثنا عنها لونا تؤدي أيضاً إلى تطور اجتماعي ونفس. شديد العمق .

أما بالنسبة إلى نظريات ماركس في « فيشية السلع » فإن تطور المجتمع الرأسمالي. التربي ، إذا نظر إليه على مستوى معين ، لم يسر في طريق مختلف عن ذلك الذي نتأ به ماركس ، كما حدث بالنسبة إلى نظرية الفقر للتزايد للعمال ، بل إنه قد أيد تحليلاته إلى حد يفوق كل ما توقعه للفكرين الماركسيون في القرن التاسع عشر .

فقد أثبت ماركس بالفعل إلى أي مدى يؤدي ظهور السوق إلى تحويل كل القيم المشتركة بين الأفراد إلى شيء ضمني فحسب ، عن طريق إبعادها عن الوعي ، وتحويلها بالتدريج إلى الطابع الفينومينولوجي والكمي الخاصيتين جديديتين من خواص الأشياء الجامدة : هي قيمتها وسعرها ، التي تحول السلع إلى بضائع مختزنة . وقد أكد ماركس ، ومن بعده لوكاتش بوجه خاص ، الطابع السلبي الذي يفرضه هذا التطور نحو التشيؤ ( Reification ) على حياة وسلك الأفراد الذين تسرى عليهم تلك القوانين الاقتصادية لسوق تكسب سمات القوة شبه الطبيعية .

ومن الصحيح ، من جهة أخرى ، أن نحو الإنتاج المخصص للسوق قد أدى

الآن ، لأول مرة في التاريخ ، إلى إيجاد الأسس اللازمة لإدخال قيم جديدة في الحياة الاجتماعية ، ولتنميتها في المستقبل ، وهي قيم تشتمل في داخلها على المساواة والحرية والتسامح<sup>(١)</sup> ، وتسهم في بناء النزعة الإنسانية الفرية .

غير أن الانتقال من مجتمع للحرف ينتج من أجل السوق ، إلى مجتمع صناعي رأسمالي ينطوي على مظاهر متعددة للمساواة ، وتنظيم الإنتاج على أساس تصاعدي في داخل الصنع ، قد أسهم فيما بعد في إضفاء قيم النزعة الفردية الإنسانية هذه ، سواء في امتدادها أو تطبيقها ، وفي طبيعتها الباطنة . فمن حيث امتدادها ، أزيلت هذه القيم بالفعل من الإنتاج ، وضائق نطاقها في عالم السوق الفعلية بحيث أصبحت مقصورة على مجال القانون والسياسة ، وهو مجال هامشي تجريدي . ومن حيث طبيعتها انكشفت بالمثل إذ أصبح لها طابع شكلي بحت ، في مقابل المضمون الحقيقي الذي كانت تطبق عليه من قبل .

وعلى الرغم من صعوبة الاعتراض على صحة هذه التحليلات ، فلا بد للمرء من أن يتعرف اليوم بأن ماركس ولوكاتش قد عجزا معاً عن إدراك مدى قدرة المجتمعات التي كانا يقومان بتحليلها — نتيجة لجرّد وجود السوق الحرة — ( ثم بعد ذلك نتيجة لوجود سوق احتكارية لا تخضع إلا لتدخل محدود جداً من الدولة ) ، على الاحتفاظ

---

(١) في اعتقادنا أن التضاد بين التسامح وحرية الفكر والتعبير يمثل واحداً من الفوارق الأساسية بين النزعة الإنسانية للطبقة الوسطى وبين النزعة الإنسانية الاشتراكية . فلفظ التسامح ذاته ينطوي ، في الواقع ، على قدر من عدم الاكتراث بالخطأ . ولما كان هنا الاقتصار قد ظهر لأول مرة في مجال الاعتقاد والإيمان الديني ، فإنه يمتدّ مع الطائمين الإلهاميين والفقائل الحتميين للطبقة الوسطى الصاعدة ، وبالتالي مع نظام اجتماعي واقتصادي يكبت القيم المشتركة بين الأفراد . فالطبقة الوسطى العقلانية الكلاسيكية ، أو التجريبية ، تتسامح في الأمور الدينية لأن الإيمان قد فقد في نظرها كل ما له من أهمية وحقيقة فعلية . أما النزعة الإنسانية الاشتراكية التي تنطوي على حق كل إنسان في التعبير عن معتقداته بحرية ، فلا تعرف عدم الاكتراث هنا لآراء الآخرين ، وتفترض مقدماً بذلك جهد مشترك دائم من أجل بلوغ الحقيقة والوصول إلى اتفاق عن طريق المناقشة الحرة الصريحة المفتوحة .

بمجال للنشاط الفردي ولقيم قد يكون محدودا تماما ، ولكنه يستطيع مع ذلك أن يقدم أساسا للوعي الفردي . وبعد ذلك أدى تطور الإمبريالية الاحتكارية ، ثم اتساع نطاق تدخل الدولة بعد الحرب العالمية الثانية على وجه الخصوص ، وهما ظاهرتان ترتبطان ارتباطا وثيقاً بظهور أساليب التنظيم والضغط الذاتى - إلى القضاء عمليا على كل وظيفة أو مسئولية للأفراد ، من حيث هم أفراد ، فى الإنتاج وفى السوق ، مما ترتب عليه أن أصبح الوعي الفردي مفرغا من كل مضمون تلقائى أو ذاتى ، ووصل إلى درجة من السلبية كان من الصعب جدا أن يتصورها حتى أشد المفكرين النظريين تشاؤما فى السنوات الأولى من هذا القرن (١) .

ولا جدال فى أن هذه السلبية للزيادة للشعب مخلق وضعا شديدا للخطورة بالنسبة إلى الثقافة ، وإلى الثقافة ذات النزعة الإنسانية بوجه خاص . وهى فضلا عن ذلك تتبدى فى الإقلال التدريجى للاهتمام بأى شئ يقع خارج نطاق الحاجات الاستهلاكية للفرد أو للوحدة العائلية التى ينتمى إليها . ولما كان مستوى معيشة الفرد يرتفع ببطء فى الوقت ذاته ، فإن ذلك كله يقوم بدور كبير فى إدماج العمال فى المجتمع القائم ، ويعرقل تطوّرهم نحو الاشتراكية .

ولكن يتعين على الاشتراكيين ، فى مثل هذا الموقف ، أن يواجهوا مشكلة صياغة برنامج يلائم حاجتهم إلى شن حملة لاكتساب السيطرة على وعى الأفراد

---

(١) هذه حقائق عبر عنها أم أدباء عصرنا ، إجناء من كافكا حتى أحدث هؤلاء الأدباء ، مثل ييكيت ويونسكو وروب جريه وأداموف ، ومنهم سارتر فى « الثنائى » وكامو فى « التريب » . كذلك عبر عنها علماء اجتماع متابعون تماما عن الماركسية ، مثل ديفد ريزمان D. Riesman ، عندما لاحظ مثلا التحول من مجتمع ينظم من الداخل إلى مجتمع ينظم من الخارج . ومن الممكن ، بالطبع ، ملاحظة هذه الظاهرة نفسها عند دراسة الفن الحديث . وقد أشار إريك فروم Erick Fromm إلى هذه الظاهرة ذاتها عند اشتراكه فى مناقشات مؤتمر دوبرنيك ، عندما قال إنه كان هناك أول الأمر أناس يسافرون لينتظروا ويوسعوا بذلك مطرفهم ، ثم سيأخذون معهم آلات تصويرهم ، أما الآن فليس لدينا إلا آلات تصوير تأسر مصحوبة بسياح يقومون بتشغيلها .

على مستوى البناءات العليا Superstructures، والتفكير السياسى والاجتماعى .  
والتقافى . فهناك أمران ممكنان يتعين على الحال أن يختاروا بينهما عن وعى أو بطريقة  
ضمنية فى العالم العربى المعاصر . فقد يختارون من جهة مجتمعا تكنوقراطيا تسيطر  
على مقاليد الأمور فيه أقلية محدودة جدا من التكنوقراطيين الذين يمكنهم أن  
يضمنوا للأغلبية الساحقة من الشعب ، أن يضمنوا لها بالفعل ، مستوى فى العيشة  
دائم الارتفاع ، ولكنهم فى الوقت ذاته سيؤدون بنا على الأرجح ، وربما حتما ، إلى  
عالم اترزعت عنه الصبغة الإنسانية ، وانكشفت فيه الإمكانيات الثقافية إلى الحد  
الأدنى . وقد يختارون من جهة أخرى مجتمعا اشتراكيا ديمقراطيا يستطيع بالمثل  
أن يضمن للعمال مستوى من الرفاه قد يكون مساويا للمستوى السابق ، بل قد  
يفوقه ارتفاعا ، ويضمن فى الوقت ذاته ، وقبل كل شيء ، نمو الشعور بالمسئولية  
الفردية فى الشعب بأسره ، مما يترتب عليه إرساء الأسس الاجتماعية والاقتصادية لنمو  
حياته الروحية والثقافية بدورها .

وهكذا يمكن أن ترتد للشككة بأسرها إلى إقناع الأجيرين بأن طريق  
الاستسلام والأناية قد يؤدى بالفعل إلى اندماجهم فى النظام القائم ، غير أن  
مصالحهم الخاصة ومصالح أسرهم يلبغى أن تدفعهم إلى السباحة عن وعى ضد هذا  
التيار ، حتى يحفظوا لأنفسهم كرامتها ، وينقذوا القيم الحضارية الكبرى التى ورثناها  
عن الماضى .

ولن نستطيع ، آخر الأمر ، أن نتحدث إلا باقتضاب عن التغير العظيم الأهمية  
الذى ينطوى عليه هذا الموقف الجديد على مستوى الأهداف والآفاق السياسية . فمن  
الواضح بالفعل أن القضاء على الاتجاه إلى الفقر التام ، واتخاذ أساليب للضبط الذاتى  
فى ميدان الاقتصاد ، وما يديه الشعب فى مجموعه ، بقدر متزايد ، من عدم اكتراث  
وسلبية ، واندماجه فى النظام القائم - كل هذه عوامل أدت إلى نتيجة حتمية :

هى أن البرنامج التقليدى للثورة السياسية ، الاشتراكية والعمالية معا ، التى تتولد عن الفقر أو ازدياد البؤس ، وتسبق كل التغيرات أو التحولات الاقتصادية الرئيسية ، هذا البرنامج قد فقد قيمته العملية وفرصه السياسية فى النجاح ،

لهذا السبب كان البرنامج الاشتراكي الوحيد الذى يتصف بالواقعية الحقة ، فى المجتمعات الرأسمالية بالعالم الغربى ، والذى قد تكون له بعض فرص النجاح ، هو اليوم برنامج إصلاحات بنائية<sup>(١)</sup> يقوم بتحليل واضح للموقف دون تردد أو إحجام ، على النحو المشار إليه من قبل ، وبطريقة من شأنها محاولة إقناع العمال

---

(١) كتبنا فى البداية « برنامجاً إصلاحياً ( reformist ) » ، غير أن المناقشات التى أجريناها مع عدة اشتراكيين ، ولا سيما الاشتراكيين الإيطاليين ، أقتنعتنا بأن هذا التعبير قد يشير الخلط فى الأذهان . والواقع أن معنى الألفاظ يتوقف على السياق الذى تستخدم فيه . وهكذا دارت ، فى الفكر الاشتراكي فى النصف الأول من القرن العشرين ، مناقشات حول مفهوم « الإصلاح » و « الثورة » ، كان فيها المفهوم الأول يبنى أساساً تعديل تفصيلات تفاوت أهميتها داخل النظام الرأسمالى ، على حين أن الثانى كان يبنى تغيير النظام الرأسمالى إلى نظام اشتراكي عن طريق الحرب الأهلية ، واستيلاء الأحزاب العمالية على السلطة ، وإقامة دكتاتورية الطبقة العاملة تتخذ تدابير أهمها صلب وسائل الإنتاج بالصفة الاشتراكية . غير أن ما نضيه الآن هو مفهوم ثالث لا يمكن رده إلى أى من المفهومين الآخرين .

هذا المفهوم الجديد يركز على فكرة الانتقال إلى سيطرة العمال على الإدارة بطريقة تدريجية من قطاع إلى آخر ، ولكنه يتطوّر فى الوقت ذاته على إمكان قيام صراعات تفاوت حدة ، وإن لم يكن من الضروري أن تسبق هذه التغيرات حرب أهلية ، أو تقترن بتحول للمجتمع ككل . ومع ذلك فمن الممكن بالطبع أن يؤدى مثل ذلك الانتقال إلى وقوع بلد معين فى حرب أهلية ، كما أن من الممكن تحقيقه ، فى حالة بلدان أخرى ، دون صعوبات كهذه .

والواقع أن هذه العملية ممانعة ، فى خطوطها العامة - لتلك التى أدت إلى تحول المجتمع الإقطاعى إلى مجتمع رأسمالى ، وهو تحول اقتصادى تدريجى كان يقترن أحياناً بحرب أهلية ( فى إنجلترا أو فرنسا ) ، ولكنه تحقق فى بلدان أخرى دون أية ثورة عنيفة ، وإن كان قد استلزم بالطبع بعض الصراع . وعلى ذلك فإن للمرء الحيرة فى أن يسمى مثل هذا التحول إصلاحاً أو ثورة ، ولكن عليه مع ذلك أن يحرص ، فى كلتا الحالتين ، على أن يذكر أن اللفظ المستخدم معنى يختلف عن مناه فى الكتابات الماركسية التى تنسب إلى الجزء الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين .



بأن من مصلحتهم تماماً أن يطالبوا بحق السيطرة على مصانهم في البداية ، ثم بحق إدارتها أيضاً بعد ذلك ، وهو الحق الذى هو وحده الكفيل بأن يضمن لهم ، بالإضافة إلى للكسب الاقتصادية التى قد تتفاوت فى الأهمية ، اشتراكاً فعلياً ومسئولية فى القرارات الرئيسية للحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، فضلاً عن أنها تتيح لهم فرصة القيام بدور إيجابى فى بناء ثقافة إنسانية بحق .

وهكذا نصل إلى تصور لطريق يؤدي إلى الاشتراكية ، ويكون مشابهاً للطريق الذى سلكته الطبقة الوسطى فى المجتمع الإقطاعى . فى هذا الطريق تكون التحولات الاقتصادية تدريجية وسلية ، وإن كانت متولدة عن الصراع ، وبذلك تكون سابقة لثورة سياسية ممكنة لأن تعود حتمية فى جميع الحالات ، كما يظهر فى حالات استيلاء الطبقة الوسطى على الحكم فى القرن التاسع عشر .

## ٢

فإذا ما انتقلنا الآن إلى الجانب الآخر من تحليلنا ، لاحظنا أنه ثبت أن تطور المجتمعات ذات الطابع الاشتراكي كان بدوره شديد التعقيد ، وكان قبل كل شيء مختلفاً عما تكهن أو تنبأ به مؤسسو الماركسية بطريقة كانت بالضرورة تخطيطية وإيجابية .

والواقع أن الفروق بين هذه التنبؤات وبين الواقع عديدة ، ولكن لا ينبغي على الإطلاق أن يكون ذلك أمراً مستغرباً ، إذ ليس فى وسع أى مفكر نظرى ، مهما كانت عبقرية ، أن يهتدى خارج نطاق التجربة العينية للموسسة إلا إلى تخطيط للواقع يتسم بالإجمال والعمومية الشديدة . ولكن مثل هذا التخطيط لا يثير أية مشكلة كبرى مادام يتمشى مع البناء الأساسى للواقع ، على الرغم من عموميته .

ففي فلسفة ماركس وإنجلز ومن اتقى أثرهما من الماركسيين ، كان من المتوقع في المجتمعات الاشتراكية وعلى الأخص في المجتمعات الشيوعية المقبلة ، أن يؤدي صبنغ وسائل الإنتاج بالصيغة الاشتراكية ، وإقامة الإنتاج على أساس من التخطيط ، إلى قيام مجتمع يتمكن ، كما ذكرنا من قبل ، من الجمع بين السمات الإيجابية للأشكال الرئيسية الثلاثة للتنظيم الاجتماعي ، التي مرت بها الإنسانية في الفترة التي يسميها الماركسيون أحياناً « ماقبل التاريخ الإنساني » ، وهذه السمات هي :

أ — إلغاء الطبقات الاجتماعية واستغلال الإنسان للإنسان ، وهي سمّة عرفت الإنسانية من قبل في المجتمعات البدائية ، وإن كانت قد عرفت عندئذ على مستوى من الفقر للدفع .

ب — الطاج الكيفي ، الذي هو مع ذلك شيء ثابت ، للعلاقات بين البشر بعضهم البعض ، وبين الإنسان والطبيعة ، وهي سمّة كانت تتميز بها ، ولكن بطريقة بربرية غير عادلة ، أنواع تنظيم الإنتاج والتوزيع السابقة على الرأسمالية والتي كانت في أساسها تقليدية .

ج — الدوران العظيم للذات قام بهما الإنتاج المخصص للسوق ، والإنتاج الرأسمالي . بوجه خاص ، وهما :

١ — التنظيم الرشيد للإنتاج ، وما يستتبعه ويحققه من نمو سريع للقُدرة الإنتاجية . وكان المجتمع الرأسمالي قد أدخل هذا الترشيذ أولاً في مصانمه الخاصة ، ولكنه لم يدخله في العلاقات بينها وبين الإنتاج ككل ، على حين أن المجتمع الاشتراكي المقبل قد قدر له أن يتوسع في تطبيق هذا الترشيذ على ميدان إنتاج السلع بأسره .

٢ — القيم الإنسانية التي ظهرت ونمت في المجتمع الغربي بطريقة موازية لظهور الإنتاج المخصص للسوق ونموه ، ولا سيما قيم الإخاء والمساواة والحرية الفردية ، التي تشتمل في داخلها أيضاً على حرية التعبير .

ومن الواضح أن المجتمع المبني على الشيوع الحقيقي والحرية الصحيحة يمكن عندئذ تحقيقه نتيجة لتطبيق المبادئ المعيزة الآتية كلها في آن واحد لأول مرة في التاريخ : القضاء على الاستغلال ، إلغاء الفوارق الطبقية ، إقامة علاقات كيفية بين الناس والطبيعة ، التنظيم الرشيد للإنتاج ، والإخاء والمساواة والحرية الحقيقية ، مع الزيادة الهائلة في القدرة الإنتاجية .

وليسمح لنا القارئ ، ونحن نصف هذا البرنامج ، بأن نستطرد ونحلل معنى وطبيعة التحولين الرئيسيين اللذين أدى الإنتاج المخصص للسوق إلى إدخالها على بناء الحياة الاجتماعية ، وهما : ظهور القيم الفردية ، وترشيد عملية الإنتاج . ففي كلتا هاتين القطعتين نجد أن الانتقال من المجتمع الحضري ، الذي كان ينتج السلع في العصور الوسطى وعصر النهضة ، إلى المجتمع الرأسمالي ، ثم إلى المرحلة الإمبريالية لهذا المجتمع الرأسمالي ، ومنها إلى الرأسمالية التنظيمية المعاصرة هذا الانتقال كانت له تأثيرات متناقضة تماماً .

ففيما يتعلق بترشيد الإنتاج ، كان هذا التطور يمثل تقييداً متصلاً طوال المراحل الأربع المذكورة من قبل ، التي مر بها الإنتاج المخصص للسوق ، بحيث أن كل مرحلة من هذه تمثل مستوى أعلى من التنظيم الرشيد للقوى الإنتاجية داخل المصنع أو المؤسسة ، مما يؤدي بعض الوقت إلى أن تصبح للمصنع أو المؤسسة أبعاد هائلة ، بينما لم يبدل بعد أي مجهود في سبيل إيجاد تنظيم رشيد للاقتصاد الإنتاجي ككل .

وفي هذا الصدد نجد أن كبار المفكرين الماركسيين كانوا يعتقدون في كثير من الأحيان أن صيغ وسائل الإنتاج بصنة اشتراكية ، وهو ماصوروه مرتبطا على نحو وثيق بالتخطيط للركزي الشامل ، ليس إلا استمرارا — قد ينطوى على قفزة كيفية إلى الأمام — لسير عملية ترشيد قوى الإنتاج كما كانت من قبل واضحة طوال مراحل السوق الحرفية في العصور الوسطى ، والرأسمالية التحررية والإمبريالية .

وعلى العكس من ذلك ، نجد فيما يتعلق بتطور القيم الفردية ( الحرية والساواة والكرامة الفردية ) أن الانتقال من مجتمع حرفي إلى مجتمع رأسمالي كان يمثل ، كما رأينا من قبل ، انكماشاً كبيراً لمجال انطباق هذه القيم ، بل كان مؤديا إلى تدهور أساسى لها ، مادامت تنجه الآن إلى أن تكون مجرد كيانات شكلية خالصة تتناقض مع للضمون الحقيقي للحياة الاجتماعية ، مهما حاولت هذه القيم أن تخفى هذا الضمون الحقيقي بحيث لا يصبح الناس شاعرين به . ويقابل هذا الانكماش والتدهور الاقتصادى والاجتماعى ، تدهور آخر على المستوى الثقافى ، للزعة الإنسانية للعصور الوسطى وعصر النهضة ، فضلا عن الزعة الإنسانية للقرن الثامن عشر ، ولقرن التاسع عشر في ألمانيا ، وهما عصرا الطبقة الوسطى الثورية أو التقدمية . وبدلا من ذلك ، ظهرت زعة إنسانية زاهمة ، كانت تنابجا جانبيا للثقافة الرسمية الزاهمة ، انتفعت من هذا التطور كله ، على حين أن الزعة الإنسانية الحقيقية التى عرفت في أواخر القرن التاسع عشر وفي أوائل القرن العشرين ، بدأت تتخذ طابعا معارضا مضادا للبورجوازية .

وفي هذا الصدد لم يكن من المتوقع أن يكون المجتمع الإشتراكي استمرارا للتطور للمتمدن من مجتمع الحرف إلى الرأسمالية التحررية ومن بعدها الإمبريالية ، بل كان يتوقع له أن يكون ، على عكس ذلك ، عودة إلى القيم التقليدية للزعة الإنسانية القرية ، ولكن على مستوى يتيح لهذه القيم أن تكتسب مضمونا حقيقيا ، وتضمن بذلك تحققها كاملا . وهذا يصدق بوجه خاص لأن هذه القيم الفردية كانت

في مجتمع المصور الوسطى وعصر النهضة ، فضلا عن للتالية الألائية في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، لازال مقيدة بقيم كيفية مشتركة بين الأفراد ، موروثة عن ثقافات سابقة لم يكن الإنتاج المخصص للسوق قد قضى عليها بعد ، على حين أنه مما عجل بتدهور القيم الفردية في المجتمع الرأسمالي ، ازدياد اصطباغها بالصيغة الشيئية ( Reification ) ، واختفاء تلك القيم القديعة المشتركة بين الأفراد اختفاء يكاد يكون تاما .

وهكذا كان المنتظر من المجتمع الاشتراكي أن يعمل على استرداد تراث القيم في النزعة الإنسانية الفرية ، وتحقيق مزيد من النمو فيه ، وذلك لأنه أولا سيخلص هذه القيم من طابعها الشكلي البحث إذ يقضى على كل استغلال وفوارق طبقية ، وثانيا لأنه سيدمج هذه القيم ، ويربطها رباطا عضويا ، بمجتمع يتصف بأنه إنساني بحق ، ولديه وعي كامل بتلك القيم المشتركة بين الأفراد ، التي ستحرر على هذا النحو آخر الأمر من الأغلال الثقيلة التي فرضها الفقر والاستغلال في عصور التاريخ السابقة على الاشتراكية .

في هذا المنظور العام ، نجد أن من حقا — في هذا المقام — أن نضع صيغة بضع أفكار حول مفهوم الحرية . فمن العقول تماما — على الأرجح — أن تصور التاريخ على أنه تسلسل تدريجي للمجتمعات نحو المزيد من الحرية . ومع ذلك يبدو ، في ضوء حالة الخلاف القائمة حول هذه المسألة في الوقت الراهن ، وفي ضوء المصطلحات الشائعة حاليا في هذا المجال ، أن من المهم تأكيد وجود مضمونين ، يتميزان - رغم اختلافهما — بأنهما متكاملان ، وإن كان تكاملهما هذا جزئيا فقط . ولم يكن في وسعنا أن نجد لهذين المضمونين لفظين فرنسيين<sup>(1)</sup> مطابقين . ومع ذلك فقد عبر

---

(\*) لأن المقال كتب أصلا بالفرنسية .

عنهما البعض ، خلال مؤتمر عقد في دورتيك دارت فيه مناقشة باللغتين الإنجليزية والألمانية ، بلفظي « حرية لـ... liberty to » وحرية من ...  
liberty from » (Freiheit non) (١).

وطى ذلك فلا بد لنا أن نكتفي هنا بالإشارة إلى هذين المفهومين بطريقة مبهمة إلى حد ما على أنهما « الحرية الجماعية » والحرية الفردية » ، على أن يكون مفهوما أن هذا المصطلح ليس إلا إجراء مؤقتاً ، وأن كل زيادة في الحرية الجماعية أو الحرية لـ... ينبغي أن يكون لها في الوقت ذاته طابع فردى ، مثلاً أن كل زيادة أو نقص في الحرية الفردية ، أو « الحرية من... » لها بالمثل طابع جماعي (٢)

فإذا ما قمنا هذه الفوارق الدقيقة في المصطلح قبولا ، أمكننا أن نلاحظ أن الزيادة في « الحرية الجماعية » هي سمة تميز التطور التاريخي الكامل للبشرية ،

---

(١) تركزت هذه المناقشة ، في مرحلة معينة ، على مثال عدد نرى من المقيد ذكره هامنا : فقد عرف أحد المشركون الحرية بأنها تحرر من القيود القسرية ، أى بأنها « حرية من » ، وبذلك أثبت تعلقه بالفلسفة العقلانية لعصر التنوير . وقد استشهد ، لتدليل على رأيه ، بمثال هو أن جميع المواطنين أحرار أو غير أحرار في دخول مكتبة عامة أو عدم دخولها . فأجبنا عندئذ بأن هناك حرية أخرى إلى جانب هذه الحرية التي هي حقيقة وقيمة بلا جدال ، وهي « الحرية لـ... » ، أى حرية تشييد المكتبات العامة ، التي سيكون من المهم بالطبع أن يدخلها كل فرد بحرية . وكان لزماً علينا عندئذ أن نرفض الاقتراح القى أدلى به المتحدث ، وهو الاحتفاظ بلفظ ( الحرية ) لكن يستخدم في الدلالة على حق دخول المكتبة العامة بوصفه ( حرية من ) ، واستخدام لفظ ( القوة ) للدلالة على حرية تشييد المكتبات . وهناك سبب عظيم الأهمية يدعونا إلى رفض هذا الاقتراح : ففي الاستخدام القوي المتباد يدل لفظ ( القوة ) على القدرة على ( تدمير ) كل المكتبات ، بل على إيقاف كل تقدم للحرية ، فضلاً عن القدرة على ( تشييد ) المكتبات .

(٢) لهذه الأسباب ذاتها يتبين لنا أن اصطلاحى ( الحرية الإيجابية ) و ( الحرية السلبية ) هما بدورهما غير صحيحين ، إذ أن لكل من هذه الحريات الثنائية وجهاً سلبياً ( لأن تقدمها يسيء التطلب على قيود معينة ، ووجهاً إيجابياً لأن تقدمها يمتنع عمل أشياء معينة لم تكن من قبل ممكنة ) .

ولا يمنع ذلك بالطبع من حدوث بعض حالات الانقطاع ، أو حتى التراجع ، في هذا التطور ، كما أن هذه الزيادة ذاتها هي التي تسمح لنا بالكلام عن تقدم في التاريخ .  
وفضلاً عن ذلك فإن الفهم للادى للتاريخ ، الذى تأيد آذآن بمجموعة كاملة من الأبحاث النفسية لا يتسع المقام هنا لذكرها ، يرتكز على الاعتقاد بأن من الممكن تعريف الإنسان من خلال الجهد الذى يبذله لاختراع أدوات فكرية أو مادية دائمة التجدد ، تتيح له أن يزداد سيطرة على بيئته الطبيعية والاجتماعية ، بحيث أن جميع البناءات النفسية الأخرى ، ومنها قيم الإنسان ، ينبغي أن تخضع دائماً لهذا الشرط .

أما الحرية الفردية ، أو « الحرية من ... » ، فتظل قيمة محددة تظهر أولاً في نقطة معينة من التاريخ ، ولا غنى إلا مرحلة واحدة ، بل إنها لا تمثل في الواقع إلا بناء واحداً من البناءات الممكنة في التاريخ منظوراً إليه على أنه تقدم في الحرية الجماعية . وهي تظل في واقع الأمر صفة مميزة لفترات خاصة قليلة في تاريخ العالم العربى ، في اليونان القديمة ، وفي روما القديمة أيضاً إلى حد ما ، وقبل ذلك كله في تطور المجتمع العربى بعد ظهور مدنه في العصور الوسطى حتى القرن العشرين .  
فهي إذن تشكل بالضبط ما نطلق عليه اسم « النزعة الإنسانية الفردية » ، ونسب بها تأكيد الاستقلال الذاتى للضمير الفردى داخل التقدم التاريخى منظوراً إليه على أنه نمو للحرية الجماعية والسيطرة على الطبيعة ، وإن كان هذا الاستقلال الذاتى بدوره معرضاً لخطر بالغ ، كما ذكرنا من قبل ، هو أن يصبح ظروفاً من داخله نتيجة للأشكال التى يتخذها المجتمع العربى حالياً بعد أن ضمن نموه من قبل .

والواقع أن نمو القيم الإنسانية الحرية كان ولا يزال مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بنمو الإنتاج المخصص للسوق — وهى حقيقة علمية إياها للماركسية . غير أن هذا الارتباط كانت له على الدوام طبيعة دialeكتيكية متناقضة ، لأن هذه القيم كانت ، على المستوى

الثقافي ، تبدو أشد توسعا وتحرراً عندما تكون السوق ذات طابع أكثر فردية ، عن طريق الإنتاج في الصناعات الحرفية ، أو عن طريق الرأسمالية المتحررة . ولكن مظاهر هذه الأشكال الفردية للإنتاج المخصص للسوق كانت في الوقت ذاته تنفق زمنيا مع تلك الفترات التي كان فيها هذا الإنتاج أقل نمواً ، وكانت فيها القيم للربطة به عاجزة عن النمو إلى الحد الذي تستطيع فيه أن تفرض بناء على التنظيم الكامل للمجتمع . وفيما بعد ، أدى النمو الهائل للإنتاج المخصص للسوق ، في فترات الرأسمالية الإمبريالية والرأسمالية التنظيمية المعاصرة ، إلى الحيلولة بين معظم الناس وبين الاشتراك الإيجابي أو للسئول في الحياة الاقتصادية ، إذ جعل السئولية وفقاً على جماعة اجتماعية خاصة ومحدودة ، هي جماعة التكنولوجيا ، بدلاً من أن تكون صفة للفرد في ذاته ، فكان من نتيجة ذلك أن أصبحت الفردية ، بل والقيم الإنسانية ذاتها ، مفرقة من كل مافي داخلها من مضامين .

على أن فلسفة ماركس وإنجلز وجميع المفكرين للاركسيين الذين اتفقوا أثرها قد تمت ، كما لاحظ الكثيرون من قبل ، داخل الإطار العام للنزعة الإنسانية الغربية ، سواء في شكها للمسيحي أو العقلاني الإلهادي . فلي الرغم من شدة انتقادهم للدين ، ولاسيما للمسيحية واليهودية ، وعلى الرغم من قوة معارضتهم للمجتمع البورجوازي ، فإن فلسفتهم ظلت تنمو في اتجاه النزعة الإنسانية الخالصة ، وظلت تؤكد من جديد قيم الحرية الفردية ، وحرية التعبير ، والإخاء والمساواة . ولكنهم اضطروا ، بوصفهم مفكرين بالكتيكيين ، إلى الاعتراف بضرورة وجود فترات من الدكتاتورية ، بوصفها مراحل لا مفر منها ، وإن تكن مراحل عابرة ، في الطريق المؤدى إلى بلوغ هذه القيم بطريقة أصيلة كاملة . ويؤدى ذلك ، على المستوى الفلسفي ، إلى إثارة مشكلة الشر الكلاسيكية بأسرها من جديد ، ووظيفة الشر الإيجابية التقدمية في التاريخ ، بوصفه الوسيلة الوحيدة في متناول أيدينا لبلوغ الخير . ولتعد إلى جيته حين يقول إن



على الانسان أن يبيع روحه إلى الشيطان لكي يصل إلى الله ، غير أن الشيطان ليس إلها ، ومن هنا فإن الفلاسفة الاشتراكيين لم يقبلوا الله ككتاتورية في أى وقت ، حتى دكتاتورية الطبقة العاملة ، ولم يترفوا أبدا بأن القيود التي تفرضها على الحرية والنسابة تمثل قيمة أساسية دائمة في مذاهبهم الفلسفية .

ولكن ، على الرغم من أننا لانود الخوض في التفاصيل ، فمن الواضح 'لجميع المفكرين النظريين ذوي العقلية الجادة أنه قد تكون في الاتحاد السوفيتي ، ثم في عدد كبير من البلاد التي اتخذت نظما اشتراكية في الحكم ، جهاز يروقراطي ضخم ، داخل مجتمع لم يسمح فيه لقيم النزعة الإنسانية الغربية ، أى الحرية — ولاسيما حرية التعبير — وللنسابة ، سواء في الليادين العقلية والاجتماعية والسياسية ، إلا بمجال محدود جداً ، ومازال مجالها هذا محدوداً حتى اليوم .

فالظاهر التي تتسم بها الاستالينية ، والوضع الراهن في الصين وفي بعض الديمقراطيةات الشعبية الأخرى ، متعددة بعافيه الكفاية ، وهي تتعلق بمخالفات أصبحت معروفة وشائعة إلى حد لا يحتاج معه إلى التعليق عليها في هذا المقام . ومع ذلك تظل هناك أمام الباحث النظري مشكلة هي في الواقع أهم المشكلات جميعاً : وأعني بها تفسير هذه الظاهرة كلها ، ومعرفة الأسباب التي قد تطل ، نظرياً على الأقل ، كيف حدث هذا التباين الضخم في مسائل أساسية من المذهب ، بين تنبؤات ماركس ولينين قبل عام ١٩١٧ ، وبين الوقائع الفعلية للمجتمعات الاشتراكية كما تطورت الآن بعد الثورة .

لا شك في أن من بين العوامل التي تفسر هذه الحقيقة في ذاتها ، أو تفسر على الأقل الأهمية التي أصبحت لها الآن ، عوامل ترتبط بالدورات الاقتصادية ، ومن ثم فهي لا تدعو إلى القلق كالعوامل البنائية ؛ إذ أن طبيعتها — بحكم

تعريفها — عابرة أو محلية . ونظراً إلى أن الطبقة العاملة في العالم العربي كانت مندجحة إلى حد بعيد في النظام الرأسمالي بناء على السياسات الصريحة للترعة الإصلاحية ، أو على السياسات الضمنية والمعارضة للدولة الاشتراكية الديمقراطية قبل عام ١٩١٤ ، فإن أول ثورة شيوعية لم تحدث ، كما توقع ماركس ، في مجتمع متقدم اقتصادياً ، وإنما حدثت في بلد متخلف كان لا يزال يواجه مشكلات ثورة الطبقة الوسطى ، كالإصلاح الزراعي والقضاء على الامتيازات الإقطاعية ، وإن كانت الطبقة الوسطى قد أصبحت فيه بالفعل أشد رجعية من أن تتمكن من حل هذه للمشكلات . فضلاً عن ذلك فقد كانت حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ ، وكذلك حنين الفلاحين الروسين الشديد إلى السلام ، من العوامل التي ساعدت على نجاح هذه الثورة .

وكانت لهذه الحقيقة نتائج متعددة ، بعضها ذو طابع مؤقت ، وبعضها الآخر ذو طابع دائم . ومن هذه النتائج :

(١) كان بناء روسيا بعد ١٩١٧ متخلفاً ، وزراعياً في أساسه ، وإن كان هذا البناء قد تم تجاوزه في الوقت الراهن بفضل التصنيع السريع للاتحاد السوفيتي خلال الأعوام الخمسة والأربعين الماضية .

(ب) ترتب على هذا البناء المتخلف أن ضعف الاتحاد السوفيتي عسكرياً بالقياس إلى العالم الرأسمالي المحيط به ، فأصبح له بعد ذلك مركز أشبه بالقلمة المحاصرة ، وهو مركز لا يساعد على نمو القيم الإنسانية بوجه عام ، والحريات الفردية بوجه خاص <sup>(١)</sup> وفي هذه الحالة بدورها نجد أن مركز الاتحاد السوفيتي

---

(١) حينئذ ، لكن تقدر أهمية هذا الموقف السكري في الحياة السياسية للاتحاد ==

بوصفه قلعة محاصرة ، قد تغير اليوم ، بحيث أن النتائج الثقافية والسياسية لهذا المركز أصبح مقدراها أن تحتفى سريعاً .

( ح ) ومع ذلك يبدو أن عدم وجود تراث ديمقراطي ذى نزعة إنسانية فى روسيا القيصرية قد أدى إلى قيام ظروف واقعة دائمة ، إذ كان من الممكن أن يؤثر وجود هذا التراث على نمو حاسم فى السنوات الأولى لقيام المجتمع الاشتراكي الأول ، أو فى تطوره اللاحق .

ومن المؤكد أنه لو كانت الثورة الاشتراكية قد حدثت فى بلد أكثر تقدماً ، كما تنبأ ماركس ، لما ظهر تأثير واحدة من هذه النتائج الثلاث ، أعنى البناء الاجتماعى للتخلف فى ظل اقتصاد زراعى فى أساسه ، والضعف المسكرى ، وعدم وجود تراث ديمقراطى . وهذه الملاحظة قد تقدم بالفعل تليلاً جزئياً للفرق بين نظرة ماركس إلى المجتمع الاشتراكي للقبل ، وبين الواقع الفعلى لهذا المجتمع فى السنوات العشر الأولى بعد قيامه .

وبغض النظر تماماً عن هذه العوامل المتعلقة بالظروف التى أسهمت دون شك فى دعم الطابع الككتاتورى للمجتمعات الاشتراكية ، وحالت بالتالى بين أخذ هذه المجتمعات بقم النزعة الإنسانية والتحررية ، فإنه يظل من الصحيح مع

---

== السوفيتى، أن نذكر تلك الارتباطات الواضحة التى تكشف عنها أية دراسة فى علم الاجتماع ، مهما كانت سطحيتها ، بين :

- ( أ ) هزيمة الثورة واستقرار الرأسمالية فى ألمانيا بعد عام ١٩٢٣ والقضاء على التروتسكيين فى الاتحاد السوفيتى فى الأعوام ١٩٢٥ - ١٩٢٧ .
- ( ب ) الانشقاق بين شيانج كاي شيك والشيوعيين الصينيين واستقرار الكومنتانج فى الصين بعد تطهيره من العناصر غير المرغوب فيها عام ١٩٢٧ ، والقضاء على اليمينيين المتطرفين فى الاتحاد السوفيتى فى ١٩٢٨ - ١٩٢٩ .
- ( ج ) إعادة توازن القوة بفضل تقدم الأسلحة النووية والتخلص من آثار الاستالينية .

ذلك أن هناك عاملاً آخر ، متعلقاً بالبناء نفسه ، ربما كان قد أسهم في تحقيق هذه النتائج ذاتها . وفي رأينا نحن أنه قد أسهم في ذلك بالفعل ، وعلى ذلك فإن هذا العامل يثير أمام المفكرين الاشتراكيين مشكلات أخطر بكثير ، وذلك بقدر ما يمكن أن يكون له من طابع دائم يهدد بالتالي بأن يتكرر في كل مجتمع له بناء مماثل .

والواقع أن التفكير الماركسي ذاته هو الذى نبه بوضوح لأول مرة إلى وجود علاقة تاريخية بين وجود الإنتاج المخصص للسوق ، وبين القيم الفردية المتحررة للزعة الإنسانية البورجوازية ، أو الخاصة بالطبقة الوسطى ، بل إن هذا التفكير هو الذى نبه إلى ما ينفرد به هذا البناء التاريخي الخاص من اتفاق بين تقدم سيطرة الإنسان على الطبيعة والمجتمع ، أى « الحرية لـ . . . » التى تميز التاريخ بأسره ، من جهة ، وبين التقدم الملعوظ للحريات الفردية والزرعة الإنسانية الفردية ، أى « الحرية من . . . » ، من جهة أخرى .

وعلى ذلك فقد كان من الطبيعي ، وبما يمكن التنبؤ به — وإن لم يكن ماركس وإنجلز أو أى واحد من المفكرين الماركسيين اللاحقين قد فكروا في ذلك — أن يؤدي القضاء على الإنتاج المخصص للسوق ، وإحلال التخطيط المركزى محله في المجتمعات الاشتراكية ، إلى تغيير اتجاه هذا التطور في سياق واحد معين ، وذلك بتشجيع الاتجاه إلى إدماج الأفراد بقوة في مجامعهم ، مع قبولهم للمعايير والآراء التى تصرف بها هذه الجماعة وتقرها .

وهذا هو ما حدث بالفعل ، وبدرجة متطرفة يمكن تليها بالقول إن هذا الاتجاه البنائى قد ازداد قوة نتيجة لتأثير العوامل الثلاثة المذكورة من قبل ، والمتعلقة بالظروف المحيطة بالثورة .

ونود الآن ، في ختام هذه الدراسة ، أن نشير إلى أهمية التجربة اليوغوسلافية ، من الناحية النظرية والفكرية ، بالنسبة إلى هذه الاعتبارات ، حتى على الرغم من كونها تجربة لم تطبق إلا في بلد صغير نسبيا . فقد عملت يوغوسلافيا ، رغبة منها في التخلص من المركزية البيروقراطية أو الاستالينية ، على أن تضيف إلى الفكر الاشتراكي تلك الحقيقة التي اكتشفناها ، وهي أن تأمين وسائل الإنتاج لا يستتبع بالضرورة ، كما اعتقد ماركس والماركسيون اللاحقون ، التخطيط المركزي الكامل ، والقضاء على السوق .

وهكذا فإن العمل الأكبر الذي أنجزته الاشتراكية الديمقراطية اليوغوسلافية ، وهو الإدارة الذاتية بواسطة العمال ، يشكل من الناحية النظرية وسيلة لضمان ديمقراطية فعالة ، كما أنه يضمن قدرا كبيرا من صيغ ملكية وسائل الإنتاج بالصيغة الاشتراكية ، مما يتيح القضاء على استغلال الإنسان للإنسان ، أو القضاء — على أية حال — على قدر كبير من مظاهر التشيؤ ، وفي الوقت ذاته تضمن هذه التجربة استمرار وجود إنتاج مخصص للسوق ، يمكن أن يكون أساسا لنمو حقيقي أصيل « للحرية من . . . » ، وللقيم الإنسانية في الحرية بوجه عام ، وحرية التعبير بوجه خاص ، والكرامة الفردية .

وهكذا فإن قيام اللزج بتحليل المجتمعات الرأسمالية للعالم الغربي والمجتمعات ذات الطابع الاشتراكي ، يؤدي به إلى تكوين فكرة مركزية : هي فكرة الإدارة الذاتية بواسطة العمال ، وهي فكرة تبدو في نظرنا ، الأساس الوحيد الممكن لبرنامج اشتراكي بحق في العالم للماصر . ولا جدال في أن طابع هذه الإدارة الذاتية . والطريق الذي ينبغي سلوكه من أجل بلوغها سيختلف في حالة ابتداء اللزج من مجتمع رأسمالي توجد فيه ديمقراطية شكلية ، عنه في حالة نظام دكتاتوري كنظام إسبانيا ، عنه في حالة مجتمع اشتراكي يأخذ بالتخطيط

المركزي ، أو مجتمع في بلد نام . ولا جدال أيضاً في أن بقاء السوق، حتي لو اقترن بالقضاء على الملكية الفردية لوسائل الإنتاج ، قد يؤدي إلى ظهور صعوبات ضخمة لا يمكن حلها إلا بعد القيام بدراسات تجريبية ونظرية هامة .

غير أن هذه المشكلات تتجاوز نطاق الدراسة الحالية ، التي كان هدفها هو الإشارة إلى الارتباط بين فكرة الإدارة الذاتية بواسطة العمال والاحتفاظ بالسوق ، وبين استمرار نمو ثقافة ذات نزعة إنسانية في إطار الصراع من أجل مستقبل اشتركي هو وحده الكفيل بضمان مستقبل الإنسان والدنية .

باروسلاف پروفسيك

بين منطقة المراعى (الاستبس)

في عهد الرعاة الرحل الأوائل

وبين الصين

في الفترة بين القرنين التاسع والسادس ق.م

ترجمة: محمد مرسى أبو الليل





أعتقد أن قيام الترابط والعلاقات للتبادلة بين المناطق الثقافية المختلفة موضوع يبرز في تاريخ العالم في هذه الأيام بشكل ملح إلحاحاً متجدداً . وإزاء الاتجاهات التي تضع للشاكل العنصرية والقومية والثقافية في أوضاع يناقض بعضها بعضاً مناقضة حادة ، والتي لا تؤكد إلا الاتجاهات للتعارضة وما بينها من تناقض ، من الضروري أن تؤكد الاتصال والتجانس الأساسيين في تطور الجنس البشري ، وأن ندرك ما في العالم من وحدة ، على الرغم من كل مافيه من تعقيد وتباين ، إذ ليس هناك مجموعة بشرية تستطيع أن تعيش في عزلة . وكما ارتقت ثقافة الجماعة ، زادت علاقاتها بالثقافات الأخرى ، في الخصوصية وتمدد الأنواع .

ونريد في هذا البحث أن نعرض الارتباط التاريخي للبشر بين العالم الثقافي في أوروبا ، والعالم الثقافي في آسيا الشرقية ، وأن نجلو هذا الارتباط بثال نعتقد أنه لم يبحث حتى الآن بالاهتمام الكافي .

كانت منطقة للراعى ، التي تربط عالمين عظيمين من الحضارة في الأنحاء الشرقية والثرية من قارة أوراسيا ، لأنها مجموعة من البحار الداخلية للترابطة ، ذات أهمية خاصة على السواحل في هذا الترابط للتبادل (١) . على أن هذه المنطقة لم يكن لها دور بارز في

---

(\*) تفصيل المستندات لهذا البحث في النسخة التشيكية التي ستظهر في :

Cesk, Casopis Historicky

انظر أيضا التطبيق على كتاب ك . جتمار ( K.Jettmar )

«Die Fruhen Steppenvölker»

بادن بادن سنة ١٩٦٤ ، والذي يظهر صدوره في مجلة الآداب الشرقية

Orientalistische Literaturzeitung.

وهنا انجيس المراجع الأهم .

عهود السلام ، ذلك لأن تبادل السلع المختلفة والقيم الثقافية ، ظل يجرى بطريقة آلية وسلية تماما ، فإن اهتمام الناس في فترات القلقة والاضطراب كان يتجه بوجه خاص إلى هذه المنطقة ، حيث تظهر الاضطرابات أولا في طرف من أوراسيا ثم تنتشر في الطرف الآخر.. وللشاهد أن مراكز التجمع مثل هذه الحركات تكون في العادة هجة الشرق قرية من الحدود الصينية إلى حد كبير ، في حين أن الطرف الغربي عانى أكثر كثيراً من الهجمات والغارات العديدة التي أحدثت تضرراً للرة بعد الرة في الصفات المنصرية والثقافية لهذه المنطقة .

وعلى الرغم من هذا ، فإنني لا أتفق كل الاتفاق مع البروفيسر لايتيمور — (O. Lattimore) أكبر مزجج في شئون منطقة للراعى ، في رأيه الذى يلخصه في قوله : « الواقع أنه من الدهش أن الغزوات لم تترك إلا أثراً قليلا في الراحل الإنسانية من الحياة القديمة في تاريخ الصين — وهو أقل مما في أى حضارة عظيمة أخرى ... وإذا قلنا بين الصين وكل من الهند والشرق الأوسط ، لا نجد دليلا على أنه في الأيام الأولى من تاريخ الصين تدققت على الصين أعداد ضخمة من السكان الجديد ، أو كان هناك نظام سياسى فرض النزاة عليه أنفسهم باعتبارهم طبقة حاكمة ... » (١) .

والبروفيسر لايتيمور يعكس في كلامه النظريات المتطرفة السابقة عن تأثير المجموعات البشرية المختلفة في نهضة الأمة الصينية وفي حضارتها . وسبق لى أن رفضت هذه النظريات رفضاً باتاً (٢) . ولكنه من الخطأ أن نذهب إلى الجانب

(١) أ . لايتيمور (O.Lattimore) في مقاله «الصين تتطلع إلى الخارج» :

في عمله الشرق الجديد لسنة « From China Looking Outward »  
(New orient) ١٩٦٥ رقم ١ ص ٢٠ وما يليها

(٢) ج . بروفيسر «Eine Neve Gesamtdarstellung» J.Provesk —  
«Der Geschichte Chinas.» (W.Eberhard:Chinas Geschichte —  
مجلة الآداب الشرقية ( المذكورة في هامش سابق )  
Bern, 1948 )

رقم ٤٨ سنة ١٩٥٣ ص ٣٨٩ — ٤٠٦ =

المضاد في التطرف . وإنني أقصد بمقتضى هذا أن أبين أن العواصف التي ثارت في منطقة المراسى ، في أقدم العصور التاريخية ، كان لها أصدائها التي تردت في الشرق والغرب على السواء .

وفي هذا المقال سأبحث العملية المضطربة التي تطورت في منطقة المراسى بين القرنين التاسع والسابع ق . م .<sup>(١)</sup> وهذا الاضطراب هو الذي يتجلى في الغرب في الانتجار السكاني بين السمرين<sup>(F)</sup> (Cimmerians) ومن جاء بعدهم من السكوثيين (Scythians) وهجرتهم إلى جنوب روسيا وتوغلهم في أنحاء مختلفة من غرب آسيا كما يتجلى هذا الاضطراب في الصين ، في الغزوات والهجرات التي قامت بها قبائل مختلفة مثل هسين يون (Hsien-Yun) وببي جونج (Poi Jung) وتي (Ti) في زمن يقرب من هذا التاريخ . ولم يكن اتساع هذه الغزوات في الأراضي الصينية أقل من غزوات السمرين والسكوثيين في الجانب الغربي . ففي الصين أثرت هذه الغارات والحركات الهجيرية في مقاطعات كاملة ، وهي شن هسي ، وشان هسي ، وهو ي ، كما أثرت في القسم الأكبر من مقاطعتي شانتونج وهونان . ومعنى ذلك أن تأثيرها شمل بالتقريب جميع الساحة الثقافية القديمة للصين . في حوض هوانج هو .

---

== أيضاً (النظريات الحديثة لإيرهارد ، عن أصول الحضارة الصينية الأولى) (بالفرنسية) في مجلة Archiv Orientalni أو (Aror) رقم ٢١ سنة ١٩٥٣ ص ٥٣ - ٩٢  
(f) حوان آخر القرن الثامن ق.م ، كان السمريون يغتالون منطقة القوقاز وشرق الأناضول . أما استعمال لفظ سكوثيين في ترجمة Scythians فذلك لأن الأصل في الكلمة اليونانية Skythes

(١) بنى البحوث تؤرخ هذا العصر المضطرب بزمن أبعد من ذلك في القدم فمن ذلك : K. Jettmar في كتابه Die Frühensteppenvölker (يادن يادن سنة ١٩٦٤) ص ٢١٨ وما يليها ، يربط بين هجرات الشعوب البحرية التي وصلت إلى شواطئ البحر المتوسط بين ١٢٥٠ ، ١١٠٠ ق . م . وبين ظهور الحياة من الرعاة . وفي رأيي ليس ==

وقد احتاجت الصين إلى أكثر من ثلاثة قرون للتأقلم على آثار هذه الفزوات .

على أن وجود ارتباط بين الأعمال التي تجري في وقت واحد تقريباً في كل من جانبي القارة الأوراسية فكرة ليست جديدة بحال ، وتظهر هذه الفكرة في شكل بدائي بين الباحثين الذين حاولوا تفسير قصة هيروdot عن السكوديين ، وأن يروا في الأرياسبيين ( Arimaspians ) الذين ذكرهم جماعات الحسين يون والمون<sup>(١)</sup> . وإذا أخذنا بالأسطورة التي أخرجها أرسطياس البروكونيسي في ملحمته أريماسيا ( Arimaspeia ) ، والتي نقلها عنه هيروdot ، نستطيع أن نقول إن الأرياسبيين هم الذين أثاروا التحرك الجماعي لشعوب منطقة المرامي ( الاستبس ) ، الذين نجح عنه غارات السمرين والسكوديين في التهرب<sup>(٢)</sup> .

وقد عرض العالم النمساوي هيني جلدن ( Heine Geldern ) فكرة تمارض هذه الفكرة وذلك بنظرية افتراضية تقول بهجرة قبائل تراقية وجرمانية ، من منطقة البحر الأسود وشمال القوقاز ، في الاتجاه الشرقي . وهو يرى أن هذه الهجرة

---

== هذا الربط صحيحاً . وإن أمتق مع م . أ . رودنيكو في مقالته : Kultura neseleniya . M. L. Centralnoye Altayav Skyfskoe vremia . سنة ١٩٦٠ م . ٩٦ ، وفي عدد من الدراسات الأخرى . وهو يرى أن هذا الانتقال كان تدريجياً ، وأنه لم يحدث تغيير جذري في تشجيع تنمية قطمان كبيرة من الخيل ، وفي بعض الجهات ، قطمان من الماشية والأغنام في جنوب سيبيريا وفي شرق منطقة المرامي وغربها ، بعد القرنين التاسع والثامن ق . م .

(١) راجع مثلاً الكتاب المشهور تأليف إليس . ه . منس Ellie H. Minns الذي صدر سنة ١٩١٣ وهو « السكوديون والإغريق : Scythians and Greeks » .

(٢) هيروdot — الجزء الرابع ، فصل ١٣ — في ترجمة ه . كاري سنة ١٩٠٨

لندن ص ٢٤٢ — Herodotus. by H. Cary .

أزعجت السكان — الزراعيين الآمنين في مناطق المراعى ، وعبأهم للدفاع عن أنفسهم . وهو يستند أن هذا دفعهم إلى اتخاذ حياة التنقل . وتوجد آثار لهذه الهجرة في مجموعات مدينة من السكان الذين يتكلمون لغة هندية أوروبية من النوع الغربى ، وذلك في شمال غربى الصين ( الطوخاريون — Tokbarians ) وكذلك في حضارة دونج — سون ( Dong-Son ) في الصين الهندية<sup>(١)</sup> بما لها من معالم فذة تصل بركوب الخيل . وقد تبني هذه الفكرة ج . هالون ، وكان قد وضع في سنة ١٩٢٢ نظرية بشأن هجرة جماعات تشوان جونج ( Chuan Jung ) وتى ( Ti ) من المقاطعة الحالية شن هسى نحو الشرق تحت ضغط المهاجرين من الشعوب الهندية الأوروبية<sup>(٢)</sup> . ويحاول ج . هالون ، في أحدث بحث له خصصه لهذه المشكلة<sup>(٣)</sup> ، أن يربط بين اسم يويه — تشيه وبين السكوديين [ Yueh-Chih ] — وهو الاسم الذى أطلقه الصينيون على شعب يتبع في وضوح مجموعة الشعوب الهندية الأوروبية ، ولعله الطوخاريون الذين استقروا في الجزء الشمالى الغربى من المقاطعة الصينية الحالية كانسو ] ، وكذلك بين اسم هسيان يون والسمريين . وقد رفض الباحثون عامة هاتين الملاحظتين<sup>(٤)</sup> ، لأنهما لا تقومان على أساس متين . ولكن ما هو ادعى إلى

(١) ك — جمار سنة ١٩٦٤ ص ٢٢٣ وحضارة دونج سون ترجع إلى عصر البرونز ومركزها منطقة فتنام في الصين الهندية وكانت هناك صلة بينها وبين حضارة الصين واندونيسيا .

(٢) ج . هالون في مقاله « Die Hunnen der vorchristlichen Zeit »

مجلة OLZ. سنة ١٩٢٢ ص ٤٣٣ — ٤٣٨

(٣) ج . هالون : مقالة « Zur Ue-tsi Frage » في مجلة Zeitschrift d.

Deutsch. Morg. Cesell. Bd. 91 NF Bd 16, Leipzig. ص ٢٤٣ —

٣١٨ — 1937 .

(٤) ج . هارماتا ( J. Harmatta ) : « Le Problème Cimmérien »

Archaeologiai Ertesítő. المأساة السيمرية : في المجموعة الثالثة ، الأجزاء من السابع إلى التاسع . بودابست سنة ١٩٤٨ ص ٧٩ — ١٣٢ وهو يقول في ص ٩٧ . « من جهة أخرى ، لا تحتمل النقد نظرية أ . هيرمان ، ولا نظرية ج هالون » .

الأسف أن أحدا لم يوجه اهتماما إلى قوله بأن الصين في القرنين السابع والسادس ق. م ، قد تأثرت بتيار متصل من الهجرات التي تحركت من الغرب إلى الشرق . ولم يتوصل إلى هذه النتيجة نفسها إلا الباحث منج ون تونغ (Meng Wen Tung) . ومن الواضح أنه توصل إليها مستقلا عن ج . هالون<sup>(١)</sup> . ولا شك أن المسألة كلها تحتاج إلى بحث جديد ، كما تحتاج بوجه خاص إلى أن توضع في سياق تاريخي جديد .

ونستطيع أن نلح تصيرا فجائيا ، في التاريخ القديم لمنطقة المراسي (الاستبس) في زمن يقرب من أوائل القرن التاسع ق.م<sup>(٢)</sup> . ويبدو أن تلك المنطقة بقيت حتى ذلك العصر بوجه عام ، منطقة يسودها السلام . وهناك ارتقت ثقافات زراعية مختلفة ، بما يميزها من الفخار النقوش ، كما جرى هناك تبادل في السلع الثقافية . وكان أول دليل على ذلك التبادل ظهور الفخار النقوش في مساحة عريضة ، تمتد من سراسر جنوب روسيا إلى الصين عبر وسط آسيا<sup>(٣)</sup> والدليل الآخر على ذلك الانتزاج ، أن المنطقة انتشر فيها ، في ذلك الوقت ، عناصر من ثقافة هالستات (Hallstet) (\*) .

---

(١) في مقال عنوانه : « بحث في توغل جماعات في الجراء والبيضاء نحو الشرق » في المجلة الصينية : Ch'ih Titung Ch'in K'ao — يوكنج ( Yu-Kung ) الجزء الثامن سنة ١٩٣٧ ، الأعداد ١ إلى ٣ ص ٦٧ — ٦٨ (باللغة الصينية) .  
(٢) يقبل كـ . جتار K. Jettmar ، الرأي القى يقول بأن منطقة المراسي (الاستبس) كانت منطقة هدوء وسلام نسبيا ، قبل قيام مرحلة التنقل (١) في كتابه سنة ١٩٦٤ ص ٢١٥ ) ويقول بهذا أيضا عدد من الباحثين السوفيت .  
(٣) ميشيرج جيرن J. Gernet في أحدث كتبه — الصين القديمة La Chine - Ancienne, Paris سنة ١٩٦٤ ص ٢٩ — ٣٠ ، إلى علاقات سابقة لتاريخ بين الأقاليم التي تحيط بمنطقة الاستبس . ومع ذلك يجب علينا أن نذكر أنه لم يكن من الممكن حتى الآن أن ثبت أي علاقة عنصرية بين أقاليم الفخار النقوش على حدة بالنسبة إلى منا الحزاز الحاس من التنس .

(\*) هالستات : قرية في النمسا ، عرف فيها أول آثار لبحر الحديد في أوروبا . ولها فإن هذه الثقافة تمثل الهدد القديم من عصر الحديد في أوروبا .

(الترجم)

ويتبين من أحدث الآثار التي عثروا عليها في شمال الصين ، أن الزراعة انتشرت ، في نهاية العصر الحجري الحديث إلى الأراضي التي تقع عند انحناء النهر الأصفر . وهناك عثر على شواطيء النهر ، على رواسب يتبين منها الارتباط الوثيق بين تلك الرواسب وبين ثقافات يانغ — شاو في الصين ( yang-shao ) ، وربما كذلك بينها وبين ثقافات كانسو ( Kan-su ) بوجه خاص . ومن الواضح أن الزراعة وللاثرات الصليية ، كان لها عمل ، لا يقتصر على الأجزاء الشرقية من منغوليا الداخلية في جهول ( Jehol ) وشهار ( Chahar )<sup>(١)</sup> . وهي مواقع عثروا فيها على آثار عديدة لقرى زراعية ، بل وصلت هذه للثورات إلى التربة في المنطقة الحالية التي تعرف باسم سوي — يوان ( Sui-yuan ) . ومن التربة أيضاً العدد الكبير من الآثار التي عثروا عليها ، مما يرجع إلى التسم الأخير من العصر الحجري الحديث في هذه المنطقة ، وذلك بالمقارنة إلى الحد القليل نسبياً من الآثار التي ترجع إلى أوائل العصر التالي وهو عصر البرونز . ومن الواضح أننا نواجه هنا عصرين مختلفين ، يتميزان ، كما يبدو ، باختلاف في كثافة السكان<sup>(٢)</sup> .

ومن للدهش بوجه خاص ، وجود تأثير ثقافي صيني لا شك فيه . وهناك أدلة على أن هذا التأثير الثقافي وصل في ذلك الوقت إلى أماكن بعيدة مثل مينوسنسك ، التي تقع على أعلى نهر نيسى ، في الثقافة التي يطلق عليها اسم «كاراسوك» ( Karasuk )<sup>(٣)</sup>

(\*) جهول وشهار مقاطعتان قديمتان في الشمال الشرقي من الصين أما سيوى يوان فتقع في غربي شهار في وسط منغوليا الداخلية وفي شمال حضبة أوردوس .

(الترجم)

- (١) قد عثروا منذ سنة ١٩٥٧ في منغوليا الداخلية ، وهي ذات استقلال داخلي على تقرير قصير أعدته مجموعة ثقافية من ذلك القطر ، بشأن الآثار التي عثروا عليها في بعض الرواسب الثقافية وأما كن دفن الموتى . وقد تفسر التقرير في مجله اسمها ون — وو ( Wen-Wu ) سنة ١٩٦١ بالعدد ٩ ص ٥ — ٧ (بالقنة الصينية) .
- (٢) كاراسوك قرية تقع إلى الجنوب الغربي من مدينة اسك في سيبيريا الوسطى .

(الترجم)

وقد عثروا هناك على أدوات من البرونز ، مثل أنواع مختلفة من السكاكين والحناجر والقنوس وغيرها... وهذه الأدوات تشبه للثعجات الصينية في عهد أسرتي شانج (Shang) وتشو (Chou) <sup>(١)</sup> . وفي هذا العصر يمكن للمرء أن يقيين زيادة كبيرة في عدد السكان في تلك المناطق <sup>(٢)</sup> . وكانت هناك بين السكان سلالة متتالية بارزة <sup>(٣)</sup> . ولهذا فإنه من الجائز حقاً أن هذين الأمرين يكسان هجرة بعض الجماعات التي لها صلة أثروبولوجية وثيقة بسكان الحدود الشمالية لبلاد الصين . وقد جلبت هذه الهجرات معها عناصر من الثقافة الصينية <sup>(٤)</sup> والسكان في هذه المناطق تغلب عليهم حرفتا تربية الأغنام والزراعة . كما أن نظام حياتهم يذكرنا بجماعاته

- (١) أسرة شانج ترجع إلى ١٥٢٨ - ١٠٢٧ ق. م. وأسرة تشو إلى ١٠٢٨ - ٧٥٦ ق. م. ( المترجم )  
 (٢) ب كارلجرون B. Karlgren : « بعض الأسلحة والأدوات الأخرى من أسرة ين Yin » مجلة BMFEA. سنكلم سنة ١٩٤٥ ص ١٠١ - ١٢٤ - وكذلك تشنج تسيكون ( Chêng Te-k'un ) : الآثار القديمة في الصين ، الجزء الثالث : تشو الصين - كبردج سنة ١٩٦٣ ص ١٣٨ وما يليها « Chou China »  
 (٣) الزيادة الضخامة في عدد السكان في حوض مينوسنك ، يؤكداه س. ف. كيسليف S. V. Kiselev في كتابه : « Drevnaya istoria yushnoi Sibiri » الطبعة الثانية - موسكو سنة ١٩٥١  
 (٤) ج. ف. دبك G. F. Debec عالم الأنثروبولوجيا القديمة ، في كتابه « الأنثروبولوجيا القديمة - Paleantropologia, SSSR. المجموعة الجديدة الجزء الرابع - موسكو Trudy inst. etnografi وليفنتراد سنة ١٩٤٨ ص ٨١ - ٨٢ وقد اكتشف بين سكان الكراسوك سلالات صينية خالصة . وعلى هذا الأساس وضع س. ف. كيسليف ( ص ١١٤ وما يليها ) نظرية هجرة بعض القبائل من الحدود الصينية إلى هذه المنطقة . وفي العهد الحديث طارح V. P. Aleksev . ف. ب. الكيفي الرأي القى تقدم به ذلك مبنياً أن سكان كراسوك غتلطون إلى أبعد حد ، وأن السلالة السائدة هناك هي باميرية فرغانية . ويغلب على الظن أنها وثيقة الصلة بالسكان الحاليين في تاجيكستان وأوزبكستان .

(٤) دبك ( المرجع المذكور ) ص ٨١ ، س. ف. كيسليف ( المرجع المذكور ) ص ١٤٥ وما يليها . وكذلك كيسليف Mongolia v drevnosti Izvestia Akademii Nauk, SIF. الجزء الرابع ص ٢٥٥ - ٢٧٢ وخاصة ص ٢٦٠ =



النشيانج (Chiang) وهى الجماعات التى كان ملوك شانج (حوالى ١٥٢٣ إلى ١٠٢٧ ق. م) يتعقبونهم للقضاء عليهم. أما تأثير الصين على هذه المنطقة فلا يمكن أن يكون أحدث عهداً من ٩٠٠ ق. م (١).

وتؤدى بنا هذه الحقائق كلها إلى استنتاج أن منطقة الراعى فى شمال الصين، منذ ذلك العهد حتى القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد كانت منطقة هدوء وسلام إلى حد كبير، بحيث تستطيع القبائل التى لا تحمل إلا الضئيل من الأسلحة — من رعاة الأغنام، ومن الزراعين البدائيين — التنقل بسهولة نسبية. وبما يوضح هذا الوضع توضيحاً جيداً، ما تبين للباحثين من ندرة وجود الأسلحة مع اللوق فى مدافن ثقافة كاراسوك (٢).

وفى العصور التالية حدث تغير جفدى فى وضع أولئك السكان، فى منطقة جبال الطائى، حيث تعرف ثقافتهم باسم الثقافة الماييرية (Maiemiric)، وذلك نسبة إلى الآثار التى وجدت فى الراعى الماييرية قرب منابع نهر ناريم (Narym) وأسفل السلونخى بلك (Solonechnii Belek) (٣). وهناك أيضاً ثقافة تاجار (Tagar)

== وكذلك م. ب. جريازنوف: *Istoria drevnich plemen verchnei Obi po raskopkam bliz. Bolshaya Rechka, Izd. Ak. Nauk.*

مجلة M.L. لسنة ١٩٦٥ - ص ٣٦ وما يليها.

وكذلك Chéng-Tékun (المرجع المذكور) ص ١٤٠. ويقول فلدا باستقرار جديد لفرسان شانج فى العمل. ولا شك أن هذا القول فيه بعض المبالغة.

(١) هذا الاستنتاج توصل إليه ب. كارلجرين B. karlgren، «بعض الأسلحة» ص ١٤٣ هامش رقم ١ غن أساس المقارنة النوعية للأدوات المختلفة.  
(٢) م. ب. جريازنوف (المرجع المذكور سابقاً) ص ٨٤.

(٣) كيسليف ص ٢٨٨ وما يليها، وخاصة ص ٢٩١. ومن العالم الخاصة للثقافة الماييرية مدافن بها خيول وقطع من أشكال معينة، وقطع من المرايا وغيرها. وهناك بعض العناصر التى تربط بينها وبين ثقافة تاجار، ولكن الصفة المميزة لها أنها حتى هذا الزمن تخلو من آثار الحديد.

في منطقة مينوسنسك (Minusinsk) ، ونسبة إلى جزيرة مجاورة لينوسنسك . ومن معالم العصر الجديد التي تثير أعظم الاهتمام ، مدافن اللوت التي تضم الخيل ، وهذه المدافن من مميزات الثقافة للابيرية . لقد أصبح الحصان في ذلك الوقت صديق الإنسان الذي لا يفارقه مطلقاً ، والذي لا يستطيع الإنسان أن يتفصل عنه حتى بعد اللوت . ومن الواضح أن العلاقة بين الإنسان والحصان لم تكن مجرد علاقة بين رعاة الخيل ومصدر الحياة الذي يعتمدون عليه ، ولكنها كانت رابطة أكثر متانة من ذلك — كانت قبل كل شيء صلة بين الفارس ورفيقه المخلص ، وهو رفيق ، كثيراً ما كان السبب في إقناذ حياة سيده . وقد كانت هذه العلاقة رمزاً مميزاً للعصر الجديد ، إذ أصبح الحصان فيه عاملاً هاماً في جميع مراحل الحياة<sup>(١)</sup> .

وأما في المجال الاقتصادي ، فقد كان الانتقال الجماعي إلى تربية الخيل بالإضافة إلى تربية الأغنام ، العامل الذي مكن الإنسان من الفصل بين فرعي الاقتصاد اللذين كان الإنسان يمارسهما في عصر سابق ( مثال ذلك في المنطقة الواسعة في ثقافة أندرونوفو Andronovo ) . (٢) وهذان الفرعان هما الزراعة بالفأس ورعي الحيوان . وقد كانت الخيل والأغنام الحيوانات الوحيدة التي تستطيع العثور على الغذاء تحت الثلج للتراكم على سطح الأرض . ولهذا كان من الممكن لقطعان الخيل والأغنام أن تتكاثر وتحصل على غذائها بنفسها في منطقة المراعي بدرجة لم يسبق لها مثيل<sup>(٣)</sup> . ولهذا أمكن لرعاة الخيل والأغنام أن يتحرروا من الاستقرار الدائم

---

(١) كيليف ( المرجع المذكور ) ص ٢٥٧ . « أصبح الحصان في ذلك الوقت أهم عامل في الاقتصاد . والعصر التجاري هو أول عصر استعمل الإنسان فيه في شمال آسيا سرجاً للحصان من أجل الركوب .

(٢) انظر الماشي في آخر المقالة . (الترجم)

(٣) هذه فكرة رودنسكو ( Rudenko ) . انظر الماشي رقم ٣ ، وكذلك كتابات Gornoaltaiskie nachodki i Skifi مجلد M.L سنة ١٩٥٢ ص ٢١ وخاصة ص ٢٤

قرب الحقول الزراعية ، وأن يتحولوا إلى حياة التنقل والترحال ، أو ما هو أقرب إلى هذه الحياة . ومع ذلك فقد احتفظ جميع الرعاة ببعض التناصر الزراعية ، وظلت حياة التنقل الحاضرة أمراً استثنائياً <sup>(١)</sup> ، وإن البحث عن مراعي جديدة وموارد للياه من أجل الزيادة في عدد قطعان الخيل والأغنام يؤدي إلى الاستغلال السريع لمراعي جديدة لم يستول عليها أحد غيرهم . ولأرض شبيهة بالمراعي وبعض الأراضي المرتفعة .

وتشتد الحركة ويقوى النشاط في المناطق الرعوية ، وتظهر فيها بعض مظاهر الثورة . وأول ما ظهر من ذلك ثورة في نظام القتال . ويحتمل جداً أن رعى القطعان كان في العصر السابق مهمة يختص بها الشبان بوجه خاص . وقد تبع ذلك تقسيم للعمل بين الذكور والإناث ، وبين سفار السن وكبارهم . ويحتمل أن هذا أدى إلى تكوين « فرق من الرجال » <sup>(٢)</sup> . ويحتمل أن هذه الفرق تطور منها رجال يعملون في وقت واحد فرسان الرعاة وجنودهم المحاربين . ولم تكن مهمة الراعي المحافظة على القطيع فقط ، بل كانت أيضاً الدفاع عن ممتلكات الحيوانات للفترة ولصوص البشر .

ومن جهة أخرى لا بد أن الاستيلاء على أرض رعى جديدة يجر الرعاة إلى التصادم مع الآخرين . ويشد النزاع كلما اشتد الجفاف في الأيام الخطيرة من الصيف والخريف ، وأخيراً عند هبوب العواصف في الشتاء . ولا مفر من الكوارث في الراحل الابتدائية ، قبل أن يتحصل الرعاة على قدر كاف من الخبرة . ويحتمل أن

---

(١) رودنكو المرجع المذكور ص ٢٢ . وفي ص ٢٤ من الكتاب نفسه بين رودنكو أنه في العصر الكوكزي ( Scythian ) كان قسم واحد من المجموعة العنصرية دائماً يمارس حياة الانتقال خالصة . في حين كان القسم الآخر يقوم على الأكثر بالزراعة . وأنه كثيراً ما كان هناك تنقل مستمر بين هذين النوعين من العمل الاقتصادي .  
(٢) هذه الفكرة عبر عنها ك . جتار في كتابه ( ص ٢٢٦ )

بعض هذه الكوارث دفعت الرعاة الأوائل للتقنين إلى السعي في تعويض خسارتهم بالإغارة على جيرانهم . وسرعان ما خطر لهم أنهم يستطيعون زيادة قطعانهم بسلب قطبان الآخرين ، وذلك علاوة على طريق التكاثر الطبيعي . ولهذا نال الفارس الحارب ، بسهامه الفتاك ، قوفاً متزايداً على جماعات الرعاة الذين هم أضعف مراساً في الحرب ، وكذلك على السكان المزارعين الذين يمكنه سلب خيراتهم وإخضاعهم لسلطانه ، وبذلك يضمنون الحصول على كل ما يحتاجون من الحبوب من ثمار كد الآخرين<sup>(١)</sup> .

وتمطينا الحفريات السوفيتية ، التي أجريت في منطقة بلشاي رخكا (Bolshaya Rechka) على نهر أوب الأعلى ، مستنداً لما كان يجري بين السكان المزارعين في المنطقة المجاورة في أول مرحلة لتكوين الثقافات الرعوية القائمة على تربية الخيل . وهناك نجد آثاراً للقتال ، وترى قرى يهجرها سكانها فجأة ، وقد يكون ذلك بسبب هرب السكان ، أو لأن الغزاة حملوهم جميعاً رقيقاً ، وكذلك نرى أدلة تشهد بجملة عامة ، لا يتوفر فيها الأمان ، وذلك أن الموتى كانت تدفن معهم أسلحة حربية . ومن هذا اختلفت مدافن هذا العصر بصورة واضحة عن مدافن العصر السابق ، عصر كلراسوك .

وفي منخفض مينوسنسك (Minusinsk) تظهر كذلك معالم مشابهة لهذا في الزمن الابتدائي من عصر « تاجار » . وما يتميز به العصر الجديد ( تقريباً بين القرن الثامن والقرن الثاني ق . م ) اختفاء السلالة الملغولية الضعيفة ، وهي سلالة تعتبر أحياناً منتسبة إلى السلالات الصينية . وهذه السلالة كانت أكثر من تقل

---

(١) Gryaznov يصف جريازنوف السرقة والقتال كصفتين للرعاة الأوائل وصفاً واقعياً في كتابه « Istoriadrevnich plemen » ص ٧٢ وما يليها على أساس الحفريات في بلشاي رخكا قرب بليزني الباني Blizhni Elbany

ثقافة كاراسولا ، التي كانت تعتمد في اقتصادها على تربية الأغنام . والآن أصبحت تربية الخيل والماشية سائدة في المنطقة ، وقد اكتسبت السلالة القديمة التي تنسب إلى السلالات الأوروبية السيادة بين السكان ، وهي السيادة التي كانت لها أيلم الثقافة القديمة ، ثقافة أفانازيفو ( Afanasievo ) ، وربما يكون ذلك من الأمور التي تصل بما كان يجري في الأجزاء الغربية من سيبيريا ، حيث تم الانتقال إلى نظام حياة التنقل بين الجماعات القديمة للنسوبة إلى السلالات الأوروبية .

وهناك مظهر آخر للعهد الجديد ، وذلك أن السكان ، ولو أنهم استمروا يعيشون كمجتمع زراعي مستقر ، إلا أنه كان هناك عدد كبير من القبور التي دفن فيها عشاريون من الرجال ، بل ومن النساء ، تصحبهم أسلحتهم (١) . ونجد أيضاً استحكامات وخنادق — بل أحياناً نجد أن ترعة للرى قد بنيت لها سدود ترابية للدفاع عنها ، ونجد كذلك آثارا للحروب (٢) . وعليه فإننا نجد في تلك الأقاليم الآسيوية نفس الصورة التي نجدها في أقاليم أوروبا الشرقية والوسطى ، وذلك عندما كان النزاة السكوزيون يحتلون منطقة البحر الأسود . وقد عثرنا على آثار لغاراتهم في كل من وسط أوروبا ( براندنبرج ) ، وفي جنوب شرقي أوروبا ( المجر وترانسلفانيا ووسط بلغاريا ) . كما عثرنا على ثقافة حربية نموذجية في شمال شرقي روسيا ، وهي ثقافة أنانينو ( Ananino ) ، التي تعرضت لنشاط أولئك النزاة .

---

(١) كيليف (Kiselev) : Brevnaya istoria ص ٢٢٧

(٢) الكتاب نفسه لكيليف ص ٢٥١ — ٢٥٢

وأظن أن لدينا دليلاً جديراً بالاهتمام ، يشهد بما شيره الحروب القبلية من اضطرابات تلشأ في منطقة الراعى . وهذا الدليل هو تلك الأسطورة التى أشرنا إليها فيما سبق ، والتى استخدمها أرسيتاس فى ملحمة ، والتى نقلها عنه هيرودوت . ويصف أرسيتاس الأحداث بأكملها ، باعتبارها شكلاً من أشكال الانكسارات المتتالية التى انطلقت فى الشرق بسبب هجوم جماعة الأريما سيين ( من المحتمل فى جبال الطاي<sup>(١)</sup> ) على جماعة الإيسدونيين ( Issedonians ) وهو الهجوم الذى انتهى بأن طرد السكوديون السمرين . ومن اللؤكدأن الأسطورة خرافية ، ولكنها فى رأى تمكس ما حدث فى وقت ما بعد القرن التاسع ق . م ، وربما قبله بزمان طويل ، وذلك عندما حلت بمنطقة الراعى كارثة هائلة ، شعر الناس فى المناطق المجاورة بما كان لها من نتائج وهزات عنيفة .

ويبدو أن الانتقال من حياة للزارعين السالين فى منطقة الاستبس ، والرعاة الذين يربون الحيوانات ، إلى حياة الرعاة للقاتلين الذين يركبون الخيل ، كان مرحلة استغرقت وقتاً طويلاً ، وربما استغرقت قروناً عديدة قبل أن يستقر نظام الاقتصاد الجديد على دعائم ثابتة . وعند ذلك تكونت طبقة من أصحاب القطعان الكبيرة ، ومن الحياة للقاتلين ، وقبل أن تجسد هذه الأوضاع الجديدة مجالاً لها فى الحياة

---

(١) فى غلق أنه يمكن أن نقول إن الأريما سيين هم السكوديون فى جبال الطاي، وذلك بقدر كبير من التأكد . وذلك لأننا نجد أحد الأريما سيين مقروناً على حية من الذهب - من بليزريكا العظيم - وقد تملح بفأس وهو يقاتل حيواناً خرافياً (نصفه نسر ونصفه سد) وبلبس لباساً كالتى نجده على الستائر الحائطية فى مقابر يازيريك ( Pazyryk ) رقم ٥ - واللباس عبارة عن سروال محكم واللباء المرونة . ويصف أ . ه منس ( E.H Minns ) فى كتابه ( السكوديون والافريق ) الأريما سيين . ( ص ٢٥ ) - كما وصف جنار السجادة فى كتابه

السكزية بأن يدفن مع الحارب حصانه أو خيله ، وإنى أنضم إلى الباحث السوفيتي رودنكو في الاعتقاد بأن هذا الانتقال ثم في جوهره في القرنين التاسع والثامن ق . م . وذلك لأنه ظهرت في القرن الثامن اتحادات من قبائل الرعاة للتقلين ، وهى اتحادات تامة التكوين ، لها معداتها وتقافتها التي تميزها عن غيرها . فضلا نجد في القرن التاسع ق . م في النقوش الآشورية البارزة أن الفرسان يركبون الخيل ويحملون القوس والسهم . وربما كانت ثقافة سيالك ( Sialk ) ، بامتياز به من ركوب الخيل ، لا تقل عن هذا التاريخ عهدا ، وهى تنسب حقا إلى الجماعات السابقة لليديين والفرس . وفي القرن السابع ق . م يتوغل الرعاة المتقلون في منطقة جبال الطاي ، وقد اكتسبوا ثقافة ناضجة تنسب إلى السكوزيين <sup>(١)</sup> ، ويقال إن الآثار القديمة التي عثر عليها في إقليم الرعي ما يعبري <sup>(٢)</sup> ترجع إلى ذلك القرن نفسه . وأما قبل سنة ٨٠٠ ق . م فقد ظهرت ثقافة رعوية ذات قبور مطبقة (نسبة إلى الطبقة (\*) ) في منغوليا <sup>(٣)</sup> . ونستطيع أن نفترض ، كما سنرى فيما بعد ، أنه حدث حوالي نهاية القرن التاسع ق . م . انقلاب في للرعى المجاورة للمنطقة التي تسودها الثقافة الصينية .

وقد كانت نتيجة هذا الانقلاب في منطقة للرعى ، قيام ثقافة سكوزية موحدة ( على الأقل في خطوطها العريضة ) . وقد امتدت تلك الثقافة في للمنطقة كلها من مراعى البحر الأسود إلى منطقة أوردوس ومنغوليا <sup>(٤)</sup> . وفي جميع أنحاء للمنطقة تظهر

(١) يرى س . أ . رودنكو أن القبائل السكوزية ظهرت في منطقة الطاي في النصف الثاني من القرن الثامن وفي القرن السابع ق . م . وفي س ٢٥٠ من كتابه يذكر عبي القبائل السكوزية : وربما جاءوا من المجارى العليا لنهر ايرتش وزايزان ، أو من منحدرات جبال تار باجاتاي ( Tarbagatai ) . وفي ذلك الوقت كانت تلك القبائل ذات ثقافة ناضجة تماما .

(٢) كتاب كيمليف — س ٢٩١ وما يليها .

(\*) يقصد أنها قبور على شكل الأطباق العادية .

( للترجم )

(٣) Jettmar . جمار المرجع السابق — س ١٤٤

(٤) أوردوس هضبة في الجنوب الغربي من منغوليا شمال السور العظيم ، في التبت الشمالية لنهر الأصفر .

( للترجم )

نظام له أساس اقتصادى مشترك ، وكان القسم الأكبر منه هو حياة الرعى والارتحال وتربية القطعان الهائلة من الخيل مع تنظيم اجتماعى معقد تكون فيه السلطة العظمى فى يد طبقة من الحيلة المحاربين الذين يكونون فرقا من حملة القوس والسهم يتنازولون بسرعة الحركة . وفى هذا المجتمع تطورت ثقافة لها صفات معينة وانتشار واسع ، ولكنها تتميز بسميزات مشتركة . ففى الفن يكون الأساس للشرق هو الطراز الحيوانى أو الطراز الزومور\* . وهناك أمثلة كثيرة لهذا الطراز عثروا عليها فى متغوليا الداخلية ، وبخاصة فى منطقة أوردوس<sup>(١)</sup> ومن جهة أخرى لانتزال الحفريات التى تجرى على طريقة علمية نادرة<sup>(٢)</sup> . ولهذا نجد ، كما أشرنا قبلا ، أن هناك فى هذا الشأن اختلافا ظاهرا ، من حيث عدد الأشياء التى يمتثلون عليها ، بالمقارنة إلى ثقافات صيد الحيوان والزراعة وهى الثقافات التى تنسب إلى عصرين : العصر الحجري الحديث ، وعصر البرونز .

(\*) Zoomorphic ( Zoo معناها الحيوان ، Morphic معناها الشكل والتركيب )  
ويقصد بها الفن الذى يرمز الحيوانات واعتبارها رموزاً عامة ( الترجمة )

(١) يشير إلى هنا ، ب . كارلجرفى — فى مقاله عن :

« Ordos And Huai » فى مجلة BMFEA . الجزء التاسع سنة ١٩٣٧ ص ٩٧  
ويذكر ت . ج . آرن T.J.Arne فى مقاله فى المجلة المذكورة عن  
Die Funde von Luan Ping and Hsuan Hua

الجزء الخامس سنة ١٩٣٣ ص ١٥٥ — ١٥٧ ، وفيها وصف تفصيلي لآلاف من الأدوات البرونزية من أوردوس . انظر أيضاً ج . أندرسون — مقالة عن قطع البرونز المختارة من أوردوس — المجلة المذكورة سنة ١٩٣٣ ص ١٤٣ — ١٥٤

(٢) انظر أيضاً التقرير الصينى الذى سبق أن اقتبسنا منه فى هامش سابق وخاصة عن وين وو ( Wen-wu ) سنة ١٩٥٩ رقم ٦ ص ٧٩ وفيه تقرير عن إحدى المقابر ، وما فيها من الأسلحة والمخلى الشخصية ، وهى من ( طراز سكودى ) والمختلون أنها من عصر الدول المحاربة وذلك فى السنة ٤٧٥ — ٢٢١ ق . م



ونظراً لعدم توفر الآثار المصحوبة بالمستندات الكافية ، فقد كان هناك  
 في الدراسات الصينية رد فعل غريب إلى مسألة الوقت الذي ظهر فيه  
 أول الرعاة الحياالة على حدود الصين . وفيما مضى كان بعضهم ينسب نصيباً كبيراً  
 من نهضة الحضارة الصينية القديمة إلى جماعات من الرعاة الرحل من أصل تركي  
 ومنغولي — مثال ذلك الأسرة الصينية نشو نفسها اعتبرها بعض الباحثين من أصل  
 تركي . وقد وجدت هذه الآراء تمييزاً متطرفاً لها في النظريات التي وضعها  
 و. ايرهاردت W.Eberhard عن قيام الثقافة الصينية — ولكن علماء هذه  
 الأيام يذهبون في رأيهم إلى الطرف الآخر ، ويرجعون تاريخ قيام ثقافة رعوية  
 متقلة على حدود الصين إلى الزمن الذي تبر فيه المصادر الصينية بصراحة عن  
 القبائل الرحل المقاتلة ، وعن اتخاذ الصينيين لأسلوب القتال عند خيالة الرعاة ، أي  
 أن ذلك لم يكن حتى مجيء القرن الرابع ق.م . وهذا هو رأي البروفيسر لاتييمور<sup>(١)</sup> ،

---

(١) يرى لاتييمور في كتابه « دراسات في تاريخ الحدود » ، باريس سنة ١٩٦٢ —  
 أن ابتداء الحروب بين الصينيين والرعاة المتقلين ، يرجع إلى عهد تشييد السور الطويل ( السور  
 العظيم ) أي حوالي نهاية القرن الرابع ق.م . وهذا الرأي يبرعه بكل لمجاز تفصح سيكون  
 في كتاب الآثار القديمة في الصين Archaeology in China الجزء الثالث —  
 Chou China . وفي ص ١٣٨ ، يكتب أن ( قطع البرونز من أوردوس كانت لازمة  
 يستعملها قوم مستقرون ، دون الرحل الذين يحترفون الصيد ، كما كان يظن غالبية الناس فيما  
 مضى ، ( وطبيعة الأسلحة وأدوات الزينة من أوردوس هي نفسها التي ظهرت في الثقافة  
 السكودية. والتفسير الوحيد لها هو وجود أنظمة اقتصادية وثقافية واحدة ) ، ومن جهة أخرى  
 لا شك أن هذه العناصر في منطقة جي هول ( Jehol ) توجد مختلطة بأدوات مصنوعة تدل على  
 الاستقرار الزراعي . ويقدم الباحثون السوفيت تفسيراً يبينون به أن نظام التنقل المحض لم يكن  
 له وجود ، وأن الذين يختصون بتربية الماشية . إنما كانوا قسماً فقط من القبيلة ، في حين أن  
 بقية القبيلة تفرغوا لزراعة الأرض .

كما أنه كان هو رأى السيدة م . فون ديوال بشكل معدل ، كما ظهر في كتابها الذى نشر حديثاً <sup>(١)</sup> . وفي ظنى أن هذا الرأى المتطرف ليس أقل بعداً عن الحقيقة من الرأى الأول ، وأن هناك اعتبارات نظرية محضة تدفع إلى الشك فى أن أى نظام اقتصادى منطبق تماماً على ظروف المراعى وأشباه المراعى كالتى نراها فى منغوليا الداخلية وفى أوردوس ، لم يتوغل هناك عندما انتشر فى جميع أنحاء منطقة المراعى فى الغرب ، بل وعندما بلغ إلى المناطق الجبلية فى الشمال ، وعلى الأخص عندما تدرك أن هذه المنطقة كانت دائماً على اتصال وثيق ، عن طريق زنجاريا Dzungaria بالمراعى الغربية . ويضاف إلى ذلك أن هذه النظرية تهمل أن هذه المنطقة كان بها فن ناضج وحيد فى نوعه يشبه فن السكوديين ، وكان له أثر عميق فى الفن الصينى من زمن لا يقل عن القرنين الرابع والثالث ق . م . ويحتمل أن يكون أثره أقدم من ذلك <sup>(٢)</sup> . ولا بد أن تكون هذا الفن يرجع إلى تاريخ أقدم من ذلك كثيراً ، وأن قدراً عظيماً من إنتاج هذا الفن قد أصبح مبغراً فى اللتحاف فى مختلف أنحاء العالم كله . ولكن لسوء الحظ هذه للتحفات فردية ، والذين عثروا عليها فعلوا ذلك بطريق الصدفة ، ومعظمها كان بأساليب اللصوص والمخترين . ولم يحدث إلا من عهد قريب أن ظهرت فى للمنطقة الغربية من ثنية النهر الأصفر آثار اكتشفت فى أماكنها الأصلية . وهذه الآثار لها صلة بارزة بالثقافات السيبيرية . ولا يمكن أن يكون هناك أدنى شك فى أن هذه الآثار هى مخلفات لثقافة جماعة من الرحل . ويؤرخ علماء الصين هذه الآثار بالعصر المعروف عندهم بـ « الدول المحاربة » ( ٤٧٥ - ٢٢١ ق . م ) .

(١) م . فون ديوال M.von Dewall : (Pferd und Wagen in China)

صدر فى يون سنة ١٩٦٤ م - ص ١٨٧ .

(٢) يذكر هذه الواقعة بطريقة خالية من كل لبس : ب . كارلجىرن فى كتابه

Ordos and Huai م ١١٠

ويدو لى أن العمليات التي وصفناها فيما سبق ، والتي تطورت في منطقة للرأعي ، تنعكس كذلك في المصادر الصينية ، وذلك لأننا نجد في تلك المصادر ما يقابل الوضع الذي استطاع علماء الآثار السوفيت أن يصوروه في منطقة بلشايا رخكا ، ولكنه بأسانيد طبيعية لا تتحقق إلا في للسندات المخطوطة . ولو أنه كانت لدينا معلومات تاريخية عن الحوادث التي وقعت في إقليم بلشايا رخكا ، لكان من المحتمل أن تقص هذه للمعلومات أخبار الغارات التي قامت بها القبائل الرحل على جماعات المزارعين والتي دمرت فيها مواطنهم ، وفي النهاية فر السكان إلى أماكن أخرى ، حيث تكرر الاصطدام المسلح مع السكان المحليين . ويدو لى أن هذا الحادث ينعكس في المصادر الصينية انمكما دقيقا في القرنين التاسع والثامن ق . م . وهذه الانمكسات هي ما سبق أن أشرنا إليه من غارات هسين يون ، بي جونج وى : ولكن هذا الحادث تمقد في الصين بشكل جديد بسبب الأحوال الداخلية — حروب العصابات التي قام بها ملوك تشو ( \* ) ( Chou ) وهي حروب فتت الكيان القديم للثقافات القبلية في مقاطعة شن هسي ، وكذلك بسبب ما نجم عن تلك الحروب من حركات قامت بها القبائل المختلفة ، مما ليس له اتصال ، على الأقل بطريق مباشر ، بالحوادث التي تقع في منطقة للرأعي . ومثال ذلك هجرة التشوان جونج ( Ch'uan Jung ) . ويرى ج . هالون أن هذه الهجرة هي التي أوجدت الدافع الأول لمجموعة كاملة من الهجرات ، ولكن الظاهر أن هذا الحادث نجم عن اضطراب هذه القبيلة إلى الاستقرار بقوة لللك مو ( Mu ) ( وفقا لبعض الحسابات التقليدية وقع ذلك في الفترة ٩٦٢ - ٩٠٨ ق م <sup>(١)</sup> ) . ولكن ليس من الممكن هنا السخول في التفاصيل :

---

(\*) حكم ملوك تشو من ١٠٢٨ إلى ٢٥٦ ق . م .

(١) هذا الحادث مدون في الفصل ٨٧ من كتاب Hou Han-shu, Wang Hsien— سنة ١٩٣٣ ، قام بالنشر وأضاف تعليقات على الكتاب Ch'ien Chi =

وقد بدأت حركة شعوب الشمال بكلمها ، بهجومين عظيمين قام بهما جماعة  
 الحسين يون على مركز أراضي التشو ، بقيادة ملكهم هسيوان ( ٨٢٧-٧٨٢ ق.م )  
 وهذا العمل يحدد ابتداء عهد جديد حدث فيه تغيير أساسي ، شمل الصين أيضا ، في  
 العلاقات بين الثقافات الزراعية ومنطقة المراعي . وقد بينت فيما سبق أننا لا نستطيع أن  
 نقر رأى هالون عندما يقول بأن جماعة الحسين يون هم أنفسهم السامريون . وأبعد  
 من ذلك أن نقر التفسير البسط الذي تقدمه تمارات . ريس ( Tamara T. Rice ) ،  
 بأن الإمبراطور هيسوان ( Hsuan ) صد هجوم المسيونج . نو ( أو الهون ) ،  
 وعند ذلك تحول هجومهم كله ناحية الغرب ، وتسببوا بذلك في هجرة جماعات

---

Chieh Wang Hsien—Ch'ien — ويقس الكتاب ( ٢ - ب ) كيف أن الملك  
 أغار على تشوانج — جونج وأسر خمسة من ملوكهم وقلمهم إلى تاي — يوان . وهذه القصة  
 وهي مثل معظم المعلومات في ذلك الفصل ، متعلقة بالحروب بين الملوك الأوائل لأسرة تشو  
 مع برايرة الغرب ، يعتمد جدا أنها مأخوذة من Chu-shu Chi-nien وهي «تواريخ مكتوبة  
 على الخيزران» ، والأحداث القديمة لدولة تشو . و وي ، تمت حوالي ٢٩٩ ق.م . وقد عثر  
 عليها في أحد القبور سنة ٢٨١ م ولا شك أن إعادة استقرار قبيلة كثيرة العدد في إقليم  
 يقع في مكان ما شمال مركز التشو ، وما يصحب ذلك عادة من أعمال القسوة . كان عملا غير  
 حكيم ، لأنه أوجد تهديدا مستمرا . وقد ساعد ذلك إلى حد كبير على تحطك قوة التشو . وتنعكس  
 فكرة عدم حكمة هذا العمل في كتاب كيويو Kuo-yu «أحداث عن الدولة» ، وفي الفصل  
 الأول — تشو — يو Chou yu أي أحداث عن التشو ، وفيه يحاول المستشارون المختفون  
 أن يقنعوا الملك حتى يرجع عن إرسال حملة ضد التشوان جونج . ولكن الملك أهمل نصائحهم  
 وقام بالحملة . ويعتدل أنه أخذ بعض الأسرى ، وأنه حل جماعات كثيرة من الناس بالقوة على  
 ترك مواطنهم ، وهذا مسجل في نقش على إناء من البرونز له ثلاث أرجل ، ويرجع إلى أول  
 عهد أسرة تشو . ولعل هذا يفسر كيف اكتسح المنغريون حوض نهروني بأكله في مقاطعة  
 شن هسي . وكانوا جماعات مختلفة من البرابرة . وقد تمكن أخيرا و . ا . دوبسون  
 W: A Dobson من تحليل النقش المذكور ، كما بين من كتابه المخطوطات الصينية الأولى  
 Early Archaic Chinese ( تورتو سنة ١٩٦٢ ) ص ٢٢٦ وما يليها وإن على خلاف  
 بعض الباحثين الصينيين ، أرى أن تاي يوان Tai-yuan تقع في مكان ما شمال مركز مملكة  
 تشو ، ولكنها لا تبعد عنها كثيرا .

مختلفة<sup>(١)</sup> . ولا نستطيع أن نقول واثقين بأن ما حصل كان انتصاراً بين  
الرعاة الرحل . والواقع أن هجوم الهسين يون يذكرنا في جراته  
وثبات أغراضه واتساع مداه وسرعة حركته ، بالغارات الهائلة التي شنّها السكوديون  
حتى وصلوا إلى حدود مصر وإلى أقاليم مختلفة من وسط أوروبا وجنوبها الشرقي .  
وصبب علينا أن نصدق أن جماعة من الأمم البربرية التي تحيط بهم تستطيع بغير  
سلاح حربي جديد أو خطط حرية جديدة ، أن تقدم على شن هجمتين على الأقل  
في مدى واسع ، على قلب أراضى مملكة تشو ، أو أن تلك الجماعة ترك أثراً عميقاً  
في نفوس الذين أغرت عليهم . وقد خلدوا الهجوم العنيف الذي قام به الهسين  
يون في أربع قصائد من كتاب الأغاني « شيه تشنج » Shih-Ching<sup>(٢)</sup> ،  
وكذلك سجلوه على ثلاث قطع من البرونز<sup>(٣)</sup> . وإذا استثنينا انتصارات التشو على  
الشانج ، فإن حادثاً آخر في تاريخ الصين لم يترك مثل هذا المسند الأدبي العظيم .  
ومما يجعلني أعتقد أن غارات الهسين يون ضد الصين مرتبطة بانتقال القبائل في منطقة  
المراعى إلى نظام الحياة المتقلبين على ظهور الخيل ، وقيام أسلوب حربي جديد ،

(١) انظر كتابها . صدر في لندن سنة ١٩٥٧ - ص ٤٣

#### The Scythians

(٢) ج ليج J. Legge - The Chinese Classics - الجزء الرابع ، قسم ٢

ص ٢٥٨ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ .

وأيضاً أ. واني A. Waley كتاب الأغاني Book of Songs لندن سنة ١٩٥٤  
ص ١٢٢-١٢٩ كاربجرن في مجلة BMFEA رقم ١٤ (سنة ١٩٤٧) ص ٧١-٧٤ ،  
رقم ١٦ (١٩٤٤) ص ٢٥ - ٢٥٦ ، رقم ١٧ (سنة ١٩٤٥) ص ٦٥ - ٩٩  
رقم ١٨ ص ١ - ١٩٨

(٣) مجموعة من النقوش على البرونز أيام أسرة تشو وتفسيرها Kuo Mo-jo  
جها كيوموجو - بكين سنة ١٩٥٧ الجزء ٧٧ ص ١٠٣ ب ، ١٠٦ أ ، ١٤٣ ب

أنه كانت هناك خطط خاصة استعملها المسيون يون<sup>(١)</sup> ، كما كانت هناك عناصر ثقافية معينة ، يلب عليها الأصل الصيني ، وهي تظهر في أقدم الآثار السكودية<sup>(٢)</sup> . ومن المحتمل أنه في أثناء مثل هذه الغارات ضد الصين ، أمكن لبعض العناصر الثقافية أن تنفذ بسهولة إلى جماعة الرعاة المتقلين ، وعن طريقهم انتقلت حق وصلت إلى إقليم البحر الأسود<sup>(٣)</sup> .

ومن الجائز أن المركز ، الذي انتشر منه النظام الاقتصادي والأسلوب الحربي الجديدان ، كان إقليماً يقع شرقي زونجاريا . وهناك قوى شأن هذه العملية بسبب دخول عناصر أوروية بين العناصر للنغولية ( وتشير الأدلة إلى أنه كان هناك بين السكوديين عنصر قوى من النغوليين مختلط بالسكوديين )<sup>(٤)</sup> وربما كانت هذه العملية ذات

---

(١) يقى أحد النقش المشار إليه ( المرجع السابق - Kuo Mo jo ) من ١٠٦ حرف أ ، كيف أن أحد القواد الصينيين تتبع المسيون يون وهزمهم ، وبعد ذلك ضم البابرة قواتهم وتقبوه .

ونستطيع أن نقول إن هذا كان وصفاً لحطط عادية يستخدمها الحيلة الفرسان الذين يظهرون بالانسحاب ، وعندما يتجهبهم العدو يتقلبون عليه فجأة ويهاجمونه ) ونذكر أول قصيدة من القصائد المذكورة قبلاً أن المسيون يون سريعو الحركة ، وهي حقيقة تستحق التنويه ، لأن الصينيين القتاتلين كانوا يحاربون وهم في عربات ، ولهذا قتلوا سرعة الأعداء التقدير الصحيح .

(٢) من الأسس الفنية البارزة فنائع تاوتيه ( P'ao-t'ieh ) ت . ج فريش T.G.Frisch « الفن السكودى ويض ما يقابله من الفن الصينى » - مجلة الفن الشرقى : Oriental Art الجزء الثانى سنة ١٩٤٩ رقم ١ ص ١٦ - ٢٤ ، رقم ٢ ص ٥٧ - ٦٢ وبها قبعات مصبوبة ، مراياها حلقة وغيرها ، وبعض أسلحة سكودية قرية الفيه بخناجر من أوردوس . ومن الضروري أن نعرف كل ما يتروء به المحارب السكودى : القوس المركب والفأس والسيوف القصير .

(٣) أول من أشار إلى هذا الاحتمال ك . جنار فى دراسة عن : « إقليم الطاي قبل مجئ الأتراك » مجلة BMF EA - ٢٣ سنة ١٩٥١ ص ١٣٥ - ٢٢٣ وخاصة ص ١٥٩

(٤) رودنكو

يشير فى المقدمة إلى وجود عنصر منغولى بين السكوديين على نهر القولجا وفى جبال الطاي .

صلة بوصول قبائل سكودية إلى إقليم الطاي ، وربما ظهرت هناك أيضاً جماعات يويه تشيه ( Yueh Chih ) وهى من أصل هندى أوروبى ، على الحدود الشمالية الغربية للصين فى المقاطعة الحالية كانسو . وإذا ثبت أنه حوالى سنة ٨٠٠ ق . م . أصبحت الأقاليم الشمالية بمخفاف شديد<sup>(١)</sup> ، فمن الممكن أن نعتقد أن هذه الظاهرة الطبيعية كانت عاملاً مساعداً فى تسهيل تلك العملية وزيادة سرعتها .

ومن جهة أخرى لا يمكننا أن نلقى تماماً فكرة أن مركز الإشعاع هو إقليم أوردوس والأراضى المجاورة ، وأن هذه العملية كانت المرحلة النهائية لحركة منتظمة لمجموعات عنصرية معينة تدفع إلى أراض قديمة . وهناك تضطر هذه المجموعات ، وخاصة إذا كان هناك تدهور فى الحالة المناخية ، إلى أن تتحول إلى الحياة الرعوية للتنقل<sup>(٢)</sup> . وتؤدى الصدمات التى تتجم عن هذه العملية إلى تكوين طبقة من المحاررين . ولا يمكن حل هذه المسائل إلا بالسجلات الأثرية القديمة ، إذا أمكن فى هذه الظروف الطبيعية القاسية العثور على قدر كاف من السجلات .

وإن ما ذكرناه عن هجوم الحسين يون ، الذى يوضح أنه كان السبب فى الانحلال التام للثقافات القبلية القديمة فى منطقة شن هسى ، قد زاد فى الفوضى هناك ، وعجل الانحلال التام لقوة أسرة تشو . وعقب ذلك جاءت مجموعة كاملة من الجيوش المغيرة من مختلف القبائل المتبررة ، أغارت على منطقة الدول الصيدية الصغيرة

(١) الزورث هنتنجن Ellsworth Huntington - هو الذى وضع هذا الفرض ( انظر T. Rice فى كتابها ص ٤٣ ) . وقد أخذ به منج ون - تشونج فى كتابه : « Chou Ch'in-shao-shu min-tsu yen-chiu » شتبهى سنة ١٩٥٨ ص ١ وما يليها وهو يقول أن الإقليم الشمالى قد أسابه الجفاف مدة تقرب من ١٥٠ سنة بين القرنين التاسع والثامن ق . م .

(٢) هنا هو الرأى الذى يقول به لاتي مور بشأن قيام الرعاة المتنقلين فى كتابه ، « دراسات فى تاريخ الحدود ص ١٤٥ » .

في المقاطعة الحالية شان سي والأراضي المجاورة . ويجب ألا ننسى في هذا الصدد أن مصادرنا ناقصة إلى أقصى حد ، في الفترة التي تشمل القرن الثامن بأكمله ، وقبلها كبيراً من القرن السابع ، إلى سنة ٧٢٢ ق . م ، وهي السنة التي تفتتح السجل التاريخي تشون ييو ، «Chun-biu» وشرحه الفصل تسوتشوان ، «Tso-Chuan» ، وهذه المصادر لا تعدى تتفا من حوليات «كتب الخيزران» تشوشو تشي نين «Chu-shu-Chi-nien» وهي تف جمعت بصعوبة من اقتباسات متنوعة . وعلى الرغم من ذلك فإن هذه المصادر توضح بجلاء مظهراً فريداً واحداً لهذه الغارات ، وهو أن عملية التنفيذ في كل منها تكاد تكون واحدة . وأفضل تشبيه لحركاتهم حركات كرة البلياردو إذ يطلقها اللاعب نحو أحد جوانب المضدة تعود مرتدة لتضرب الجانب المقابل ، ومنه تنطلق مرة أخرى نحو الجانب الذي يقع بين الجانبين . وهذا يدل على أن هناك خاصية آلية معينة في هذه الهجمات ، وعلى حركة غريزية ، ويحتمل أن هذه الحركة تسود على الأهداف المخططة .

وكانت أول مجموعة من تلك الهجمات هي الغارات التي شنتها قبائل بي جونج (Pei Jung) وهم برابرة الشمال . وقد هاجمت هذه القبائل في سنة ٧٩٤ ق . م ، أي بعد غزو الهسين — يون زمن قصير، دولة التسن (Tsin) التي تقع على المجرى الأدنى لنهر فن (Fen) في مقاطعة شان هسي . وعندما هزموا أطلقوا قواتهم ضد الجانب المقابل من المقاطعة الحالية شان هسي ، وهاجموا دولة هسج (Hsing) التي تقع في المقاطعة الحالية هو بي (Ho-pei) عند سفح جبال تاي هانج (Tai-hang) . وهناك ردوا على أعقابهم في سنة ٧٩٩ ق . م<sup>(١)</sup> . والظاهر أنهم

---

(١) هذان الحادثان قد سجلا في الفصل ٨٧ من كتاب هو هان شو Hou Han Shu — ص ٣ — أ ، ومن الواضح أنهما متقولان عن كتاب تشوشو تشي نين .



بعد ذلك تحولوا ناحية الجنوب وغزوا تشنج (Cheng) في سنة ٧١٠ و تشي (Chi) في سنة ٧٠٦ ق. م<sup>(١)</sup>. ولما كان الصينيون قد أطلقوا عليهم لقباً غامضاً ، وهو برابرة الشمال لهذا يجب أن تقرر أنهم كانوا جماعات من الشمال ومن أماكن بعيدة كثيراً ، بحيث لم يعرف الصينيون أسماءهم . ولما كانت الحوليات تؤكد صراحة أن أولئك البرابرة كانوا يقاتلون مشاة فإننا نميل إلى الاعتقاد بأنهم من المزارعين ورعاة الأغنام ، وأنهم كما سبق أن قلنا قد استقروا في شمال السور الطويل في وضعه الحالي . ولهذا نستطيع أن نقرر أنهم كانوا من قبائل سوى ومو (Sue & Mo) للفرقة في كل مكان ، والتي جاء ذكرها في كتاب الأغاني<sup>(٢)</sup> وفي بعض المصادر القديمة الأخرى ، التي لها صلة بالتشيانج (Ch'iang) أو كانوا على الأقل مشتركين معهم في الثقافة . وهؤلاء التشيانج كانت بينهم وبين دولة الشانج حروب مستمرة . ويجب أن نربط بين هجرتهم وبين الاختلال الذي أصاب العمران في عصر البرونز في تلك الأثناء ، والذي سبق أن أشرنا إليه .

ومع ذلك فإنه من المؤكد أننا لا نجد في فئات المصادر القديمة التي وصلت إلينا إلا إشارات قليلة لأحداث لها أهم ماقوع في عملية يحتمل أنها كانت عملية مستمرة ، ومن المؤكد أنها كانت طويلة الأجل ، كما أنها كانت معقدة جداً .

ونستطيع أن نستدل على أنه يجب البحث عن الدوافع التي دفعت إلى هذه الحركات في الشمال والشمال الغربي ، في جهة ما من إقليم أوردوس ، باتجاه هجوم هسين يون ، على امتداد الطريق بين نهري تشنج (Ching) ولو (Lo) في مقاطعة شى سى ، وبهجمات قبائل جونج الشمالية ، وفيما بعد بهجمات تي . وهذه الهجمات

---

(١) تسو تشوان ( Tso-chuan ) السنة الخامسة من الملك ين ( yin ) - الآداب القديمة الصينية رقم ٥ ص ٢٧ ، تسو تشوان - السنة السادسة من الملك هوان ( Huan ) نفس المرجع ص ٤٧ .

(٢) الآداب القديمة الصينية Chinese Classics - رقم ٤ - ص ٥٥١

يشنونها أولاً على تسن، ولا يتحولون عنها إلى الشرق أو إلى الشمال الشرق إلا عند ما ترددم القوة . ونستطيع أن نفترض أن أوردوس والأراضي المجاورة كانت في ذلك الوقت مقراً للقوة المركزية الطاردة التي بشرت جماعات البرابرة في جميع الأنحاء . وإذا اعتبرنا أن هذه الحركات وقعت في منطقة للرأعي في عهد الاضطراب العظيم الذي شكّل عنه ، فلن نكون بعيدين عن الحقيقة إذا قلنا إن هذا التغيير التوري هو الدافع للبدئ لهذه الحركة . ذلك أن أولئك المحاربين الذين ينتقلون على الأقدام ، يحمل جداً أنهم طردوا من مواطنهم بعمليات أشبه بتلك التي أمادت اللثام عنها الأبحاث الأثرية السوفيتية . في إقليم بلشاي رشكا (Bolshaya Rechka) .

ومع أن الفارات التي قامت بها جماعة بي جونغ (Pei Jung) لم تترك في ذلك الوقت آثاراً عميقة في الصين، فإن هجرات قبائل تي كان لها نتائج أعظم شأنًا ، وتبعاً لذلك أحدثت في الصين القديمة تغيرات جوهرية في التكوين النصري لسكانها ، فضلاً عما كان لها من نتائج سياسية بعيدة المدى . وكانت هذه الهجرة عاملاً في ظهور شمال الصين في الصورة التي نهبها من الحرائط التقليدية<sup>(١)</sup> . وعند ذلك ظهر لأول مرة في جنوب شان هسي جماعة تعرف باسم تي الحمراء ، وفي مقاطعة هوي جماعة أخرى تعرف باسم تي الشمالية . وقد أشار إلى هذه الحقيقة ج . هالون<sup>(٢)</sup> ، ولكن المسألة كلها تحتاج إلى بحث أكثر عمقاً .

ومن المؤكد أن الحجة الأساسية لا تزال حجة عدم توفر الأدلة . ومن غير المحتمل أن تظل جماعة تي في شرق شان هسي في حالة هدوء تام مدة ستين عاماً، وهي

---

(١) صورة هذه الخريطة أعدها ه . ماسيرو H. Maspero في كتابه الكلاسيكي « الصين القديمة » باريس سنة ١٩٥٥ « Lachine Antigue » ص ٥ وما يليها .

(٢) راجع أيضاً كتاب هالون « Seit wann Kannten die Chinesen die Tocharer oder Indogermanen überhaupt. »

طبعة ليزج سنة ١٩٢٦ ص ٥٢ ، ٥٣ وغيرهما .

مدة لدينا فيها سجلات مفصلة في السجلات التاريخية : تشون تشيو (Ch'un-Ch'iu) وتسو — تشوان (Tso chuan) ، ثم تقوم فجأة في سنة ٦٦٢ ق . م . بمجموعة من القزوات تكون نهايتها القضاء التام على نفسها . ولكن ما هو أكثر احتمالاً أنه لم يحدث إلا في ذلك الوقت أن توغلت جماعة في إقليم لم يسبق لها أن استقرت فيه . والمستند الوحيد في سجل تسوتشوان في سنة ٦١٦ ق . م (١) يسجل توغل في في شرقي الصين قبل سنة ٦٦٢ ق . م ، وبالمقارنة إلى سجلات أخرى في مصدرين هما كونج-يانج — تشوان (Kung-yang-chuan) (٢) وكوليانج تشوان (Ku-liang-chuan) يتبين لنا أن ما جاء في ذلك السجل الأول ، لا يزيد على كونه مجموعة من الأساطير ، التي لا تستند إلى شيء من التاريخ الصحيح . ولكن لدينا حبيب أخرى ، في بدء عهد أسرة تشو الغربية ، كانت هناك دولة قوية جداً تعرف باسم ين (Yen) ، وتقع في شمال المقاطعة الحالية هوبي (Hopei) . ومن القصائد في كتاب الأغاني شبه تشنج (Shih-Ching) قصيدة تمجد هان . وهان إمارة يقع مركزها في جنوب شرقي مقاطعة شـ ـ هسي ، والظاهر أنها كانت تسيطر على بعض الأراضي التي تقع على الجانب المقابل من النهر الأصفر في شان هسي . وتقول هذه الأنشودة إن دوق ين حسن أو ساعد في تحصين عاصمة إمارة هان (٣) . وما كان الدوق يجرؤ على أن يفعل ذلك لو أنه كان يفصله عن إمارته جماعة من التبذرين الخطرين الذين يتحكمون في جميع ممرات الجبال . وعلاوة على ذلك من المحتمل جداً أن

---

( ١ ) الآداب القديمة الصينية Chin Classics — الجزء الخامس ص ٢٥٧

( ٢ ) من التعليقات على السجل التاريخي تشون تشيو (Ch'un-Ch'iu) في السنة الحادية عشرة للدوق ون ( wen ) يتضح من هذه الإشارات أنها تشير إلى عمالقة خرافيين .

( ٣ ) أنشودة هان ( Han-i ) — أظن الآداب القديمة الصينية — الجزء الرابع ص ٥٤٦ ومايلها .

مسألة شأن ين ، وكذلك الدولة الصغيرة هسج في العصر التالي ، لم تكن حالة منفصلة عن قدوم تي من شمال شرق هو ي . ويحتمل أن ذلك نجم عنه أن دولة ين فقدت شطراً كبيراً من أملاكها . وهذا السبب نفسه يجعل دولة هسج عاجزة عن التدخل في الحرب للدمرة التي قامت في تسن ( Ts'in ) في سنة ٧١٨ ق . م (١) ، أو أن يقوم دوق ين في السنة نفسها بمساعدة دولة وي Wei ضد دولة تشنج . Cheng التي تقع في للقاطعة الحالية هونان (٢) . وأخيراً فإن الفتوحات التي قام بها الملك وو ( Wu ) مؤسس قوة تشو ، والذي أحدث في مؤخرة الشانج تحويلاً خطيراً للحرب ، بأن دفع جيشه إلى الأراضي التي تتكون منها في الوقت الحاضر مقاطعة شانسي ، وخاصة باستيلائه على الدولة الصغيرة لي ( Li ) التي تقع في جوار المدينة الحالية لوان ( Luan ) (٣) مثل هذه الفتوحات تكون مستحيلة لو أن القبائل الحاربة في كانت مستقرة في تلك الأراضي . وعلاوة على الوصف الذي تذكره المصادر بشأن أول ظهور جماعة تي هناك ، كل هذا يثبت أن هذا المجهوم كان مفاجئاً وغير منظر وأن المدو كان عدواً جديداً .

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) في تشو شو تشي ين Chu-Shu (hi-nien) . سجل محفوظ عن حملات الحكام الأوائل من تشو ضد عدد من القبائل التي ربما استقرت في شان سي . ولكن هذه اللوائح بعيدة عن التأكد .

(٣) في النص الحالي للسجل تشو شو تشي ين ، قد ذكر غزو الدولة الصغيرة «لي» في السنة الرابعة والأربعين لآخر حكام شانج واسمه تشو ( وذلك غير اسم أسرة تشو ) أي قبل السقوط المؤكد لشانج بثان سنوات . ومن الطبيعي أن غزو الأودية التي تقع في الجنوب الشرق من شان - هي سجل من السجلات الدفاع عن ممتلكات شانج في السهل العظيم . وما يؤكد استيلاء مؤسس قوة تشو على دولة لي ، عنوان أحد الفصول في جزء غير موجود الآن من كتاب المستندات شو تشنج (Shu-Ching) وهو : « حاكم الغرب قد استولى على لي » . وقد كان اسم مؤسس قوة تشو - تشوفا ( Chou Fa ) ولكنه يد ماته عرف باسم الملك وو ( Wu ) . وهناك إشارة إلى هذا الفتح في مقمعة كتاب شو تشنج ، التي تنسب إلى كوفوشوس ، وفيها عبارة : « كانت الكراعية التي تشر بها ين ( yin ) أو شانج نحو التشو مرجحاً استيلاء تشو على لي » ، وهذا ينطبق تماماً على الوضع التاريخي . انظر الآداب القديمة الصينية جزء ٣ ص ٧ (Chin. Classica) أما مدينة لوان فتقع في جنوب مقاطعة شان سي ( خط عرض ٣٦° شمالاً وطول ١١٣° شرقاً )

ونستطيع أن نفترض أن الأراضى الأصلية التى استقرت فيها تى كانت فى المقاطعة الحالية شن سى Si - Shen بين نهر لو والنهر الأصفر ، ويجوز أنها مدت أملاهما إلى الشاطئ الشرقى للنهر الأصفر . وفى الشمال وصلت حدود منطقتهما إلى السور الطويل ( السور العظيم ) الذى يعتبر الحد الشمالى لمقاطعة شن هسى ( Shen - hsi )<sup>(١)</sup> . وقد كانت تى فى الأزمنة التاريخية مستقرة فى تلك الأنحاء تحت اسم تى البيضاء .

وربما يبدو لنا أننا نستطيع أن نتبع التاريخ القديم لقبائل تى إلى أبعد من ذلك ، لأنه من المحتمل أنهم قد ظهروا أصلا فى المصادر الصينية تحت اسم كوى Kuei ، وأخيراً كوى جونج Kuei Jung . وهذا التحقيق ينسب إلى العالم الصينى الكبير وانج كيوى - Wang Kuo Wei<sup>(٢)</sup> ، ويقلبه عامة علماء الصين — وأظن أننا أيضاً يمكن أن نقبله ، ولو أن ذلك على أساس أكثر توضيحا . وذلك لأننى منذ زمن أشرت فى كلامى فى نقد بعض الكتب<sup>(٣)</sup> إلى أن عدداً من الأسماء

---

(١) هذا ما يستتبع من العبارة الواردة فى الفصل (١١٠) من كتاب شيه تشى ( Shih-chi ) وقد حرره كوتشيه — كانج ( Kuchieh Kang ) . فى ص ٣ والثى تقول إنه « لقد طرد اللوق ون حاكم تشن ( Chin ) تى ، وبعد ذلك استقرت تى فى الغرب من النهر ( الأصفر ) ، بين نهري يى ولو . ويبدو أن نهري يى ، أو حسب مصادر أخرى نهر « هوان » ينطبق على نهر تشويه — هو ( Chu-yeh-ho ) . الذى يتقابل فى الشمال مع السور العظيم ويصب فى النهر الأصفر .

(٢) العالم الصينى وانج كيوى : له بحث فى قبائل كوى فانج وغيرهما Kuei-fung, kun-i Hsien-yun K'ao

ومعه فى سنة ١٩٣٦ مقدمة Wang Ching-an hsien-sheng i-shu T'ao — الجزء الخامس Kuan - t'ang Chi-lin — الفصل ١٣ شيه لين Shih-lin رقم ٥ ص ١ - ٢٠ وخاصة ص ٣٦ ومايلها .

(٣) مقالة عن : « مؤلفات جديدة متصلة عن الشرق الأقصى »

De Quelques nouveaux travaux de l'Extrême Orient

فى مجلة Aro سنة ١٩٥٥ ص ٢٠٥ - ٢٢٤ وخاصة ص ٢١٨ - ٢٢٠

تظهر في النقوش الخاصة بالشانج ، على اعتبارها أسماء جماعات أو أقطار ولكنها فيما بعد تستعمل أسماء لمشيرة الأسرة الحاكمة . فمثلا لفظ مى ( Mi ) يستعمل فيما بعد لاسم المشيرة لحكام من دولة تشو ( Chu ) في حوض نهر يانجتسو ( يانجتسى ) وبين حكام تى نجد اسم المشيرة وي ( Wei ) . والفرق بين لفظ وي ولفظ كوى ليس إلا في النطق الإضافي ، ونحن نعرف أن الأصوات الإضافية إنما أضيفت إلى الحروف الصينية فيما بعد ، كما نعرف أن لفظ كوى جونغ ، كثيراً ما يستعمل بدل لفظ تى . وفي « حوليات كتب الخيزران » يستعمل لفظ كوى جونغ مرة بدلاً من لفظ تى ، وفيها قرأ أن الأمير تشى لى ( Chi — li ) جد الملك وو ( Wu ) مؤسس قوة تشو « هجم على هسى لو كوى جونغ » Hsi Lo Knei Jung « وأسر عشرين من ملوك تى »<sup>(١)</sup> . وأظن أن لفظ هسى لو هذا يترجم عادة « القبائل النورية »<sup>(٢)</sup> وهما معناه الحقيقي « لو النورية » ولو هو اسم النهر الذى استقرت عنده تى فيما بعد . ولهذا فإننى أترجم العبارة السابقة « كوى جونغ أصحاب لو النورية » وهناك عبارة منقوشة على الفأس الحرية ( كي Ke ) لدوق ليانج ( Liang ) تقول « أى — كوى — فانج — مان » . ومعناها بالتقريب « اخضع بربابة كوى فانج »<sup>(٣)</sup> . أما ليانج فتقع في اللقطة الحالية شن هسى غربى النهر الأصفر ، ولهذا لا بد أن حدودها كانت مجاورة لحدود « تى » .

(١) مصدرنا هو شرح الفصل ٨٧ من كتاب هو مان شو وفيه يقول : « حسب نس حوليات كتب الخيزران ( تشو — هو تشى — تين ) في السنة الخامسة والثلاثين من حياة الملك وو الأول ملك تشو هجبت تشى ( Chi ) على هسى لو كوى جونغ وأسرت ٢٠ من ملوك تى » .

(٢) يترجمها كنفك ليج « Legge » في الآداب القديمة الصينية . جزء ٣ — المقدمة التفسيرية من ١٣٨ ، وفي النقد المذكور أعلاه أذكر الأسباب التى بنيت عليها تفسيرى .

(٣) انظر Chén Meng—chia في كتابه Yin\_hsu pu\_tz'u tsung-shu . وتلك الفأس ترجع إلى أيام تشون تشو ولهذا فهى بعد سنة ٧٢٢ ق . م .

وكانت جماعة كوى Kuei هدفاً للهجوم من كل من شانج وتشو . وقد احتفظ الكتاب للقدس عند التشانج : « إى تشنج » ( I-Ching ) <sup>(١)</sup> بالقصة التقليدية التى تصف كيف أن ملك شانج ، كاوتسونج ( Kao Teung ) واسمه أيضاً ووتنج ( Wu Ting ) ، والتاريخ التقليدى لحكمه هو ( ١٣٢٤ — ١٢٦٥ ق . م ) ، استطاع أن يخضع الكوى فانج بعد قتال ثلاث سنوات . ولدينا نقش مشهور يرجع إلى أيام تشو محفور على هسياو يوتنج HsiaoYu-Ting يصف حملتين ضد الكوى فانج ، فى أيام الملك تشنج ( Cheng ) والتاريخ التقليدى لحكمه ١٠٤٤ ١٠٠٨ ق . م ولدينا أيضاً عدد يذكر من الإشارات إلى تى فى هذه الأثناء من الصين .

ويحتمل أن الأسباب التى من أجلها طرد بى جونج Pei Jung من أرضهم ، التى كانوا قد استقروا فيها ، هى نفسها الأسباب التى حركت تى . وكما هو الحال مع بى جونج ، نسمع عنهم لأول مرة فى هجوم على تسن فى سنة ٧٢٩ ق . م <sup>(٢)</sup> . ولما كانت تسن بعد سنة ٦٧٨ ق . م قد بلغت أعلى درجة من القوة ، فمن المحتمل أن تى ، وهى آتية على الأكثر من الشمال ، تحولت إلى جهة الشرق ، والظاهر أن تى شقت طريقها عبر حوض تاى يوان Tai-yuan ، وكانت تسوق أمامها قبائل ووتشنج Wu-chung . وهذه القبائل غزت فى سنة ٦٦٤ ق . م أرض ين yen وتركتها خراباً . وتظهر هذه القبائل فى المصادر الصينية تحت اسم شان جونج ،

---

(١) ج . ليچ ( J,Legge ) كتاب : The Yi Kings ( ملوك الى ) ا كسفورد سنة ١٨٩٩ م ٢٠٥ ، ٢٠٨ . وهنا ذكر لفتائل كوى فانج Kuei-Fang فى كتاب شبه تشنج . shih—ching من الأدب الصينية القديمة الجزء الرابع س ٥٠٦

(٢) تشوشو تشى ين Chu—Shu Chi—nien فى التمس القديم . السنة الثانية من حياة الأمير تشوانج ، « Count Chuang of Chin » . وهو أمير تشن .

أى برابرة الجبال<sup>(١)</sup> . وعند ذلك هاجمت الجماعات الجديدة الدول الصينية فى الجنوب الشرقى . وفى سنة ٦٦٢ ق . م اكتسحت تلك الجماعات دولة هسج Hsing ، وفى سنة ٦٦٠ كانت أن تمحو دولة من أعظم الدول الصينية — وي Wei التى قامت على أثر تقسيم ممتلكات دولة شانج . وقد استقرت فى الأجزاء الشرقية والجنوبية الشرقية من شان هسى ، وهناك عرفت باسم فى الحمراء . كما استقرت فى الأقاليم الشمالية الغربية من هووى ، حيث استقرت ثلاث من قبائلهم . وقد أسست إحدى هذه القبائل فيما بعد دولة صغيرة أطلق عليها تشونج شان Chung-Shan . وقد أصبحت قبائل فى الحمراء بوجه خاص مصدر رعب لكل أنحاء الصين الوسطى والشرقية . ولم تستطع الصين القضاء نهائياً على تلك القبائل إلا فى سنة ٥٨٨ ق . م . أما فى الشمالية فإنها عاشت مدة أطول ، إلى أن خضعت لدولة وي سنة ٤٠٨ ( وهى غير الدولة التى دحرها فى فيما سبق ) . وبالرغم من ذلك ، فإن فى الشمالية استمرت تتمتع بدرجة كبيرة من الاستقلال تحت حكم فرع ثانوى من أمراء أسرة

---

(١) يقوم هذا الوصف لمجرة فى على التصوير الآتى للحوادث : احتفظ باسم قبيلة ووتشونج ( Wu-Chung ) من أيام دولة هان إلى أيام دولة سوى ( Sui ) فى الاسم الحديث تشى تشو ( Chi-Chou ) فى مقاطعة هووى . ولكن من جهة أخرى تسمى تشون تشيو وأيضاً تسو تشوان ( فى الآداب القديمة الصينية الجزء الخامس ، ص ٥٦٨ ، ٥٧٢ بالتوالى ) أخبار المغزعة الكبرى لقبيلة ووتشونج ، بحوار تاي يوان الحالية ، بقوة النفس ( Chin ) فى سنة ٤١١ ق . م . ولا يقل أن تكون هذه القبيلة قد سكنت من أول أمرها فى مكانين يبعد أحدهما عن الآخر تلك المسافة البعيدة ، ويفصلهما عدد من القبائل الأخرى ، فضلاً عن الدولة الصينية بن Yen ، وبذكر الشارح الصينى تفسيراً لذلك بأن يقول بأن ووتشونج هم شانجوجينج أو برابرة الجبال . وهؤلاء غزوا دولة ين فى السهل العظيم ، ولهذا يجب علينا أن نفرض أن فى ؟ وهى قادمة من الشمال الغربى ، أغارت على حوض تايوان حيث كانت تستقر جماعة ووتشونج . وقد هرب قسم من تلك القبيلة أمام المتبرين متجهاً جهة الشرق ، وغزا بدوره ين سنة ٦٦٤ ق . م . وعلى أثر ذلك حلوا رحلهم فى إقليم احتلته فيما بعد ووتشونج فى الإقليم الذى يعرف الآن باسم تشى تشو ( Chi-Chou ) وقد بقى قسم من القبيلة فى تاي يوان — وهؤلاء هم الـ ووتشونج الذين ورد اسمهم فى سنة ٥٤١ ق . م .



وي ، ولم يتم القضاء نهائياً على دولتهم إلا في سنة ٢٩٦ ق . م . وقد قامت بذلك دولة تشاو Chao بمساعدة دولتي ين yen وتشى Chi . وبذلك فإن الصينيين لم يستطيعوا إزالة جميع آثار التزو الذي وصفناه فيما سبق إزالة تامة إلا بعد ٣٦٦ سنة . ومن الواضح أن الصين أيضاً تأثرت بدرجة شديدة بالعواصف التي انطلقت فوق منطقة للراعى ، كما تأثر القسم الغربي من قارة أوراسيا .

وإذا حللنا للمعلومات القليلة التي احتفظت بها المصادر بشأن حركات هذه القبائل المتبررة المختلفة ، بالقدر الذي حاولنا أن نضم شتاته بضه إلى بعض فيما سبق ، فإننا لن نتصور أن هذه العمليات احتفظت بخصائص واحدة في كل مكان ، بل على عكس ذلك ، يبدو أن تلك المجموعات المتبررة الثلاث التي قمص أخبارها هذه المصادر التي نتمد عليها ، وهى : هين - يون ، وي جونغ ( أو البرابرة الشماليون ) وقى . هذه المجموعات الثلاث تمثل مراحل مختلفة لعملية واحدة . وهذه العملية هى قيام جماعات من الرعاة الرحل ، ورد الفعل من السكان المستقرين الذين يحيطون بهم إزاء هذا الوضع الجديد ، وذلك بطريق القياس على الشواهد التي نأخذها من المصادر الأثرية في أقاليم أخرى من القسمين الشرقى والغربى من قارة أوراسيا . والمرحلة المبدئية في هذه الحركات تتكون من رحلات على مجال واسع تقوم بها جماعات مسلحة من طبقة ناهضة من المحاربين على ظهور الخيل . ومنهم تتكون طبقة الفرسان المقاتلين بين جموع الرعاة المتقلين . ومن أمثالهم للسكوديون الذين كانوا يقومون من منطقة البحر الأسود ويغرون على أوروبا وعلى آسيا . أما في المسرح الصينى فهذه الغارات لها ما يطابقها من غارات الهسيون يون على ممتلكات التشو . وتأتى بعد ذلك مرحلة يفر فيها السكان الزراعون والوعاة في المناطق المحيطة عن هم أضف سلاحاً . وهذه المرحلة هى التي كشف اللثام عنها علماء الآثار من السوفيت ، في منطقة بلشاريا رخكا . وفي هذا ترى شها في غارات عصابات من المقاتلين المشاة من بي جونغ ، وهم يغيرون على الدول الصينية المجاورة .

وأما المرحلة الثالثة ففيها يتحول السكان المزارعون السالمون إلى مجتمع حربي مثلهم مثل الجماعات التي نجد لها مستندات في ثقافة انانينو (Ananino) في روسيا وكما يتحول المزارعون السالمون في منطقة مينو سنسك إلى محاربين . ولا شك أن هذا التحول قد لازمته تفرقة اجتماعية حادة ، بسبب تحلل المجتمعات الزراعية البدائية ، وتكوين عشائر أرستقراطية محاربة . ونتيجة لذلك يحدث تطوران : فمن جهة يتكون نظام اجتماعي أشد تماسكا من ذي قبل ، وهذا هو مبدأ قيام الدولة . ففي الوقت الذي كانت فيه في تندفع شرقا ، ظهر بين الذين تغلفوا من في الغرب ، أي في في الترية « أمير من في »<sup>(١)</sup> وهذا الأمير بطبيعة الحال حكم منطقة في القديمة كلها<sup>(٢)</sup>، ولكن يحدث من جهة أخرى أن العشائر المقاتلة من في تمارض السلطان الجديد . وعندئذ نسمع بقتال بين في الترية ، وبين القبائل التي تقوم بغزوات مسلحة في الشرق . وفي الوقت نفسه أخضعت العشائر المسلحة بقية السكان إلى سلطانهم . وهناك عامل مساعد في تدمير قوة في في شان هسي ، وهو التنازع بين العشائر المقاتلة الحاكمة وبين التشنج في وهم عامة الناس<sup>(٣)</sup> والظاهر أن هذه العشائر التي نشأت

---

(١) تسو تشوان — السنة الرابعة والصفرون حكم الملك هسي (Hsi) في الآداب القديمة الصينية ، تأليف ليچ . س ١٨٨ ، والعصر القصود هو بسد ٦٥٥ ق . م بقليل وذكرون مرة ثانية أمير في في سنة ٦٢٧ ق . م (س ٢٢٣ من الكتاب المذكور) وذلك عندما وقع أمير في في الأسر (Tifzu) .

(٢) نستطيع أن نستنتج ذلك من إشارة وردت في « تسو تشوان » إلى الأمير تشونج لره « Ch'ung-erh » وهو يصطاد مع أمير من في على شواطئ نهر وري (Wei) في جنوب شن هسي [تسو تشوان ليچ — الآداب القديمة الصينية فصل ٥ س ٨٨] وإشارة أخرى إلى هجوم الأمير على تشيانج كاو — جو وهي قبيلة من قبائل في كانت في مكات قريب من ناي يوان الحالي (س ١٨٤ من المرجع المذكور) .

(٣) تسو تشوان — السنة الحادية عشرة من حكم سوان (Suan) كتاب ليچ (الآداب القديمة الصينية فصل ٥ س ٣٠٩) يقص أن « جميع في (أو بالأحرى جموع حسب في) كانوا يكرهون خمس (ي في) التي كان عليهم أن يؤدوها إلى في الحمراء . ولهذا فقد استسلموا إلى التشنج » .

أثناء قتالها مع الرعاة الرحل ، قد استغلت من جهة قدرتها الحربية ضد أبناء قبيلتها أنفسهم ، ومن جهة أخرى اتخذت أساليب الرعاة المتقلين ، وشرعت تقوم بغارات للسلب والنهب لحسابها الخاص . ومن هذا فإن غارات تي في الشرق ، فضلاً عن كونها تدل على انسحابهم من مواطن أصحوا عاجزين عن التمسك بها ، بسبب هجمات الرعاة المتقلين من جيرانهم ، يمكن اعتبارها أيضاً مجتاً عن قواعد جديدة ينفرون منها للسلب والنهب . وفي النهاية تكون سبيلاً للحصول على أراض جديدة يخضعون سكانها لسلطانهم ويستغلونهم على الدوام . وبطبيعة الحال كان هناك دافع جديد للهجرة عند تي ( Ti ) وهو الضغط المتزايد عليهم من دولة تشن ( Chin ) ، وهي دولة قامت في ذلك الوقت بإخضاع جماعات تي ، التي استقرت على الجانب الأيسر أو الشرقي للهر القمير الأصفر . وفي رأينا هذه المعجرات تبدو عملية تاريخية معقدة تشير فيها قوة الدفع الابتدائية مجموعة كاملة من ردود الأفعال المعقدة المختلفة الأنواع .

ومن الضروري أن نتذكر في حقيقة بارزة أخرى . إننا لا نسمع بعد انتهاء غارات هسين يون عن غارات أخرى ، على مستوى مماثل لها ، في الأراضي الصينية فيما عدا غارات تي ، وهؤلاء من الواضح أنهم لم يكونوا من الفرسان الذين يركبون الخيل<sup>(١)</sup> ، ولو أنه لا يمكن أن تنفي تماماً أنهم استعملوا الخيل لزيادة تحركاتهم . والسبب الأساسي هو بلا شك عدم وجود للمعلومات الكافية . لقد كان يفصل الصينيين عن مناطق الرعاة الرحل كتلة من التبريرين الآخرين ، ويحتمل أن

---

(١) على أكثر الاحتمالات ، كانت تي تنتمي إلى السكان الزراعيين . وفيما بعد ظاهراً يعرفون الصيد والرعي . وهذه الجماعات تجتمع في كل مكان شمال للناطق التي تعيش فيها قبائل مستقرة . وهذه القبائل هي التي أصبحت فيما بعد أسلاف الأمة الصينية . ويحتمل أنهم من الناحية اللغوية ، لم يكونوا يختلفون اختلافاً كبيراً عن القاعدة العامة وهي المجموعة الصينية التبتية ( Sino-Tibetan ) .

النازعات الرئيسية وقعت في أرض أولئك للتبريرين . ولكني أظن أن هناك مظهراً آخر لهذا الأمر ، وذلك أن الرحلات للسلمة للرعاة الرحالة ، على مدى واسع ، مثل رحلات السكوديين ، كانت أمراً عادياً في المرحلة الأولى ، عند ما كان مجتمع الرعاة الرحل لا يزال في دور التكوين .

وفي ذلك الوقت كان من الضروري إشباع رغبات أولئك الذين يريدون مزيداً من الثروة من القطعان والممتلكات الأخرى ، وعند ذلك فضل الملاك الذين حصلوا على أكثر مما يكفهم من القطعان المائة ، الحياة الهادئة ، التي لا يتعرضوا أحياناً إلا للخدمة في البلاط عند الدول القوية المجاورة . ويحتمل أن هذا العمل كان شيئاً عادياً عند السكوديين في منطقة الطاي (Altai) . وكذلك يحتمل أن الرعاة الرحل في شمال الصين ، على أثر عصر من التوسع قائم على الغزو ، قنعوا بحياة أكثر هدوءاً بين السكان المزارعين الذين يحيطون بهم ، وتشهد بهذه الحياة قطع البرونز العديدة من منطقة أوردوس (Ordos) التي ذكرناها فيما سبق<sup>(١)</sup> .

١٤٦

---

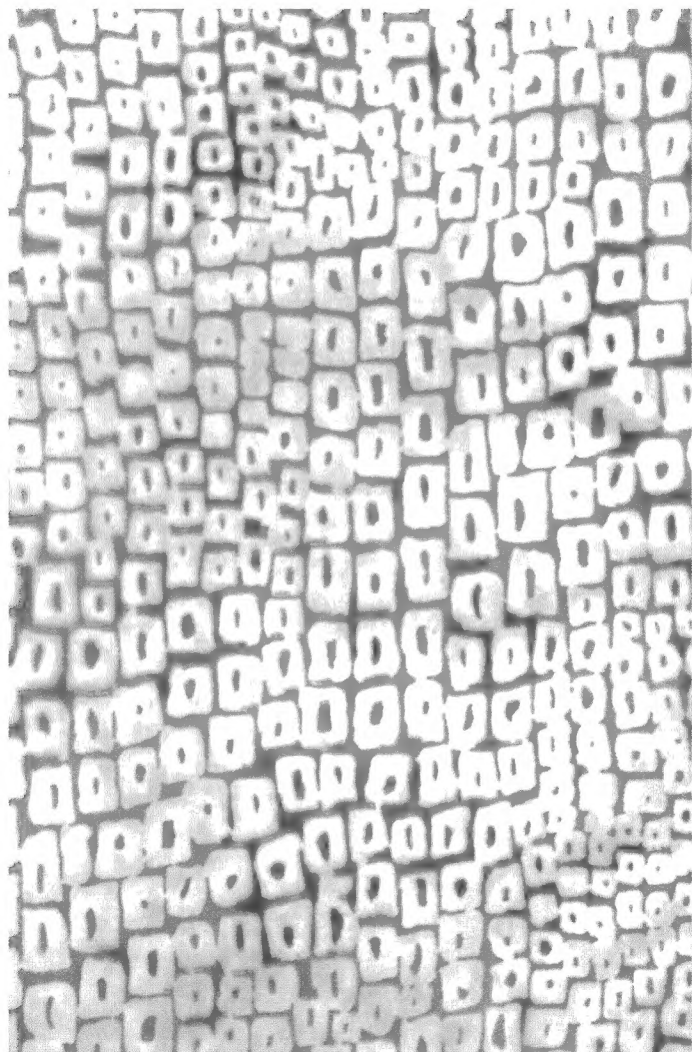
(١) تنقل هنا عن دائرة المعارف البريطانية تحت عنوان ( Archaeology )  
إن ثقافة تاجار امتدت في أعلى نهر ينيس بين ٧٠٠ ، ١٠٠ ق . م وإن الثقافة الماعيرية كانت معاصرة لها في منطقة الطاي .

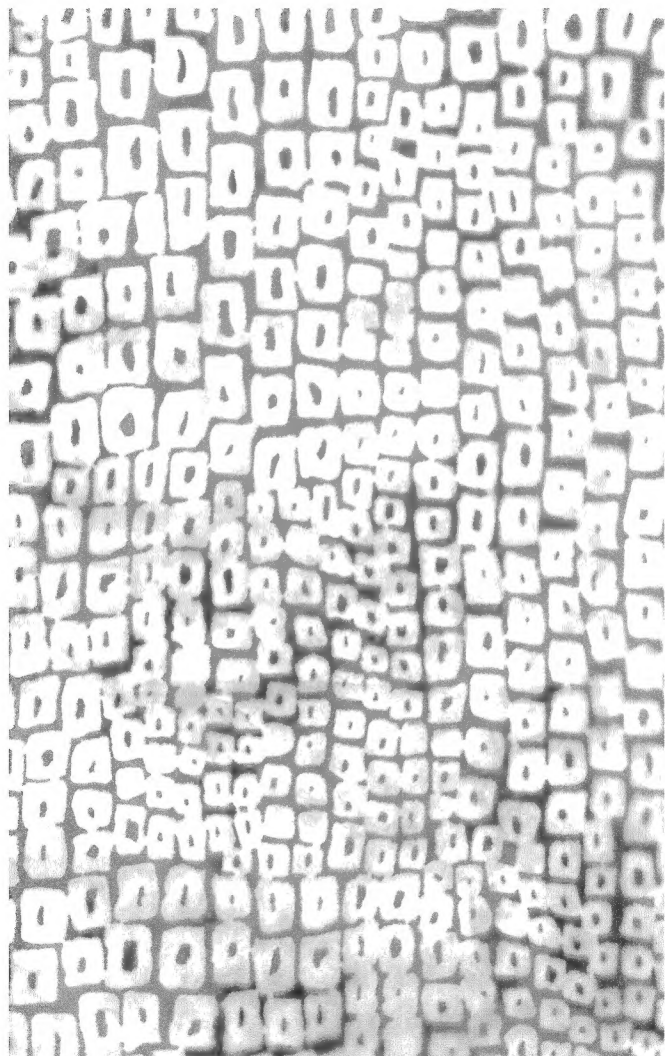
وأما ثقافة كاراسوك فهي أقدم منها عهداً ( بين ١٢٠٠ ، ١٠٠٠ ق . م ) وذلك في منطقتي الطاي وأمال نهر ينيس .

وترجع ثقافة أندرونوفو إلى حوالي ١٥٠٠ ق . م وتنتد من بحر آرال إلى أعلى نهر ينيس - وأما ثقافة أفانازيفو ( Afanasievo ) فترجع إلى عهد ألدم ( بين ٢٠٠٠ ، ١٧٠٠ ق . م ) وتشمل المنطقة نفسها .  
( للترجم )

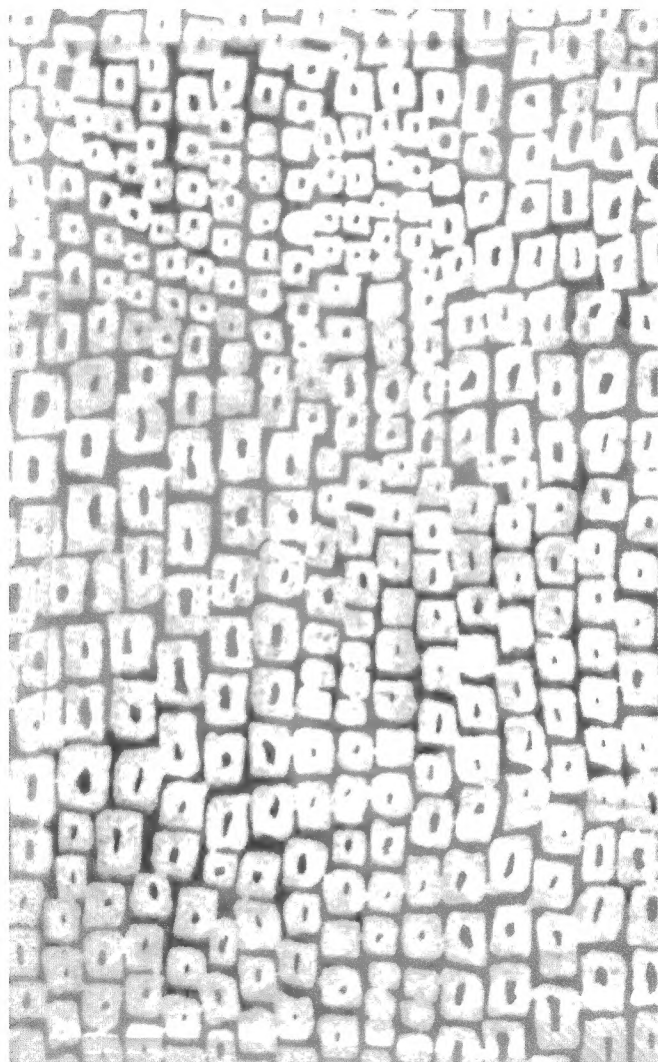






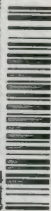








Bibliotheca Alexandrina



0536980